جميع ما تكلم به الأنبياء

بماذا تكلَّم الأنبياء؟
هل تعرف؟ هل يهمك أن تعرف؟

چون كروس

Originally Published in Canada under the title:
«All That The Prophets Have Spoken»
J. R. Cross
by GoodSeed® International 2001 © Copyright
Canada
ISBN 978-1-890082-55-0
GS PRINT CODE: 200809-086-5000

جميع ما تكلَّم به الأنبياء

حقوق الطبع محفوظة ٢٠٠٧

ترجمة: **رمزي عبّاد**
إدارة مشروع وتحرير: **سامر إبراهيم**
مراجعة مجموعة من المؤمنين.

للاتصال بالمحررين athnsios@yahoo.com
للحصول على نسخة إلكترونية اذهب إلى www.thegrace.com

تَمَّ استخدام ترجمة «**فاندايك**» العربيَّة في هذا الكتاب بصورة عامَّة.
وفي حال استخدام ترجمات عربيَّة أخرى مثل
«**الترجمة التفسيرية**» أو «**الترجمة العربيَّة المُشتركة**»،
فقد تمَّت الإشارة إلى ذلك بعد الشواهد الكتابيَّة مُباشرةً.

من أجل إيضاح عبارة غامضة في آية من آيات الكتاب المقدس
فقد وضعنا مداخلتنا التوضيحية التي ليست جزءاً من الآية بين هذين القوسين [ ].

علامة النقاط الثلاث ... هي إشارة إلى أننا نقتبس أجزاء من الآية وليس الآية كلها.

استخدمنا البنط الغامق للإشارة إلى الكلمات والعبارات التي نريد منك أن تلتفت إليها.

... ثُمَّ ابْتَدَأَ مِنْ مُوسَى وَمِنْ جَمِيعِ الأَنْبِيَاءِ
يُفَسِّرُ لَهُمَا الأُمُورَ الْمُخْتَصَّةَ بِهِ
فِي جَمِيعِ الْكُتُبِ ...

المحتويات

i المقدِّمـــة

٥ الفصل الأوَّل
١ . تمهيـد ٦
٢ . وضع النقاط على الحُروف ٧
٣ . كتابٌ فَريدٌ من نوعه ٩

١٥ الفصل الثاني
١ . في البدء خَلَقَ الله ١٦
٢ . الملائكة، والجنود، والكواكب ٢١

٢٥ الفصل الثالث
١ . السَّماء والأرض ٢٦
٢ . ورأى الله ذلك أنه حسن ٣١
٣ . الرَّجُل والمرأة ٣٦

٤١ الفصل الرابع
١ . الشيطان ٤٢
٢ . أحقًّا قال الله؟ ٤٥
٣ . أين أنت؟ ٥٠
٤ . الموت ٥٣

٥٩ الفصل الخامس
١. تناقُض ظاهري ٦٠
٢. الكفَّارة ٦٤
٣. النبيّ أخنوخ ٧٣
٤. النبيّ نوح ٧٣
٥. بابل ٧٩

٨٣ الفصل السَّادس
١ . النبيُّ أيُّوب ٨٤
٢ . النبيُّ إبراهيم ٨٥
٣ . الإيمان الحقيقي ٨٧
٤ . هاجر وإسماعيل ٨٩
٥ . إسماعيل وإسحاق ٩٠
٦ . الربُّ يُدَبِّر ٩٢

٩٧ الفصل السَّابع
١ . يعقوب ويهوذا ٩٨
٢ . النبيّ موسى ٩٩
٣ . فرعون والفصح ١٠١

١٠٧ الفصل الثامن
١ . المَنّ، والسَّلوى، والماء ١٠٨
٢ . الوصايا العشر ١١٠
٣ . المحكمة ١١٦

١٢٣ الفصل التاسع
١ . خَيمة الاجتماع ١٢٤
٢ . عدم الإيمان ١٣٣
٣ . قُضاة، وملوك، وأنبياء ١٣٦

١٤٥ الفصل العاشر
١ . الملاك جبرائيل ١٤٦
٢ . المسيح ١٥٢
٣ . بين المعلمين ١٥٩
٤ . النبي يوحنَّا المَعمدان ١٦٠

١٦٧ الفصل الحادي عشر
١ . التجربة ١٦٨
٢ . السلطة والمجد ١٧٠
٣ . نيقوديموس ١٧٢
٤ . الرَّفض ١٧٥
٥ . خُبز الحياة ١٧٨

١٨١ الفصل الثاني عشر
١ . كثوب قذر! ١٨٢
٢ . الطَّريق ١٨٥
٣ . المُخطط السَّماوي ١٨٧
٤ . لعازَر ١٨٨
٥ . الجَحيم ١٩١
٦ . القبول والخيانة ١٩٣

١٩٧ الفصل الثالث عشر
١ . بُستان جَثسيماني ١٩٨
٢ . موضع الجُمجُمة (الجُلجُثة) ٢٠٠
٣ . القبر الفارغ ٢١٠

٢١٧ الفصل الرابع عشر
١ . الغَريب ٢١٨
٢ . الناموس والأنبياء ٢٢٠
– من آدم إلى نوح –
٣ . الناموس والأنبياء ٢٢٥
– من إبراهيم إلى الوصايا العشر –
٤ . الناموس والأنبياء ٢٣١
– من خيمة الاجتماع إلى الحيَّة النُحاسيَّة –
٥ . الناموس والأنبياء ٢٣٧
– من يوحنَّا المعمدان إلى القيامة –

٢٤٣ الفصل الخامس عشر
١ . جَميع ما تكلَّم به الأنبياء ٢٤٤
٢ . يسوع يعود إلى السَّماء ٢٤٤
٣ . هل تؤمن بجميع ما تكلم به الأنبياء؟ ٢٤٥

٢٤٩ مُلحق
مُعجم المُفردات ٢٥٠

المقدِّمـــة

نحن نعيش في عالم يضم العديد من الأنظمة العقائديَّة. وسواء كانت هذه الأنظمة تُدعى ديانات، أو مُعتقدات، أو بِدَع، أو هرطقات، أو مُمارسات غريبة، فإنَّ الشيء المُؤكَّد هو أنه لا يُمكن تجاهُل ما يؤمن به الناس. فالتاريخ مليء بالحروب والصراعات الدينية. في الماضي، كانت هذه الحروب تدور على المستوى المحلي. لكن مع ظهور العَولمة وتحوُّل العالم إلى قَرية عالميَّة في وقتنا الحاضر، أصبح الناس من مُختلف الديانات والمُعتقدات قريبين جدًّا بعضهم من بعض مِمَّا زاد من فُرصة حدوث صراعات هائلة فيما بينهم.

وهكذا، يجب علينا أن نعرف ما هي مُعتقدات جيراننا ولماذا يؤمنون بها. ورغم أننا قد لا نتَّفق معهم في هذه المُعتقدات، إلاَّ أنَّ معرفتنا بمعتقدات من هم حَولنا يُمكن أن تُساعدنا – على أقل تقدير – على الاختلاف معهم بطريقة واعية بعيداً عن كل حِدَّة أو تَعَصُّب. وحينما يشعُر جيراننا أننا نفهمهم فسوف يقل شعورهم بالتهديد والخطر.

يتحدَّث هذا الكتاب الذي يحمل العنوان «جميع ما تكلَّم به الأنبياء» عن الكتاب الأوسع انتشاراً وتوزيعاً في تاريخ البشريَّة ألا وهو الكتاب المقدَّس. فإذا كُنت أحد هؤلاء الأشخاص الراغبين حقًّا في فهم المحور الذي يدور حوله العهد القديم والعهد الجديد، فأنت تُمسك بالكتاب المُناسب.

لقد حاولت أن أجعل هذا الكتاب موضوعيًّاً قدر الإمكان، ولا أُنكر أنَّ هذا ليس بالأمر السهل على الإطلاق. فالكتابات النبويَّة بطبيعتها تدفعنا للتجاوب معها بطريقة أو بأخرى. رغم ذلك، فقد عملت على تفسير الأسفار المُقدَّسة بوضوح تاركاً لها المجال في أن تُعبِّر عن نفسها بنفسها، وفي أن تقول ما تُريد قوله. وبذلك، فقد أفسحتُ لك المجال أنت أيضاً لكي تستنتج الحقائق بنفسك. فما تؤمن به بشأن الكتاب المقدَّس هو أمر يرجع لك أنت وحدك.

قد يتَّهمني البعض بعدم الموضوعيَّة لأني أتحدَّث عن الكتاب المقدَّس باعتباره حقيقة واقعة. ولا يُمكنني أن أُنكر ذلك لأنَّ الكتاب المقدَّس يتحدَّث عن نفسه بهذه الطريقة. وبالتالي، إن فعلت خلاف ذلك فلن أكون أميناً للنَصّ. وأثناء كتابتي، حاولت جاهداً أن لا أُقلِّل من قيمة رسالة الأنبياء لأنَّ الأسفار المُقدَّسة واضحة ومُباشرة في ما تقوله. لهذا، فقد حرصت كُلَّ الحرص على إظهار هذه الحقيقة عن طريق تجنُّب أي نوعٍ من الغموض.

لذلك، إذا كُنت أحد هؤلاء الأشخاص الذين يرغبون في فهم رسالة الأنبياء كما كُتبت منذ قرون عديدة، فتعال واقرأ «جميع ما تكلَّم به الأنبياء». فقد تدهشك رسالتهم!

تقول كلمة اللّٰه:

«تَعَالَ!» وَمَنْ يَسْمَعْ فَلْيَقُلْ: «تَعَالَ!». وَمَنْ يَعْطَشْ فَلْيَأْتِ. وَمَنْ يُرِدْ فَلْيَأْخُذْ مَاءَ حَيَاةٍ مَجَّانًا.
لأَنِّي أَشْهَدُ لِكُلِّ مَنْ يَسْمَعُ أَقْوَالَ نُبُوَّةِ هذَا الْكِتَابِ: إِنْ كَانَ أَحَدٌ يَزِيدُ عَلَى هذَا، يَزِيدُ اللّٰهُ عَلَيْهِ الضَّرَبَاتِ الْمَكْتُوبَةَ فِي هذَا الْكِتَابِ.
وَإِنْ كَانَ أَحَدٌ يَحْذِفُ مِنْ أَقْوَالِ كِتَابِ هذِهِ النُّبُوَّةِ، يَحْذِفُ اللّٰهُ نَصِيبَهُ مِنْ سِفْرِ الْحَيَاةِ، وَمِنَ الْمَدِينَةِ الْمُقَدَّسَةِ، وَمِنَ الْمَكْتُوبِ فِي هذَا الْكِتَابِ.

سفر الرؤيا ٢٢: ١٧-١٩

الفصل الأوَّل

١. تمهيد.
٢. وضع النقاط على الحروف!
٣. كتابٌ فريدٌ من نوعه!

١ . تمهيـــــد

الزمان: نحو سنة ٣٣ للميلاد.

كان الحَرُّ شديداً في منتصف ذلك النهار والصمت مُخيِّماً على المكان. فحتَّى العصافير كانت عاجزةً عن التغريد بسبب أشعة الشمس الحارقة.

كان "كليوباس» يركل قطع الطين الجافة بقدميه أثناء سيره هو ورفيقه على ذلك الطريق التُرابي الممتد من أورشليم إلى قرية مجاورة اسمها "عمواس». وكان يتنفس بعمق ويلهث من شِدَّة تعبه فيما هو يحسب المسافة المتبقية للوصول إلى بيته. كما أنه كان ينظر أمامه بعينين شبه مُغمضتين بسبب وَهج الشمس. وفي ضوء المسافة الطويلة المُتبقية، كان من المؤكد أنه لن يصل هو ورفيقه إلى قريتهما قبل غروب الشمس!

في الزيارات السابقة لأورشليم، كان كليوباس ورفيقه يرجعان إلى قريتهما في وقت مُبكِّر بعض الشيء لأنَّ عمواس كانت تبعد مسافةً طويلة نسبياً عن أورشليم سيراً على الأقدام (نحو ١١ كيلومتراً). لكنَّ الأحداث المُتلاحقة والمُثيرة التي وقعت في أورشليم في ذلك الصباح هي التي أعاقتهما بعض الشيء وجعلتهما ينتظران بضع ساعاتٍ أخرى على أمل معرفة المزيد من الأخبار عن حقيقة ما جرى في ذلك اليوم!

كان كليوباس يسير وهو شارد الذهن إلى أن قام رفيقه بتنبيهه قائلاً: «أين أوصلتك أفكارك يا صديقي؟ إنك لا تُصغي إليَّ! لقد طرحت عليك السؤال نفسه أكثر من مَرَّة دون أن تُجبني عنه!» وعندها راح كليوباس ورفيقه يتحاوران بشأن أحداث ذلك اليوم ويحاولان ربط تلك الأحداث بما حدث في السنوات القليلة الماضية؛ لكنهما أدركا في نهاية المطاف أنهما لن يتمكَّنا من فهم ما يجري. ورغم أنَّ كليوباس كان مُتعَباً ومُرهقاً، إلاَّ أنَّ حيرته الشديدة بسبب الأحداث التي وقعت في أورشليم في ذلك اليوم كانت هي هَمَّه الأكبر. فقد بدا له أنَّ الأسئلة التي تُثيرها الحياة هي أكثر من الإجابات التي تُقدِّمها!

وفيما هُما يسيران في طريقٍ منحدرٍ ومُتعرج، ظهر لهما فجأةً رجل غريب وراح يتحدث إليهما. بعد بضع ساعات وقف كلاهما وهما يتصبَّبان عرقاً أمام رفاقهما في أورشليم (التي رجعا إليها مسرعين) دون أن يتمكنا من تقديم تفسيرٍ مُقنعٍ عن ذلك الغريب الذي التقيا به! ففي بادئ الأمر، ظَنَّ كليوباس أن ذلك الغريب خرج من وراء صخرة كبيرة؛ لكن يبدو أنَّ رفيقه كان لديه رأي آخر! وحيث أنه لم يكن لدى كليوباس أي تفسيرٍ منطقيٍّ لظهور ذلك الرجل، فقد اكتفى بالقول: «كل ما أعرفه هو أن ذلك الغريب ظهر فجأةً وراح يسير معنا ويُكلِّمنا!» وعندها، ظنَّ الأشخاص الذين في أورشليم أن كليوباس ورفيقة قد أصيبا بحالة من الهَذيان بسبب الحرِّ الشديد! لكنَّ الأمر الذي كان كليوباس ورفيقه مُتأكدين منه هو أنَّ ذلك الغريب كَلَّمهما بكل ما جاء في الكتب القديمة المعروفة بالأسفار المُقدّسة:

«... ثُمَّ ابْتَدَأَ مِنْ مُوسَى وَمِنْ جَمِيعِ الأَنْبِيَاءِ يُفَسِّرُ لَهُمَا الأُمُورَ الْمُخْتَصَّةَ بِهِ فِي جَمِيعِ الْكُتُبِ»

(لوقا ٢٤: ٢٧)

كان تفسير ذلك الرجل الغريب للأسفار المقدسة مُقنعاً جداً لكليوباس ورفيقه؛ لكنَّ الغريب لم يكتفِ بتفسير الأسفار المقدسة لهما فحسب، بل قام بتوبيخهما أيضاً:

فَقَالَ لَهُمَا: «أَيُّهَا الْغَبِيَّانِ وَالْبَطِيئَا الْقُلُوبِ فِي الإِيمَانِ بِجَمِيعِ مَا تَكَلَّمَ بِهِ الأَنْبِيَاءُ!» (لوقا ٢٤: ٢٥)

ورغم أنهما كانا بطيئا الإيمان في بادئ الأمر فيما يتعلق بالأمور التي تكلَّم بها الأنبياء، إلاَّ أنَّ كل جهلٍ وشكٍّ لديهما قد تلاشى من عقليهما حينما قام ذلك الغريب بشرح رسالة الأنبياء لهما! وهكذا، فقد شعرا بحماسٍ شديد بسبب فهمهما الجديد لرسالة الأنبياء ممَّا دفعهما إلى العودة سريعاً إلى أورشليم لكي يُخبرا رفاقهما عن ذلك الغريب وما قالهُ لهما. فقد أدركا أنه ينبغي على الجميع أن يسمعوا تلك الرسالة التي سمعاها من ذلك الغريب في طريقهما الى عمواس.

والآن، هل تعلم، عزيزي القارئ، ما هو هذا الشيء المُقنع إلى هذا الحَدِّ الذي قاله ذلك الغريب عن الأسفار المقدسة؟ هذا هو السؤال الذي يُجيب عنه هذا الكتاب الذي بين يديك! ولكي تفهمه بكل وضوح، سوف نفعل الشيء نفسه الذي فعله ذلك الغريب؛ أي أننا سنرجع إلى بداية الأسفار المقدسة لإلقاء نظرةٍ فاحصةٍ على «**جميع ما تكلَّم به الأنبياء!**».

٢ . وضع النقاط على الحُروف

حينما تتوقف قليلاً وتُفكِّر في الأمر للحظات، سوف تُدرك أنَّه من المعقول جداً أن تُخصِّص بضع ساعاتٍ من حياتك لفهم ما تقوله كلمة الله. ففي نهاية المطاف، فإنَّ الكتاب المقدَّس يقول بعض الأشياء العميقة عن الحياة ... وعن الموت أيضاً!

كان الكتاب المقدَّس (الذي يحتوي أسفار الأنبياء المقدسة) وما زال هو أكثر الكُتب مَبيعاً في العالم أجمع. كما أنه أكثر كتابٍ تمَّت قراءته، وأكثر كتابٍ تمَّت ترجمته، وأكثر كتابٍ تمَّت طباعته على مَرِّ العُصور. لذلك، يجب على أي شخصٍ يدعي المعرفة أن يفهم الأفكار الرئيسية الموجودة فيه.

أُحجية

يُمكن تشبيه فهم رسالة الكتاب المقدَّس ببناء منزلٍ، أو حَلِّ أُحجيةٍ ما! فلكي نتمكَّن من تفسير كلمة الله تفسيراً صحيحاً، يجب علينا أن نضع جميع الأجزاء معاً بالطريقة الصحيحة. ولكي نتحقَّق من قيامنا بذلك كما ينبغي، سوف نقوم بتطبيق أربعة مبادئ عامَّة تُستخدم كل يوم في جميع بيئات التعلُّم سواء في المدارس أو الجامعات أو غيرها:

المبدأ الأوَّل: مبدأ السَّرد القصصي:

حينما تقرأ قصَّةً ما فإنك لا تبدأ بالفصل العاشر، ثُمَّ تقفز إلى الفصل السادس، ثُمَّ تنتقل إلى الفصل الثاني، وتَختم قراءتك بالفص التاسع! فمن المؤكد أننا لا نستطيع أن نقرأ أي كتاب بهذه الطريقة العشوائيَّة. فلكي تفهم أيَّ قصة، يجب عليك أن تبدأ من البداية، وأن تتدرَّج فيها بالترتيب إلى أن تصل إلى نهايتها. ورغم أنَّ هذا الأمر قد يبدو بديهياً وواضحاً، إلاَّ أنَّ الكثيرين يتعاملون مع الكتاب المقدَّس بطريقة عشوائية حيث يقرؤون بضع آياتٍ من هُنا، وبضع أجزاءٍ من هناك دون ترتيبٍ أو نظام!

وحيث أنَّ الكتاب المقدَّس يحتوي على الكثير من القصص، فسوف نتجنَّب التشويش الناشئ عن القراءة العشوائية وذلك عن طريق تغطية أحداثه الرئيسية وفقاً لتسلسُلها الزمني. فسوف نربط هذه الأحداث معاً بطريقة منطقية مُتتابعة تُشبه تعليق الملابس على حَبل الغسيل. وحيث أنَّ هذه النظرة العامَّة لن تكون شاملةً، فيجب أن تتوقع وجود بعض الثغرات في بعض الأماكن. وإن رغبت في تعبئة هذه الفراغات، فيمكنك القيام بذلك لاحقاً بعد أن تفهم الصورة الإجمالية العامَّة. ورغم أننا لا نستطيع أن نسرد جميع القصص المذكورة في الكتاب المقدَّس، إلاَّ أنَّ الأحداث التي سنتناولها في هذا الكتاب ستكون على شكل رسالة واحدة مُتصلة.

المبدأ الثاني: مبدأ الحساب

كما نعلم جميعنا، فنحن لا نبدأ بتعليم أبنائنا الصغار مبادئ الجبر والهندسة؛ بل نبدأ بتعليمهم مبادئ الحساب الرئيسية، ثم ننتقل معهم بصورة تدريجية من السهل إلى الصعب. أمَّا إذا أهملنا المبادئ الأساسية فسوف يكون من الصعب عليهم أن يفهموا المسائل الحسابية الأكثر تعقيداً.

وما ينطبق على الحساب ينطبق أيضاً على الأسفار المقدَّسة. فإن لم تفهم المبادئ الأساسية، فسوف يكون من الصعب عليك أن تفهم رسالة الكتاب المقدَّس بصورة صحيحة وواضحة.

ويُمكن تشبيه هذا المبدأ أيضاً ببناء منزل. فلا يُمكن للبنَّائين أن يبدؤوا ببناء السقف أولاً. فعملية البناء السليمة تبدأ بوضع الأساسات، ثم رفع الجُدران، وأخيراً تأتي مرحلة بناء السقف.

وفي هذا الكتاب، سوف نضع الأساسات أولاً لكل حَقٍّ نُريد أن نتعلَّمه. وكُلَّما انتهينا من فصلٍ وبدأنا بفصلٍ جديد، فسوف نعتمد على المبادئ والأُسس التي تعلَّمناها سابقاً.

المبدأ الثالث: مبدأ الوضوح

ينطوي هذا المبدأ على جانبين: الأوَّل يتعلَّق بتعريف المفردات الصعبة. فعلى سبيل المثال، في بعض الأحيان، يستخدم الكتاب المقدَّس كلمات ليست مألوفة لنا ولا نستخدمها في أحاديثنا اليومية. فما الذي تعنيه هذه الكلمات؟ إنَّ مبدأ الوضوح يُطالبنا بأن نبحث عن معاني هذه الكلمات من خلال الكتاب المقدَّس نفسه وفقاً لطريقة استخدامه لها.

أمَّا الجانب الثاني الذي ينطوي عليه هذا المبدأ فهو يتعلَّق بالجُمهور؛ أي الأشخاص الذين تَمَّ توجيه تلك الكلمات والعبارات إليهم. فعلى سبيل المثال، هناك أجزاء كثيرة من الكتاب المقدَّس مُوجَّهة للأشخاص الذين يؤمنون بالكتاب المقدَّس. وبالمقابل، هناك أجزاء أخرى مُوجَّهة للأشخاص الذين لا يعترفون به. لهذا، سوف يكون الأمر مُربكاً ومُحيِّراً جداً إذا قمت – عن غير قصد – بأخذ بعض الأفكار والمبادئ الخاصة بالمؤمنين التي يذكرها الكتاب وحاولت أن تُطبِّقها على غير المؤمنين. لهذا، فإنَّ مبدأ الوضوح يُطالبنا بعدم الخَلْط بين المواضيع!

المبدأ الرابع: مبدأ الأهَمّ فالمُهِمّ

يقول المبدأ الرابع إنه حينما تبدأ موضوعاً جديداً، فيجب عليك أولاً أن تتعلَّم أهَمَّ المعلومات التي يشتمل عليها. لذلك، لا تسمح لذهنك بأن يتشتَّت بسبب المواضيع الجانبية أو الثانوية.

إنَّ الكتاب المقدَّس يُغطِّي مجموعة هائلة من الموضوعات؛ لكن ليست كل الموضوعات متساوية في الأهمية. لذلك، سوف نُركِّز في هذا الكتاب على موضوع واحد فقط – أهَمُّ موضوع في الكتاب المقدَّس بأكمله. وحالما تفهم هذه الموضوع، سوف تفهم الكتاب المقدَّس بطريقة بسيطة وعميقة في آنٍ واحدٍ!

٣. كتابٌ فَريدٌ من نوعه

من المؤكَّد أنَّ الكتاب المقدَّس هو كتابٌ فريدٌ من نوعه! وفي الواقع أنَّ الكتاب المقدَّس هو مجموعة من الكُتب؛ فهو يحتوي على ستَّة وستِّين كتاباً (أو سِفراً) تُشَكِّل كتاباً كبيراً واحداً يُسَمَّى «الكتاب المُقدَّس». وقد قَدَّم أَحدُ الكُتَّاب الوصف التالي للكتاب المقدَّس:

الكتاب المقدَّس هو كتاب:

١. كُتب في فترة زمنية تمتد إلى ١٥٠٠ سنة؛

٢. كُتب على مَدى ٤٠ جيلاً؛

٣. كُتب على يد أكثر من ٤٠ كاتباً ينتمون لمُختلف الطبقات الاجتماعية، ومن بينهم:

- موسى: قائد سياسي تلقَّى تعليمه في الجامعات المصرية القديمة.
- بطرس: صيَّاد سمك.
- عاموس: راعي غنم.
- يشوع: قائد عسكري.
- نحميا: ساقي.
- دانيال: رئيس وزراء.
- لوقا: طبيب.

- سُليمان: مَلِك.
- مَتَّى: جابي ضرائب.
- بولس: مُعلِّم ديني.

٤. كُتب في أماكن مُختلفة:
- موسى كَتَب في البَرِيَّة.
- إرميا كَتَب وهو في جُبِّ السِّجن.
- دانيال كَتَب وهو على سفح التل وفي القصر.
- بولس كَتَب وهو في السجن.
- لوقا كَتَب وهو مُسافر.
- يوحنا كَتَب وهو منفي في جزيرة بَطْمُس.
- آخرون كتبوا أثناء حملاتهم العسكرية.

٥. كُتب في أزمنة مُختلفة:
- داود كَتَب في أوقات الحرب.
- سُليمان كَتَب في أوقات السِّلم.

٦. كُتب في أحوال نفسيَّة ومزاجيَّة مُختلفة:

فالبعض كتبوا وهُم في قمَّة الفرح والسعادة؛ والبعض الآخر كتبوا وهم يُعانون من مرارة الحُزن واليأس.

٧. كُتب في ثلاث قارَّات:

آسيا، وإفريقيا، وأوروبا.

٨. كُتب بثلاث لُغات:

العبريَّة، وَالآراميَّة، واليونانيَّة.

٩. وأخيراً فإنَّ موضوعاته اشتملت على مئات المسائل الجدليَّة. رغم ذلك، فقد تكلَّم جميع كُتَّاب الكتاب المقدَّس عن كل هذه المسائل بانسجام وتوافق عجيب بدءاً من سفر التكوين وانتهاءً بسفر الرؤيا. فالكتاب المقدَّس يسرد قصَّةً واحدةً[1].

وهذه القصَّة الواحدة التي تتجلي تفاصيلُها شيئاً فشيئاً هي القصة التي نُريد أن نتفحَّصها ببساطة بعيداً عن أيَّة تعقيدات لاهوتية. ومن بين الأمور الفريدة بشأن الكتاب المُقدَّس هو أنه يقول عن نفسه بأنه «كلمة الله»!

وحي الكتاب المُقدَّس

نقرأ في صفحات الكتاب المقدَّس:

«كُلُّ الْكِتَابِ هُوَ مُوحًى بِهِ مِنَ اللهِ ...» (٢ تيموثاوس ٣: ١٦)[2]

إنَّ موضوع «وحي الكتاب المقدَّس» هو من الموضوعات العميقة التي تحتاج لدراسة مُنفصلة. لكن إن أردنا تبسيط فكرة الوحي والتعبير عنها بعبارات مفهومة، فيمكننا القول بأنه كما أنَّ الإنسان يزفُر الهواء من رئتيه، فإنَّ الله قد نفخ كلمات هذا الكتاب العظيم. لهذا، يجب

علينا أن ننظر إلى الكتاب المقدَّس بأكمله على أنه من نِتاج الله نفسه. وهكذا فإنَّ الله وكلمته شيءٌ واحد؛ وهذا هو أحد الأسباب الداعية لتسمية الكتاب المقدَّس بـ «كلمة الله».

الأنبياء

إنَّ الأمر في غاية البساطة. فقد أخبر الله بعض الأشخاص بما يُريد أن يُدوِّنه عن نفسه. وبناءً على ذلك، قام هؤلاء الأشخاص بتدوين ما قاله الله لهم. وقد دُعي مُعظم هؤلاء الرجال بالأنبياء:

«اَللهُ، ... كَلَّمَ الآبَاءَ بِالأَنْبِيَاءِ قَدِيمًا ...» (عبرانيِّين ١: ١)

في الأزمنة القديمة، كان النبيُّ ينقل كلام الله إلى الناس. وعادةً ما كان النبي يتحدث عن الأمور الحياتية؛ لكن في كثيرٍ من الأحيان كان النبي يتحدث عن أمور ستحدث في المستقبل القريب أو البعيد. وقد كان التنبُّؤ بالمستقبل هامًّا لدرجة كبيرة لأنه كان يُعتبر بمثابة اختبار لمصداقية الشخص فيما إذا كان نبيًّا حقيقياً أم زائفاً.

«فَمَا تَكَلَّمَ بِهِ النَّبِيُّ بِاسْمِ الرَّبِّ وَلَمْ يَحْدُثْ وَلَمْ يَصِرْ، فَهُوَ الْكَلاَمُ الَّذِي لَمْ يَتَكَلَّمْ بِهِ الرَّبُّ ...» (تثنية ١٨: ٢٢)

كان يتم التحقُّق من صحَّة رسالة النبي عن طريق تحقُّق نُبوءاته. وكان يتوجب على النبي أن يكون دقيقاً في نبوءاته مئة بالمئة؛ فلا يوجد أي مجال للخطأ:

«وَأَمَّا النَّبِيُّ الَّذِي يُطْغِي، فَيَتَكَلَّمُ بِاسْمِي كَلاَمًا لَمْ أُوصِهِ أَنْ يَتَكَلَّمَ بِهِ، أَوِ الَّذِي يَتَكَلَّمُ بِاسْمِ آلِهَةٍ أُخْرَى، فَيَمُوتُ ذلِكَ النَّبِيُّ» (تثنية ١٨: ٢٠)

وهكذا، فقد كان الله يُرشد الأنبياء ويقودهم بطريقة تجعلهم يكتبون ما يريده هو تماماً. لكن في الوقت نفسه، فقد سمح الله للكُتَّاب البشريِّين أن يكتبوا كلمته بأسلوبهم الخاص – لكن دون أخطاء. لهذا، لم يكن هؤلاء الكُتَّاب أحراراً في إضافة أفكارهم الخاصة إلى الرسالة، ولا كتابة ما يشاءون:

«عَالِمِينَ هذَا أَوَّلاً: أَنَّ كُلَّ نُبُوَّةِ الْكِتَابِ لَيْسَتْ مِنْ تَفْسِيرٍ خَاصٍّ. لأَنَّهُ لَمْ تَأْتِ نُبُوَّةٌ قَطُّ بِمَشِيئَةِ إِنْسَانٍ، بَلْ تَكَلَّمَ أُنَاسُ اللهِ الْقِدِّيسُونَ مَسُوقِينَ مِنَ الرُّوحِ الْقُدُسِ» (٢ بطرس ١: ٢٠–٢١)

لكن هذا لا يعني أنَّ هؤلاء الأشخاص كتبوا ما أرادوا ثم قام الله بوضع ختمه على مؤلفاتهم الأدبيَّة! بل إنَّ كلمة «مسوقين»[٢] في الآية أعلاه تَرِد في مواضع أخرى في كلمة الله للإشارة إلى حَمل رجُلٍ مشلول. فكما أنَّ الشخص المشلول لا يمكنه أن يمشي من تلقاء نفسه؛ كذلك لم يكُن بإمكان هؤلاء الأنبياء أن يكتبوا الأسفار المُقدَّسة من تلقاء أنفسهم أو بحسب رغباتهم.

الدقَّة المُتناهية

قامَ الأنبياء بتدوين كلام الرب على رقوقٍ من جلد أو ورق مصنوع من ألياف الأشجار. وعادةً ما تُعرَف تلك النُسخ بـ «المخطوطات الأصليَّة».

وحيث أنَّ المخطوطات الأصلية كانت قصيرة العُمر، فقد تم عمل بعض النُّسخ اليدوية الأخرى من هذه المخطوطات. وحيث أنَّ النُسَّاخ كانوا يُدركون أنَّ هذا هو كلام الله، فقد تميَّز عملهم بدقَّة وعناية فريدتين لم يشهد التاريخ مثيلاً لهما. فقد اتَّبعوا في نسخهم للمخطوطات العبريَّة ... أسلم الطُرق مهما كانت مُتعبة أو مُضنية وذلك بهدف التأكد من نقل تلك المخطوطات بكل أمانة. كذلك، فقد كانوا يحرصون على عَدِّ أحرف المخطوطة

حرفاً حرفاً وتحديد الحرف الأوسط. وكانوا يفعلون الشيء نفسه مع الكلمات حيث كانوا يعدُّونها ويحددون الكلمة الوسطى[٤] ... وقد قام النُسَّاخ بهذا الأمر في النسخة والأصل للتحقُّق من دقَّة عمليَّة النسخ والتطابُق بين الأصل والنُسخة.

وتُبيِّن مخطوطات البحر الميِّت (التي تم اكتشافها في سنة ١٩٤٧ للميلاد) الدقَّة المُتناهية التي كان يتمتَّع بها هؤلاء النُسَّاخ. فلم يتم العثور على أي اختلافات جوهرية بين مخطوطات البحر الميِّت (التي يرجع تاريخ كتابتها إلى سنة ١٠٠ قبل الميلاد) وبين المخطوطات التي نشأت من عمليات النسخ العديدة التي جرت على مدى ألف سنةٍ لاحقةٍ (لغاية سنة ٩٠٠ للميلاد).[٥]

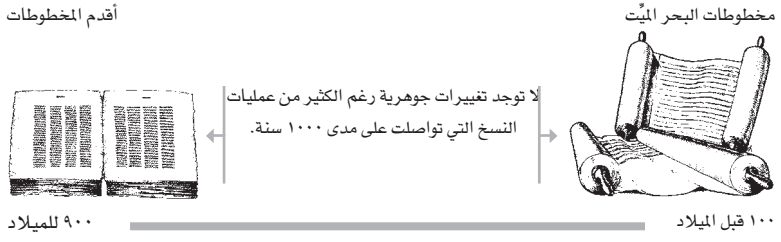

وقد لخَّص المؤرخ اليهودي «يوسيفوس» (الذي عاش في القرن الأوَّل للميلاد) هذا الأمر لشعبه فقال: «... يَظهر مقدار حرصنا واهتمامنا بكتب أُمَّتنا من خلال ما نقوم به. فطوال العصور الكثيرة التي انقضت، لم يتجاسر أحد على إضافة أيِّ شيءٍ إليها، أو حذف أيِّ شيءٍ منها، أو إدخال أيَّة تغييراتٍ عليها. لأن هذه الكتب يعتبرها اليهود موحى بها من الله».[٦]

وهكذا، فقد كان هؤلاء النُسَّاخ مُقتنعين تماماً بأنَّ محاولة التلاعُب بتلك النصوص تعني العبث مع الله نفسه. لذلك، فنحن على يقين بأنَّ الكتاب المقدَّس الذي بين أيدينا الآن يحتوي على نفس الأسفار المقدَّسة التي كتبها أنبياء الله.

التَرجمات

كُتبت المخطوطات الأصليَّة بالعبريَّة، أو الآراميَّة، أو اليونانيَّة. وبالطبع، فقد كانت عمليَّة النسخ تتم بنفس اللغة المكتوبة بها المخطوطة الأصليَّة. لكن بما أنَّ الكثيرين منَّا لا يعرفون هذه اللغات، فقد تَمَّت ترجمة الكتاب المقدَّس إلى العديد من اللُّغات الأخرى بالاعتماد على النصوص الأصليَّة التي ترجع جذورها إلى العصور القديمة.

فعلى سبيل المثال، فقد اعتمدت ترجمات العهد القديم (الشريعة، والكُتب، والأنبياء) على مخطوطات قديمة ما زالت موجودة حتى يومنا هذا؛ وهي مخطوطات يرجع تاريخها إلى نحو سنة ١٠٠ قبل الميلاد. وقد اقتبس السيِّد المسيح من الترجمة اليونانيَّة للمخطوطات العبريَّة؛ وهي ترجمة كانت قد اكتملت قبل نحو ١٥٠ سنة من مجيء السيِّد المسيح إلى هذه الأرض. وما زالت هذه الترجمة اليونانية موجودة حتى يومنا هذا ويمكن للمرء قراءتها. كذلك، فإنَّ العهد الجديد (الذي يُغطِّي حياة السيِّد المسيح) يستخدم حوالي ٢٧٠٠ مخطوطة يونانية يرجع تاريخها إلى القرن الثاني قبل الميلاد. ويمكن الرجوع إلى أيٍّ من

هذه المخطوطات للتحقُّق من صحَّة ودقَّة ما نقرأه الآن. وهكذا، يمكننا أن نقول بكل ثقة إنَّ ما كتبه الأنبياء القُدماء هو نفس ما نقرأه اليوم.

وقد شَهد الأنبياء أنفسهم بأنَّ الله سيحفظ كلمته المكتوبة من التغيير:

«يَبِسَ الْعُشْبُ، ذَبُلَ الزَّهْرُ. وَأَمَّا كَلِمَةُ إِلهِنَا فَتَثْبُتُ إِلَى الأَبَدِ» (إشعياء ٤٠: ٨)

كما قال السيِّد المسيح:

«فَإِنِّي الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: إِلَى أَنْ تَزُولَ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ لاَ يَزُولُ حَرْفٌ وَاحِدٌ أَوْ نُقْطَةٌ وَاحِدَةٌ مِنَ النَّامُوسِ حَتَّى يَكُونَ الْكُلُّ» (مَتَّى ٥: ١٨)

وما من شَكٍّ أنَّ الله العظيم والقدير قد حفظ كلمته بكل أمانة.

كلمة الله

سواء كُنت تتذكَّر التفاصيل المُتعلِّقة بالترجمة أم لا، فإنَّ هذا لا يهُمُّ. فالشيء المهم هو أنَّ الكتاب المقدَّس يشهد عن نفسه بأنه كلمة الله المكتوبة – رسالته إلى البشر. كما أنه يُخبرنا أننا نستطيع أن نتعرَّف على الله من خلاله. لهذا، يجب أن نتشجَّع على التوقُّف والتفكير في ما يقوله هذا الكتاب العظيم:

«إِلَى الأَبَدِ يَا رَبُّ كَلِمَتُكَ مُثْبَتَةٌ فِي السَّمَاوَاتِ» (المزمور ١١٩: ٨٩)

أدوات المِلاحَة

إذا لم تكن تعرف كيف تشُقُّ طريقك بنفسك عبر كلمة الله، فقد تُساعدك المعلومات التالية على القيام بذلك:

يتألَّف الكتاب المقدَّس من ستَّة وستِّينَ قسماً رئيسيَّاً تُدعى «أسفاراً». وتنقسم هَذه الأسفار بدورها إلى أجزاء ثانويةً تُدعي أصحاحات أي: فُصول. ثم تنقسم هذه الأصحاحات بدورها إلى وِحدات صغيرة تُدعى «آيات» أو «أعداد». إذاً، فالكتاب المُقدَّس ينقسم إلى أسفار مؤلَّفة من أصحاحات وآيات.

تُسمَّى الأسفار التي كُتبت قبل مجيء السيِّد المسيح إلى هذه الأرض بالعهد القديم. أمَّا الأسفار المُتبقِّية (أي التي كُتبت بعد مجيء السيِّد المسيح) فتُسمَّى بالعهد الجديد.

في القديم، كان العهد القديم ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

١. الشريعة: وتُسمَّى أحياناً «شريعة موسى»، أو «التوراة»، أو «كُتُب موسى»، أو «أسفار موسى الخمسة»، أو «الناموس».

٢. الكُتُب: وتُسمَّى أحياناً «الكتوبيم»، أو «الأسفار الشعريَّة»؛ وهي تشتمل على مزامير داود (أو ما يُعرَف لدى البعض بـ «الزَبور»).

٣. الأنبياء: وهي أسفار نبويَّة تحمل أسماء كاتبيها من الأنبياء.

أمَّا عبارة «الناموس والأنبياء» فهي اصطلاح يُشير إلى العهد القديم بأكمله؛ وهو الجُزء الذي يؤلِّف ثُلثيّ الكتاب المقدَّس تقريباً.

أمَّا الثُّلث الباقي المعروف بالعهد الجديد فيشتمل على قصص عن حياة السيِّد المسيح (ويُشار إليها بـ «الإنجيل»).

وفي بعض أنحاء العالم، يُشار إلى الأسفار المُقدَّسة بكلمة «بايبل» Bible ؛ وهي كلمة لاتينيَّة تعني «كتاب»، وهي تُترجم في لُغتنا العربيَّة بـ «الكتاب المُقدَّس». لهذا، يقتضي التنويه بأنَّ عبارة «كتاب مُقدَّس» لا ترتبط بأي فئة أو طائفة أو جماعة. أمَّا في هذا الكتاب، فسوف نستخدم هذه العبارة نفسها بالإضافة إلى المُصطلحات الأخرى المُستخدمة في الكتاب المقدَّس مثل «كلمة الله»، أو «الكلمة».

الفصل الثاني

١. في البدء خَلَقَ اللّٰه ...
٢. الملائكة، والجنود، والكواكب.

١ . في البدء خَلَقَ الله ...

الله عظيمٌ! وهذا هو ما يُعلنه الكتاب المقدَّس مراراً وتكراراً. وتتجسَّد عَظَمة الله في العبارة الأولى من الكتاب المقدَّس؛ بل في الكلمات الأربع الأولى منه والتي تقول:

«فِي الْبَدْءِ خَلَقَ اللهُ ...» (تكوين ١: ١)

وهكذا، ليست هناك أيّ عبارات جدليَّة افتتاحيَّة بشأن وجود الله. فوجود الله أمر مؤكَّد. أجل، فالله موجود دون أدنى شَكٍّ!

سرمـــديّ

الله موجود منذ الأزل. فهو هناك قبل النباتات، والحيوانات، والبشر، والأرض، والكون. وهو ليس له بداية، ولن تكون له نهاية. فالله موجود دائماً وسيبقى كذلك إلى ما لا نهاية. ويقول الكتاب المقدَّس إنَّ الله موجود منذ الأزل السحيق وإنه سيبقى موجوداً إلى أبد الآبدين. وباختصار شديد، فإنَّ الله سرمديٌّ. وقد كتب نبيُّ الله موسى الكلمات التالية عن الله:

«مِنْ قَبْلِ أَنْ تُولَدَ الْجِبَالُ، أَوْ أَبْدَأْتَ الأَرْضَ وَالْمَسْكُونَةَ، مُنْذُ الأَزَلِ إِلَى الأَبَدِ أَنْتَ اللهُ»

(المزمور ٩٠: ٢)

قد تكون فكرة وجود إله أزلي أبدي عسرة الفهم للبعض! فالكثيرون يقولون إنَّ هذا مُستحيل! لكن ربما تكون هناك بعض التشبيهات التي تساعدنا على استيعاب هذه الحقيقة. فعلى سبيل المثال، يمكننا مقارنة الأزل بفضاء الكون.

أغلبنا يعرف عن المنظومة الشمسيَّة؛ فالشمس مُحاطة بكواكب سَيَّارة تدور في أفلاك أو مدارات. ورغم أنَّنا نعرف أنَّ هذا الكون فسيح جدًّا، إلاَّ أنَّ أجهزة رصد السماء والنجوم جعلت أبعد المسافات تبدو قريبة. لكن ماذا لو تقدَّمنا خطوة أخرى وبدأنا بقياس الكون؟ إذا ركبنا مركبة فضائية وسافرنا بسرعة الضوء، فسوف ندور حول الأرض سبع مرَّات في الثانية الواحدة! هل استمتعت برحلتك؟ وإذا انطلقنا في الفضاء باتجاه القمر بنفس هذه السرعة، فسوف نصل إلى القمر في ثانيتين، والى كوكب المرِّيخ في أربع دقائق، والى كوكب بلوتو في خمس ساعات. ومن هناك يمكننا أن ننطلق إلى مَجَرَّتنا المُسَمَّاة «درب التَبَّانة».

مَجرَّة درب التبَّانة[1]

إنَّ مجموعة النجوم التي تراها في السماء في الليل هي جزء من عائلة كبيرة من النجوم تُعرف بدرب التبَّانة. وإن سافرت بسرعة الضوء، سوف تحتاج لمئة ألف سنة لكي تسافر عبر هذه المجرَّة من بدايتها إلى نهايتها. ويوجد هناك حوالي ١٠٠ بليون مجرَّة في الكون تتألَّف الكثير منها من بلايين النجوم. وتأتي المجرَّات في مجموعات صُغرى وأخرى كُبرى. وتحتوي المجموعة الصُغرى التي ننتمي إليها نحن على نحو عشرين مجرَّة. أمَّا المجموعة الكُبرى التي ننتمي إليها فتحتوي على آلاف المجرَّات!

هل تريد نجماً يحمل اسمك؟[2]

بناءً على تعداد السُكان في العالم كله في وقتنا الحاضر، يمكنك أن تُطلق اسمك على ١٦ مجرَّة؛ وهذا يعني أنَّ بلايين النجوم والكواكب يمكن أن تحمل اسمك!

عند هذه النقطة، يمكنك أن تقول بأنك قد بدأت رحلتك في هذا الكون.

إذا انطلقت بسرعة الضوء فسوف تصل إلى أقرب مجرَّة في مليونيّ سنة ...

وسوف تصل إلى أقرب مجموعة أخرى من المجرَّات في ٢٠ مليون سنة ...

إذا سرت بسرعة الضوء فسوف تدور حول الأرض سبع مرَّات في الثانية الواحدة ...

... وتمر بجانب القمر في غضون ثانيتين ...

وتبلُغ بلوتو في خمس ساعات.

... وتصل إلى المرّيخ في أربع دقائق ...

وإن سرت بسرعة الضوء، فسوف تصل إلى أقرب نجم في ٤ سنوات و٤ أشهر تقريباً. وهذا يعني أنك تقطعُ في كل ثانية من هذه السنوات مسافة ١٨٦ ألف ميل (أي ٣٠٠ ألف كم). أي أنك ستقطع خلال هذه الفترة الزمنيَّة مسافة إجمالية تبلغ ٢٥ر٢٨٤ر٠٠٠ر٠٠٠ ميل (أو ٤٠ر٦٨٢ر٣٠٠ر٠٠٠ كم).

تقع الشمس بالقرب من طرف درب التبّانة. وتحتل منظومتنا الشمسية بكل ما فيها من كواكب سيَّارة مساحة تُقدَّر بمساحة هذا المُربَّع في هذا الكون!

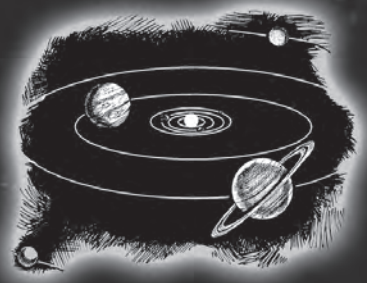

أجل، قد يكون من الصعب على عقلنا البشري أن يستوعب فكرة وجود إله سرمدي! لكنَّ هذا هو أيضاً حال الكون الذي نعيش فيه. ورغم أنَّ كلا الأمرين مُحيِّرٌ للعقل، إلاَّ أنَّهما حقيقتان واقعتان. وهذا هو ما يؤكِّده الكتاب المقدَّس. فالوجود السرمديُّ لله هو جزء لا يتجزَّأ من عَظَمته لدرجة أنَّ كلمة الله تُشير إليه بهذا الاسم:

«... بِاسْمِ الرَّبِّ الإِلهِ السَّرْمَدِيِّ» (تكوين ٢١: ٣٣)

أسماء عديدة

هناك العديد من الأسماء أو الألقاب لله. وكل اسم من هذه الأسماء يُعلن شيئاً ما عن ذاته وعظمته. والآن، تعال بنا نُلقي نظرةً خاطفةً على ثَلاثةٍ من هذه الأسماء:

١) أهْيَه (أنا هو الكائن)

فَقَالَ اللهُ ...: «أَهْيَهُ الَّذِي أَهْيَهُ». وَقَالَ: «هكَذَا تَقُولُ ...: «أَهْيَهُ أَرْسَلَنِي إِلَيْكُمْ» (خروج ٣: ١٤)

أقرب تفسير لهذه الآية هو: «أنا هو الكائن»، أو «أنا الكائن الدائم». فالله موجود بقُدرته الذاتيَّة. ففي حين أننا نحتاج إلى الطعام، والماء، والهواء، والنوم، والضوء، والكثير من الأمور الأخرى لكي نتمكَّن من العيش والبقاء؛ فإنَّ الله ليس كذلك. فهو لا يحتاج إلى أيِّ شيءٍ على الإطلاق! فهو الكائن بذاته ... إنه «أهْيَه».

٢) الربُّ أو يهوه

إنَّ لقب «أهْيَه» («أنا هو») ليس شائعاً في الكتاب المقدَّس لأنَّ معناه مُتضمَّن في كلمة «رَبّ» أو «يهوه» الذي هو اسم الله الشخصي، مثلما يُدعى شخص ما باسمه مثل سمير أو سعاد. لهذا، ومن باب التوقير لهذا الاسم، فإن ترجمات الكتاب المقدس تستخدم لقب «الرب» للإشارة إلى اسم «يهوه».

«لاَ مِثْلَ لَكَ يَا رَبُّ! عَظِيمٌ أَنْتَ، وَعَظِيمٌ اسْمُكَ فِي الْجَبَرُوتِ» (إرميا ١٠: ٦)

إنَّ كلمة «رَبّ» لا تُشير إلى وجود الله الذاتي السرمدي فحسب، بل تُركِّز أنظارنا أيضاً على منزلته السامية؛ فهو أسمى من كُلِّ ما عَداه، وهو رَبُّ الأربابِ.

٣) العَليُّ

يرتبط هَذا الاسم باسم «الربّ» من خلال تركيزه على دور الله بصفته حاكماً مُطلق السيادة والسُّلطان.

«وَيَعْلَمُوا أَنَّكَ اسْمُكَ يَهْوَهُ وَحْدَكَ، الْعَلِيُّ عَلَى كُلِّ الأَرْضِ» (المزمور ٨٣: ١٨)

فكما أنَّ الإمبراطوريَّات القديمة كان لها حُكَّام مُطْلَقون يُهيمن كُلٌّ منهم هيمنةً كاملةً على منطقته، فإنَّ الله هو مَلك هذا الكَون، وهو الله العليّ. وحتَّى أنَّ كلمة «الرب» نفسها تؤكِّد على مكانته كحاكم مُطْلَق على الكون وما فيه. وكلمة «الرب» تعني «القويّ»، أو «القائد القدير»، أو «الإله المُطْلَق».

«اَلرَّبُّ فِي هَيْكَلِ قُدْسِهِ. الرَّبُّ فِي السَّمَاءِ كُرْسِيُّهُ. عَيْنَاهُ تَنْظُرَانِ. أَجْفَانُهُ تَمْتَحِنُ بَنِي آدَمَ» (المزمور ١١: ٤)

إنَّ الله يحكُم ويسود من السَّماء. ورغم أنَّنا لا نعرف سوى القليل عن السَّماء، إلاَّ أنَّ هذا الكَمَّ القليل الذي نعرفه كافٍ لإذهالنا! سوف نناقش هذا الموضوع بصورة أكثر تفصيلاً

فيما بعد؛ لكن يكفينا أن نعرف الآن أنَّ هذا الإله العظيم هو الحاكم المُطْلَق.

إله واحد فقط

إنَّ كلمة «العَلِيّ» تعني أنَّ الله هو إلهٌ فريدٌ ولا مثيل له دون أدنى شَكٍّ. ويُعتبر هذا جانباً آخر من جوانب عظمته. فما من أحد يُشبهه على الإطلاق. لهذا فهو ينفرد في الإلوهيَّة، وهو الربُّ المُطلق السيادة على الكُلِّ.

«أَنَا الرَّبُّ وَلَيْسَ آخَرُ. لاَ إِلهَ سِوَايَ ...» (إشعياء ٤٥: ٥)

«... قَبْلِي لَمْ يُصَوَّرْ إِلهٌ وَبَعْدِي لاَ يَكُونُ» (إشعياء ٤٣: ١٠)

لهذا، لا يوجد تسلسُل هرمي للآلهة، ولا يوجد إله كبير يسود على الآلهة الأخرى. فما من آلهة أخرى في هذا الكون سواء كانت قائمة بذاتها أو مخلوقة.

«هكذا يقولُ الرَّبُّ ... أَنَا الأَوَّلُ وَأَنَا الآخِرُ، وَلاَ إِلهَ غَيْرِي» (إشعياء ٤٤: ٦)

وهكذا، فإنَّ الكتاب المقدَّس واضح تمام الوضوح في تأكيده بأنه لا يوجد سوى إله واحد فقط.

«وَاحِدٌ هُوَ وَاضِعُ النَّامُوسِ، الْقَادِرُ أَنْ يُخَلِّصَ وَيُهْلِكَ ...» (يعقوب ٤: ١٢)

الله روح

قبل أن ننهي هذا الموضوع، يجب أن نفهم شيئاً أخيراً. فالكتاب المقدَّس يُخبرنا أنَّ الله غير مرئيٍّ لأنَّه روح:

«اَللهُ رُوحٌ ...» (يوحنا ٤: ٢٤)

فَكِّر في جنازة أحد الأشخاص الذين رحلوا عن هذه الحياة مؤخراً! فقد كان جسد ذلك الشخص موجوداً ومرئياً، لكن أين هو؟ لقد رَحَل ولم تعُد روحه موجودة. فحينما ننظر إلى الأشخاص من حولنا فإننا لا نرى سوى هياكلهم الخارجيَّة (أي أجسادهم)؛ لكننا لا نستطيع أن نرى كيانهم الحقيقي الذي يُعرف بـ «الروح».

يُشير الكتاب المقدَّس بطُرق عديدة إلى أنَّ روح المرء تبدأ من نقطة زمنيَّة مُعيَّنة وتستمر إلى الأبد. أمَّا الله فهو مختلف لأنه ليس له بداية ولن تكون له نهاية. لذلك، فهو الروح السرمديّ الوحيد الكائن من الأزل إلى الأبد.

وهكذا، فإنَّ الله: **روح**.

وهو: **سرمديّ**.

وهو: **أهْيَه** (أنا هو الكائن).

وهو: **العليُّ** (الحاكم المُطلق على الكُلِّ).

وهو: الإله **الوحيد**.

٢ . الملائكة، والجنود، والكواكب

يمكننا من خلال الكتاب المقدَّس أن نتعرَّف على عمليَّة الخلق الأولى التي قام بها الله. فقد قام الله في البدء بخلق الكائنات الروحيَّة.

أسماؤها

يُطلِق الكتاب المقدَّس على الكائنات الروحيَّة أسماءً عديدةً بعضها يَرِد بصيغة المُفرد، وبعضها الآخر يَرِد بصيغة الجمع. وغالباً ما نُطلق على هذه الكائنات اسم «الملائكة»؛ لكنَّ كلمة الله تستخدم العديد من المفردات مثل: الكروبيم، السَّرافيم، الملائكة، رئيس الملائكة، كَواكب الصُّبح، وغيرها. وغالباً ما يُشار إلى هذه الكائنات مُجتمعةً بكلمة «جُموع» أو «جُنود»، أو «كواكب» ❖.

❖ ملحوظة: يجب عدم الخَلط بين كلمة «كواكب» هنا وكلمة «كواكب» التي تُشير إلى النجوم في السَّماء.

«... وَجُنْدُ السَّمَاءِ لَكَ يَسْجُدُ» (نحميا ٩: ٦)

ورغم أنَّ جميع هذه الكائنات الروحيَّة يمكن أن يكون لها أسماء شخصيَّة، إلاَّ أنَّ الكتاب المقدَّس لا يذكُر سوى عدداً قليلاً جداً من أسمائها مثل «جبرائيل» و«ميخائيل».

غير مرئيَّة، ولا تُحصى

كما هو الحال مع الله، فإنَّ الكائنات الروحيَّة هي كائنات غير مرئيَّة أيضاً. فهي ليس لها جسد أو لحم ودم مثلنا نحن البشر. ورغم أنَّنا لا نستطيع رؤيتها، إلاَّ أنها موجودة في كل مكان. ويخبرنا الكتاب المُقدَّس أن أعداداها لا تُحصى:

«... حَفْلَةٍ يَجْتَمِعُ فِيهَا عَدَدٌ لاَ يُحْصَى مِنَ الْمَلاَئِكَةِ»

(عبرانيِّين ١٢: ٢٢ - بحسب الترجمة التفسيرية)

وإن نظرنا إلى الألفاظ المُستخدمة لوصف عدد الملائكة التي تُحيط بعرش الله فسوف نُدرك أنها ألفاظ مجازيَّة تُشير إلى أعدادها الهائلة:

«ثُمَّ نَظَرْتُ، فَسَمِعْتُ تَرْتِيلَ الْمَلاَيِينِ مِنَ الْمَلاَئِكَةِ وَهِيَ تُحِيطُ بِالْعَرْشِ وَبِالْكَائِنَاتِ الْحَيَّةِ وَالشُّيُوخِ»

(سفر الرؤيا ٥: ١١ - التفسيرية)

أرواح خادمة

لقد خلق الله الملائكة لكي تخدمه وتعمل مَرضاته. لهذا فهي تُدعى أرواحاً خادمةً:

«بَارِكُوا الرَّبَّ يَا مَلاَئِكَتَهُ الْمُقْتَدِرِينَ قُوَّةً، الْفَاعِلِينَ أَمْرَهُ عِنْدَ سَمَاعِ صَوْتِ كَلاَمِهِ. بَارِكُوا الرَّبَّ يَا جَمِيعَ جُنُودِهِ، خُدَّامَهُ الْعَامِلِينَ مَرْضَاتَهُ»

(المزمور ١٠٣: ٢٠، ٢١)

«أَلَيْسَ جَمِيعُهُمْ أَرْوَاحًا خَادِمَةً مُرْسَلَةً لِلْخِدْمَةِ ...» (عبرانيِّين ١: ١٤)

إنَّ كلمة «ملاك» مُشتقَّة من مُصطلح عبري يعني «رسول» أو «خادم». وحيث أنَّ الملائكة كائنات مخلوقة، فهي تخضع لله خالقها وتعمل ما يأمرها به.

الخالق – المالك

لقد فَقَدت فكرةَ أنَّ الخالق هو المالك معناها الحقيقي في مجتمعاتنا المعاصرة. فعلى سبيل المثال، أذكر أنني قُمت يوماً بزيارة إحدى القُرى القبليَّة في بابوا – غينيا الجديدة. وحينما كنت أسأل الناس هناك: «لِمَنْ هَذا المِجداف؟» أو «لِمَنْ هذا القارب؟»، كُنت أتلقَّى إجابةً تُشير إلى مالك ذلك الشيء. وحينما سألتهم كيف عرفوا من هُو المالك، نظروا إليَّ باستغراب! فالمالك في نظرهم هو ذاك الشخص الذي صنع ذلك الشيء! وهكذا، فقد كانت فكرة أنَّ خالق الشيء (أو صانعه) هو مالكه الحقيقي راسخة لديهم. وحينما سألتهم عَمَّا إذا كان من اللائق أن أكسر مجدافاً ما، أجابوا قائلين بأنها ليست فكرة صائبة على الإطلاق – إلاَّ إذا كنت أسعى للمتاعب مع صانع المجداف الذي هو نفسه مالكه! وحينما سألتهم عَمَّا إذا كان بإمكان مالكه أن يكسره، هَزُّوا رؤوسهم وأكتافهم بالإيجاب بما معناه: «أجل، من حَقِّ المالك أن يكسره لأنه هو الذي صنعه!»

وهكذا، حيث أنَّ الله هو الذي خلق الملائكة، فمن البديهي أن يكونوا تابعين له. وبما أنهم يتبعونه ويخضعون له، فينبغي عليهم أن يمتثلوا لأوامره باعتبارهم خُدَّامه ورُسُله. وبالطبع، لم يكُن هذا شكلاً آخر من أشكال العُبوديَّة؛ فليس هناك أيُّ تشابه بين ما يقوم به الملائكة وبين العبوديَّة الإجباريَّة. فلم يكُن بإمكان الملائكة أن يحظوا بخالقٍ وسيِّدٍ أفضل من الله.

ذكاء خارق وقوَّة عجيبة

لكي تتمكَّن الملائكة من تنفيذ أوامر الله، فقد منحها الله ذكاءً خارقاً وقوَّةً عجيبة. وتتمتَّع بعض هذه الكائنات الملائكيَّة بقدرات تفوق غيرها. ورغم أنَّ الله خلق الملائكة كاملين وبلا شَرٍّ، إلاَّ أنهم ليسوا كائنات آليَّة. ففي حقيقة الأمر أنهم يمتلكون إرادة تُتيح لهم حُريَّة الاختيار.[٣]

أوجه الشبه والاختلاف

تشترك الملائكة في بعض أوجه الشبه مع الإنسان رغم أنها تفوق الإنسان في الذكاء والقوَّة. ويقول الكتاب المقدَّس إنَّ الله أنقص الإنسان قليلاً عن الملائكة:

«وَتَنْقُصُهُ قَلِيلاً عَنِ الْمَلاَئِكَةِ ...» (المزمور ٨: ٥)

ورغم أوجه التشابُه بين الإنسان والملائكة، إلاَّ أنَّ الملائكة تختلف عن الإنسان في أنها لا تموت[٤]، ولا تتزوَّج، ولا تُنجِب[٥]. ورغم أنها غير مرئيَّة، إلاَّ أنها تُظهر نفسها في بعض الأحيان. وحينما تتكلَّم الملائكة مع البشر فهي تستخدم لُغةً يفهمها السامع!

الكروبيم الممسوح

كان أقوى وأذكى وأجمل روح خلقه الله هو كروبيم (نوع من الملائكة) ويُترجَم اسم هذا الكروبيم بـ «لوسيفر»[٦] الذي يعني «المُشْرق» أو «كوكب الصُّبح».

«كَيْفَ سَقَطْتِ مِنَ السَّمَاءِ يَا زُهَرَةُ، بِنْتَ الصُّبْحِ؟ ...» (إشعياء ١٤: ١٢)

يُشار إلى «لوسيفر» بأنه كروبيم ممسوح. ويرجع معنى كلمة «ممسوح» إلى الطقوس القديمة التي كان يتم فيها صَبُّ الزيت على شخص ما أو شيءٍ ما لفرزه وتكريسه للقيام بعمل مُحدَّدٍ للرب. وكان هذا العمل مُقدَّساً ولا يجوز الاستخفاف به.

«وَمَسَحْتُكَ لِتَكُونَ الْكَرُوبِيمَ الْمُظَلِّلَ وَأَقَمْتُكَ عَلَى جَبَلِ اللهِ الْمُقَدَّسِ، وَتَمَشَّيْتَ بَيْنَ حِجَارَةِ النَّارِ.

كُنْتَ كَامِلاً فِي طُرُقِكَ مُنْذُ يَوْمَ خُلِقْتَ ...» (حزقيال ٢٨: ١٤، ١٥ – التفسيرية)

يبدو أنَّ عمل لوسيفر كان يُحتِّم عليه أن يبقى في مَحْضَر الله طوال الوقت. وربما كان لوسيفر يُمثِّل جميع الملائكة الأخرى ويقودهم في العبادة والتسبيح لخالقهم ومالكهم. وسوف نعرف المزيد عن هذا الكاروب الممسوح لاحقاً.

العبادة

كلمة «عبادة» تعني إعلان قيمة الشخص (أو الشيء). والكتاب المقدَّس يقول إنَّ جميع الملائكة كانت تعبُد الله.

«... وَأَنْتَ تُحْيِيهَا كُلَّهَا. وَجُنْدُ السَّمَاءِ لَكَ يَسْجُدُ» (نحميا ٩: ٦)

وحيث أنَّ الله هو الملك صاحب السيادة والسُّلطان، فهو يستحق أن تُعلَن قيمته. وعلى النقيض من ذلك، إذا امتدحتُ أحد أصدقائي أمام الآخرين، فقد يعتقد أحدهم أنني أُعطي صديقي هذا أكثر مِمَّا يستحق! لكنَّ الكتاب المقدَّس يقول إنَّ إلهنا العظيم رَب المجد يستحق كل حمد وتسبيح. لذلك، فمن المُستحيل أن نُبالغ في تسبيحه:

«أَنْتَ مُسْتَحِقٌّ أَيُّهَا الرَّبُّ أَنْ تَأْخُذَ الْمَجْدَ وَالْكَرَامَةَ وَالْقُدْرَةَ، لأَنَّكَ أَنْتَ خَلَقْتَ كُلَّ الأَشْيَاءِ، وَهِيَ بِإِرَادَتِكَ كَائِنَةٌ وَخُلِقَتْ» (رؤيا ٤: ١١)

«لأَنَّكَ عَظِيمٌ أَنْتَ وَصَانِعٌ عَجَائِبَ. أَنْتَ اللهُ وَحْدَكَ» (المزمور ٨٦: ١٠)

جميع الملائكة تُراقب الخليقة

لقد بدأ الله بعمليَّة الخَلْق. وفيما كان جُند السماء يُراقبون ما يجري بفرحٍ، بدأ الله بصُنع تُحفة فنيَّة رائعة أخرى.

تُذكِّرُنا كلمات الله للنبيِّ أيُّوب بعَظَمة خالقنا التي لا مثيل لها:

«أَيْنَ كُنْتَ عِنْدَمَا أَسَّسْتُ الأَرْضَ؟ أَخْبِرْنِي إِنْ كُنْتَ ذَا حِكْمَةٍ. مَنْ حَدَّدَ مَقَايِيسَهَا، إِنْ كُنْتَ حَقّاً تَعْرِفُ؟ أَوْ مَنْ مَدَّ عَلَيْهَا خَيْطَ الْقِيَاسِ؟ عَلَى أَيِّ شَيْءٍ اسْتَقَرَّتْ قَوَاعِدُهَا؟ وَمَنْ وَضَعَ حَجَرَ زَاوِيَتِهَا؟ بَيْنَمَا كَانَتْ كَوَاكِبُ السَّمَاءِ تَتَرَنَّمُ مَعاً وَمَلاَئِكَةُ اللهِ تَهْتِفُ بِفَرَحٍ» (أيُّوب ٣٨: ٤–٧ – التفسيرية)

الفصل الثالث

١. السَّماء والأرض.
٢. ورأى اللّٰه ذلك أنَّهُ حَسَنٌ.
٣. الرجل والمرأة.

١ . السَّماء والأرض

يُدعى أوَّل سِفرٍ في الكتاب المقدَّس بسفر التكوين. وكلمة «تكوين» تعني البدايات:

«فِي الْبَدْءِ خَلَقَ اللهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ. وَكَانَتِ الأَرْضُ خَرِبَةً وَخَالِيَةً، وَعَلَى وَجْهِ الْغَمْرِ ظُلْمَةٌ، وَرُوحُ اللهِ يَرِفُّ عَلَى وَجْهِ الْمِيَاهِ. وَقَالَ اللهُ: لِيَكُنْ نُورٌ، فَكَانَ نُورٌ. وَرَأَى اللهُ النُّورَ أَنَّهُ حَسَنٌ. وَفَصَلَ اللهُ بَيْنَ النُّورِ وَالظُّلْمَةِ. وَدَعَا اللهُ النُّورَ نَهَارًا، وَالظُّلْمَةُ دَعَاهَا لَيْلاً. وَكَانَ مَسَاءٌ وَكَانَ صَبَاحٌ يَوْمًا وَاحِدًا» (تكوين ١: ١-٥)

منَ العَدَم

«فِي الْبَدْءِ خَلَقَ اللهُ ...». أن تخلق شيئاً ما يعني أن تُبدي قوَّة عظيمة. وقد يصعُب علينا أحياناً أن نُصدِّق أنَّ الله خَلَق كل شيء من العَدَم! صحيحٌ أننا - نحن البشر – نقوم بابتكار الأشياء أحياناً؛ لكننا نستخدم في ذلك مواد موجودة من قَبل. فنحن نرسم اللَّوحات باستخدام الألوان الزيتية أو الشمعية، ونبني البيوت من الطوب والإسمنت والحديد. لكنَّ الله لا يفعل مثلنا؛ بل هو يخلق الأشياء من لا شيء .. أي من العَدَم!

كُليُّ القُدرة

إنَّ الله عظيمٌ حقّاً. فما من شكٍّ أنَّ مثل هذا الخلق الشموليَّ بدون مواد، ولا مُخطَّطات، ولا ورشة عمل، ولا أدوات يتطلَّب قُدرات تفوق تخيُّلنا أو تصوُّرنا. ويُخبرنا الكتاب المقدَّس أنَّ عمليَّة الخلق تَمَّت لأنَّ الله قادر على كل شيء. فقُدرة الله لا تعرف حدوداً.

«عَظِيمٌ هُوَ رَبُّنَا، وَعَظِيمُ الْقُوَّةِ ...» (المزمور ١٤٧: ٥)

أنَّ الله كُليُّ القُدرة وعظيم القوة!

كُليُّ المَعرفة

إنَّ الله عظيم بكل تأكيد! فهو ليس كُليُّ القدرة فحسب، بل وكُليّ المعرفة أيضاً!

«عَظِيمٌ هُوَ رَبُّنَا، ... لِفَهْمِهِ لاَ إِحْصَاءَ» (المزمور ١٤٧: ٥)

فالله يعرف كل شيءٍ دون استثناء. وهو لا يحتاج لاستشارة أحد المُهندسين المعماريين أو أحد الخُبراء للحصول على مزيد من المعلومات. فمعرفة الله ليس لها حُدود. وحينما قام الله بعمليَّة الخَلق فهو لم يتبع مُخطَّطاً وضعه شخصٌ ما!

كُليُّ الحَضور

حينما يقوم الإنسان بصُنع أو تشكيل شيءٍ ما فإنه بحاجة لمكان يعمل فيه مثل ورشة عمل أو مَشْغَل. أمَّا الله فلم يكُن بحاجة لورشة عمل لكي يتمكَّن من خَلق هذا العالم وما فيه لأنَّ الكتاب المقدَّس يقول لنا إنَّ الله موجودٌ في كُلِّ مكان وكُلِّ زمان.

«أَلَعَلِّي إِلهٌ مِنْ قَرِيب، يَقُولُ الرَّبُّ، وَلَسْتُ إِلهًا مِنْ بَعِيد. إِذَا اخْتَبَأَ إِنْسَانٌ فِي أَمَاكِنَ مُسْتَتِرَةٍ أَفَمَا أَرَاهُ أَنَا، يَقُولُ الرَّبُّ؟ أَمَا أَمْلأُ أَنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ، يَقُولُ الرَّبُّ؟» (إرميا ٢٣: ٢٣، ٢٤)

تُبرهن صفات الله الثلاث أنه كُليُّ القُدرة، وكُليُّ المعرفة، وكُليُّ الحُضور – مُنفردةً ومُجتمعةً – أنَّ الله عظيمٌ. فلا يُمكن خلق هذا العالم البالغ التعقيد الذي نعيش فيه إلاَّ عن

طريق عملية دمج كاملة بين هذه الصفات الثلاث.

«صَانِعُ الأَرْضِ بِقُوَّتِهِ، وَمُؤَسِّسُ الْمَسْكُونَةِ بِحِكْمَتِهِ، وبِفَهْمِهِ مَدَّ السَّمَاوَاتِ» (إرميا ٥١: ١٥)

ورغم أنَّ الملائكة تمتلك الكثير من القوَّة والذكاء، إلاَّ أنها لا تتمتَّع بأيٍّ من هذه الصفات. وماذا عَنَّا نحن البشر؟ نحن بعيدون كُلَّ البعد عن هذه القدرات الخارقة! فلكي نصنع شيئاً بسيطاً فإننا بحاجة للكثير من الجهود البشرية المُشتركة. فعلى سبيل المثال، لنفترض أننا نُريد أن نصنع كُرسياً معدنياً، فما الذي سيحدث؟ قبل كل شيءٍ، سوف نحتاج للمعدن الخام. لكن أين يمكننا أن نجد المعدن المُناسب لصنع مثل هذا الكرسي؟

إنَّ المعادن موجودة في الصخور. لكن من هو الشخص الذي يعرف نوعيَّة الصخور التي تحتوي على المعدن المطلوب؟ نحن بحاجة إلى عالم جيولوجي وإلى شخص خبير في التنقيب عن الحديد الخام. وعلى فرض أننا وجدنا النوع المناسب من الصخور، ما هي الخُطوة التالية؟ فما زالت الصخور موجودة في الأرض!

سوف نحتاج شخصاً يعرف كيف يصنع المُتفجرات، وسوف نحتاج لبعض معدَّات التعدين المطلوبة، وبعض عُمَّال المناجم ممَّن يمتلكون خبرةً كافيةً في استخراج الحديد الخام من باطن الأرض بطريقة آمنة. لكن حتَّى لو نجحنا في استخراج الحديد الخام فلن نكون قادرين على صُنع كُرسيٍّ منه! فيجب صهر الحديد الخام أوَّلاً؟ لكن هل يمكننا إضرام نارٍ حاميةٍ لدرجة تكفي لصهر الحديد الخام؟ بالطبع لا، فنحن بحاجة لشخصٍ يُتقن عمليَّة الصهر والسبك. لكن حتَّى لو عثرنا على الأشخاص المطلوبين لهذه المهمَّة، هل تدري ما الذي سيحصل؟

سوف يسكبون لنا كُتلة صلبة من الحديد. وفي هذه المرحلة، يمكننا أن نجلس على تلك الكُتلة الحديدية بعد أن يتم تبريدها! لكن إن أردنا أن نصنع منها كُرسيَّاً، فنحن بحاجة لشخص يعرف كيفيَّة طَرق تلك الكُتلة وتحويلها إلى قطعة مُسطَّحة بالسَّماكة المطلوبة. وبعد ذلك، يجب علينا ثني الحديد وتثبيت أجزائه المُختلفة بواسطة اللِّحام.

وإن أردنا أن نَلْحِم تلك الأجزاء معاً فسوف نحتاج إلى شخصٍ يعرف شيئاً عن الكهرباء وكيفيَّة توليدها لكي نتمكَّن من تشغيل آلة اللِّحام!

وهكذا، فإنَّ عملية صُنع كرسي واحد هي عمليَّة مُعقدة للغاية رُغم أننا لم نتطرَّق بعد لعملية صُنع الدِّهان الخاص بالمعادن، ولا لكيفية إنتاج الألوان المُختلفة التي نرغب فيها.

وماذا عن أرجُل الكُرسي؟ هل ستكون من البلاستيك؟ أليس صحيحاً أنَّ مادة البلاستيك تُستخرج من المواد النفطيَّة؟ إذاً، سوف يتطلَّب الأمر أن نحفر بئراً لاستخراج النفط. والآن، ما هي الأشياء التي يتطلَّبُها حفر بئر نفط؟!

كُلَّ هذا لأننا فَكَّرنا في صُنع كُرسيٍّ معدنيٍّ واحدٍ فقط! وهكذا، فلكي نصنع أبسط الأشياء فإننا بحاجة لمئات الأشخاص الذين يتمتَّعون بمهارات وقُدرات مُختلفة. فما من شخصٍ واحدٍ يعرف كل شيء!

وكما ترى يا صديقي، فما من أحَدٍ من البشر أو الملائكة يدنو ولو قليلاً من هذا الإله العظيم الذي يعرف كل شيء، والذي لديه القُدرة المُطلقة على خلق الأشياء من العَدَم، والذي يوجد في كل زمانٍ ومكان بحيث يستطيع أن يضع الأشياء التي يخلقها في المكان الذي يُريده! لهذا فهو إله فريد ولا مثيل له.

«آهِ، أَيُّهَا السَّيِّدُ الرَّبُّ، هَا إِنَّكَ قَدْ صَنَعْتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِقُوَّتِكَ الْعَظِيمَةِ، وَبِذِرَاعِكَ الْمَمْدُودَةِ. لاَ يَعْسُرُ عَلَيْكَ شَيْءٌ» (إرميا ٣٢: ١٧)

وقال الله

لقد تَمَّ تدوين قصَّة الخلق المُدهشة هذه بصورة مُبسَّطة ودقيقة في الوقت نفسه. وتَرِد أكثر المعلومات إذهالاً في بضع كلمات فقط. فعلى سبيل المثال، فإنَّ الكتاب المقدَّس يُشير بطريقة عابرة فقط إلى الوسيلة التي استخدمها الله لإتمام عمليَّة الخَلق. فهو لم يستخدم يديه أو أية أدوات؛ بل إنه أمر الأشياء أن تكون فأصبحت موجودة!

«وَقَالَ اللهُ: 'لِيَكُنْ نُورٌ' ...» (تكوين ١: ٣)

«... الْكَوْنَ كُلَّهُ قَدْ خَرَجَ إِلَى الْوُجُودِ بِكَلِمَةِ أَمْرٍ مِنَ اللهِ ...»

(عبرانيِّين ١١: ٣ - التفسيرية)

ونقول مَرَّةً أخرى إنَّ مثل هذه القدرة تفوق إدراكنا. فنحن لا نستطيع أن نستوعب أنه بإمكاننا أن نأمر الكُرسيَّ بالتواجُد فيُصبح موجوداً بالفعل. فإن كان مثل هذا العمل البسيط يفوق تصوُّرنا، فماذا عن عمليَّة خلق الكون! لكن ما الذي يُمكن للمرء أن يتوقَّعه من إله حيٍّ وعظيم؟ فحينما نُفكِّر في الأمر فسوف نجد أننا لا نتوقَّع منه قوَّةً أقل من هذه. وهذا هو ما يؤكِّده الكتاب المقدَّس:

«بِكَلِمَةِ الرَّبِّ صُنِعَتِ السَّمَاوَاتُ، وَبِنَسَمَةِ فِيهِ كُلُّ جُنُودِهَا. ... لِتَخْشَ الرَّبَّ كُلُّ الأَرْضِ، وَمِنْهُ لِيَخَفْ كُلُّ سُكَّانِ الْمَسْكُونَةِ. ... لأَنَّهُ قَالَ فَكَانَ. هُوَ أَمَرَ فَصَارَ» (المزمور ٣٣: ٦، ٨، ٩)

هكذا أبتدأ الخلق. سمى الله النور نهاراً والظلمة ليلاً. وبحسب ما يقوله الكتاب المقدَّس، فقد اكتمل بذلك اليوم الأوَّل لعملية الخلق.

قديم .. لكنَّه صحيح!

قبل بضعة قرون، كان الاعتقاد السائد هو أنَّ الأرض مُنبسطة أو مُسطَّحة! لكنَّ هذا الفكر لم ينبُع في الأصل من الكتاب المقدَّس. بل إنَّ الكتاب المقدَّس يُشير إلى كُرويَّة الأرض حيث يقول عن الله بأنه:

«الْجَالِسُ عَلَى كُرَةِ الأَرْضِ ...» (إشعياء ٤٠: ٢٢)

وقد كان بعض القُدماء يقولون إنَّ الأرض تقوم على أساسات متينة، أو إنَّ إلهاً أُسطورياً يحملها. وقد كتب النبيُّ أيُّوب إنَّ الله:

«... يُعَلِّقُ الأَرْضَ عَلَى لاَ شَيْءٍ» (أيُّوب ٢٦: ٧)

في القرن الثاني للميلاد، صَنَّف بطليموس ١٠٢٢ نجماً. وقد بقي هذا التصنيف مُستخدماً إلى أن قام جاليليو باختراع التلسكوب في القرن السابع عشر. ورغم أنَّ عدد النجوم التي يمكن للمرء أن يراها بالعين المُجرَّدة لا يزيد عن ٥٠٠٠ نجم، إلاَّ أنَّ الكتاب المقدَّس يقول في أولى صفحاته إنَّ نجوم السَّماء هي:

«... كَالرَّمْلِ الَّذِي عَلَى شَاطِئِ الْبَحْرِ ...» (تكوين ٢٢: ١٧)

ورغم أنَّ الاكتشافات العلميَّة تؤكِّد ما يقوله الكتاب المقدَّس عن التاريخ، والجغرافيا، والطبيعة؛ إلاَّ أنه لا يُمكن للعلم أن يُثبت أنَّ أيَّ كتاب هو كلمة الله. كما أنَّ العلم لا يستطيع أن يُثبت الحقائق الروحيَّة. وسوف نرى لاحقاً كيف أنَّ الكتاب المقدَّس يُثبت نفسه بنفسه بأنه كلمة الله الموحى بها.

كُليُّ الحُضور

لا يمكن للعقل البشري أن يستوعب جميع صفات الله بالطريقة نفسها! فقد نتمكَّن من فهم أنَّ الله كُليُّ القدرة، وأنه كُليُّ العلم؛ لكننا قد لا نستوعب أنه كُليُّ الحضور؛ أي أنه موجود في كل الأمكنة في جميع الأوقات! رغم ذلك، فإنَّ الكتاب المقدَّس يؤكِّد مراراً وتكراراً أنَّ الله حاضر في كل مكان!

حينما تتوقف قليلاً وتتأمَّل في هذه الفكرة فسوف تجدها مُريحة ومُطمئنة. فإن كُنت أسافر بعيداً عن عائلتي، فأنا أريد أن أكون مُطمئناً أنَّ الله سيكون معهم؛ لكنِّي في الوقت نفسه أريده أن يكون معي أنا أيضاً. فأنا لا أريد أن أضطر للبحث عنه لمساعدتي في حال تعرُّضي لبعض المتاعب. فقد أكون بحاجة لمُساعدته .. على الفور! وبالطبع، فأنا أريد الشيء نفسه لعائلتي أيضاً.

من ناحية أخرى، قد يكون من المُرعب أن نعرف أنَّ الله موجود في كل مكان. فإن فعلت خطأً ما فهذا يعني أنني لن أتمكَّن من الاختباء منه!

في القرن العاشر قبل الميلاد، كتب النبيُّ داود الكلمات التالية بوحي من الله:

«أَيْنَ أَذْهَبُ مِنْ رُوحِكَ؟ وَمِنْ وَجْهِكَ أَيْنَ أَهْرُبُ؟ إِنْ صَعِدْتُ إِلَى السَّمَاوَاتِ فَأَنْتَ هُنَاكَ، وَإِنْ فَرَشْتُ فِي الْهَاوِيَةِ فَهَا أَنْتَ. إِنْ أَخَذْتُ جَنَاحَيِ الصُّبْحِ، وَسَكَنْتُ فِي أَقَاصِي الْبَحْرِ، فَهُنَاكَ أَيْضًا تَهْدِينِي يَدُكَ وَتُمْسِكُنِي يَمِينُكَ. فَقُلْتُ: ‹إِنَّمَا الظُّلْمَةُ تَغْشَانِي›. فَاللَّيْلُ يُضِيءُ حَوْلِي! الظُّلْمَةُ أَيْضًا لاَ تُظْلِمُ لَدَيْكَ، وَاللَّيْلُ مِثْلَ النَّهَارِ يُضِيءُ. كَالظُّلْمَةِ هكَذَا النُّورُ»

(المزمور ١٣٩: ٧-١٢)

لكن يجب علينا أن نُفرِّق بين فكرة وجود الله في كل الأمكنة في جميع الأوقات وبين فكرة «وحدة الوجود» التي تقول بأنَّ الله موجود في كل شيء، وأنَّ كل شيء هو الله. فعلى النقيض من ذلك، سوف نرى أنَّ الكتاب المقدَّس يُعلِّم أنَّ الله مُنفصل عن خليقته؛ فهو ليس جُزءاً منها. كما أنَّ الكتاب المقدس يُعرِّف الله بأنه «كيان» وليس قوَّة مُجرَّدة أو حقيقة مُتعالية.

«أَمَا عَرَفْتَ أَمْ لَمْ تَسْمَعْ؟ إِلهُ الدَّهْرِ الرَّبُّ خَالِقُ أَطْرَافِ الأَرْضِ لاَ يَكِلُّ وَلاَ يَعْيَا. لَيْسَ عَنْ فَهْمِهِ فَحْصٌ»

(إشعياء ٤٠: ٢٨)

٢ . ورأى الله ذلك أنه حسن

هـا قد بدأ الله بعمليَّة الخلق. فبينما كان جميع جُند السماء يُراقبون ما يجري، قام الله بخلق السماء والأرض؛ وبذلك، انتهي اليوم الأوَّل. وكان ما زال هناك خمسة أعمال عظيمة أخرى على وشك أن تكتمل في الأيَّام الخمسة التالية من عمليَّة الخلق.

«أَلاَ تَعْلَمُونَ؟ أَلاَ تَسْمَعُونَ؟ أَلَمْ تُخْبَرُوا مِنَ الْبَدَاءَةِ؟ أَلَمْ تَفْهَمُوا مِنْ أَسَاسَاتِ الأَرْضِ؟ الْجَالِسُ عَلَى كُرَةِ الأَرْضِ وَسُكَّانُهَا كَالْجُنْدُبِ. الَّذِي يَنْشُرُ السَّمَاوَاتِ كَسَرَادِقَ، وَيَبْسُطُهَا كَخَيْمَةٍ لِلسُّكْنِ» (إشعياء ٤٠: ٢١، ٢٢)

يُشَبِّه الكتاب المقدَّس الأرض بخيمة. فهي مكان للسكن؛ بل لعلَّها تكون أفضل مسكن للإنسان في هذا الكون. لكن لكي يكون هذا المكان مُناسباً للسكن، هناك الكثير من الأعمال الإنشائيَّة الأخرى التي ينبغي القيام بها. وهنا نرى الملائكة صامتين فيما تُرفع الستارة عن اليوم الثاني لعمليَّة الخلق حيث يقوم الله بخلق «الجَلَد». لكن ما هو «الجَلَد؟»؟

اليوم الثاني

«وَقَالَ اللهُ: لِيَكُنْ جَلَدٌ فِي وَسَطِ الْمِيَاهِ. وَلْيَكُنْ فَاصِلاً بَيْنَ مِيَاهٍ وَمِيَاهٍ. فَعَمِلَ اللهُ الْجَلَدَ، وَفَصَلَ بَيْنَ الْمِيَاهِ الَّتِي تَحْتَ الْجَلَدِ وَالْمِيَاهِ الَّتِي فَوْقَ الْجَلَدِ. وَكَانَ كَذلِكَ. وَدَعَا اللهُ الْجَلَدَ سَمَاءً. وَكَانَ مَسَاءٌ وَكَانَ صَبَاحٌ يَوْمًا ثَانِيًا» (تكوين ١: ٦-٨)

حينما خلق الله العالم، كانت الأرض مُغطَّاة بالماء. وفي اليوم الثاني، نرى أوَّل إشارة إلى أنَّ العالم الذي خلقه الله في الأصل كان مُختلفاً عن العالم الذي نعرفه الآن. يقول الكتاب المقدَّس إنَّ الله أخذ بعض الماء ووضعه عالياً في السماوات. ورغم أنَّ بعض المُفسِّرين يقولون إنَّ هذا يُشير ببساطة إلى الغيوم، إلاَّ أنَّ البعض الآخر منهم يُنادي بوجود مظلَّة شفَّافة من بخار الماء تُحيط بالكرة الأرضية. وسواء كانت عبارة «المياه التي فوق الجَلَد» تُشير إلى وجود مثل هذه المظلَّة أو عدم وجودها، فإنَّ هناك دلائل تُشير إلى أنَّ المناخ آنذاك كان يختلف عن المناخ الذي نعرفه الآن. فيبدو أنَّ مناخ الأرض بأكملها كان استوائيًّا. فمن المعروف أنَّ الغلاف الجوي الذي يحتوي على نسبة أكبر من بُخار الماء يترك تأثيراً شبيهاً بتأثير البيت الزجاجي على مناخ الأرض. وسوف نتحدث لاحقاً عن الشيء الذي يُعتقد بأنه أدَّى إلى تغيير الأشياء وجعلها بهذه الصورة التي نعرفها عليها الآن. وعلى أيِّ حال، وحسب ما يقوله الكتاب المقدَّس فإنَّ الله خلق «جَلَداً»؛ وقد تكون هذه الكلمة مُرادفة لما يُعرف الآن بالغلاف الجويِّ.*

* ملحوظة: كلمة «جَلَد» هي كلمة مُرادفة لكلمة «فضاء»، ويُمكن أن تعني إمَّا الغلاف الجويِّ المُحيط بالأرض، أو الفضاء الخارجي.

اليوم الثالث

في بداية اليوم الثالث، كانت المياه التي تحت الجَلَد ما زالت تؤلِّف بحراً أو مُحيطاً هائلاً واحداً دون أيِّ أثر لأيِّ أرض جافَّة. ومَرَّة أخرى، قال الله:

«لِتَجْتَمِعِ الْمِيَاهُ تَحْتَ السَّمَاءِ إِلَى مَكَانٍ وَاحِدٍ، وَلْتَظْهَرِ الْيَابِسَةُ. وَكَانَ كَذلِكَ. وَدَعَا اللهُ الْيَابِسَةَ أَرْضًا، وَمُجْتَمَعَ الْمِيَاهِ دَعَاهُ بِحَارًا. وَرَأَى اللهُ ذلِكَ أَنَّهُ حَسَنٌ. وَقَالَ اللهُ: لِتُنْبِتِ الأَرْضُ عُشْبًا وَبَقْلاً يُبْزِرُ بِزْرًا، وَشَجَرًا ذَا ثَمَرٍ يَعْمَلُ ثَمَرًا كَجِنْسِهِ، بِزْرُهُ فِيهِ عَلَى الأَرْضِ. وَكَانَ كَذلِكَ.

فَأَخْرَجَتِ الأَرْضُ عُشْبًا وَبَقْلاً يُبْزِرُ بِزْرًا كَجِنْسِهِ، وَشَجَرًا يَعْمَلُ ثَمَرًا بِزْرُهُ فِيهِ كَجِنْسِهِ. وَرَأَى اللهُ ذلِكَ أَنَّهُ حَسَنٌ. وَكَانَ مَسَاءٌ وَكَانَ صَبَاحٌ يَوْمًا ثَالِثًا» (تكوين ١: ٩-١٣)

يُمكن تقسيم اليوم الثالث إلى قسمين: يتحدَّث القسم الأوَّل من اليوم الثالث عن خلق اليابسة. فحينما غار قاع المحيط إلى أسفل مُشكِّلاً أحواضاً ضخمةً تتجمَّع فيها المياه، ظهرت اليابسة بصورة مُستقلَّة عن البحار والمُحيطات. أمَّا القسم الثاني من اليوم الثالث فيتحدَّث عن خلق النباتات والأشجار.

فمنذ البداية، كان الله يُهيِّئ العالم للسَّكَن. لهذا، فقد خلق الحياة النباتيَّة لكي توفِّر لنا احتياجاتنا الجسديَّة: طعاماً نأكله، وهواءً نقيًّا نستنشقه، وأخشاباً نستخدمها في بناء المنازل.

«لأَنَّهُ هكَذَا قَالَ الرَّبُّ: 'خَالِقُ السَّمَاوَاتِ هُوَ اللهُ. مُصَوِّرُ الأَرْضِ وَصَانِعُهَا. هُوَ قَرَّرَهَا. لَمْ يَخْلُقْهَا بَاطِلاً. لِلسَّكَنِ صَوَّرَهَا. أَنَا الرَّبُّ وَلَيْسَ آخَرُ»

(إشعياء ٤٥: ١٨)

اليوم الرابع

في اليوم الأوَّل للخلق، رفع الله ستارة الظُلمة حينما خلق النور. وفي اليوم الرابع، خلق الله تلك الأشياء التي تُعطي نوراً:

«وَقَالَ اللهُ: 'لِتَكُنْ أَنْوَارٌ فِي جَلَدِ السَّمَاءِ لِتَفْصِلَ بَيْنَ النَّهَارِ وَاللَّيْلِ، وَتَكُونَ لآيَاتٍ وَأَوْقَاتٍ وَأَيَّامٍ وَسِنِينَ. وَتَكُونَ أَنْوَارًا فِي جَلَدِ السَّمَاءِ لِتُنِيرَ عَلَى الأَرْضِ'. وَكَانَ كَذلِكَ».

«فَعَمِلَ اللهُ النُّورَيْنِ الْعَظِيمَيْنِ: النُّورَ الأَكْبَرَ لِحُكْمِ النَّهَارِ، وَالنُّورَ الأَصْغَرَ لِحُكْمِ اللَّيْلِ، وَالنُّجُومَ. وَجَعَلَهَا اللهُ فِي جَلَدِ السَّمَاءِ لِتُنِيرَ عَلَى الأَرْضِ، وَلِتَحْكُمَ عَلَى النَّهَارِ وَاللَّيْلِ، وَلِتَفْصِلَ بَيْنَ النُّورِ وَالظُّلْمَةِ».

«وَرَأَى اللهُ ذلِكَ أَنَّهُ حَسَنٌ. وَكَانَ مَسَاءٌ وَكَانَ صَبَاحٌ يَوْمًا رَابِعًا»

(تكوين ١: ١٤-١٩)

إن كنا نتعجَّب من خلق الله للنور قبل الشمس، فيجب علينا أن نتذكَّر أنَّه من السهل على الله أن يخلق النور، ومن السهل عليه أن يخلق الكواكب المُنيرة أيضاً:

«... أَنَا الرَّبُّ صَانِعُ كُلِّ شَيْءٍ، نَاشِرُ السَّمَاوَاتِ وَحْدِي، بَاسِطُ الأَرْضَ. مَنْ مَعِي؟» (إشعياء ٤٤: ٢٤)

«صَنَعَ الْقَمَرَ لِلْمَوَاقِيتِ. الشَّمْسُ تَعْرِفُ مَغْرِبَهَا» (المزمور ١٠٤: ١٩)

النظام والترتيب

تؤكِّد الشمس، والقمر، والنجوم أنَّ خالق هذا الكون هو إله تنظيم وترتيب. فالنظام هو أساس هذا الكون الذي يسير بدقَّة مُتناهية ويحفظ المواقيت. فنحن نرسم خرائط المَدِّ لسنوات قادمة ونحن واثقون بأنها ستكون دقيقة. كما أننا نُطلق الأقمار الصناعيَّة ونحن على يقين بأنها ستتلاقى مع الكواكب البعيدة في لحظة مُحدَّدة وفقاً لبرمجتها!* وهكذا، فالأرض بأكملها تعتمد على انتظام شروق الشمس وغروبها. وبدون هذا النظام الذي وضعه الله مُسبقاً، فإن مصير الأشياء هو الفناء.

* ملحوظة: لقد استمر القمر الصناعي الأمريكي «جاليليو» - الذي أطلقته إدارة الفضاء والطيران الوطنية «ناسا» - في التحليق لست سنوات قبل أن يصل إلى كوكب المُشتري في الموعد المُحدَّد تماماً!

إنَّ النظام الملحوظ في الكون ناشئ عن قوانين فيزيائيَّة تضبُط جميع الأشياء. ويمكننا أن ندرس هذه القوانين من خلال العلوم المُختلفة مثل علم الفلك، وعلم الأحياء، وعلم الفيزياء، وعلم الكيمياء. وقد وضع الله هذه القوانين لكي تضبط الكون كله بدقَّة مُذهلة.

«هُوَ كَائِنٌ قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ، وَبِهِ يَدُومُ كُلُّ شَيْءٍ.»

(كولوسي ١: ١٧ – التفسيرية)

نحن ننظر إلى هذه القوانين باعتبارها بديهيَّات أو مُسَلَّمات دون أن نُفكِّر في كيف سيكون العالم بدونها. لكن فَكِّر ما الذي يمكن أن يحدث لو أنَّ قانون الجاذبيَّة توقَّف عن العمل لثوانٍ معدودة كُلَّ بضعة أيام! فمن المؤكَّد أنَّ الفوضى والموت سيسودان في العالم كُلِّه. فسوف يكون ذلك أشبَه بإزالة جميع الإشارات الضوئيَّة، ولوحات الوقوف، وحدود السرعة من شوارع مُدننا. وهكذا، فإنَّ هذه القوانين موضوعة لقصدٍ ما، كما أنَّها تضبط كيفيَّة عمل الأشياء بنظام وترتيب.

«لَكَ النَّهَارُ، وَلَكَ أَيْضًا اللَّيْلُ. أَنْتَ هَيَّأْتَ النُّورَ وَالشَّمْسَ. أَنْتَ نَصَبْتَ كُلَّ تُخُومِ الأَرْضِ. الصَّيْفَ وَالشِّتَاءَ أَنْتَ خَلَقْتَهُمَا» (المزمور ٧٤: ١٦، ١٧)

نحن نتعامل مع هذه القوانين الطبيعيَّة باحترام كبير بدافع غريزتنا! فعلى سبيل المثال، فإننا نُبدي حرصاً شديداً حينما نسير فوق المنحدرات الصخريَّة السحيقة لأننا نعرف أنَّ تحدّي قانون الجاذبيَّة ستكون له عواقب وخيمة! وهكذا، فإنَّ وجود قوانين يعني وجود عواقب لمُخالفيها! لهذا، فإنَّ الحكمة تقتضي منَّا أن نتجنَّب العبث مع هذه القوانين بذات الطريقة التي نتجنَّب بها الأوبئة الخطرة!

ويجب أن تعلم يا صديقي أنَّ هذه القوانين – هذا النظام وهذا الترتيب – هو انعكاس لطبيعة الله. فالله هو إله ترتيب وتنظيم!

اليوم الخامس

في اليوم الخامس، خلق الله الأنواع المُختلفة والمُتنوِّعة من الحياة البحريَّة والطيور:

«وَقَالَ اللهُ: 'لِتَفِضِ الْمِيَاهُ زَحَّافَاتٍ ذَاتَ نَفْسٍ حَيَّةٍ، وَلْيَطِرْ طَيْرٌ فَوْقَ الأَرْضِ عَلَى وَجْهِ جَلَدِ السَّمَاءِ'. فَخَلَقَ اللهُ التَّنَانِينَ الْعِظَامَ، وَكُلَّ ذَوَاتِ الأَنْفُسِ الْحَيَّةِ الدَّبَّابَةِ الَّتِي فَاضَتْ بِهَا الْمِيَاهُ كَأَجْنَاسِهَا، وَكُلَّ طَائِرٍ ذِي جَنَاحٍ كَجِنْسِهِ. وَرَأَى اللهُ ذلِكَ أَنَّهُ حَسَنٌ. وَبَارَكَهَا اللهُ قَائِلاً: 'أَثْمِرِي وَاكْثُرِي وَامْلإِي الْمِيَاهَ فِي الْبِحَارِ. وَلْيَكْثُرِ الطَّيْرُ عَلَى الأَرْضِ'. وَكَانَ مَسَاءٌ وَكَانَ صَبَاحٌ يَوْمًا خَامِسًا» (تكوين ١: ٢٠-٢٣)

اليوم السادس

كان اليوم السادس هو ذروة عمليَّة الخلق التي قام بها الله. وقد بدأ الله ذلك اليوم بخلق الحيوانات البريَّة:

«وَقَالَ اللهُ: 'لِتُخْرِجِ الأَرْضُ ذَوَاتِ أَنْفُسٍ حَيَّةٍ كَجِنْسِهَا: بَهَائِمَ، وَدَبَّابَاتٍ، وَوُحُوشَ أَرْضٍ كَأَجْنَاسِهَا'. وَكَانَ كَذلِكَ. فَعَمِلَ اللهُ وُحُوشَ الأَرْضِ كَأَجْنَاسِهَا، وَالْبَهَائِمَ كَأَجْنَاسِهَا، وَجَمِيعَ دَبَّابَاتِ الأَرْضِ كَأَجْنَاسِهَا. وَرَأَى اللهُ ذلِكَ أَنَّهُ حَسَنٌ» (تكوين ١: ٢٤، ٢٥)

الأنواع

نقرأ في اليوم الثالث أنَّ الله أمَرَ الشجر أن «يَعْمَلَ ثَمَراً كَجِنْسِه»؛ ونقرا في اليوم الخامس أنَّ الله أمَرَ الحيوانات البحريَّة والطيور أن تتناسل «كأجناسها»؛ ونقرأ في اليوم السادس أنَّ

الله أمَرَ الحيوانات البريَّة أن تتناسل «كأجناسها». فما المقصود بكلمة «كأجناسها» هنا؟ المقصود ببساطة هو أن تلد القطط قططاً، وأن تلد الكلاب كلاباً، وأن تلد الفيلة فيلةً. وبالتالي، لا حاجة للقلق من أننا إن زرعنا تُفَّاحاً فسوف نجني عنباً!

يمكن للمخلوقات أن تلد سُلالات مختلفة؛ [1] لكن من نفس نوعها الأحيائي. فعلى سبيل المثال، يمكنك أن تُربِّي سُلالات مُختلفة من الخيول وأن تحصل منها على سُلالة جديدة من الخيول؛ لكنها تبقى خيولاً في نهاية المطاف! فأنت لم تحصل على نوع جديد من الحيوانات! بل في حقيقة الأمر أنَّ كلاً من هذه الخيول يمتلك جينات وراثيَّة أقل من القطيع الهجين الذي تناسل منه. من جهة أخرى، بما أنَّ الأنواع ثابتة، فليس هناك ما يدعو المُزارع للخوف من أن تقوم خِراف المزرعة المجاورة بمداهمة مزرعته ليلاً والتزاوج مع المُهرة التي في الإسطبل. وهكذا، يمكننا أن نرى ثانيةً أنَّ الله وضع في هذا الكون قوانين تحفظ النظام.

كامل، وبلا عيب، ومُقدَّس

أثناء قيام الله بخلق هذا الكون، نقرأ في الكتاب المقدَّس الجُملة التالية التي تتكرَّر عِدَّة مَرَّات:

«... وَرَأَى اللهُ ذلِكَ أَنَّهُ حَسَنٌ» (تكوين ١: ٢٥)

من المؤكَّد أنَّ هذه الجُملة القصيرة مُحمَّلة بالمعاني. فحينما خلق الله الأشياء، فقد قام بذلك بصورة حسنة للغاية:

«اَللهُ طَرِيقُهُ كَامِلٌ. قَوْلُ الرَّبِّ نَقِيٌّ ...» (المزمور ١٨: ٣٠)

لا يمكننا نحن البشر أن نقوم بالأشياء بطريقة كاملة وبلا أخطاء! فقد يكون ما نقوم به مقبولاً تماماً، لكنه لا يخلو من العيوب! أمَّا حينما قام الله بعمليَّة الخلق، فقد جعل كل الأشياء كاملةً وبلا عيب.

يقول الكتاب المقدَّس إنَّ الله نفسه كامل وبلا عيب. ونحن نستخدم كلمات مثل «طاهر» أو «قُدّوس» أو «بار» لوصف بعض جوانب هذا الكمال.

«... قُدُّوسٌ، قُدُّوسٌ، قُدُّوسٌ رَبُّ الْجُنُودِ ...» (إشعياء ٦: ٣)

«... وَيَتَقَدَّسُ الإِلهُ الْقُدُّوسُ بِالْبِرِّ» (إشعياء ٥: ١٦)

سوف نتعمَّق في معاني هذه الكلمات أكثر فأكثر كُلَّما قطعنا شوطاً أكبر في دراسة كلمة الله. أمَّا ما نحتاج لمعرفته في هذه المرحلة فهو أنَّ الكلمات «طاهر» و«قُدُّوس» و«بار» تُستخدم لوصف بعض جوانب طبيعة الله الكاملة.

ويجب علينا أن نُدرك أنَّنا مهما وصفنا قداسة الله فلن نوفيها حَقَّها الكامل؛ وهذا أمر يجب علينا أن نُبقيه في أذهاننا طوال دراستنا لهذا الموضوع. كما أنَّ إدراكنا لبِرَّ الله هو أمر أساسي وجوهري يُساعدنا على أن نفهم بوضوح ما أعلنه الله للبشر. وحيث أنَّ هذا الأمر يُعتبر جزءاً لا يتجزَّأ من الأُحجية، فيجب علينا أن نتذكره على الدوام أثناء قراءتنا لهذا الكتاب.

علاوة على ذلك، فإنَّ الكمال هو من صفات الله أيضاً؛ فهو جانب آخر من عَظَمته! وحيث أنه كامل، فلا يمكنه إلاَّ أن يخلق خليقةً كاملةً. لقد تغيَّرت الخليقة كما سنرى لاحقاً؛ لكنها

في بادئ الأمر كانت حسنة جدًّا. فقد قال الله إنها كانت حسنة وكاملة!

الله يهتَمّ

كان بإمكان الله أن يخلق جميع النباتات والحيوانات باللَّونين الأبيض والأسود؛ لكنه اختار أن يجعل كل شيء مُلوَّناً بألوان عديدة ومُتنوِّعة. وفي الحقيقة أنَّ الله لم يخلق الألوان فحسب؛ بل وهبنا أيضاً عيوناً قادرةً على رؤية هذه الألوان والتمتُّع بها!

كذلك، فقد جَعَل الله لكل صنف من أصناف الطعام مذاقاً خاصًّاً ينفرد به. لكنه لم يخلق النكهات المُتنوِّعة فحسب؛ بل زوَّدنا أيضاً بحاسَّة الذوق لكي نتمتَّع بالأنواع المختلفة من الأطعمة.

ومن بين الأشياء الأخرى التي قام بها الله هو أنه جعل لكل نوع من الزهور عبيره وشذاه الخاص، وأنه وهب كل واحد مِنَّا أنفاً يمكنه أن يُميِّز الروائح المُختلفة وأن يتمتَّع بها.

كذلك، فقد كان الله قادراً على حَصر الحياة النباتيَّة ببضعة أنواع فقط. وفي الحقيقة أنَّ بعض الأصناف النباتيَّة قادرة على توفير حاجتنا من الطعام. لكن رغم ذلك فإنَّنا نرى تنوُّعاً هائلاً. لهذا، من الواضح تماماً أنَّ الله يهتم بنا كثيراً حيث يقول الكتاب المقدَّس

«... يَمْنَحُنَا كُلَّ شَيْءٍ بِغِنًى لِلتَّمَتُّعِ» (١ تيموثاوس ٦: ١٧)

وهكذا، فإنَّ الله لا يمتلك القدرة الكاملة على التنويع فحسب؛ بل إنَّ قُدرته العجيبة هذه ممزوجة بمحبَّته العجيبة لنا واهتمامه العجيب بنا. لهذا، فإنَّ الله عظيم، وقد أظهر لنا نفسه من خلال أعماله العظيمة والرحيمة في هذا العالم الذي نعيش فيه.

وما زال الله يُبهِر البشر بخليقته! فقد أخفى الله الكثير عن أعين البشر لعِدَّة قرون وذلك بسبب عدم قدرتنا على رؤية تلك الأشياء أو فهمها. لكن بعد اختراع المجهر الإلكتروني، وأجهزة شَطر الذرَّة، والتلسكوبات الفلكيَّة، وغيرها من الوسائل التكنولوجيَّة، أصبح بإمكاننا أن نُلقي نظرة على تلك الجوانب الخفيَّة. والغريب في الأمر أنَّ العُلماء لم يشعروا بالملل بسبب كثرة الاكتشافات. فكُلَّما اكتشفنا المزيد اندهشنا أكثر وأدركنا أنَّ ما نعرفه ليس سوى القليل. رغم ذلك فإنَّ عجائب هذه الخليقة موجودة من حولنا على الدوام منذ أن قام هذا الإله العجيب بخلقها!

«عَظِيمٌ هُوَ الرَّبُّ وَحَمِيدٌ جِدًّا، وَلَيْسَ لِعَظَمَتِهِ اسْتِقْصَاءٌ» (المزمور ١٤٥: ٣)

بقيت هناك خطوة واحدة فقط قبل أن تغيب شمس اليوم السادس؛ أي قبل أن تكتمل خليقة الله! ... أجل، لقد بقي هناك خَلْق الرجل والمرأة!

٣ . الرَّجُل والمرأة

اليوم السادس (تتمَّة)

بدأ اليوم السادس بخلق الحيوانات. ثم فجأةً يتغيَّر مسار القصَّة بالكامل. فحتَّى ذلك الحين، كان الله يُهيِّئ الأرض للسكن. ولا بُدَّ أنَّ الملائكة كانت تتساءل بتعجب عن خِطَّة الله النهائيَّة! فهل ستكون الأرض مسكناً لهم؟ ورغم أنَّنا لا نعرف ما إذا كانت الملائكة قد استمرَّت بالتفكير بهذه الطريقة أم لا، إلاَّ أنَّ الشيء المؤكَّد هو أنَّ طريقة خلق الله للرجلِ أدهشت الملائكة كثيراً!

«وَقَالَ اللهُ: "نَعْمَلُ❖ الإِنْسَانَ عَلَى صُورَتِنَا❖ كَشَبَهِنَا❖، فَيَتَسَلَّطُونَ عَلَى سَمَكِ الْبَحْرِ وَعَلَى طَيْرِ السَّمَاءِ وَعَلَى الْبَهَائِمِ، وَعَلَى كُلِّ الأَرْضِ، وَعَلَى جَمِيعِ الدَّبَّابَاتِ الَّتِي تَدِبُّ عَلَى الأَرْضِ". فَخَلَقَ اللهُ الإِنْسَانَ عَلَى صُورَتِهِ. عَلَى صُورَةِ اللهِ خَلَقَهُ. ذَكَرًا وَأُنْثَى خَلَقَهُمْ»

(تكوين ١: ٢٦، ٢٧)

❖ ملحوظة: رُبَّما تتساءل عن سبب تحدُّث الله هنا بصيغة الجَمع: «نَعْمَلُ ... صورَتنا ... شَبَهِنا»! لهذا، سوف نتطرَّق إلى هذا الأمر في جزءٍ لاحقٍ من هذا الكتاب.

صورة الله

يقول الكتاب المقدَّس إنَّ الله خَلَق الإنسان على صورته. ومن المؤكَّد أنَّ هذا لا يعني أننا صورة طبق الأصل عن الله. فما من أحد منَّا كُليّ المعرفة، أو كُليّ القوَّة، أو كُليّ الحضور. كما أنَّ الكتاب المقدَّس لا يُعَلِّم أننا آلهة صَغيرة؛ بل يُعلِّم أنَّ الإنسان هو أشبه بمرآة تعكس صورة الشيء، لكنها ليست الشيء نفسه. وهكذا، يُمكننا القول إنَّ الإنسان يمتلك بعض الصفات المُشتركة مع الله.

لقد خلق الله الإنسان ووهبه **عقلاً**. ويمكننا القول إنَّ الله وهبنا مقداراً ضئيلاً من عقله؛ لهذا، فنحن نمتلك القدرة على الاستقصاء، والفهم، والابتكار - وهي جميعها قدرات يمتلكها الله لكن على نطاق أوسع بما لا يُقاس! ورغم أننا نمتلك عقلاً إلاَّ أنَّ معرفتنا ليست كاملة. بل في حقيقة الأمر أننا نولد بلا معرفة تقريباً حيث يتوجَّب علينا أن نتعلَّم كل شيء نحتاج لمعرفته.

كذلك، فقد وهب الله الإنسان **عواطف ومشاعر**. ورغم أنَّ كلمة «عواطف» أو «مشاعر» تنطوي على بعض المعاني السلبيَّة في بعض الأحيان، إلاَّ أنها تحمل معانٍ إيجابيَّة أيضاً. فالقدرة على الشعور أمر هام جداً لنا كبشر. فبدون هذه المشاعر، سوف تكون طريقة تجاوبك مع الآخرين أشبه بالرجُل الآلي! لكن على النقيض من الرجُل الآلي، فإنَّ الكتاب المقدَّس يُخبرنا بأنَّ الربَّ رحيم، ورؤوف، وأنه يشعر بالغضب حينما يرى الظُّلم. وما من شكٍّ أنه من المُرعب أن يكون الله بلا قلبٍ، وبلا مشاعر، وبلا قُدرة على الشعور بالحُب أو إظهار العطف من نحونا نحن البشر. وهكذا، فقد وهبنا الله هذه المشاعر لأنه يمتلك مشاعر هو أيضاً.

كذلك، فقد أعطى الله الإنسان **إرادة** (أو مشيئة) حُرَّة. وغالباً ما ننظر إلى قدرة الإنسان على اتخاذ القرارات بنفسه على أنها شيء مُسلَّمٌ به؛ لكنَّها في حقيقة الأمر هِبَة من الله

للإنسان. فالقدرة على الاختيار تُعطي الإنسان تنوُّعاً يُتيح له التمتُّع بالحياة. فالبعض يُحب الأرز، والبعض الآخر يُحب البطاطس. وحينما يعطش الإنسان فبإمكانه أن يتناول الماء، أو الحليب، أو الشاي، أو عصير التفاح، أو عصير البرتقال، أو غيره؛ فالخيارات عديدة وبلا حُدود!

إنَّ قُدرتنا على الاختيار تجعلنا مُنفصلين عن عالم الرجُل الآلي الذي لا يستطيع أن يتَّخذ أيَّة قرارات مُستقلَّة. فالرجُل الآلي لا يقوم إلاَّ بالأشياء التي تمَّت برمجته عليها. أمَّا الإنسان فيتمتَّع بإرادة حُرَّة تُتيح له أن يتبع الله – لا كرجُلٍ آلي؛ بل كشخص يُدرك ويفهم أنَّ الله يهتم به وأنه يُريد له الأفضل.

إنَّ **العقل، والعاطفة، والإرادة** هي صفات يمتلكها الإنسان لكونه مخلوقاً على صورة الله. وهناك جوانب أخرى يمكننا أن نُشير إليها؛ لكنَّنا نُفضِّل مُتابعة قصَّتنا حيث يقول الكتاب المقدَّس:

«وَجَبَلَ الرَّبُّ الإِلهُ آدَمَ تُرَابًا مِنَ الأَرْضِ، وَنَفَخَ فِي أَنْفِهِ نَسَمَةَ حَيَاةٍ. فَصَارَ آدَمُ نَفْسًا حَيَّةً»
(تكوين ٢: ٧)

غالباً ما تقترن عبارة «نَسَمةَ حَياة» بالروح أو بالجانب غير المادي من الإنسان. وهذا جانب آخر من صورة الله لأنَّ الله روح أيضاً. وكما أشرنا سابقاً، لا يمكن للإنسان أن يرى الأرواح لأنها لا تمتلك أجساداً ماديَّة. لكن في حالة الإنسان، اختار الله أن يُعطيه هيكلاً مادياً مؤلفاً من لحم وعظم لكي تسكن فيه روحه. وفي الحقيقة أنَّ هذا المسكن مخلوق من تُراب الأرض. وحالما خَلق اللّه جسم الإنسان، كان كل شيء كاملاً، لكنه كان جسداً ميِّتاً لا حياة فيه. ولم يُصبح ذلك الجسد حيًّا إلا حينما نفخ الله في أنف الإنسان نَسَمة حياة. وهكذا، فالله هو الوحيد الذي يستطيع أن يهب الحياة. فما من إنسان أو ملاك يستطيع ذلك على الإطلاق. ومَرَّةً أخرى نرى أنَّ الله يتميَّز عن كُلِّ ما عَداه؛ فهو أعظم الكُلِّ!

مُعينٌ نَظيره

كان اسم أوَّل إنسان خلقه الله هو «آدم» والذي يعني «رَجُل». وبعد ذلك، خلق الله المرأة:

«وَقَالَ الرَّبُّ الإِلهُ: لَيْسَ جَيِّدًا أَنْ يَكُونَ آدَمُ وَحْدَهُ، فَأَصْنَعَ لَهُ مُعِينًا نَظِيرَهُ» (تكوين ٢: ١٨)

«فَأَوْقَعَ الرَّبُّ الإِلهُ سُبَاتًا عَلَى آدَمَ فَنَامَ، فَأَخَذَ وَاحِدَةً مِنْ أَضْلاَعِهِ وَمَلأَ مَكَانَهَا لَحْمًا. وَبَنَى الرَّبُّ الإِلهُ الضِّلْعَ الَّتِي أَخَذَهَا مِنْ آدَمَ امْرَأَةً وَأَحْضَرَهَا إِلَى آدَمَ. ... وَكَانَا كِلاَهُمَا عُرْيَانَيْنِ، آدَمُ وَامْرَأَتُهُ، وَهُمَا لاَ يَخْجَلاَنِ» (تكوين ٢: ٢١، ٢٢، ٢٥)

أثارت هذه الآيات الأخيرة جدلاً ساخناً بين المُفسِّرين والنُقَّاد. فقد رأى البعض أنَّ الله خلق المرأة كمواطنة من الدرجة الثانية. لكنَّ الأمر ليس كذلك. فقد أخذ الله ضلعاً من صدر الرجل وخلق المرأة منه لكي تكون رفيقةً له وقريبةً من قلبه؛ ولم يخلقها من قدمه لئلاَّ يدوسها! وقد أطلق آدم على زوجته اسم «حَوَّاء» والذي يعني «واهبة الحياة».

الجنَّة الكاملة

«وَغَرَسَ الرَّبُّ الإِلهُ جَنَّةً فِي عَدْنٍ شَرْقًا، وَوَضَعَ هُنَاكَ آدَمَ الَّذِي جَبَلَهُ. وَأَنْبَتَ الرَّبُّ الإِلهُ مِنَ الأَرْضِ كُلَّ شَجَرَةٍ شَهِيَّةٍ لِلنَّظَرِ وَجَيِّدَةٍ لِلأَكْلِ ...»

(تكوين ٢: ٨-٩)

لم تكُن هناك بساتين أو حدائق حيوان تُضاهي جَنَّة عَدْن هذه. فقد كانت جَنَّةً كاملةً ورائعةً بكل معنى الكلمة حيث كانت أوراقها خضراء يانعة، ومياهها صافية ولامعة وتمتلئ بشَتَّى أصناف الأسماك، وكانت هناك أنواع كثيرة جداً من الحيوانات، وكان جمالها يفوق الوصف! إلى جانب ذلك، كان الطقس مُختلفاً أيضاً حيث تقول كلمة الرب:

«كُلُّ شَجَرِ الْبَرِّيَّةِ لَمْ يَكُنْ بَعْدُ فِي الأَرْضِ، وَكُلُّ عُشْبِ الْبَرِّيَّةِ لَمْ يَنْبُتْ بَعْدُ، لأَنَّ الرَّبَّ الإِلهَ لَمْ يَكُنْ قَدْ أَمْطَرَ عَلَى الأَرْضِ، وَلاَ كَانَ إِنْسَانٌ لِيَعْمَلَ الأَرْضَ. ثُمَّ كَانَ ضَبَابٌ يَطْلَعُ مِنَ الأَرْضِ وَيَسْقِي كُلَّ وَجْهِ الأَرْضِ»

(تكوين ٢: ٥، ٦)

في الحقيقة أننا لا نملك صورة واضحة عن جَنَّة عَدْن هذه! لكن من المؤكَّد أنَّ الله لم يخلق هذه الجنَّة لكي يعمل فيها آدم وحوَّاء جاهدين من أجل البقاء. فقد كان كل ما يحتاجان إليه مُتاحاً ومُتوفراً بكثرة في هذه الجنَّة التي كانت مكاناً رائعاً وهانئاً للعيش!

الخالق–المالك

لم يسأل الله آدم وحوَّاء عمَّا إذا كانا يرغبان في العيش في جَنَّة عَدْن أم لا؛ بل إنه كان يعرف ما هو الأفضل لهما. ومن المؤكَّد أنَّ الله يستطيع أن يتصرَّف دون أن يستشير أحداً لأنه هو خالق كل شيء ومالك كل شيء في هذا الكون (في الفصل السابق سردنا مثلاً عن أن صانع المجداف هو أيضاً مالكه):

«لَكَ يَا رَبُّ الْعَظَمَةُ وَالْجَبَرُوتُ وَالْجَلاَلُ وَالْبَهَاءُ وَالْمَجْدُ، لأَنَّ لَكَ كُلَّ مَا فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ. لَكَ يَا رَبُّ الْمُلْكُ، وَقَدِ ارْتَفَعْتَ رَأْسًا عَلَى الْجَمِيعِ»

(١ أخبار ٢٩: ١١)

«لِلرَّبِّ الأَرْضُ وَمِلْؤُهَا. الْمَسْكُونَةُ، وَكُلُّ السَّاكِنِينَ فِيهَا» (المزمور ٢٤: ١)

«اعْلَمُوا أَنَّ الرَّبَّ هُوَ اللهُ. هُوَ صَنَعَنَا، وَلَهُ نَحْنُ شَعْبُهُ وَغَنَمُ مَرْعَاهُ»

(المزمور ١٠٠: ٣)

وكما أنَّ الملائكة تخضع لله لأنه هو الذي خلقها، كذلك ينبغي على الإنسان أن يخضع لله هو الآخر لأنه خليقته! وكما أنَّ الله جعل الملائكة خادمةً له، فقد أعطى الإنسان أيضاً مسئوليَّة العناية بالأرض.

«وَأَخَذَ الرَّبُّ الإِلهُ آدَمَ وَوَضَعَهُ فِي جَنَّةِ عَدْنٍ لِيَعْمَلَهَا وَيَحْفَظَهَا» (تكوين ٢: ١٥)

فترة الاختبار

رُغم أنَّ الله لم يستشر آدم وحوَّاء قبل أن يضعهما في جَنَّة عَدْن، إلاَّ أنَّ هذا لا يعني أنهما لم يكونا مُخيَّرين. فقد خلق الله الإنسان وأعطاه إرادة حُرَّة؛ أي قُدرة على الاختيار. لكن فيما يتعلَّق ببعض جوانب الحياة – كالمحبَّة مثلاً – فإنَّ القدرة على الاختيار تُصبح عديمة المعنى إذا لم يكن أمام المرء بدائل. لهذا، فقد وضع الله أمام الإنسان خياراً بسيطاً يتعلَّق بشجرتين اثنتين:

«... وَشَجَرَةَ الْحَيَاةِ فِي وَسَطِ الْجَنَّةِ، وَشَجَرَةَ مَعْرِفَةِ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ»

(تكوين ٢: ٩)

الشجرة الأولى المذكورة هنا هي شجرة الحياة التي إن أكل المرء منها فسوف يعيش إلى الأبد. وبالتالي، فما من مُشكلة أبداً في الأكل من هذه الشجرة!

أمَّا الشجرة الثانية فيأتي الحديث عنها مصحوباً بتحذير! إنها شجرة معرفة الخير والشر. وقد كان آدم وحوَّاء يعرفان عن الخير؛ أمَّا الشر فكان غريباً عليهما. فقد خلقهما الله كاملين، وكانا خاليين من أي عيوب أو خطايا. فقد كان كل ما يعرفانه هو صلاح الله. ويقول الكتاب المقدَّس إنه إن أكل آدم وحوَّاء من ثمر هذه الشجرة فلن يعرفا الخير فحسب؛ بل وسيعرفان الشر أيضاً:

«وَأَوْصَى الرَّبُّ الإِلهُ آدَمَ قَائِلاً: مِنْ جَمِيعِ شَجَرِ الْجَنَّةِ تَأْكُلُ أَكْلاً، وَأَمَّا شَجَرَةُ مَعْرِفَةِ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ فَلاَ تَأْكُلْ مِنْهَا، لأَنَّكَ يَوْمَ تَأْكُلُ مِنْهَا مَوْتًا تَمُوتُ» (تكوين ٢: ١٦، ١٧)

لقد رأينا في السابق أنَّ تجاهُل أحد القوانين التي وضعها الله في الطبيعة (مثل قانون الجاذبيَّة) له محاذيره وعواقبه. وينطبق هذا المبدأ خرق القانون له عواقب وخيمة على جميع شرائع الله ووصاياه. وفي هذه الحالة، أعطى الله الإنسان وصيَّة واحدة فقط: «لا تأكُل من ثمر تلك الشجرة». وقد أوضح الله لآدم وحوَّاء عاقبة تعدِّيهما على وصيَّته هذه قائلاً بأنهما سيموتان! وسوف نتحدَّث عن موضوع الموت لاحقاً.

كانت هذه الشجرة هي التي جعلت الإنسان مُميَّزاً عن سائر المخلوقات. فالإنسان يتمتَّع بإرادة حُرَّة في أن يأكل أو أن لا يأكل، وفي أن يُطيع أو أن لا يُطيع! وبما أنَّ آدم وحوَّاء قد حصلا على هذا الامتياز، فهذا يعني أنهما لم يكونا رَجُلاً وامرأةً آليَّين يتصرَّفان بالطريقة التي تمَّت برمجتهما عليها. فهناك فرق كبير بين الشخص المُبرمج للقيام بشيء ما أو الذي يُطيعك رُغماً عنه، وبين الشخص الذي يفعل ذلك طوعاً واختياراً. فالقدرة على الاختيار هي التي تُضفي على كلمة «يُطيع» معنىً وعُمقاً، وهي التي تجعل العلاقات حقيقيَّة.

لم يكن هذا القيد الوحيد على آدم وحوَّاء يُمثِّل أيَّ صعوبة على الإطلاق! فالموقف لم يكن مثلما نراه في بعض لوحات الرسَّامين حيث يجلس آدم وحوَّاء تحت شجرتين وحيدتين تحملان القليل من الثمار التي ينبغي عليهما الاختيار من إحداها. بل في حقيقة الأمر أنَّه كانت هناك الكثير من الأشجار المُثمرة:

«وَأَنْبَتَ الرَّبُّ الإِلهُ مِنَ الأَرْضِ كُلَّ شَجَرَةٍ شَهِيَّةٍ لِلنَّظَرِ وَجَيِّدَةٍ لِلأَكْلِ» (تكوين ٢: ٩)

مخلوقون لمجده

حينما أعطى الله آدم وحوَّاء حُريَّة الاختيار، فهو لم يكُن يعني بذلك أنه بإمكانهما أن يتمرَّدا عليه وأن يفعلا ما يحسُن في أعيُنهما. بل في حقيقة الأمر أنَّ الله خلق الإنسان لكي يُمجِّدُه ويُكرمه:

«أَنْتَ مُسْتَحِقٌّ أَيُّهَا الرَّبُّ أَنْ تَأْخُذَ الْمَجْدَ وَالْكَرَامَةَ وَالْقُدْرَةَ، لأَنَّكَ أَنْتَ خَلَقْتَ كُلَّ الأَشْيَاءِ، وَهِيَ بِإِرَادَتِكَ كَائِنَةٌ وَخُلِقَتْ» (سفر الرؤيا ٤: ١١)

حينما يكون الابن مُطيعاً لأبيه فإنه يُكرمه بذلك. وكذلك الحال بالنسبة للإنسان والله. فقد خلق الله الإنسان وأعطاه إرادةً حُرَّةً لكي يُمجِّده من خلالها عن طريق إطاعته الطوعيَّة له ولوصاياه. وبما أنَّ الله هو خالق هذا الكون، فهو يستحق كل المجد والكرامة التي يُمكن للإنسان أن يُقدِّمها له. ويجب أن نَعلم أنَّ مثل هذه الطاعة تؤدِّي إلى منافع وفوائد عظيمة. فالكتاب المقدَّس يقول إنه حينما يسير الإنسان بحسب خطَّة الله لحياته فسوف يجد سعادة غامرة، ويشعر بالرضا وتحقيق الذات. وقد كان هذا الأمر ينطبق أيضاً على آدم وحوَّاء:

«وَبَارَكَهُمُ اللهُ وَقَالَ لَهُمْ: أَثْمِرُوا وَاكْثُرُوا وَامْلأُوا الأَرْضَ، وَأَخْضِعُوهَا، وَتَسَلَّطُوا عَلَى

سَمَكِ الْبَحْرِ وَعَلَى طَيْرِ السَّمَاءِ وَعَلَى كُلِّ حَيَوَانٍ يَدِبُّ عَلَى الأَرْضِ» (تكوين ١: ٢٨)

الإنسان – صديق الله

كان الله يفعل الأفضل لآدم وحوَّاء، كما أنه كان موجوداً لتسديد كل احتياجاتهما:

«وَقَالَ اللهُ: 'إِنِّي قَدْ أَعْطَيْتُكُمْ كُلَّ بَقْلٍ يُبْزِرُ بِزْرًا عَلَى وَجْهِ كُلِّ الأَرْضِ، وَكُلَّ شَجَرٍ فيه ثَمَرُ شَجَرٍ يُبْزِرُ بِزْرًا لَكُمْ يَكُونُ طَعَامًا. وَلِكُلِّ حَيَوَانِ الأَرْضِ وَكُلِّ طَيْرِ السَّمَاءِ وَكُلِّ دَبَّابَةٍ عَلَى الأَرْضِ فِيهَا نَفْسٌ حَيَّةٌ، أَعْطَيْتُ كُلَّ عُشْبٍ أَخْضَرَ طَعَامًا'. وَكَانَ كَذلِكَ» (تكوين ١: ٢٩، ٣٠)

ثُمَّ يتحدَّث الكتاب المقدَّس عن مجيء الله عند هبوب ريح النهار لكي يسير مع الإنسان. قد يكون من الصعب علينا جداً أن نستوعب هذه الفكرة. فلا يمكن لعقلنا أن يتخيَّل أنه يُمكن للإنسان أن يعيش في محضر الله. وهكذا، من الواضح أنَّ شيئاً ما قد تغيَّر! رغم ذلك، فإنَّ الكتاب المقدَّس واضح تماماً في أنَّ الله لم يكُن خالقاً بعيداً عن الإنسان؛ بل كان يتمتَّع بشَرِكَة حميمة مع آدم وحوَّاء. علاوة على ذلك، حيث أنَّ آدم وحوَّاء كانا بلا خطيَّة حتى ذلك الوقت فقد كانا يتمتَّعان بكمالٍ يُتيح لهما المكوث في محضر الله – فلا يمكن إلاَّ للأشخاص الكاملين [٢] أن يتواجدوا في محضر الله.

نحن نعرف أنَّ العائلة المثاليَّة هي تلك التي يُقدِّم فيها الأب والأم أعظم محبَّة وأفضل عناية لأبنائهما، في حين يُقدِّم الأبناء بدورهم الإكرام لوالديهم عن طريق محبتهم وطاعتهم لهما. وقد كانت هذه هي العلاقة التي تربط آدم وحواء بالله. فقد كان الله يُحبهما ويعتني بهما، وكانا هُما يُحبَّان الله ويُكرمانه عن طريق إطاعتهما له. وقد خلق الله الأشياء لتسير على هذا النحو.

اكتمال عمليَّة الخلق

«وَرَأَى اللهُ كُلَّ مَا عَمِلَهُ فَإِذَا هُوَ حَسَنٌ جِدًّا. وَكَانَ مَسَاءٌ وَكَانَ صَبَاحٌ يَوْمًا سَادِسًا» (تكوين ١: ٣١)

غالباً ما نبدأ المشاريع الجديدة بهمَّة وحماسة كبيرتين. لكن بعد مرور بعض الوقت، فإننا نفقد اهتمامنا ونترك المشروع قبل اكتماله! لكنَّ الله ليس كذلك. فهو يُنجز الأعمال التي يبدأها. ورغم أنَّنا قد نُغيِّر آراءنا وخططنا، إلاَّ أنَّ الله لا يفعل ذلك:

«أمَّا مَقَاصِدُ الرَّبِّ فَتَثبتُ إلى الأبدِ، وأفكارُ قَلبه تدُومُ مَدَى الدُّهورِ» (المزمور ٣٣: ١١ – التفسيرية)

بخلق آدم وحوَّاء، اكتملت عمليَّة الخَلق. ويُخبرنا الكتاب المقدَّس أنَّ الله استراح في اليوم السابع – لا لأنَّه شعر بالتعب، بل لأنَّ خليقته قد اكتملت. فقد كان ذلك وقت فرحٍ بما صنع!

الفصل الرابع

١. الشيطان
٢. أحقًّا قال الله؟
٣. أين أنت؟
٤. الموت.

١ . الشيطان

انتهى الله من عمليَّة الخلق وقال إنَّ ما صنعه «حَسَنٌ جِدًّا». وهكذا، كان كل شيءٍ مُنظَّماً ومُرتَّباً، ولم يكن هناك ألم، ولا أمراض، ولا صراع من أجل بقاء الأصلح والأقوى، ولا خلافات، والأهم من ذلك كُلِّه هو أنه لم يكُن هناك موت! كذلك، كانت هناك علاقة، وشركة، وصداقة قويَّة تربط بين الله والإنسان. وكانت جَنَّة عَدْن مكاناً رائعاً للعيش، وكان كل شيءٍ على ما يُرام.

لكننا نُعاني في أيامنا هذه من الآلام، والأمراض، وبقاء الأصلح! وأحياناً تكون أمنيتنا الوحيدة هي أن تكون الخلافات الكلاميَّة هي مُشكلتنا الوحيدة نحن البشر. لكن للأسف الشديد، فإنَّ الحروب المُدمِّرة تكتسح العديد من دول العالم، والأقوياء يسحقون الضُعفاء، والمُجتمعات تُعاني من إساءة استخدام المسئولين للسُّلطة سواء داخل العائلة أو في المؤسسات المُختلفة، وكل الأشياء من حولنا تتهاوى وتتعطَّل وتتلف! وهكذا، فقد باتت الحياة بأكملها – بدءاً بمملكة الحيوان وانتهاءً بممالك البشر – عبارة عن سلسلة متواصلة من النزاع والصراع لدرجة أنَّ العالم لم يَعُدْ مكاناً آمناً للعيش! فما الذي حدث يا تُرى؟

لوسيفر

يرجع السبب في ذلك كُلِّه إلى جَنَّة عَدن حيث يقول الكتاب المقدَّس عن لوسيفر إنه كان موجوداً هناك:

«كُنْتَ فِي عَدْنٍ جَنَّةِ اللهِ. كُلُّ حَجَرٍ كَرِيمٍ سِتَارَتُكَ ...» (حزقيال ٢٨: ١٣)

لقد ذكرنا سابقاً أنَّ لوسيفر كان أقوى الكائنات الروحيَّة التي خلقها الله، وأنَّ اسمه يعني «كوكب الصُّبح». وينتمي لوسيفر إلى الرُتبة الملائكيَّة التي تُدعى «كروبيم»، وقد اختاره الله للقيام ببعض المسئوليَّات الخاصَّة التي جعلته يَمْثُل دوماً في محْضَر الله.

«أَقَمْتُكَ حارِساً يَحْرسُ جَبَلَ اللهِ المُقَدَّسِ ...»

(حزقيال ٢٨: ١٤ بحسب الترجمة العربية المُشتركة)

كذلك، كان لوسيفر كاملاً. كما أنه يوصف في الكتاب المقدَّس بأنه كان يتمتَّع بجمالٍ وذكاءٍ فائقين:

«أَنْتَ كَامِلٌ فِي طُرُقِكَ مِنْ يَوْمَ خُلِقْتَ ...» (حزقيال ٢٨: ١٥)

«... أَنْتَ خَاتِمُ الْكَمَالِ، مَلآنٌ حِكْمَةً وَكَامِلُ الْجَمَالِ» (حزقيال ٢٨: ١٢)

و مع أنَّ لوسيفر كان أقوى ملاك خلقه الله، إلاَّ أنه لا يوجد ما يُشير في الكتاب المقدَّس إلى أنه كان يُهيمن على الكائنات الروحيَّة الأخرى.

الكبرياء

لا نعرف متى وقع الحدث التالي تحديداً؛ لكن من المُرجَّح أنه حدث بعد وقتٍ قصيرٍ من انتهاء عمليَّة الخلق. ورغم أنه يوجد اختلاف في الآراء حول الوقت الذي وقع فيه ذلك الحدث، إلاَّ أنَّ ما حدث كان واضحاً تمام الوضوح. فالكتاب المقدَّس يقول إنَّ لوسيفر أصبح

مُتكبِّراً بسبب جماله وقوَّته. كذلك، فقد أصبح لوسيفر طَموحاً أكثر ممَّا ينبغي حيث يذكُر الكتاب المقدَّس خمسةً من أقوال لوسيفر التي تُشير إلى كبريائه وطموحه! ويمكننا القيام بدراسة كاملة حول هذه الأقوال؛ لكن يكفينا هُنا أن نقول إنَّ لوسيفر أراد أن يقوم بثورة ضدَّ الله.

كَيْفَ سَقَطْتِ مِنَ السَّمَاءِ يَا زُهَرَةُ، بِنْتَ الصُّبْحِ؟ كَيْفَ قُطِعْتِ إِلَى الأَرْضِ يَا قَاهِرَ الأُمَمِ؟ وَأَنْتِ قُلْتِ فِي قَلْبِكِ:
أَصْعَدُ إِلَى السَّمَاوَاتِ؛
أَرْفَعُ كُرْسِيِّي فَوْقَ كَوَاكِبِ أو ملائكة اللهِ؛
أَجْلِسُ عَلَى جَبَلِ الاجْتِمَاعِ فِي أَقَاصِي الشَّمَالِ.
أَصْعَدُ فَوْقَ مُرْتَفَعَاتِ السَّحَابِ؛
أَصِيرُ مِثْلَ الْعَلِيِّ♦ (إشعياء ١٤: ١٢-١٤)

♦ ملحوظة: كلمة «العَلِيّ» هي من أسماء الله.

لكنَّ لوسيفر لم يكن راغباً في الاستيلاء على السماء فحسب، بل قَرَّر أن يكون مثل الله العليِّ. وباختصار شديد، فقد كان لوسيفر عازماً على إحداث انقلاب في السماء لكي يجلس مكان الله، ويُصبح قائداً على جميع الملائكة وحاكماً للكون! وهكذا، فقد كان قلب لوسيفر مُمتلئاً بالطموح والكبرياء الزائدين!

كانت الثغرة الوحيدة في خطَّة لوسيفر هي أنَّ الله يعرف تفاصيلها الدقيقة! فالله مُطْلَق العلم ولا يُمكن أن تخفى عنه أفكار لوسيفر. ويأتي التعالي أو الكبرياء في رأس قائمة الأشياء التي يُبغضها الله حيث نقرأ في الكتاب المقدَّس:

«هذِهِ السِّتَّةُ يُبْغِضُهَا الرَّبُّ، وَسَبْعَةٌ هِيَ مَكْرُهَةُ نَفْسِهِ: عُيُونٌ مُتَعَالِيَةٌ، ...» (أمثال ٦: ١٦، ١٧)

كان لوسيفر يسير بعكس خطَّة الله له بصورة مُتعمَّدة ومقصودة! ويجب علينا أن نتذكَّر هنا أنَّ الله لم يخلق الملائكة ككائنات آليَّة؛ بل جعلها حُرَّة الإرادة. وقد كان الخَيار الذي اتخذته الملائكة بأن تخدم الله هو تعبيرٌ منها عن خضوعها الطوعي لسيادة الله. لكنَّ لوسيفر لم يَعُد قانعاً بأن يبقى ملاكاً؛ بل كانت لديه خطط أكبر وأفضل لنفسه! وهكذا، فقد أصبح مُتكبِّراً واختار أن يتمرَّد على الله. وبهذا، فقد احتقر خالقه. واحتقار شخصٍ ما يعني تصغيره، والحَطّ من قَدْره، والانتقاص من مكانته، والنظر إليه بازدراء.

وما من شَكٍّ أنَّ الله اعتبر موقف لوسيفر هذا خطيَّة.

الدينونة

حيث أنَّ الله كامل، لم يكُن بمقدوره أن يتغاضى عن خطيئة لوسيفر كما لو كانت أمراً تافهاً. فالكمال يقتضي بطبيعته عدم وجود أي نقصٍ أو شائبة. وسوف نرى هذه الحقيقة مراراً وتكراراً أثناء دراستنا للأسفار النبويَّة.

ومن بين الحقائق التي ينبغي علينا أن نفهمها عن الله هي أنه بما أنَّ الله بارٌّ فلا يُمكنه أن يحتمل الشَرَّ؛ وبما أنه قُدُّوسٌ فلا مكان للخطيَّة عنده؛ وبما أنه بلا خطيَّة فلا يُمكنه أن يسمح للخطيَّة بالتواجُد في محضره.

وهذه الحقائق عن الله هي قوانين ثابتة مثل باقي القوانين الطبيعيَّة الأخرى التي تحكُم هذا الكون. لهذا، فقد كان رَدُّ الله على خطيَّة لوسيفر سريعاً ومُباشراً حيث قام بطرده من

منصبه في الجنَّة.

«... أَخْطَأْتَ. فَأَطْرَحُكَ مِنْ جَبَلِ اللهِ وَأُبِيدُكَ أَيُّهَا الْكَرُوبُ الْمُظَلِّلُ مِنْ بَيْنِ حِجَارَةِ النَّارِ. قَدِ ارْتَفَعَ قَلْبُكَ لِبَهْجَتِكَ. أَفْسَدْتَ حِكْمَتَكَ لأَجْلِ بَهَائِكَ. سَأَطْرَحُكَ إِلَى الأَرْضِ ...» (حزقيال ٢٨: ١٦، ١٧)

لكنَّ لوسيفر لم يخرج من هناك بدون معركة. فقد كان ما زال كائناً قوياً. وفوق هذا كُلِّه فقد تبعته أعداد كبيرة من الملائكة. ويُقدِّم لنا الكتاب المقدَّس بعض التفاصيل الدقيقة عن ما جرى هناك. ولمساعدتك، صديقي القارئ، على فهم الآيات بصورة واضحة، فقد وضعنا إطاراً حول بعض الكلمات التي تربط النص معاً:

«وَظَهَرَتْ آيَةٌ أُخْرَى فِي السَّمَاءِ: هُوَذَا تِنِّينٌ عَظِيمٌ أَحْمَرُ، لَهُ سَبْعَةُ رُؤُوسٍ وَعَشَرَةُ قُرُونٍ، وَعَلَى رُؤُوسِهِ سَبْعَةُ تِيجَانٍ. وَذَنَبُهُ يَجُرُّ ثُلْثَ نُجُومِ السَّمَاءِ فَطَرَحَهَا إِلَى الأَرْضِ. ...
وَحَدَثَتْ حَرْبٌ فِي السَّمَاءِ: مِيخَائِيلُ وَمَلاَئِكَتُهُ حَارَبُوا التِّنِّينَ، وَحَارَبَ التِّنِّينُ وَمَلاَئِكَتُهُ وَلَمْ يَقْوَوْا، فَلَمْ يُوجَدْ مَكَانُهُمْ بَعْدَ ذلِكَ فِي السَّمَاءِ،
فَطُرِحَ التِّنِّينُ الْعَظِيمُ، الْحَيَّةُ الْقَدِيمَةُ الْمَدْعُوُّ إِبْلِيسَ وَالشَّيْطَانَ، الَّذِي يُضِلُّ الْعَالَمَ كُلَّهُ، طُرِحَ إِلَى الأَرْضِ، وَطُرِحَتْ مَعَهُ مَلاَئِكَتُهُ». [١]

(رؤيا ١٢: ٣–٤، ٧–٩)

إبليس، الشيطان، الأرواح الشرِّيرة

تُشير الآيات إلى أنَّ ثُلث الملائكة انضمَّت إلى لوسيفر في تمرُّده ضدَّ الله. وقد أصبح لوسيفر يُعرَف بإبليس أو الشيطان. وكما أنَّ أسماء الله تُعبِّر عن صفاته؛ كذلك فإنَّ أسماء لوسيفر تُعبِّر عن شخصيَّته وصفاته. فكلمة «شيطان» تعني الخصم أو العدو. وكلمة «إبليس» تعني المُتَّهِم زوراً أو المُفتري. أمَّا الملائكة التي تبعت الشيطان فأصبحت تُعرَف باسم الشياطين أو الأرواح الشرِّيرة.

بُحيرة النار

حينما قام الله بطرد إبليس وأعوانه من الجنَّة، لم تكُن تلك سوى المرحلة الأولى من دينونة تلك الأرواح المُتمرِّدة. فالكتاب المقدَّس يقول إنَّ الله أعَدَّ مكاناً للدينونة الأخيرة لها:

«... النَّارِ الأَبَدِيَّةِ الْمُعَدَّةِ لإِبْلِيسَ وَمَلاَئِكَتِهِ» (متَّى ٢٥: ٤١)

يُشار عادةً إلى هذا المكان ببُحيرة النار. وكلمة الله تقول لنا إنَّ الشيطان ليس موجوداً هناك حتَّى الآن. فرغم أنَّ الله طرده من السَّماء، إلاَّ أنه لم يطرحه بعد في بُحيرة النار. لكن فيما بعد، سوف يُطرح إبليس وأعوانه في مكان العقاب الأبدي هذا بعد الكثير من الأحداث المُتعلِّقة بهم. ويتحدَّث الكتاب المقدَّس عن هذا الوقت المُستقبليِّ فيقول:

«وَإِبْلِيسُ الَّذِي كَانَ يُضِلُّهُمْ طُرِحَ فِي بُحَيْرَةِ النَّارِ وَالْكِبْرِيتِ،... وَسَيُعَذَّبُونَ نَهَارًا وَلَيْلاً إِلَى أَبَدِ الآبِدِينَ» (رؤيا ٢٠: ١٠)

الحرب

رغم أنَّ الله طَرَد الشيطان وأعوانه من محضره، إلاَّ أنَّهم احتفظوا بقوَّتهم الهائلة وذكائهم الخارق. وهكذا، فقد أصبحوا أعداء لله العليِّ وراحوا يشنُّون حرباً شاملةً على الله، وعلى كل شيءٍ صالح، وعلى كل ما يُخطِّط الله للقيام به، وعلى كل شيءٍ يُؤيِّده الله! وكما سنرى لاحقاً، فقد عقد الشيطان العزم على خوض حربٍ قذرةٍ يستخدم فيها كل الأسلحة والأساليب والاستراتيجيَّات دون استثناءٍ.

٢ . أحقًّا قال اللّه؟

حينما خَلَق اللّه الإنسان، لم يضعه على سطح الأرض فحسب؛ بل إننا نقرأ في كلمة اللّه أنَّ اللّه قام بزيارة آدم وحوَّاء في الجنَّة. ونفهم من طريقة الحديث عن هذا الأمر أنَّ تلك الزيارات كانت شيئًا دائماً ومُنتظماً. وهكذا، فقد كان آدم وحوَّاء يتمتَّعان بعلاقة حميمة مع خالقهما ومالك حياتهما، وكان اللّه يُسدِّد كل احتياجاتهما دون استثناء.

المُضلّ

تسلَّل الشيطان إلى الجنَّة بكُل دهاء ومَكر دون أن يُعلن لآدم وحوَّاء عن شخصيَّته الحقيقية أو خططه الشرِّيرة. لهذا فإنَّ الكتاب المقدَّس يقول عنه بأنه مُضِلٌّ ومُخادعٌ كبير لأنه لا يستطيع أن يقول الحقيقة كما هي دون تشويهها:

«... إِبْلِيسُ ... ذَاكَ كَانَ قَتَّالاً لِلنَّاسِ مِنَ الْبَدْءِ، وَلَمْ يَثْبُتْ فِي الْحَقِّ لأَنَّهُ لَيْسَ فِيهِ حَق. مَتَى تَكَلَّمَ بِالْكَذِبِ فَإِنَّمَا يَتَكَلَّمُ مِمَّا لَهُ، لأَنَّهُ كَذَّابٌ وَأَبُو الْكَذَّابِ» (يوحنا ٨: ٤٤)

إنَّ كلمة «كذب» في اللغة اليونانيَّة الأصليَّة التي كُتب بها العهد الجديد تعني الكذب الواعي والمُتعمَّد. وتُستخدم الكلمة نفسها لوصف الأشياء المُقلَّدة؛ أي الأشياء الزائفة وغير الأصليَّة لأنها تُشبه الأشياء الأصليَّة في الشكل الخارجي فقط لكنها لا تتمتَّع بنفس جودتها.

قبل بضع سنوات، كُنت أقرأ مقالاً عن الشيطان في إحدى المجلاَّت حيث تمَّ تصويره بأنه يمتلك جسماً أحمر اللَّون، وقروناً فوق رأسه، وذَنَباً رفيعاً، وأنه يحمل شوكةً في يده. وفي الحقيقة أنَّ الصورة الإجماليَّة كانت بشعة جداً. لكن بحسب ما يقوله الكتاب المقدَّس فإنَّ تلك الصورة لم تكُن صحيحة على الإطلاق حيث تقول كلمة اللّه:

«... لأَنَّ الشَّيْطَانَ نَفْسَهُ يُغَيِّرُ شَكْلَهُ إِلَى شِبْهِ مَلاَكِ نُورٍ!»

(٢ كورنثوس ١١: ١٤)

وهكذا، فإنَّ الشيطان يأتي بكل بهائه وعظَمَته مُحاولاً تقليد اللّه قدر الإمكان. وربما تكون الصورة الأقرب لإبليس هي أنه يُشبه الملاك النوراني أو الرجل الذي يرتدي أفخر ثياب رجال الدين ويتكلَّم بمعسول الكلام. فالشيطان يُحبُّ التديُّن، ويبرع في تقليد الحقيقة. رغم ذلك لا يمكننا أن نثق به لأنه مُخادع بطبيعته ويتعمَّد قول الأكاذيب.

أنا مُتأكِّد أنَّ الشيطان كان مسروراً للغاية بذلك الرسم الذي يُظهره بصورة بشعة. فسوف يكون من الأسهل عليه أن يخدع الناس إن كانوا يجهلون شكله الحقيقي. كما أنه من المؤكَّد أنه كان مسروراً جداً ببعض الأشياء التي قيلت عنه في تلك المقالة مثل أنه لم يعُد أحد يؤمن بوجود الشيطان! وبالطبع، ما من شيءٍ أفضل بالنسبة للشيطان من أن يقتنع الناس بأنَّه مُجرَّد أُسطورة!

الخدعة

وصل الشيطان إلى جنَّة عدن بكل مكر ودهاء دون أن يُعلن عن شخصيته الحقيقية. وفي الحقيقة أنه جاء بهيئة حَيَّة. والحيَّة هيَ إحدى الزواحف التي يُعرف بها الشيطان في كثير من الأحيان. وقد أورد الكتاب المقدَّس العديد من القصص عن أشخاص أو حيواناتٍ سكنت فيهم الأرواح الشرِّيرة وراحت تتحدَّث من خلالهم أو تجعلهم يتصرَّفون بطريقةٍ غير طبيعية. وفي هذه المَرَّة، تحدَّث الشيطان من خلال الحيَّة وخاطب حوَّاء:

«وَكَانَتِ الْحَيَّةُ أَحْيَلَ جَمِيعِ حَيَوَانَاتِ الْبَرِّيَّةِ الَّتِي عَمِلَهَا الرَّبُّ الإِلهُ، فَقَالَتْ لِلْمَرْأَةِ: أَحَقًّا قَالَ اللهُ لاَ تَأْكُلاَ مِنْ كُلِّ شَجَرِ الْجَنَّةِ؟» (تكوين ٣: ١)

لم تشعر حوَّاء بالخوف أو الهلع حينما سمعت الحيَّة تتكلَّم! فمن المؤكَّد أنَّ حوَّاء كانت تكتشف في كل يوم شيئاً جديداً مُدهشاً ورائعاً من خليقة الله. وربما ظَنَّت أنَّ وجود حَيَّة تتكلَّم هو مُجرَّد شيءٍ جديد آخر من بدائع خَلق الله. لكنَّنا لا نعرف حقيقة ما جرى!

الشَكّ

على أيِّ حال، جاء الشيطان إلى حَوَّاء وطرح عليها سؤالاً يتعلَّق بالله. وفي الحقيقة أنه زرع في عقلها شيئاً لم تُفكِّر به من قَبل ألا وهو أنه يمكن للمخلوق أن يستجوب الخالق! وقد جاء السؤال بأسلوب لطيف: « أَحَقًّا قَالَ الله ...؟»

وهكذا، فكأنَّ الشيطان قال لحوَّاء: «لا بُدَّ أنك تمزَحين؛ هل حقًّاً قال الله ذلك؟» وبهذا، فقد كان يُلمِّح إلى أنَّه من السذاجة أن يقبل الإنسان كل ما يقوله الله دون تفكيرٍ أو تمحيص. وقد كان المنطق الذي تحدَّث به الشيطان مع حَوَّاء يقوم على الفكرة التالية:

«رُبَّما كان الله يُخفي شيئاً صالحاً عنكِ وعن آدم! فما أدراكِ أنتِ بما يدور في عقل الله؟ فربما لم يكُن الله صالحاً ومُحبَّاً بالصورة التي يُحاول أن يظهر بها أمامكما!»

وبالتالي، فقد كان إبليس يُلمِّح في كلامه إلى أنَّ الله لم يكُن صادقاً تماماً ولا مُستقيماً بكل معنى الكلمة. وهكذا، فقد أظهر الشيطان نفسه بأنه مُهتم بالإنسان ويُريد له الخير والنفع! لكنه في حقيقة الأمر أدخل الشك إلى عقل الإنسان وقلبه بشأن صلاح الله وذلك من خلال أسئلته القائمة على الخداع والضلال.

علاوة على ذلك، قام الشيطان بالمُبالغة في الشيء الذي نهى عنه الله أصلاً. فالله لم يمنع آدم وحوَّاء من الأكل من جميع الشجر؛ بل إنه منعهما من الأكل من شجرة واحدة فقط ألا وهي شجرة معرفة الخير والشر. لكنَّ ذلك السؤال المُبالغ فيه أدَّى إلى الإجابة التي كان الشيطان يرغب في سماعها من حَوَّاء:

«فَقَالَتِ الْمَرْأَةُ لِلْحَيَّةِ: مِنْ ثَمَرِ شَجَرِ الْجَنَّةِ نَأْكُلُ، وَأَمَّا ثَمَرُ الشَّجَرَةِ الَّتِي فِي وَسَطِ الْجَنَّةِ فَقَالَ اللهُ: لاَ تَأْكُلاَ مِنْهُ وَلاَ تَمَسَّاهُ لِئَلاَّ تَمُوتَا» (تكوين ٣: ٢، ٣)

حاولت حوَّاء أن تُدافع عن الله رغم أنه لا يحتاج لمن يُدافع عنه. وبسبب حماسها، أضافت شيئاً إلى وصيَّة الله. فقد أمرهما الله بأن لا يأكُلا من الشجرة؛ لكنه لم ينهاهُما عن لمسها! ويجب علينا أن نُدرك أنَّ إضافة أجزاءٍ إلى كلمة الله يُشبه حذف أجزاءٍ منها. وما أمهر الشيطان في دفع الناس إلى إضافة أفكارهم الخاصة إلى كلمة الله أو حذف أجزاءٍ منها!

وهكذا، رغم أنَّ الإضافة التي قامت بها حوَّاء كانت ضئيلة جداً، إلاَّ أنها كانت كُلُّ ما يحتاج إليه الشيطان. فقد كانت تلك العبارة الإضافيَّة التي قالتها حوَّاء هي بمثابة شَرْخ صغير في جدار الثقة بين الإنسان وخالقه.

الإنكار

«فَقَالَتِ الْحَيَّةُ لِلْمَرْأَةِ: لَنْ تَمُوتَا! بَلِ اللهُ عَالِمٌ أَنَّهُ يَوْمَ تَأْكُلاَنِ مِنْهُ تَنْفَتِحُ أَعْيُنُكُمَا **وَتَكُونَانِ كَاللهِ** عَارِفَيْنِ الْخَيْرَ وَالشَّرَّ» (تكوين ٣: ٤، ٥)

لم يَكْتَفِ الشيطان بالتشكيك في كلمة الله لأنه كان يُنكرها في الأصل؛ بل كَذَّب الله بكل وقاحة. فقد قال لحوَّاء إنَّ السبب الذي جعل الله يحرمهما هي وآدم من الأكل من الشجرة هو أنَّه يخاف من أن يتعلَّما أكثر ممَّا ينبغي! وهكذا، فقد عمل الشيطان بكل مكرٍ على خلط الحقيقة بالكذب. فقد كان مُصيباً في قوله إنَّ أعينهما ستنفتح وإنهما سيعرفان الخير والشر؛ لكنه كان كاذباً في قوله بأنهما سيكونان مثل الله في كل صفاته. كما أنه كان كاذباً في قوله لحوَّاء بأنهما لن يموتا هي وآدم إن أكلا من تلك الشجرة. وهكذا، فقد كان الشيطان يكذب عن قصد. ورغم أنه كان يعرف من خلال تجربته الشخصيَّة ما هي عواقب عصيان كلمة الله، إلاَّ أنه عمل بكل وقاحة على إغواء الإنسان لكي يدفعه إلى تدمير نفسه بنفسه.

العصيان

«فَرَأَتِ الْمَرْأَةُ أَنَّ الشَّجَرَةَ جَيِّدَةٌ لِلأَكْلِ، وَأَنَّهَا بَهجَةٌ لِلْعُيُونِ، وَأَنَّ الشَّجَرَةَ شَهِيَّةٌ لِلنَّظَرِ. فَأَخَذَتْ مِنْ ثَمَرِهَا وَأَكَلَتْ، وَأَعْطَتْ رَجُلَهَا أَيْضًا مَعَهَا فَأَكَلَ» (تكوين ٣: ٦)

نجح الشيطان في خطَّته وتردَّدت أصداء ضحكاته في جميع أرجاء الجنَّة. وكما هي عادته، فهو لم يبق في الجوار لإصلاح الأضرار التي تَسبَّب بها. يقول الكتاب المقدَّس عن الشيطان:

«... لأَنَّ إِبْلِيسَ خَصْمَكُمْ كَأَسَدٍ زَائِرٍ، يَجُولُ مُلْتَمِسًا مَنْ يَبْتَلِعُهُ ...» (١ بطرس ٥: ٨)

حينما يلتهم إبليس فريسةً ما فإنه يتركها عظاماً فقط. فرغم أنه يأتي غالباً بحُجَّة المساعدة، وتقديم العون، والمُتعة، والمرح، والأوقات السعيدة؛ إلاَّ أنَّ كُلَّ ما يُقدمه يكون مؤقتاً وفارغاً في أغلب الأحيان. ففي حقيقية الأمر أنَّ الشيطان لا يعرف العطاء أبداً. وحتَّى لو أعطى فإنه لا يُعطي شيئاً سوى المتاعب ووجع القلب والرأس! فهو شرير وقاسٍ في آنٍ واحدٍ.

على مَرِّ السنين، أخذ البعض يلومون المرأة على هذا العصيان الكامل لأمر الله. لكن يبدو أنَّ آدم كان مع حَوَّاء طوال الوقت الذي كانت تتحاور فيه مع الشيطان. وهكذا، فقد كان بإمكان آدم أن يمنع زوجته من الأكل من ثمر تلك الشجرة، أو أن لا يأكل منها هو شخصياً. لكنَّهما أكلا منها هُما الاثنان.

يُمكن تشبيه ما فعله آدم وحوَّاء بالأطفال الذين يلعبون في الشارع خلافاً لما قالته لهم أُمُّهم. فالأم تقول لأبنائها: «لا تلعبوا في الشارع لئلاَّ تتأذُّوا أو تموتوا بسبب السيارات». رغم ذلك فإنَّ الأطفال الصغار يعتقدون أنهم يعرفون كيف يمرحون ويُحافظون على سلامتهم بصورة أفضل من أُمِّهم. وبهذا، فهُم يُثبتون أنهم لا يثقون مُطلقاً بمعرفة أمهم بمعايير السلامة والأمان. كما أنهم لا يحترمون سُلطتها عليهم. وقد أخطأ آدم وحوَّاء بالطريقة نفسها حينما اعتقدا أنهما يعرفان مصلحتهما بصورة أفضل من الله نفسه. وما من شكٍّ

أنَّ خَيارهما كشف عن عدم ثقتهما المُطلقة بخالقهما لأنه دَلَّ على أنهما لم يكونا واثقين بأنَّ الله يقول الحقيقة.

كان آدم وحوَّاء يمتلكان الأسباب الكافية لكي يقولا لإبليس إنه هو الكاذب؛ لكنهما اختارا أن يُصدِّقاه هو عوضاً عن الله. وبهذا، فقد خالفا وصايا الله الواضحة وانضمَّا إلى الصفوف الموالية للشيطان في تمرُّده على الله. ويقول الكتاب المقدَّس:

«... فَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَكُونَ مُحِبًّا لِلْعَالَمِ، فَقَدْ صَارَ عَدُوًّا لِلّٰهِ» (يعقوب ٤: ٤)

المقصود بمحبَّة العالم هُنا هو محبَّة النظام الخاطئ والشرِّير الذي أوجده إبليس.

هذه هي النتيجة الطبيعيَّة لاتخاذ المواقف. فقد تخلَّى آدم وحوَّاء عن صداقتهما مع الله وانضمَّا إلى الشيطان. كما أنهما رفضا العالم الكامل ليُجرِّبا عالماً مُحرَّماً.

ماذا عن الأرواح الشرِّيرة، والجِنّ، والسحر الأسود؟

ابتكر الناس في جميع أنحاء العالم طُرقاً لمقاومة قوَّة الأرواح الشرِّيرة. فهناك من يلبسون التعويذات والحُجُب، وهناك من يضعون المعبودات الوثنيَّة في بيوتهم، وهناك من يتناولون جُرعات من مشروبات يُزعَم بأنها سحريَّة، وهناك من يزورون المُنجِّمين والعرَّافين. كذلك، هناك من يذكرون اسم الله أو يتلون بعض الصلوات الخاصة قبل دخولهم إلى البيت أو قبل صعودهم إلى السيَّارة على أمل النجاة من الحوادث. وهناك من يُقدِّمون الذبائح للأرواح الحارسة من أجل طرد الشر.

لكن يجب أن نعلم أنَّ جميع هذه الأفكار هي من البشر وليست من الله. فالكتاب المقدَّس يُعلِّمنا أنَّ الشيطان وأعوانه يمكن أن يقوموا ببعض المُعجزات. لكن رغم أنَّ الأرواح الشرِّيرة قويَّة، إلاَّ أنها ليست كُليَّة القُدرة. لهذا، يجب علينا ألَّا نعيش في خوفٍ من عالم الأرواح إذا كُنا نُصغي إلى الله الذي هو أقوى من جميع الأرواح الشرِّيرة وأشكال السحر الأسود.

«اِسْمُ الرَّبِّ بُرْجٌ حَصِينٌ، يَرْكُضُ إِلَيْهِ الصِّدِّيقُ وَيَتَمَنَّعُ» (أمثال ١٨: ١٠)

«... تَقَوَّوْا فِي الرَّبِّ وَفِي شِدَّةِ قُوَّتِهِ ... الَّذِي بِهِ تَقْدِرُونَ أَنْ تُطْفِئُوا جَمِيعَ سِهَامِ الشِّرِّيرِ الْمُلْتَهِبَةِ» (أفسس ٦: ١٠، ١٦)

الصداقة المبتورة

كان لهذا الخَيار نتائج سلبيَّة. فكما رأينا سابقاً، فإنَّ خرق القوانين يؤدي إلى عواقب وخيمة! والكتاب المقدَّس يُعلِّمنا أنَّ عواقب الخطيَّة مُدمِّرة جدًّا. وقد أدَّى قرار آدم وحوَّاء الخاطئ بأن يتبعا أكاذيب الشيطان إلى إحداث هُوَّة عظيمة بين الله والإنسان. فلا يُمكن لله القُدُّوس أن يسمح بوجود ولاءٍ مُزدوج لدى آدم وحوَّاء، ولا بوجود صداقات غير كاملة، ولا بوجود خيانات جُزئيَّة. فبدونٍ ثقة لاً يُمكن أن تكون هناك علاقة سليمة. وهكذا، فقد انتهت الصداقة التي كانت قائمةً أصلاً بين الله والإنسان.

«لِذلكَ أَسْلَمَهُمُ اللهُ أَيْضًا فِي شَهَوَاتِ قُلُوبِهِمْ ... الَّذِينَ اسْتَبْدَلُوا حَقَّ اللهِ بِالْكَذِبِ، وَاتَّقَوْا وَعَبَدُوا الْمَخْلُوقَ الشيطان دُونَ الْخَالِقِ، الَّذِي هُوَ مُبَارَكٌ إِلَى الأَبَدِ» [٢] (رومية ١: ٢٤، ٢٥)

أوراق التين

«فَانْفَتَحَتْ أَعْيُنُهُمَا وَعَلِمَا أَنَّهُمَا عُرْيَانَانِ. ...» (تكوين ٣: ٧)

أدرك آدم وحوَّاء على الفور أنَّ ثَمَّة شيئاً خاطئاً! فقد شعرا بمشاعر مُزعجة لم يختبراها من قَبل ألا وهي مشاعر الذنب والخزي. وعندها، شعرا أنهما على وشك الانهيار. وتقول كلمة الله إنهما شعرا بالخوف وأحسَّا للمرَّة الأولى بعريهما. وعندها، راح آدم وحوَّاء ينظران من حولهما بحثاً عن حل!

«... فَخَاطَا أَوْرَاقَ تِينٍ وَصَنَعَا لأَنْفُسِهِمَا مَآزِرَ» (تكوين ٣: ٧)

يبدو أنَّ آدم وحوَّاء اعتقدا آنذاك أنهما إن قاما بإصلاح شكلهما الخارجي فلن يُلاحظ الله أنهما قد تغيَّرا من الداخل. وهكذا، فقد كانت فكرتهما قائمةً على إصلاح العيوب الخارجيَّة والادِّعاء بأنَّ كل شيءٍ على ما يُرام. وقد كانت هذه هي أوَّل مُحاولة قام بها الإنسان لتصحيح الأمور بنفسه في عالمٍ بدأ يسير في الاتجاه الخاطئ!

كانت هناك مُشكلة واحدة في أوراق التين ألا وهي أنها لم تنجح! فمظهرهما الخارجي لم يُعالج الواقع الداخلي المَرير. فقد زال الكمال عنهما، وأصبحا يُعانيان من مشاعر الذنب، وصارت الدينونة تُلاحقهما.

«وَسَمِعَا صَوْتَ الرَّبِّ الإِلهِ مَاشِيًا فِي الْجَنَّةِ عِنْدَ هُبُوبِ رِيحِ النَّهَارِ، فَاخْتَبَأَ آدَمُ وَامْرَأَتُهُ مِنْ وَجْهِ الرَّبِّ الإِلهِ فِي وَسَطِ شَجَرِ الْجَنَّةِ» (تكوين ٣: ٨)

ما من أحد يهرب ويختبئ سوى الشخص المُذنب! والمرء لا يختبئ من صديقه! وهكذا، فقد أصبحت هُناك هُوَّة أو فجوة كبيرة تفصل بين الله والإنسان. وباختصار شديد، فقد انتهت الصداقة بينهما.

هل إرضاء الله أمرٌ صعب؟

قد يقول البعض: «لكنَّ تلك الخطيَّة لم تكُن بالشيء الخطير؛ فهي مُجرَّد قَضمة من ثَمَرة!» قد يكون هذا صحيحاً؛ لكنَّ الله لم يضع حجر عثرة كبير في طريق الإنسان. بل في الحقيقة أنه لم يكُن هناك حجر عثرة على الإطلاق. فقد كانت هناك عشرات الأشجار التي يُمكن لآدم وحوَّاء أن يأكلا منها بحُريَّة. وقد كان هذا الاختبار هو أسهل اختبارٍ مُمكن لإظهار أنَّ الإنسان يتمتَّع بإرادة حُرَّة.

والآن لنفترض أنَّ إحدى الفتيات خُطبت لشاب يبدو في نظرها أفضل شابٍّ في العالم كُلِّه. وقد أظهر هذا الشاب محبَّةً حقيقيَّةً من نحوها، وكان يضعها هي واحتياجاتها قبله وقبل احتياجاته، ويُعبِّر لها دائماً عن محبَّته بطُرق كثيرة. ثم ذات يوم تكتشف هذه الفتاة أنَّ هذا الشاب ليس مُخيَّراً في حُبِّه لها؛ بل هو مُبرمجٌ على ذلك. فماذا سيكون شعورها؟ من المؤكَّد أنَّ هذا سيكون خيبة أملٍ فظيعةٍ بالنسبة لها لأنَّ تلك المحبَّة ليست سوى محبَّة مُصطنعة، وبلا معنى، وجوفاء!

لقد أعطى الله الإنسان خياراً بسيطاً يسهُل عليه تطبيقه. لكنَّ هذا الخَيار الوحيد أحدث

فارقاً كبيراً. فالخيار بين أن يأكل أو أن لا يأكل، وأن يُطيع أو أن لا يُطيع، وأن يُحب أو أن لا يُحب هو الذي جعل الإنسان بشراً. فالإنسان لم يكن مخلوقاً آلياً؛ بل كان كائناً قادراً على إظهار محبَّته لله عن طريق إطاعته طوعاً واختياراً.

ورغم أنَّ الاختبار لم يكن بالشيء الخطر في حَدِّ ذاته، إلاَّ أنَّ عصيان الربِّ حتَّى في أصغر الأمور هو الشيء الخطير. فالكتاب المقدس يقول إنَّ الله كامل (فهو قُدُّوس وبار)، وأنه لا يُطيق أصغر الخطايا. كما أنه يذكُر صراحةً أنَّ معصية الله خطيَّة.

٣ . أين أنت؟

نجح الشيطان في خداع آدم وحوَّاء بأن جعلهما يعتقدان أنهما يمكن أن يكونا مُعادلين لله. وقد كان هذا هو الأمر الذي تاق إليه الشيطان نفسه في بادئ الأمر. لكنَّ الله لم يخلق الإنسان لكي يكون محكوماً بغرائزه أو أفكاره. والشيء المهم هنا هو أنه كان ينبغي على آدم وحوَّاء أن يُطيعا الله:

«وَأَمَّا شَجَرَةُ مَعْرِفَةِ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ فَلاَ تَأْكُلْ مِنْهَا، لأَنَّكَ يَوْمَ تَأْكُلُ مِنْهَا مَوْتًا تَمُوتُ» (تكوين ٢: ١٧)

لكنَّ آدم وحوَّاء أكلا من تلك الشجرة؛ وفجأة تغيَّر كل شيء! فقد حدث ما قاله الله تماماً. وهذا يعني أنَّ كلمة الله لم تتغيَّر .. وأنها لن تتغيَّر أبداً.

«وَسَمِعَا صَوْتَ الرَّبِّ الإِلهِ مَاشِيًا فِي الْجَنَّةِ عِنْدَ هُبُوبِ رِيحِ النَّهَارِ، فَاخْتَبَأَ آدَمُ وَامْرَأَتُهُ مِنْ وَجْهِ الرَّبِّ الإِلهِ فِي وَسَطِ شَجَرِ الْجَنَّةِ» (تكوين ٣: ٨)

لا يذكُر الكتاب المقدَّس ما هو الشيء الذي كان يجول في فكر آدم وحوَّاء حينما اختبآ في وسط شجر الجنَّة حينما سمعا صوت الله وهو يدنو منهما! لكن إن كنت قد اقترفت خطأً ما أثناء غياب والديك، ثم عادا فجأةً إلى البيت، فلا بُدَّ أنك تعرف حقيقة شعور المرء في مثل هذه المواقف. لكنَّ آدم وحوَّاء لم يُخطئا إلى أبويهما؛ بل عصيا كلام رَبِّ الكون، الله القدُّوس صاحب السيادة والسُّلطان. وبالتالي، ما الذي سيقوله لهما خالقهما ومالكهما؟ وما الذي يمكن للإله القوي والقدير أن يفعله في مثل هذا الموقف؟

«فَنَادَى الرَّبُّ الإِلهُ آدَمَ وَقَالَ لَهُ: أَيْنَ أَنْتَ؟» (تكوين ٣: ٩)

أطَلَّ آدم وحوَّاء برأسيهما وحاولا أن يَظهرا بمظهر الشخصين البريئين. قال آدم: «هل تبحث عَنَّا يا رَبّ؟»

«سَمِعْتُ صَوْتَكَ فِي الْجَنَّةِ فَخَشِيتُ، لأَنِّي عُرْيَانٌ فَاخْتَبَأْتُ» (تكوين ٣: ١٠)

تكلَّم آدم، لكنه أخطأ خطأً فادحاً بأن تغاضى عن حقيقة أنه لم يشعُر بالخوف من قَبل، وأنه لم يكن مُنزعجاً من عُريه قبل أن يأكل من تلك الشجرة. لهذا، أجابه الله قائلاً:

«مَنْ أَعْلَمَكَ أَنَّكَ عُرْيَانٌ؟ هَلْ أَكَلْتَ مِنَ الشَّجَرَةِ الَّتِي أَوْصَيْتُكَ أَنْ لاَ تَأْكُلَ مِنْهَا؟» (تكوين ٣: ١١)

أسئلة، أسئلة!

لماذا كان الله يطرح كل تلك الأسئلة؟ ألم يكُن الله المُطْلَق العلم يعرف أين يختبئ آدم وحوَّاء؟ ألم يكُن يدري لماذا يشعُران بالخجل من عريهما؟ هل كانت معرفة الربِّ محدودةً

حتَّى يسأل المُذنبين ما إذا كانا قد أكلا من الثمرة المُحرَّمة أم لا؟ في الحقيقة أنَّ الله كان يعرف ما حدث بالتفصيل؛ لكنه كان يطرح الأسئلة لكي يُساعد آدم وحوَّاء على فهم ما حدث بالضبط. فقد عصيا الربَّ ووضعا ثقتهما في الشيطان عوضاً عن الله!

أثناء قراءتك للكتاب المقدَّس، سوف تُلاحظ أنَّ الله يطرح الأسئلة على الإنسان لكي يساعده على رؤية الأمور بوضوح.

هل كان الله هو السبب؟

كانت أسئلة الله بمثابة فُرصة لآدم وحوَّاء لكي يعترفا بخطيئتهما من تلقاء نفسيهما.

«قَالَ آدَمُ: 'الْمَرْأَةُ الَّتِي جَعَلْتَهَا مَعِي هِيَ أَعْطَتْنِي مِنَ الشَّجَرَةِ فَأَكَلْتُ'» (تكوين ٣: ١٢)

وأخيراً اعترف آدم أنه أكل من ثمر تلك الشجرة؛ لكنه لم يفعل ذلك إلاَّ لأنَّ تلك المرأة التي خلقها الله هي التي أعطته ليأكل! وهكذا، يبدو أنَّ آدم كان يشعُر بأنه ضحيَّة، وأنَّ الله هو السبب في نهاية المطاف. فلو لم يخلق الله المرأة، لما أعطته من ثمر تلك الشجرة ولما أكل منها. وبالتالي، فقد وضع آدم اللَّوم كله على الله فيما يتعلَّق بخطيئته تلك!

«فَقَالَ الرَّبُّ الإِلهُ لِلْمَرْأَةِ: 'مَا هذَا الَّذِي فَعَلْتِ؟' فَقَالَتِ الْمَرْأَةُ: 'الْحَيَّةُ غَرَّتْنِي فَأَكَلْتُ'» (تكوين ٣: ١٣)

تصرَّفت حوَّاء بالطريقة نفسها حيث ألقت اللَّوم على الحيَّة. وقد كان قصد حوَّاء من هذا الكلام هو أنه لو لم يخلق الله الحيَّة لما أخطأت هي أيضاً.

لكن في حقيقة الأمر أنَّ آدم وحوَّاء اختارا أن يُخطئا بكامل إرادتهما. كذلك، فقد أعطاهما الله فرصةً للاعتراف بخطيئتهما؛ لكنهما أخفقا في هذا الأمر أيضاً حيث أنهما رفضا الاعتراف بذنبهما!

أقوال آدم وحوَّاء:	ماذا كان ينبغي عليهما أن يقولا:
آدم: «الْمَرْأَةُ الَّتِي جَعَلْتَهَا مَعِي هِيَ أَعْطَتْنِي مِنَ الشَّجَرَةِ فَأَكَلْتُ».	«لقد خذلتك يا رب بصورة مُشينة، وعصيت وصاياك المُباشرة لي بأن لا آكل من ثمر تلك الشجرة. لقد أخطأت. أرجوك أن تُسامحني!»
حوَّاء: «الْحَيَّةُ غَرَّتْنِي فَأَكَلْتُ».	«يا رب، لقد أخطأت أنا أيضاً بأن عصيت وصيَّتك. أرجوك أن تقول لي كيف يمكن لعلاقتنا أن ترجع إلى سابق عهدها!»
عقلية الضحية. إلقاء اللوم على الآخرين	تحمُّل المرء مسئوليَّة أفعاله. سؤال الله عن الحل لاستعادة العلاقة.

لقد أخطأ آدم وحوَّاء معاً. وها هُما الآن يتكلَّمان بطريقة خاطئة أيضاً. فقد كان ينبغي أن يقودهما شعورها بالذنب والخزي إلى الاعتراف بخطيئتهما أمام الله. لكن عوضاً عن ذلك، فقد تضاعفت خطيئتهما بسبب رفضهما لتحمُّل المسئوليَّة عن خطيئتهما. رغم ذلك فإنَّ الله لم يُهلكهما. فلو كُنَّا نحن القُضاة وهيئة المُحلَّفين والجلاَّدين لأصدرنا حُكمنا عليهما وأمرنا بإعدامهما على الفور. لكنَّ رحمة الله تفوق إدراكنا وتصوُّرنا.

الوعد

كان لهذه الخطيئة الأولى عواقب وخيمة للغاية على بقية الجنس البشري. وكما سنرى لاحقاً، فقد كان آدم وحوَّاء نائبين عن الجنس البشري بأكمله. لهذا، فقد تسبَّبت خطيئتهما باللَّعنة على كل الجنس البشري. لكنَّ اللّه قطع لهُما وعداً من مُنطلق محبَّته لهما:

«فَقَالَ الرَّبُّ الإِلهُ لِلْحَيَّةِ: 'لأَنَّكِ فَعَلْتِ هذَا ... أَضَعُ عَدَاوَةً بَيْنَكِ وَبَيْنَ الْمَرْأَةِ، وَبَيْنَ نَسْلِكِ وَنَسْلِهَا. هُوَ يَسْحَقُ رَأْسَكِ، وَأَنْتِ تَسْحَقِينَ عَقِبَهُ'»

(تكوين ٣: ١٤، ١٥)

تستحق هذه الجُمَل نظرة فاحصة. فاللّه لم يكُن يتكلَّم عن أنَّه ستكون هناك عداوة بين النساء والحيَّات. بل إنَّ لهذا الوعد وجهين اثنين:

إبليس وأعوانه	المرأة وابنها الذَكَر
فَقَالَ الرَّبُّ الإِلهُ **لِلْحَيَّةِ**: «**لأَنَّكِ** فَعَلْتِ هذَا ...	
أَضَعُ عَدَاوَةً **بَيْنَكِ**	وَبَيْنَ الْمَرْأَةِ، وَبَيْنَ
نَسْلِكِ	**وَنَسْلِهَا**.
	هُوَ يَسْحَقُ
رَأْسَكِ، **وَأَنْتِ** تَسْحَقِينَ	**عَقِبَهُ**».

كان الربُّ الإله يعني بقوله هذا إنه سيُخلِّص الإنسان من الشيطان في يوم ما. فسوف يكون هناك مولودٌ ذَكَر، يولد من المرأة ويسحق رأس الشيطان – أي أنه سيوجِّه له ضربة قاضية. كذلك، سوف يجرح الشيطان هذا الطفل؛ لكنَّ الضربة ستكون على العَقِب فقط؛ أي أنها ستكون إصابة مؤقتة يتعافى منها ذلك الطفل.

كان هذا هو أوَّل وعد سيتحقَّق من بين وعود كثيرة تتعلَّق بهذا المولود الذي ستلده حوَّاء. وسوف يُعرَف هذا الطفل الذَكَر بأنه «المُخلِّص المَوعود» وذلك بسبب المهمَّة الخاصَّة التي سيوكلها إليه اللّه. وكانت هذه المهمَّة التي أعَدَّها اللّه لهذا الطفل المُختار هي أن يُحرِّر البشرية ويُخلِّصها من عواقب الخطيَّة ومن قوَّة الشيطان. ومن المؤكَّد أنَّ هذا كان خبراً سارَّاً جداً لآدم وحوَّاء.

«... أَلَيْسَ أَنَا الرَّبُّ وَلاَ إِلهَ آخَرَ غَيْرِي؟ إِلهٌ بَارٌّ وَمُخَلِّصٌ. لَيْسَ سِوَايَ. اِلْتَفِتُوا إِلَيَّ وَاخْلُصُوا يَا جَمِيعَ أَقَاصِي الأَرْضِ، لأَنِّي أَنَا اللهُ وَلَيْسَ آخَرَ»

(إشعياء ٤٥: ٢١، ٢٢)

لعنة

كما رأينا سابقاً، فإنَّ للخطيَّة عواقب وخيمة دائماً. فكما أنَّ مُخالفة قانون الجاذبيَّة تؤدي إلى كسر العظام، فإنَّ مُخالفة كلمة اللّه لها عواقبها هي الأخرى. فلم يكُن باستطاعة اللّه أن يتغاضى عن خطيئة آدم وحوَّاء، ولم يكُن بمقدوره أن يقول لهما: «أريدكما أن تنسيا ما حدث»، أو «أنا أعلم أنكما لم تقصدا ذلك»، أو «سوف نتصرَّف وكأن شيئاً لم يحدُث»، أو «لقد كانت تلك خطيئة واحدة صغيرة فقط». لا يا صديقي، فقد كان الضرر قد وقع بالفعل، وكان آدم وحوَّاء مُذنبين. لقد أدَّت خطيئة واحدة إلى جلب دينونة اللّه عليهما. كما أنَّ

هذه الخطيئة سبَّبت لهما الخوف والخزي، وأدَّت إلى مزيد من الخطايا. لهذا فإنَّ الأرض وكل ما عليها يعانون من اللَّعنة التي لحقت بالحيوانات البرِّيَّة، والبحريَّة، والطيور، وحتَّى الأرض نفسها. وهكذا، لم تعُد الخليقة كاملة. ونتيجة لهذه اللَّعنة، يقول الكتاب المقدَّس:

«... كُلَّ الْخَلِيقَةِ تَئِنُّ وَتَتَمَخَّضُ ...» (رومية ٨: ٢٢)

وهكذا، كانت نتيجة تلك الخطيئة هي أنَّ الإنسان يأتي إلى هذا العالم بألم الولادة ويُغادرها بألم الموت. كما أنَّ حياة الإنسان أصبحت معجونة بالظُلم، والتعب، والشقاء. فقد قال الله لآدم:

«... لأَنَّكَ ... أَكَلْتَ مِنَ الشَّجَرَةِ الَّتِي أَوْصَيْتُكَ قَائِلاً: لاَ تَأْكُلْ مِنْهَا، مَلْعُونَةٌ الأَرْضُ بِسَبَبِكَ. بِالتَّعَبِ تَأْكُلُ مِنْهَا كُلَّ أَيَّامِ حَيَاتِكَ. وَشَوْكًا وَحَسَكًا تُنْبِتُ لَكَ، وَتَأْكُلُ عُشْبَ الْحَقْلِ. بِعَرَقِ وَجْهِكَ تَأْكُلُ خُبْزًا حَتَّى تَعُودَ إِلَى الأَرْضِ الَّتِي أُخِذْتَ مِنْهَا. لأَنَّكَ تُرَابٌ، وَإِلَى تُرَابٍ تَعُودُ» (تكوين ٣: ١٧-١٩)

وسواء كان الشوك والحَسَك المذكورين هنا حقيقيَّين أم رمزيَّين، فهُما سيجعلان حياة الإنسان مليئة بالألم والشقاء. وهكذا، فقد بدأ الإنسان في اختبار الأحزان. لكن يجب أن نُدرك أنَّ أكثر العواقب مرارةً لخطيئة آدم وحوَّاء هو الشيء الذي حَذَّرهما الله منه من قَبل ... الموت!

٤ . الموت

«وَأَوْصَى الرَّبُّ الإِلهُ آدَمَ قَائِلاً: مِنْ جَمِيعِ شَجَرِ الْجَنَّةِ تَأْكُلُ أَكْلاً، وَأَمَّا شَجَرَةُ مَعْرِفَةِ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ فَلاَ تَأْكُلْ مِنْهَا، لأَنَّكَ يَوْمَ تَأْكُلُ مِنْهَا مَوْتًا تَمُوتُ»

(تكوين ٢: ١٦، ١٧)

حينما اختار آدم وحوَّاء أن يتحديا تحذير الله، فقد كان هذا يعني عمليًّاً أنهما يُخضعاه للاختبار لكي يريا ما إذا كان سيلتزم بما قاله أم لا! فهل كان الله يعني ما قاله للإنسان بالفعل؟ هل سيموت الإنسان؟ أم أنَّ ما قاله الله كان مُجرَّد تهديدات جوفاء؟ إن أردنا إجابةً واضحةً عن هذه الأسئلة فسوف نجدها في كلمة الله:

«وَلكِنَّ زَوَالَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَيْسَرُ مِنْ أَنْ تَسْقُطَ نُقْطَةٌ وَاحِدَةٌ مِنَ النَّامُوسِ أو كلمة الله»

(لوقا ١٦: ١٧)

نحن لا نُحب أن نتحدَّث عن الموت؛ فهو من الموضوعات التي تُنذر بالشؤم! لقد سافرت إلى جميع أنحاء العالم وزُرت أناساً يسكنون في أقصى بقاع الأرض فلم أجد جماعةً واحدةً من الناس تستمتع بالموت. كما أنني وقفت بجانب الكثير من القبور في أماكن عديدة من العالم فوجدت أنها تشترك جميعها بقاسم مُشترك واحد ألا وهو الحُزن. فالحُزن مدموغٌ في النفس البشريَّة لكي يُذكِّر الإنسان دوماً بأنَّ الموت يعني شيئاً واحداً ألا وهو: الانفصال. فحينما يُغادر أحبَّاؤنا هذه الحياة فهُم لا يرجعون أبداً. وهذا الشعور بالخسارة والانفصال (الذي نشعر به عند موت أحد الأحبَّاء) هو الذي يُقرِّبُنا من المعنى الحقيقي لكلمة «موت»

بحسب تعريف كلمة الله لها. فالموت بحسب كلمة الله لا يعني الفناء أو عدم الوجود؛ بل يعني «الانفصال».

لكن يجب علينا أن لا نفصل الموت عن مصدره الرئيسي الذي هو: الخطيَّة. فالكتاب المقدس يقول عن الموت إنه «أُجْرَة الخطيَّة»:

«لأَنَّ أُجْرَةَ الْخَطِيَّةِ هِيَ مَوْتٌ. ...» (رومية ٦: ٢٣)

وقد يُفيدنا أن نَعلم أنَّ الكتاب المقدَّس يُشير إلى الموت بطُرق مُختلفة؛ وفيما يلي ثلاثاً منها:

١. موت العلاقة (انفصال روح الإنسان عن الله)

لقد أعطى الله وصيَّة واحدة فقط لآدم وحوَّاء لكي يُطيعاه فيها. وحينما كانا مُطيعين له، كان كل شيء يسير على ما يُرام، وكانت حياتهما آمنة ومُطمئنَّة. لكن حينما تعدَّيا على وصيَّة الله، كانت هناك عواقب وخيمة لهذا العصيان. فالله لا يسمح بوجود وَلاءات مُزدوجة. كما أنه لا يُمكن أن تكون هناك علاقة أو شَركَة بين الله والإنسان بدون ثقة. وقد أدَّى الخَيار الذي اتخذه آدم وحوَّاء (بأن يُصدِّقا أكاذيب إبليس) إلى إحداث هُوَّة عميقة في العلاقة بين الله والإنسان. وهكذا، فقد انتهت الصداقة بينهما.

لكنَّ العواقب لم تتوقَّف عند هذا الحَدِّ فقط؛ بل إنَّ جميع الناس الذين جاءوا إلى هذا العالم بعد تلك الخطيئة الأصليَّة (من أبناء آدم فصاعداً) هُم أشخاص مُنفصلون عن الله!

وهكذا، فقد انتهت الصداقة بين الله والإنسان بصورة قطعيَّة. ورغم أنَّنا نعيش بأجسادنا، إلاَّ أنَّ الله ينظر إلينا جميعاً باعتبارنا:

«... أَمْوَاتًا بِالذُّنُوبِ وَالْخَطَايَا» (أفسس ٢: ١)

هناك نقطة هامَّة هنا يجب أن لا تفوتنا، وأرجو أن تسمح لي بتوضيح هذه النقطة من خلال المثال الحيِّ التالي. لقد قضيت سنوات طويلة من حياتي في البلدان الاستوائيَّة. وقد عشت أنا وعائلتي لفترة من الوقت في منزل قائم على قوائم خشبيَّة مُنخفضة. وفي أحد الأيَّام، تسلَّل جرذ كبير إلى منطقة ضيِّقة أسفل البيت ومات هناك! وللأسف الشديد، كانت تلك المنطقة الضيِّقة واقعة أسفل غرفة نومنا أنا وزوجتي. اعتقدنا في بادئ الأمر أنه ما من خَيار آخر أمامنا سوى أن نترك جُثَّة ذلك الجرذ إلى أن تتحلَّل؛ لكنَّ الجثَّة المُتعفِّنة أطلقت رائحة كريهة جداً إلى غرفة نومنا بسبب الجو الحار والرطب لدرجة أننا لم نعُد قادرين على النوم. وهكذا، فقد اضطررنا للهرب من تلك الغرفة والنوم في غرفة أخرى.

في صباح اليوم التالي، تطوَّع ابننا «آندرو» لمعالجة الأمر بأن أحضر عصا طويلة، وزحف أسفل المنزل، وسحب الجرذ الميِّت ببطء إلى الخارج. وحينما نظر آندرو بتمعُّن إلى الجرذ رجع إلى الوراء وقال باشمئزاز: «أبي، إنَّ الجرذ مليء بالديدان!» ويا له من منظر مُقزِّز بالفعل! أحضر آندرو كيساً بلاستيكيَّاً ولَفَّه حول يده، ثم أمسك ببقايا ذلك الجرذ المُتعفِّن من ذيله وركض به باتجاه الغابة المُحيطة بمنزلنا وألقاه إلى أبعد مسافة مُمكنة.

لو كان باستطاعة ذلك الجرذ أن يقرأ أفكار آندرو وهو يرميه بعيداً في الغابة لسمعه يقول: «اخرج من هنا!» ولو كان بمقدور الجرذ أن يتكلَّم لقال: «إلى متى؟» ولكان آندرو أجابه قائلاً: «إلى الأبد!»

في الحقيقة أنَّ ذلك الجرذ الميِّت يُوضِّح لنا أمرين بشأن موقف الله من الخطيَّة:

- الأمر الأوَّل: كما أنَّ ذلك الجرذ الميِّت أرغمنا أنا وزوجتي على النوم في غرفة أخرى، وكما أنَّ آندرو ألقى بالجرذ الميِّت بعيداً عنه، كذلك فقد ابتعد الله عن الإنسان الخاطئ. فالكتاب المقدَّس يقول:

«بَلْ آثَامُكُمْ صَارَتْ فَاصِلَةً بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ إِلهِكُمْ، وَخَطَايَاكُمْ سَتَرَتْ وَجْهَهُ عَنْكُمْ ...» (إشعياء ٥٩: ٢)

أسمع البعض يقولون أحياناً إنَّ الله يبدو بعيداً جداً عنهم. وبالفعل فإنَّ الكتاب المقدَّس يقول إنَّ الإنسان أصبح غريباً عن الله:

«وَأَنْتُمُ ... كُنْتُمْ ... أَجْنَبِيِّينَ عن الله ...» (كولوسي ١: ٢١)

إنَّ القداسة تقتضي عدم وجود أي أثر للخطيَّة. أتذكَّر كيف أننا قُلنا إنَّ كلمة الله تُشَبِّه الخطيَّة بالشيء الفاسد أو المُتعفِّن؟ فالخطيَّة في نظر الله هي مثل الجرذ المُتعفِّن في نظرنا. وكما أنَّ النوم بجوار تلك الجُثَّة المُتعفِّنة لم يكن بالأمر الطبيعي لي ولزوجتي، فليس من الطبيعي لإلهنا القدُّوس الكامل أن يسمح بوجود أي خطيَّة في محضره:

«عَيْنَاكَ أَطْهَرُ مِنْ أَنْ تَنْظُرَا الشَّرَّ، وَلاَ تَسْتَطِيعُ النَّظَرَ إِلَى الْجَوْرِ...»

(حبقوق ١: ١٣)

وهكذا، فإنَّ الخطيَّة تُشبه قطرة سم في كأس ماء نقي. فقطرة السم الصغيرة هذه تكفي لتلويث الكأس بأكملها. وبما أنَّ الخطيَّة موجودة في حياة كل شخص، فقد ابتعد الله عن جميع البشر.

- هذا يقودنا إلى الأمر الثاني الذي يُوضِّحه لنا الجرذ الميِّت. إلى متى يشعر الله أننا يجب أن نبقى مُنفصلين عنه بسبب خطايانا؟ الجواب واضح تماماً: إلى الأبد! فالخطيَّة لها تأثيرات سلبيَّة كثيرة جداً ودائمة. وكما أنَّنا لا نُحب أن نعيش مع جرذ مَيِّت لأيِّ فترة زمنيَّة، فإنَّ الله لا يسمح للخطيَّة بالتواجُد في محضره.

قد تكون الحقيقة مؤلمة لك عزيزي القارئ. رغم ذلك، تابع القراءة في هذا الكتاب ولا تيأس لأنَّ الصفحات اللاحقة ستحمل لك خبراً سارَّاً. أمَّا النقطة التي ينبغي عليك أن تفهمها الآن فهي أنه حينما يتحدَّث الكتاب المقدَّس عن أنَّ علاقة الإنسان بالله قد انقطعت فإنه يتحدَّث بحزم ويقين؛ فالعلاقة انتهت بالفعل!

٢. موت الجسد (انفصال روح الإنسان عن جسده)

إنَّ فكرة الموت الجسدي ليست بالأمر الذي يصعُب علينا فهمه؛ بل نحن نعرف هذا الموت تمام المعرفة. وهناك أمر آخر ينبغي علينا أن نفهمه فيما يتعلَّق بآدم وحوَّاء.

حينما تقطع غصناً مورقاً من شجرة، فإنَّ الأوراق لا تذبل وتسقط على الفور. وبالطريقة نفسها، حينما قال الله لآدم «... لأَنَّكَ يَوْمَ تَأْكُلُ مِنْهَا مَوْتًا تَمُوتُ»، فهو لم يقصد بذلك أنَّ آدم سيسقط على الأرض ميِّتاً حال تناوله من ثمر تلك الشجرة. بل كان قصد الله أنَّ آدم سينقطع عن مصدر حياته (أي: الله)، وأنَّ جسده سيتعب شيئاً فشيئاً مع تقدُّم العُمر إلى أن يتوقف عن أداء وظائفه ويموت ويرجع إلى التُراب الذي خُلق منه في الأصل، فالأجساد:

«... تَمُوتُ، وَإِلَى تُرَابِهَا تَعُودُ» (المزمور ١٠٤: ٢٩)

والشيء الذي تُعلِّمنا إيَّاه كلمة الله هو أنه رغم أنَّ أجساد البشر تموت، إلاَّ أنَّ أرواحهم لا تموت.

٣. موت الفرح المُستقبليّ – الموت الثاني
(انفصال روح الإنسان عن الله إلى الأبد)

يقول لنا الكتاب المقدَّس إنَّ الله قد أعَدَّ لنا مكاناً رائعاً نبقى فيه بعد موتنا يُدعى «السَّماء». والسَّماء هي مكان جميل جداً صَمَّمه الله لفرح الإنسان في المُستقبل. وسوف تكون الحياة الأبديَّة المُفعمة بالفرح جُزءاً من خطَّة الله لنا. ويكفينا أننا سنتحرَّر من الخطيَّة، والمُعاناة، والموت في ذلك المكان.

لكن كما أنه توجد حياة أبديَّة، هناك موت أبدي أيضاً. وحينما يستخدم الكتاب المقدَّس كلمة «موت» فإنه يُشير أحياناً إلى الموت عن خطَّة الله الأصليَّة للإنسان. ويُسمَّى هذا الموت أيضاً «الموت الثاني» رُبَّما لأنه يحدث بعد الموت الجسدي. وهذا الموت مُعَدّ للأشخاص الذين لن يعيشوا في العالم الكامل الذي سيأتي. ويقول الكتاب المقدَّس إنه عوضاً عن أن يذهب هؤلاء إلى السَّماء، سوف يذهبون إلى بُحيرة النار؛ وهي مكان مُريع أعَدَّه الله خصِّيصاً لمعاقبة الشيطان وأعوانه.

«... بُحَيْرَةِ النَّارِ. هذَا هُوَ الْمَوْتُ الثَّانِي» (رؤيا ٢٠: ١٤)

يتحدَّث الكتاب المقدَّس عن طرح الإنسان حيَّاً في بُحيرة النار المُتَّقدة بالكبريت (انظر رؤيا ١٩: ٢٠؛ فرغم أنَّ الجسد المادي يموت، إلاَّ أنَّ الروح لا تموت)، وعن أنَّ العذاب فيها سيستمر نهاراً وليلاً إلى أبد الآبدين (انظر رؤيا ٢٠: ١٠) وسوف يكون ذلك المكان مليئاً بالضيق والحُزن (المزمور ١١٦: ٣) كما يتكلَّم الكتاب المقدَّس عن أنه سيكون هناك دود (مرقس ٩: ٤٨)، وظُلمة شديدة، وبُكاء، وصرير أسنان (مَتَّى ٨: ١٢؛ ٢٢: ١٣؛ ٢٥: ٣٠)، وكَرب فظيع، وعطش شديد (لوقا ١٦: ٢٤)، وندم لا يوصف. وهكذا، سوف يكون ذلك المكان موضعاً للوحدة والمُعاناة وليس مكاناً للاحتفال والتمتُّع مع الرفاق.

«وَأَمَّا الْخَائِفُونَ وَغَيْرُ الْمُؤْمِنِينَ وَالرَّجِسُونَ وَالْقَاتِلُونَ وَالزُّنَاةُ وَالسَّحَرَةُ وَعَبَدَةُ الأَوْثَانِ وَجَمِيعُ الْكَذَبَةِ، فَنَصِيبُهُمْ فِي الْبُحَيْرَةِ الْمُتَّقِدَةِ بِنَارٍ وَكِبْرِيتٍ، الَّذِي هُوَ الْمَوْتُ الثَّانِي» (رؤيا ٢١: ٨)

ما من شكٍّ أنَّ هذه ليست أخباراً سارَّةً على الإطلاق. لهذا، تابع القراءة لتصل إلى الخبر السار!

طبيعة خاطئة
سَرَت الخطيَّة والموت في دَمِّ آدم وانتقلا منه عبر الأجيال. فالأشياء تُنتج أشياءً شبيهةً بها: شجرة التفاح تثمر تفاحاً، والقطط تَلد قططاً، والرجل الخاطئ يُنجب أبناءً خُطاةً.

«مِنْ أَجْلِ ذلِكَ كَأَنَّمَا بِإِنْسَانٍ وَاحِدٍ دَخَلَتِ الْخَطِيَّةُ إِلَى الْعَالَمِ، وَبِالْخَطِيَّةِ الْمَوْتُ، وَهكَذَا اجْتَازَ الْمَوْتُ إِلَى جَمِيعِ النَّاسِ، إِذْ أَخْطَأَ الْجَمِيعُ»

(رومية ٥: ١٢)

فبسبب خطيَّة آدم، ورث جميع نسله طبيعته الخاطئة. وبما أنه مات، فسوف يموت جميع نسله أيضاً.[٣]

حينما نسمع كلمة «خاطئ» فإنَّ أوَّل شيءٍ يتبادر لأذهاننا هو أنَّ هذا الشخص اقترف العديد من الجرائم. لكنَّ الكتاب المقدَّس يتحدَّث عن الخطيَّة بمفهوم آخر. فالإنسان يمتلك طبيعة خاطئة تُسمَّى عادةً «طبيعة آدم». وهذه الطبيعة هي حالة لها أعراض. فعلى سبيل المثال، قال الطبيب لصديقٍ لي إنَّ حالة قلبه ليست على ما يُرام. وقد كشفت تلك الحالة عن نفسها من خلال مجموعة من الأعراض. فحين يصعد صديقي السلالم فإنه يلهث كثيراً ويتغيَّر لون وجهه. لهذا، فقد أعطاه الطبيب دواءً يضع منه حبَّة تحت لسانه لمنع تجلُّط الدم. وبالطريقة نفسها، يمكن القول إنَّ كل إنسانٍ يُعاني من حالة مَرَضيَّة تُسمَّى «الطبيعة الخاطئة». أمَّا أعراض هذه الحالة فهي الأعمال الخاطئة.

إله أمين

رُغم أنَّ هذا الحديث عن الخطيَّة والموت يجلب البؤس والكآبة، إلاَّ أنه يجب أن يُذكِّرنا بأنَّ الله لا يُلبِس الأشياء القبيحة أقنعةً جميلةً؛ بل هو يقول لنا الحقيقة كما هي. ويجب أن نُدرك أنَّ البشر جميعاً يشتركون في الخطيَّة والموت. كما يجب علينا أن نعرف ما الذي تقوله كلمة الله عن هذين الأمرين. وإن كُنَّا على يقين بأنَّ الله كامل وصالح فيجب أن لا نتوقع منه شيئاً سوى الحقيقة.

هل نولد بطبيعة طاهرة ونقيَّة؟

يعتقد الكثيرون أنَّ الأطفال يولدون في حالة من الكمال وأنهم يكونون في طفولتهم خالين من الخطيَّة. لكن ما الذي يقوله الكتاب المقدَّس بهذا الشأن؟ هل نولد بطبيعة طاهرة ونقيَّة حقَّاً؟

بحسب ما قاله النبي داود، يبدو أنَّ الإجابة هي: «لا»!

«هأَنَذَا بِالإِثْمِ صُوِّرْتُ، وَبِالْخَطِيَّةِ حَبِلَتْ بِي أُمِّي» (المزمور ٥١: ٥)

كما أنَّ النبي أيُّوب يُقدِّم لنا الإجابة نفسها في السفر الذي يحمل اسمه في الكتاب المقدَّس:

«مَنْ يُخْرِجُ الطَّاهِرَ مِنَ النَّجِسِ؟ لاَ أَحَدٌ!» (أيُّوب ١٤: ٤)

وهذه هي نفس الإجابة التي نعرفها كلنا من واقع خبرتنا الحياتيَّة:

«مِنْ أَيْنَ الْحُرُوبُ وَالْخُصُومَاتُ بَيْنَكُمْ؟ أَلَيْسَتْ مِنْ هُنَا: مِنْ لَذَّاتِكُمُ الْمُحَارِبَةِ فِي أَعْضَائِكُمْ؟» (يعقوب ٤: ١)

لهذا، ربما يتعيَّن علينا أن نطرح بعض الأسئلة الصعبة على أنفسنا. هل تعلَّمنا الكذب، والعصيان، والأنانيَّة، وروح الخصام من آبائنا وأمَّهاتنا؟ لا. فالطبيعة البشريَّة لا تحتاج لمن يُعلِّمها على اقتراف الخطايا. فنحن نفعل هذه الأشياء بصورة تلقائيَّة.

ويمكن تشبيه الخطيَّة بالمرض المُعدي. فالكتاب المقدس يقول إنَّ الطبيعة الخاطئة لآدم انتقلت إلينا جميعاً مع كل أعراضها وعواقبها.

وهناك العديد من الأمثال الشعبيَّة لدى قبيلة «الولوف» السنغاليَّة في غرب إفريقيا تُمثِّل هذه الحقيقة الرئيسيَّة:

- «الوباء الخطير لا يضُرُّ صاحبه فقط».

- «الغزال الوثَّاب لا يُنجب غزلاناً تزحف على بطونها».
- «الفأر لا يلد فئراناً لا تعرف كيف تحفر الجُحور».
- «الخشبة العائمة فوق سطح الماء لن تصبح تمساحاً حتَّى بعد سنوات طويلة».

وهكذا، حيث أنَّ آدم أخطأ، فقد ورث جميع أبنائه طبيعته الخاطئة.

ما الذي اكتشفه عُلماء الجينات الوراثيَّة؟

«رغم أنَّ البشر يختلفون في أشكالهم الخارجيَّة، إلاَّ أننا نُدرك أنهم أعضاء في كيان واحد. فهناك نوع من الأُخوَّة البيولوجيَّة التي هي أعمق بكثير مِمَّا نتصوَّر». هذا هو ما قاله «جاي غولد» (عالم الإحاثة في جامعة هارفارد، وكاتب مقالات) في مقال افتتاحي نُشر عام ١٩٨٨ في مجلة نيوزويك بعنوان «البحث عن آدم وحوَّاء».[٤]

يقول كاتب المقال إنَّ بعض العُلماء «المُتخصِّصين في علم الأحياء الجُزيئي ... فحصوا مجموعة كبيرة من الجينات المأخوذة من مناطق مختلفة من العالم فوجدوا مساراً من الحمض النووي (د. ن. أ) قادهم إلى امرأة واحدة انحدرنا منها جميعنا». ... «وحتَّى أنهم لم يعثروا على فروق تُذكَر بين الأجناس».

والكتاب المقدَّس يقول:

«وَدَعَا آدَمُ اسْمَ امْرَأَتِهِ 'حَوَّاءَ' لأَنَّهَا أُمُّ كُلِّ حَيٍّ» (تكوين ٣: ٢٠)

في عام ١٩٩٥، نشرت مجلَّة التايم [٥] مقالاً قصيراً يقول إنَّه يوجد دليل علمي على «أنه يوجد جَدّ أوَّل ترك بصمته الوراثيَّة على جميع بني البشر الذين عاشوا على سطح هذه الأرض».

والكتاب المقدَّس يقول:

«وَصَنَعَ مِنْ دَمٍ وَاحِدٍ كُلَّ أُمَّةٍ مِنَ النَّاسِ يَسْكُنُونَ عَلَى كُلِّ وَجْهِ الأَرْضِ ...» (أعمال ١٧: ٢٦)

كانت نتيجة هذه الدراسات عن الحمض النووي لدى البشر هي أنَّنا نرجع في أصلنا جميعاً إلى أب واحد وأم واحدة. ورغم أنَّ بعض العُلماء يوافقون على هذه النظريَّة، إلاَّ أنَّ بعضهم الآخر يرفضونها. وهناك من يوافقون على هذه النظريَّة لكنهم يُشيرون إلى احتمال أن لا يكون هذا الرجل وهذه المرأة هما آدم وحوَّاء المذكورين في الكتاب المقدَّس. لكن بصرف النظر عمَّا يقوله هؤلاء العلماء، إلاَّ أنه من المثير أن نلاحظ أنَّ نتائج أبحاثهم ودراساتهم تتوافق مع ما تقوله كلمة الله.

إنَّ هذه الاكتشافات وغيرها من اكتشافات علم الأحياء الجُزيئي تُؤكِّد ما قاله الكتاب المقدَّس منذ آلاف السنين بأننا نرجع جميعنا إلى أبٍ واحدٍ.

الفصل الخامس

١. تناقُض ظاهري!
٢. الكفَّارة.
٣. النبيّ أخنوخ.
٤. النبيّ نوح.
٥. بابل.

١ . تناقُض ظاهري

عرفنا في الفصول القليلة السابقة بعض الأمور عن طبيعة الله العليِّ. وسوف نتعلَّم المزيد عنه في هذا الفصل والفصول اللاحقة. لكن قبل ذلك، يجب علينا أن نتوقَّف قليلاً لتدعيم الأساسات ووضع بعض قطع الأُحجية الكتابيَّة في أماكنها.

من المفيد أن نُدرك أنه كما أنَّ الله وضع قوانين طبيعيَّة تَحكُم هذا الكون، فقد وضع أيضاً قوانين روحيَّة تَحكُم العلاقة بينه وبين الإنسان. وكما أنَّ معرفتنا للقوانين الفيزيائيَّة والكيميائيَّة تُساعدنا على فهم العالم المُحيط بنا، فإنَّ معرفتنا لهذه القوانين الروحيَّة تُساعدنا على فهم الحياة والموت. ويقتضي التنويه هنا إلى أنَّ فهم هذه القوانين الروحيَّة ليس بالأمر الصعب. لكن قبل ذلك، تعال بنا نرى موقف الإنسان.

مُشكلة الإنسان

بسبب خَيار آدم وحوَّاء، أصبحت البشريَّة تواجه مُشكلة مُزدوجة:

- يوجد لدينا شيء لا نحتاجه – دَيْن الخطيَّة.
- هناك شيء نحتاجه لكنَّنا لا نملُكه – الكَمال.

أرجو أن تسمح لي بأن أوضِّح هاتين النُقطتين:

١. لدينا مُشكلة دَيْن.

في العُصور الغابرة (ووقتنا الحاضر أيضاً) عندما كان أحد الأشخاص يقترض مالاً من شخصٍ آخر، كان يتم تحرير «سَنَد دَيْن» رسمي بذلك لكي لا ينسى الدائن والمَدين المبلغ المطلوب دفعه. وكان الأشخاص الذين يعجزون عن دفع ديونهم يُعتبرون مُجرمين تحت طائلة المسئوليَّة القانونيَّة الكاملة. وبالطريقة نفسها، فإنَّ الكتاب المقدَّس يُعلِّمنا أنَّ الخطيَّة دَيْن في نظر الله، وأنها تستوجب الدفع والسداد. لهذا فإننا أمام قانون أو ناموس يُسمَّى:

... نَامُوس الْخَطِيَّةِ وَالْمَوْتِ (رومية ٨: ٢)

أمَّا نَصُّ هذا الناموس فيقول:

«اَلنَّفْسُ الَّتِي تُخْطِئُ هِيَ تَمُوتُ ...» (حزقيال ١٨: ٢٠)

لقد حَذَّر الله آدم وحوَّاء من عواقب خرق هذا القانون حينما أخبرهما أنهما إذا عصيا كلمته فسوف يموتا. ويقول هذا القانون إنَّ الطريقة الوحيدة لتسديد الدَّين هي الموت – بجميع أبعاده الثلاثة التي ذكرناها سابقاً. لكنَّ السؤال الذي يطرح نفسه هنا هو: هل يمكننا سداد هذا الدَّين؟ الجواب هو «أجل»؛ لكن بشرط. فنحن نتحمَّل عواقب الخطيَّة حينما نختبر أشياءً مثل الشعور بالذنب، والعار، والحُزن، والخسارة، والألم. لكنَّ بعض الناس تعلَّموا أن يتأقلموا بصورة جيدة مع مثل هذه العواقب. ومع مرور الوقت، أصبح بإمكان هؤلاء أن يتغلَّبوا على مشاعر الذنب والألم. لكنَّ الأمر لن يكون كذلك بعد الموت. فالموت الثاني سيستمر إلى الأبد ولا يُمكن اعتباره دُفعة من الدَّين لأنَّ عمليَّة السَّداد لم ولن تكتمل؛ بل ستستمر إلى أبد الآبدين. وبصراحة، فإنَّ أغلب الأشخاص يتردَّدون في السَّداد

لسببٍ أو لآخر. لكنَّ المشكلة هي أنه ينبغي علينا أن نُسدِّد الدَّين. وهكذا، فإنَّ البشر في ورطة حقيقيَّة!

لكن حتى لو تمَّت إزالة هذه العواقب المُريعة للخطيَّة (أي أنَّ دَيْن الخطيَّة قد سُدِّد بطريقةٍ ما)، فلن يكون بإمكاننا أن نعيش مع الله لأنَّنا ما زلنا بحاجة لشيءٍ لا نملكه!

٢. نحتاج للكَمال.

حيث أنَّه لا يُمكن لأحدٍ أن يعيش مع الله الكامل في السَّماء الكاملة إلاَّ إذا كان كاملاً، فإننا بحاجة للوصول إلى مُستوى من الصَّلاح يجعلنا مقبولين في مَحضر الله القُدُّوس. لهذا، يقول الكتاب المقدَّس:

«... وَالْقَدَاسَةَ الَّتِي بِدُونِهَا لَنْ يَرَى أَحَدٌ الرَّبَّ» (عبرانيِّين ١٢: ١٤)

ويجب أن يكون هذا الصَّلاح (أو هذا البِرّ) مُعادلاً لبِرِّ الله. لكن حيث أنه ما من أحدٍ يدنو من هذا الكمال، فنحن أمام مُعضلة أخرى!

الخُلاصة

نحن أمام سؤالٍ مؤلَّفٍ من شقَّين: (١) كيف يمكننا أن نتخلَّص من دَيْن خطيَّتنا مع جميع العواقب الناجمة عن ذلك؟ (٢) كيف يمكننا أن نحصل على صَلاح يُعادل صلاح الله لكي نتمكَّن من المُثول في مَحضره؟

إذا لم يكن هذا مفهوماً، فسوف أحاول شرحه بطريقة أخرى: في بداية الخَلق، كان بمقدور الإنسان أن يَمكُث في حَضرة الله. لكن حينما عصى الإنسان الله، تغيَّر كيانه بأكمله، وفقد طبيعته غير الخاطئة التي كانت تجعله مقبولاً عند الله. وبالتالي، كيف يمكن للإنسان أن يسترجع ذلك الكمال الذي يُتيح له العيش مع هذا الإله الكامل؟ سوف نُبقي هذين السؤالين في أذهاننا أثناء قراءتنا للمزيد من آيات الكتاب المقدَّس.

والآن، بعد أن حَدَّدنا مُشكلة الإنسان، سوف نُحوِّل أنظارنا إلى الله لنرى كيفيَّة تأثير هذا الأمر عليه.

موقف الله

لكي نتمكَّن من فهم موقف الله، يجب علينا أن نفهم صفتين من صفاته:

١. العدالة المُطْلقة

لقد رأينا أنَّ الله كامل وليس فيه خطيَّة. وهذا يعني أنه أمين وعادل في تعامُله مع خليقته.

«هُوَ الصَّخْرُ الْكَامِلُ صَنِيعُهُ. إِنَّ جَمِيعَ سُبُلِهِ عَدْلٌ. إِلهُ أَمَانَةٍ لاَ جَوْرَ فِيهِ. صِدِّيقٌ وَعَادِلٌ هُوَ» (تثنية ٣٢: ٤)

لتقريب الصورة إلى أذهاننا، يُمكن تَشبيه الله بالقاضي العادل الذي لا يُحابي بين الناس:

«لأَنَّ الرَّبَّ إِلهَكُمْ هُوَ إِلهُ الآلِهَةِ وَرَبُّ الأَرْبَابِ، الإِلهُ الْعَظِيمُ الْجَبَّارُ الْمَهِيبُ الَّذِي لاَ يَأْخُذُ بِالْوُجُوهِ وَلاَ يَقْبَلُ رَشْوَةً» (تثنية ١٠: ١٧)

فسواء كان الله يتعامل مع أمير أو فقير فهو يُطبِّق أحكامه بعدل وأمانة. ورغم أنه يُمكن للمرء على هذه الأرض أن يُخفي جريمةً ما، أو أن يكذب بشأنها، أو أن يَرشي القاضي، أو أن ينجو بفعلته؛ إلاَّ أنَّ الأمر ليس كذلك مع الله. فما من مُذنبٍ سينجو بخطيئته، وما من خاطئٍ سيفلت من عدالة الله.

«لأَنَّ اللهَ يُحْضِرُ كُلَّ عَمَلٍ إِلَى الدَّيْنُونَةِ، عَلَى كُلِّ خَفِيٍّ، إِنْ كَانَ خَيْرًا أَوْ شَرًّا» (الجامعة ١٢: ١٤)

وهكذا، فإنَّ الأمانة والعدل صفتان رئيسيَّتان مُلازمتان لطبيعة الله:

«الْعَدْلُ وَالْحَقُّ قَاعِدَةُ كُرْسِيِّكَ ...» (المزمور ٨٩: ١٤)

«لأَنَّ الرَّبَّ عَادِلٌ وَيُحِبُّ الْعَدْلَ ...» (المزمور ١١: ٧)

وبما أنَّ الله كامل، فيمكننا أن نثق تماماً بأنه سيكون عادلاً تماماً؛ وهذا أمر يُسعدنا كثيراً! لكنَّ الخبر السيِّئ هو أنَّ العدل الكامل يقتضي مُعاقبة الخطيَّة بعقوبة مُساوية لها. وهكذا، يُمكننا أن نعرف مدى خطورة الخطيَّة عن طريق النظر إلى العقوبة المُقابلة لها. وكما رأينا سابقاً، يقول الكتاب المقدَّس إنَّ دَيْن خطيئتنا لا يُمكن سداده إلاَّ عن طريق موتنا – بأبعاده الثلاثة.

من المؤكَّد أنَّ هذا ليس خبراً ساراً على الإطلاق؛ لكنَّنا نشكُر الله على وجود الصفة الأخرى.

٢. المحبَّة الكاملة

ليس لدى الله عدالة مُطلَقة فحسب؛ بل لديه محبَّة كاملة أيضاً. فالله مُحبٌّ بطبيعته:

«... اللهُ مَحَبَّةٌ» (١ يوحنا ٤: ٨)

- لقد رأينا أنَّ الله أظهر نوعاً من المحبَّة حينما خلق العالم. وهذا واضح من خلال عنايته بخليقته، واهتمامه بنا وبتسديد حاجاتنا:

«... الَّذِي يَمْنَحُنَا كُلَّ شَيْءٍ بِغِنًى لِلتَّمَتُّعِ» (١ تيموثاوس ٦: ١٧)

في الصفحات اللاحقة من هذا الكتاب، سوف نرى أنَّ الله أظهر محبَّةً أعمق من نحونا

رغم أننا لا نستحقُّها. وغالباً ما يُشار إلى هذه المحبَّة بكلمتيّ «نعمة» و«رَحمة».

«احْمَدُوا إِلهَ الآلِهَةِ، لأَنَّ إِلَى الأَبَدِ رَحْمَتُهُ. احْمَدُوا رَبَّ الأَرْبَابِ، لأَنَّ إِلَى الأَبَدِ رَحْمَتَهُ» (المزمور ١٣٦: ٢، ٣)

كان آدم وحوَّاء هُما اللذان قطعا الصداقة مع الله في الجنَّة، لكنَّ الله لم يتغيَّر ولم يتبدَّل. فما زال الله يُحبُّهما رُغم أنه لم يُحب خطيئتهما.

هل من تناقُض هُنا؟

رُبَّما تُشكِّل عدالة الله ومحبَّته تناقضاً لك حينما تُفكِّر فيهما في ضوء مُعضلة خطيَّة الإنسان وموته. فعلى سبيل المثال، إذا كان الله عادلاً تماماً، فيجب عليه أن يُنفِّذ أحكامه حينما نُخطئ. ويجب ألَّا تكون هناك أية استثناءات لهذه القاعدة. وهذا يعني أنه يجب علينا جميعاً أن ندفع أجرة خطايانا؛ أي أنه يجب علينا أن نموت حينما نُخطئ. لكن بما أنَّ الله إلهٌ مُحبٌّ، فهو لا يُريد أن يُهلكنا؛ بل يريدنا أن نعيش معه إلى أبد الآبدين.

إنَّ صفتيّ العدل والمحبَّة لدى الله مُتساويتان. وهذا يعني أنَّ صفة المحبَّة لا تطغى على صفة العدل لديه؛ والعكس صحيح أيضاً. وحيث أنَّ الله يعمل بطريقة تتوافق تماماً مع طبيعته الكاملة، فلا بُدَّ أن يكون قادراً على التعبير عن هاتين الصفتين بصورة مُتساوية. والسؤال الذي يطرح نفسه هنا هو: «كيف يمكن لله أن يكون عادلاً ومُحبَّاً في الوقت نفسه؟» تابع القراءة لتعرف الإجابة عن هذا السؤال المهم.

لا يُمكن لله أن يتغاضى عن الخطيَّة

يجب علينا أن نعرف نظرة الله إلى الخطيَّة لكي نتمكَّن من فهم رسالته إلى البشريَّة فهماً واضحاً. فالكتاب المقدس يقول إنَّه لا بُدَّ لله أن يفعل شيئاً حينما نُخطئ؛ فلا يُمكنه أن يتغاضى عن خطايانا وأن يعتبرها وكأنها ليست موجودة. فإن تغاضى الله عن الخطيَّة فسوف يكون هذا مُعارضاً لطبيعته لأنه إله قُدُّوس. لهذا، فهو يُعاقبنا (سواء أثناء حياتنا على هذه الأرض أو بعد موتنا الجسدي) على كل خطيَّة قمنا بها. ويجب أن نُدرك أنَّ الله راسخ تماماً في هذا الأمر حيث ينبغي علينا جميعاً أن نموت.

«لأَنَّهُ لاَ بُدَّ أَنْ نَمُوتَ وَنَكُونَ كَالْمَاءِ الْمُهْرَاقِ عَلَى الأَرْضِ الَّذِي لاَ يُجْمَعُ أَيْضًا ...» (٢ صموئيل ١٤: ١٤)

لكنَّ الآية أعلاه لا تتوقَّف عند هذا الحَدِّ. فنحن نرى الصفة الأخرى للرب واضحة أيضاً لأنه «مَحبَّة» بطبيعته:

«... وَلاَ يَنْزِعُ اللهُ نَفْسًا بَلْ يُفَكِّرُ أَفْكَارًا حَتَّى لاَ يُطْرَدَ عَنْهُ مَنْفِيٌّ»

(٢ صموئيل ١٤: ١٤)

تقول هذه الآية إنه رغم أنَّ الله يسمح لأجسادنا الماديَّة أن تموت، إلَّا أنه يُوفِّر لنا بمُقتضى محبَّته وسيلة لتخليص أرواحنا من العقاب الأبدي. وبهذا فإنَّ الله يُفسح لنا المجال للعيش في حضرته من جديد. لكن كيف يمكن لله أن يُدين الخطيَّة وأن يُنقذنا في الوقت نفسه؟

وكيف يمكنه أن يُدين الخطيَّة دون أن يُديننا نحن؟ سوف نتناول هذا الموضوع في الفصول القادمة.

الكبرياء

هناك نقطة أخيرة قبل أن نُتابع دراستنا. فالكتاب المقدَّس يقول إنَّ الكبرياء هي التي جعلت الشيطان يتمرَّد على الله. ورغم أنَّ البعض ينظر إلى الكبرياء باعتبارها شيئاً إيجابيَّاً وجيِّداً، إلاَّ أنَّ الكتاب المقدَّس يقول إنَّ الكبرياء هي التي تمنعنا من اللجوء إلى الله طلباً للعون. لهذا، فإنَّ الكتاب المقدَّس يُحذِّرنا دوماً من خطر الكبرياء:

«... اللهُ يُقَاوِمُ الْمُسْتَكْبِرِينَ، وَأَمَّا الْمُتَوَاضِعُونَ فَيُعْطِيهِمْ نِعْمَةً» (١ بطرس ٥: ٥)

لذلك، عوضاً عن أن نسمح لكبريائنا بالسيطرة علينا والتحكُّم فينا؛ وعوضاً عن أن نهتم أكثر من اللازم بآراء الآخرين بنا، يجب علينا أن نتبع ما يقوله الكتاب المقدَّس لنا:

«هكَذَا قَالَ الرَّبُّ: لاَ يَفْتَخِرَنَّ الْحَكِيمُ بِحِكْمَتِهِ، وَلاَ يَفْتَخِرِ الْجَبَّارُ بِجَبَرُوتِهِ، وَلاَ يَفْتَخِرِ الْغَنِيُّ بِغِنَاهُ. بَلْ بِهذَا لِيَفْتَخِرَنَّ الْمُفْتَخِرُ: بِأَنَّهُ يَفْهَمُ وَيَعْرِفُنِي أَنِّي أَنَا الرَّبُّ الصَّانِعُ رَحْمَةً وَقَضَاءً وَعَدْلاً فِي الأَرْضِ، لأَنِّي بِهذِهِ أُسَرُّ، يَقُولُ الرَّبُّ» (إرميا ٩: ٢٣-٢٤)

٢. الكفَّارة

بعد أن أكل آدم وحوَّاء من ثمر تلك الشجرة، كان أوَّل شيءٍ فعلاه هو أنهما حاولا أن يُغطيا عورتيهما بأوراق التين. ورغم ارتدائهما لهذه الملابس، إلاَّ أنَّ آدم أخبر الله بأنه يشعر بالعُري! ولا بُدَّ من وجود سبب لذلك الشعور حيث يقول لنا الكتاب المقدَّس:

«... الرَّبَّ لا ينظُرُ كما ينظُرُ الإنسانُ. فالإنسانُ ينظُرُ إلى المَظهَرِ، وأمَّا الرَّبُّ فينظُرُ إلى القلبِ»
(١ صموئيل ١٦: ٧ – المشتركة)

كان الله ينظر إلى مُحاولاتهما اليائسة لستر نفسيهما بأوراق التين. وما من شكٍّ أنه كان يرى قلبيهما من الداخل.

يقول الكتاب المقدَّس لنا إنَّ الله رفض محاولات آدم وحوَّاء الرامية إلى تحسين صورتهما أمامه. فرغم أنَّ أوراق التين سَتَرت عُريهما، إلاَّ أنَّ قلبيهما كانا مليئين بالخطيَّة. وقد أراد الله أن يُعلِّمهما أنَّ الإنسان عاجز تماماً عن فعل أيِّ شيءٍ خارجي أو داخلي لحل مُشكلة الخطيَّة. لهذا، فقد رفض الله ملابسهما المصنوعة من أوراق التين.

غطاء

لم يكُن بمقدور أيِّ شخص أن يوفِّر لآدم وحوَّاء ملابس مقبولة لدى الله. لهذا السبب، أخذ الله حيوانين بريئين (لا ذَنْب لهُما في خطيئة آدم وحوَّاء)، وذبحهما، وسَلَخ جلدهما:

«وَصَنَعَ الرَّبُّ الإِلهُ لآدَمَ وَامْرَأَتِهِ أَقْمِصَةً مِنْ جِلْدٍ وَأَلْبَسَهُمَا» (تكوين ٣: ٢١)

كانت هذه صورة حيَّة عن أنَّ الخطيَّة تجلب الموت. لم يكُن آدم وحوَّاء قد شاهدا شخصاً

أو حيواناً يموت من قَبل. لذلك، من المؤكَّد أنَّ رؤيتهما لهذين الحيوانين وهما يموتان كانت أمراً مؤلماً لهما. ويُمكننا أن نتخيَّل المشهد الماثل أمامهما: فها هي الدماء تجري على الأرض، وهناك حيوانان بريئان يلفظان أنفاسهما الأخيرة ويبدأ اللَّمعان بالاختفاء من أعينهما شيئاً فشيئاً إلى أن يموتا! وهكذا، فقد قام الله بتوصيل حقيقة الموت المُرعبة لآدم وحوَّاء على الفور. فقد ضَحَّى الله بحيوانين بريئين لكي يأخذ جلودهما ويستر بها عورتي آدم وحوَّاء!

طرد آدم وحوَّاء من الجنَّة

رغم أنَّ الإنسان أخطأ، إلاَّ أنه كان ما زال يعيش في الجنَّة وبإمكانه الوصول إلى شجرة الحياة. وكان الأكل من هذه الشجرة يعني أنه سيعيش إلى الأبد. لذلك، قام الله بطرد آدم وحوَّاء من الجنَّة.

«وَقَالَ الرَّبُّ الإِلهُ: ‹هُوَذَا الإِنْسَانُ قَدْ صَارَ كَوَاحِدٍ مِنَّا عَارِفًا الْخَيْرَ وَالشَّرَّ.❖ وَالآنَ لَعَلَّهُ يَمُدُّ يَدَهُ وَيَأْخُذُ مِنْ شَجَرَةِ الْحَيَاةِ أَيْضًا وَيَأْكُلُ وَيَحْيَا إِلَى الأَبَدِ›. فَأَخْرَجَهُ الرَّبُّ الإِلهُ مِنْ جَنَّةِ عَدْنٍ لِيَعْمَلَ الأَرْضَ الَّتِي أُخِذَ مِنْهَا. فَطَرَدَ الإِنْسَانَ، وَأَقَامَ شَرْقِيَّ جَنَّةِ عَدْنٍ الْكَرُوبِيمَ، وَلَهِيبَ سَيْفٍ مُتَقَلِّبٍ لِحِرَاسَةِ طَرِيقِ شَجَرَةِ الْحَيَاةِ

(تكوين ٣: ٢٢-٢٤)

❖ ملحوظة: لاحظ عبارة «كواحدٍ منَّا» هنا. فبما أنَّ الكتاب المقدَّس يقول بوضوح إنه يوجد إله واحد فقط، فمن البديهي أن نتساءل: مع مَنْ يتكلَّم الله هنا حينما يقول: «هُوَذَا الإِنْسَانُ قَدْ صَارَ كَوَاحِدٍ مِنَّا»؟ سوف نُجيب عن هذا السؤال في وقتٍ لاحق.

كان هذا عمل من أعمال الرحمة. فالله لم يشأ أن يعيش البشر في حالة الخطيَّة إلى الأبد. فهل يمكنك أن تتخيَّل حال العالم لو أنَّ جميع الأشرار عبر التاريخ ما زالوا أحياء حتَّى يومنا هذا؟ لهذا، حينما طرد الله آدم وحوَّاء من جَنَّة عَدْن، فقد كان بذلك يسمح لإحدى عواقب الخطيَّة أن تقوم بعملها الأخير ألا وهو الموت الجسدي. لكنَّ الله كان ينظر إلى ما وراء القبر. فقد كان يُفكِّر في خطَّته الرامية إلى تخليص الإنسان من الموت الثاني؛ أي إنقاذه من بُحيرة النار.

قايين وهابيل (انظر الخط الزمني في الفصل التاسع من هذا الكتاب صفحة ١٤٣)

«وَعَرَفَ آدَمُ حَوَّاءَ امْرَأَتَهُ فَحَبِلَتْ وَوَلَدَتْ قَايِينَ. وَقَالَتِ: ‹اقْتَنَيْتُ رَجُلاً مِنْ عِنْدِ الرَّبِّ›. ثُمَّ عَادَتْ فَوَلَدَتْ أَخَاهُ هَابِيلَ. ... » (تكوين ٤: ١، ٢)

وُلد كُلٌّ من قايين وهابيل خارج جنَّة عَدْن. وبما أنه حُبِل بهما نتيجة اتحاد بين آدم وحوَّاء، فقد أصبحا يُعانيان من نفس حالة الخطيَّة التي يُعاني منها آدم؛ وبهذا فقد كانا مُنفصلين عن الله. ولكي يكون الله عادلاً، يجب أن يُطبِّق قانونه عليهما. وهذا يعني أنه كان ينبغي على قايين وهابيل أن يموتا بسبب خطاياهما. لكنَّ الله كان يُحبَّهما لدرجة أنه وَفَّر لهما بمُقتضى رحمته طريقةً للنجاة من تلك الدينونة. وكان لهذه الطريقة جانبان:

داخلي – الإيمان بالله

كان ينبغي على قايين وهابيل أن يثقا بالله وأن يؤمنا أنَّه صادق في أقواله. فعلى سبيل

المثال، لقد وعد الله آدم وحوَّاء بأنَّ المُخلِّص سيسحق رأس الشيطان ويُخلِّصهما من عواقب الخطيَّة. فهل كان ذلك مُمكناً؟ وهل كان ذلك صحيحاً؟ وهل كان الله يعني ذلك حقَّاً؟ كان ينبغي على كُلٍّ من قايين وهابيل أن يُقرِّرا ما إذا كانا سيؤمنان بالله أم لا.

خارجي – وسيلة إيضاح بصريَّة

أراد الله أيضاً أن يُبيِّن لقايين وهابيل ما هو الشيء المطلوب لإزالة الخطيَّة. وكان ذلك يتطلَّب استخدام وسيلة إيضاح بصريَّة.

نفهم من خلال دراستنا للكتاب المقدَّس[1] أنَّ الله أعطى قايين وهابيل تعليمات واضحة ومُحدَّدة عن كيفيَّة طلب وجهه والاقتراب منه. فقد كان ينبغي عليهما أن يُحضرا حيواناً، وأن يذبحاه ويجعلا دمه يسيل على مذبح.* لكن لماذا هذه الطريقة تحديداً؟ أي ما هو السبب المنطقي لمثل هذه التعليمات الواضحة؟ يقول الكتاب المقدَّس:

* ملحوظة: كان المذبح عبارة عن مصطبة من حجارة تُقدَّم عليها الذبائح.

«... بِدُونِ سَفْكِ دَمٍ لاَ تَحْصُلُ مَغْفِرَةٌ!» (عبرانيين ٩: ٢٢)

والآن، تعال بنا نُحلِّل هذه الآية قليلاً. فالآية تقول في حقيقة الأمر:

«... بِدُونِ موت عن طريق سَفْكِ دَمٍ لاَ تَحْصُلُ مَغْفِرَةٌ من دَيْن الخطيَّة»

(عبرانيين ٩: ٢٢)

وبهذا، كان الله يقول لهما إنَّ دَيْن خطيَّة الإنسان لا يُمكن تسديده أو غُفرانه إلاَّ عن طريق الموت. لكن لماذا يجب أن يكون هناك دم؟ نجد الإجابة عن هذا السؤال في الآية التالية:

«لأَنَّ نَفْسَ الْجَسَدِ هِيَ فِي الدَّمِ، فَأَنَا أَعْطَيْتُكُمْ إِيَّاهُ عَلَى الْمَذْبَحِ لِلتَّكْفِيرِ عَنْ نُفُوسِكُمْ، لأَنَّ الدَّمَ يُكَفِّرُ عَنِ النَّفْسِ» (لاويين ١٧: ١١)

هناك جانبان يتعلَّقان بذبيحة الدم:

- **البَدَل:** في الوضع العادي والطبيعي، يجب أن يموت الإنسان عن الخطايا التي يقترفها هو نفسه. لكنَّ الله قال للإنسان إنه سيقبل موت حيوان بريء بدلاً عنه وذلك بناءً على أمور مُعيَّنة ستحدث في المستقبل. كانت تلك حياة مُقابل حياة، ونفس بريئة تموت بدلاً من النفس التي أخطأت في الأصل. وهكذا، فقد كانت الذبيحة تُصوِّر تطبيق ناموس الخطيَّة والموت من أجل تحقيق العدالة وإرضاء الله. لكن ألم يكُن بالإمكان قتل الحيوان بدون سفك دمه كأن يتم خنقه أو إغراقه مثلاً؟
- **الكفَّارة:** قال الله إنَّ الدمَّ سيكون كفَّارةً عن الخطيَّة. وكلمة كفَّارة تعني «غِطاء» بمعنى أنَّ الدم المسفوك سيُغطِّي خطيَّة الإنسان. وبذلك، حينما ينظر الله إلى الإنسان فلن يرى خطيئته لأنَّ الدم يُغطِّيها. وبهذه الطريقة، سوف يتم استعادة العلاقة بين الإنسان والله. ورغم أنَّ الإنسان سيموت جسديَّاً في نهاية المطاف، إلاَّ أنَّ العواقب الأبديَّة للخطيَّة لن تُطبَّق عليه (أي أنه لن يكون مُنفصلاً عن الله إلى أبد الآبدين في بُحيرة النار)

وهكذا، وعن طريق الإيمان بالله كما هو مُوضَّح من خلال الموت البدلي والدم الكفَّاري

على المذبح، سوف يجد الإنسان غفراناً لخطاياه ويتمكَّن من إقامة علاقة جديدة مع الله.

والآن، سوف ننتقل إلى قصَّة قايين وهابيل دون أن ننسى تعليمات الله الواضحة والمُحدَّدة بشأن الذبيحة والدم.

الكفَّارة – غطاء للخطيَّة

كلمة «كفَّارة» تحمل بين ثناياها فكرة إرضاء جوانب العدل والقداسة والبرِّ لدى الله. فناموس الله يقضي بالموت كعقابٍ للخطيَّة. لذلك، فقد رضي الله بموت حيوانٍ بريءٍ نيابةً عن الإنسان كتتميم لمطالب الناموس.

لم يكُن ذبح حيوانٍ على المذبح يعني أنَّ الخطيَّة قد زالت. فقد استمر الإنسان في اقتراف الخطايا. لكنَّ الذبيحة كانت تُصوِّر الشيء اللازم لغُفران تلك الخطايا – ألا وهو الموت وسفك الدم. فقد كان الدم يُوفِّر الكفَّارة أو الغطاء للخطيَّة. وكما قام الله بتغطية عورتيّ آدم وحوَّاء بملابس مقبولة لديه، فقد غَطَّى خطيَّة الإنسان بالدم وجعله مقبولاً لديه أيضاً. وهكذا، يُمكن القول إنَّ الله قد أوجد حَلاً مؤقتاً لمُشكلة خطيَّة الإنسان واعتبرها وكأنَّها ليست موجودة.

تَقْدمتا قايين وهابيل

«... وَكَانَ هَابِيلُ رَاعِيًا لِلْغَنَمِ، وَكَانَ قَايِينُ عَامِلاً فِي الأَرْضِ. وَحَدَثَ مِنْ بَعْدِ أَيَّامٍ أَنَّ قَايِينَ قَدَّمَ مِنْ أَثْمَارِ الأَرْضِ قُرْبَانًا لِلرَّبِّ. وَقَدَّمَ هَابِيلُ أَيْضًا مِنْ أَبْكَارِ غَنَمِهِ وَمِنْ سِمَانِهَا.» (تكوين ٤: ٢-٤)

قَدَّم كُلٌّ ما قايين وهابيل تقدمات للرب بحسب أمر الله لهما. فقد أراد الله منهُما أن يُظهرا بطريقة عمليَّة أنهما يثقا بكلمته ويؤمنا أنها صادقة. ورغم أنهما أحضرا تقدماتهما لله، إلاَّ أنه كانت هناك مُشكلة وكان هُناك اختلاف جوهري في التقدمة التي أحضرها كُلٌّ منهما.

أحضر هابيل حيواناً يمكن ذبحه وسفك دمه. وبالتالي، فقد كانت تقدمته صحيحة وصالحة وفقاً لوصايا الله. أمَّا قايين فقد أحضر خضروات وفاكهة لتقديمها لله! لكنَّ الخضار والفاكهة لا يُمكن ذبحها وسفك دمها. وهكذا، رُغم أنَّ قايين جاء بتقدمة للرب، إلاَّ أنَّ تقدمته لم تكُن صحيحة.[1] وبذلك، فقد كان قايين يُقلِّد آدم وحوَّاء حينما حاولا تغطية عورتيهما بأوراق التين!

الرَّفض

«فَنَظَرَ الرَّبُّ إِلَى هَابِيلَ وَقُرْبَانِهِ، وَلكِنْ إِلَى قَايِينَ وَقُرْبَانِهِ لَمْ يَنْظُرْ» (تكوين ٤: ٤، ٥)

رفض الله تقدمة قايين لأنه أخطأ في أمرين: الأوَّل أنه أظهر من خلال تصرفاته أنه لا يثق بالله؛ والثاني أنه أراد أن يعمل الأشياء بطريقته الخاصَّة. لكنَّ الله لا يَقبل الأفكار الشخصيَّة حول كيفيَّة التصالُح معه. فقد تكون لدى الإنسان أفضل النوايا في العالم، لكنَّ صِدْق النوايا لا يكفي وَحده لإعادة العلاقة المُنقطعة بين الله والإنسان.

غالباً ما ننظر إلى الأفكار المُستقلَّة باعتبارها شيئاً حسناً. ورغم أننا لا نُنكر ذلك، إلاَّ أننا يجب أن نحذر من هذه الاستقلاليَّة! فالروح المُستقلَّة يُمكن أن تكون مُتمركزة حول نفسها. لذلك، حينما تُسيطر علينا عقليَّة «سوف أفعل ذلك بطريقتي الخاصَّة»، و«أنا حُرٌّ»، فسوف تكون النتيجة بشعة جداً.

قَرَّر قايين أن يتصرَّف على هَواه. وبذلك، فقد انضمَّ إلى آدم وحوَّاء في تجاهُل وصايا الله. وربما كان يعتقد أنه يعرف الصواب أكثر من الله.

القبول

من ناحية أخرى، قَدَّم هابيل الذبيحة التي أمر الله بها حيث أحضر حيواناً بريئاً وذبحه وسفك دمه. فقد كان هابيل يستحق الموت لأجل خطاياه، لكنَّ الله قَبِل بموت ذلك الحيوان البريء بدلاً عنه لأنه إله رؤوف ومُحب. وضع هابيل تقدمته أمام الرب وهو واثق بأنَّ الله سيفي بوعده وأنه سيُرسل مُخلِّصاً يُنقذه من عقوبة خطيئته. ورغم أنَّ هابيل كان يجهل كيف سيقوم المُخلِّص بدوره الخلاصي هذا، إلاَّ أنه من الواضح أنه كان يثق بأنَّ لدى الله علاج لمشكلة الخطيَّة.

«بِالإِيمَانِ قَدَّمَ هَابِيلُ لِلهِ ذَبِيحَةً أَفْضَلَ مِنْ قَايِينَ. فَبِهِ شُهِدَ لَهُ أَنَّهُ بَارٌّ، إِذْ شَهِدَ اللهُ لِقَرَابِينِهِ»
(عبرانيين ١١: ٤)

حينما اقترب هابيل بإيمان من الله، كانت ذبيحته كفَّارةً (غطاءً) لخطاياه. لهذا، حينما نظر الله إلى هابيل، فقد رأى الدم ولم يَر خطاياه. وبهذه الطريقة، أصبح هابيل مقبولاً في مَحضر الله.

لُطف الله

اغتاظ قايين لأنَّ الله قَبِلَ تقدمة أخيه هابيل ورفض تقدمته هو:

«فَغَضِبَ قَايِينُ جِدًّا وَعبَسَ وجهُهُ. فقالَ الرَّبُّ لقايينَ: لِماذا غَضِبتَ ولِماذا عبَسَ وجهُكَ؟ إذا أحسنْتَ عمَلاً، رفَعْتُ شأنَكَ، وإذا لم تُحسِنْ عمَلاً، فالخطيّةُ رابِضةٌ بالبابِ وهيَ تَتَلهَّفُ إليكَ، وعلَيكَ أنْ تسُودَ علَيها.»

(تكوين ٤: ٥-٧ – المشتركة)

حاول الله بكل لُطف أن يُبيِّن لقايين أنه يسير في طريق خاطئ يؤدي إلى الهلاك، وأنَّ طبيعته الخاطئة يُمكن أن تُدمِّره. كما أنه بَيَّن له أنه إن تصرَّف مثل أخيه هابيل، فسوف يتم قبوله هو الآخر. لكنَّ الكتاب المقدَّس لا يذكُر أنَّ قايين تجاوب بطريقة إيجابيَّة مع الله؛ بل إنَّ كل ما نعرفه عنه هو أنه كان عابس الوجه.

أسئلة .. أسئلة

«وقالَ قايينُ لهابيلَ أخيهِ: هيَّا لِنَخرُج إلى الحقلِ. وبَينَما هُما في الحقلِ هجمَ قايينُ على هابيلَ أخيهِ فقَتَلَهُ» (تكوين ٤: ٨، ٩ – المشتركة)

يتعامل الله مع قايين هنا بنفس الطريقة التي تعامل بها مع آدم وحوَّاء بعدما عصيا وصيَّته في جنَّة عدن. ومن المؤكَّد أنَّ الله لم يكُن بحاجة لسؤال قايين عمَّا حدث. فهو يعلم تماماً ما حدث؛ بل ويعرف أدقَّ التفاصيل أيضاً. لكنه كان يُعطي قايين فرصةً للاعتراف بخطيئته. لكنَّ إجابة قايين كشفت عن حال قلبه – تماماً مثلما حدث مع آدم وحوَّاء:

قايين: «لاَ أَعْلَمُ! أَحَارِسٌ أَنَا لأَخِي؟»

الله: «مَاذَا فَعَلْتَ؟ صَوْتُ دَمِ أَخِيكَ صَارِخٌ إِلَيَّ مِنَ الأَرْضِ» (تكوين ٤: ٩، ١٠)

لا يُمكن إخفاء الخطيَّة عن الله. فقد قام قايين بقتل أخيه هابيل ثُمَّ حاول أن يُنكر ذلك. لكنَّ الله واجه قايين بخطيئته وقال له: «أنت فعلت ذلك!» ولا نقرأ في الكتاب المقدَّس أنَّ قايين أظهر ندماً أو حسرةً على ما فعله. كان بإمكان الله أن يُهْلِك قايين، لكن حيث أنه رؤوف ورحيم فقد قام بنفيه إلى منطقة أخرى. وهكذا، فقد كانت بداية الجنس البشري مؤسفة بالفعل!

شيث (انظر الخط الزمني في الفصل التاسع من هذا الكتاب صفحة ١٤٣)

«وَعَرَفَ آدَمُ امْرَأَتَهُ أَيْضًا، فَوَلَدَت ابْنًا وَدَعَت اسْمَهُ شِيثًا، قَائِلَةً: ‹لأَنَّ اللهَ قَدْ وَضَعَ لِي نَسْلاً آخَرَ عِوَضًا عَنْ هَابِيلَ›. لأَنَّ قَايِينَ كَانَ قَدْ قَتَلَهُ. وَلِشِيثَ أَيْضاً وُلِدَ ابْنٌ فَدَعَا اسْمَهُ أَنُوشَ. حِينَئِذٍ ابْتُدِئَ أَنْ يُدْعَى بِاسْمِ الرَّبِّ.»

(تكوين ٤: ٢٥، ٢٦)

رغم أنَّ «شيث» كان خاطئاً بطبيعته، إلاَّ أنه كان يؤمن بالله ويثق به مثل أخيه هابيل. وقد

كان الله مُزمعاً أن يأتي بالمُخلِّص من نسل شيث؛ فالله يحفظ وعده دائماً.

الموت

ها قد حان الوقت لوداع آدم. فالكتاب المقدَّس يقول إنَّ آدم عاش فترةً طويلةً جداً، وإنه قام بتأسيس عائلة كبيرة للغاية. ويعتقد بعض العُلماء أنَّ الغلاف الجوي (أو ربما طبقة الأوزون) كان يحمي الأرض تماماً من تأثير الأشعَّة الكونيَّة الضارَّة ممَّا سمح للإنسان أن يعيش عُمراً مديداً حسب ما نقرأ في التاريخ المُبكِّر. ويعتقد بعض العلماء الآخرين أنَّ التغيُّرات في الجينات الوراثيَّة كانت ما زالت بطيئة ممَّا أدَّى إلى إطالة عُمر الإنسان آنذاك. ورغم أنَّ هذه النظريات يمكن أن تكون صحيحة، إلاَّ أنَّ العُلماء أصبحوا أكثر اقتناعاً الآن بأنَّ عُمر الإنسان مُحدَّد بحسب جيناته الوراثيَّة. وربما يكون ذلك الحَدُّ الجينيُّ أعلى بكثير من الحَدِّ السائد في وقتنا الحاضر. وسوف نرى لاحقاً ما هي الأسباب التي رُبَّما أدَّت إلى هذا التغيير. ومهما يكُن السبب، فإنَّ الكتاب المقدَّس يقول إنَّ وعد الله قد تحقَّق بالنسبة لآدم في نهاية المطاف:

«وَكَانَتْ أَيَّامُ آدَمَ بَعْدَ مَا وَلَدَ شِيثًا ثَمَانِيَ مِئَةِ سَنَةٍ، وَوَلَدَ بَنِينَ وَبَنَاتٍ. فَكَانَتْ كُلُّ أَيَّامِ آدَمَ الَّتِي عَاشَهَا تِسْعَ مِئَةٍ وَثَلاَثِينَ سَنَةً، وَمَاتَ» (تكوين ٥: ٤، ٥)

بمن تزوَّج شيث وقايين؟

يقول الكتاب المقدَّس إنَّ آدم وحوَّاء أنجبا أبناءً آخرين (ذكوراً وإناثاً) وهذا يعني أنَّ الإخوة والأخوات كانوا يتزوَّجون بعضهم من بعض في تلك الفترة الزمنيَّة. وحيث أنه لم يمض وقت طويل يكفي لحدوث طفرات كبيرة في الجينات الوراثيَّة المُشتركة بين أبناء آدم وحوَّاء، لم تكُن تلك الزيجات بين الإخوة والأخوات تؤدي إلى نتائج ضارَّة. لكنَّنا نرى في وقتٍ لاحقٍ من تاريخ الكتاب المقدَّس أنَّ الله حَرَّم هذا النوع من الزواج.

ما الذي حدث لهابيل بعد موته؟

رغم أنَّ سفر التكوين لا يذكُر صراحةً أين ذهبت روح هابيل بعد موته، إلاَّ أنَّنا نعرف من خلال الأسفار المقدَّسة الأخرى أنَّ الأموات كانوا يذهبون إلى مكانٍ يُسمَّى «الفردوس»؛ وهو مكان أعدَّه الله للأشخاص الذين يؤمنون به. ورغم أنَّ بعض العُلماء كانوا يُفرِّقون بين الفردوس والسَّماء في تلك الفترة الزمنيَّة، إلاَّ أنهم يتَّفقون جميعاً بأنَّ هذين المكانين هُما اسمان لمكانٍ واحد.

لا يُخبرنا الكتاب المقدَّس الكثير عن السَّماء. وربما يرجع السبب في ذلك إلى أنَّه يصعب على عقولنا المحدودة أن تفهم مثل هذه الأمور السماويَّة! ورغم أنَّ الله سمح لأحد الأنبياء بإلقاء لمحة خاطفة على السَّماء، إلاَّ أنَّ هذا النبي وقف عاجزاً عن وصف السَّماء بكلمات ملموسة؛ لذلك فقد لجأ إلى وصفها بصور كلاميَّة على أمل أن يتمكَّن من التعبير عمَّا رآه! وحينما تُفكِّر في العالم الجميل الذي خلقه الله لأجل الإنسان في ستَّة أيام، فمن الطبيعي أن تشعر بالذهول حينما تُفكِّر في ما يُعدُّه الله في السَّماء لأجل المؤمنين! لكنَّ النقطة المهمَّة هي أنَّ الكتاب المقدَّس يؤكِّد أنَّ هذا المكان (الذي ندعوه «السَّماء») هو مكان حقيقي، وأنَّ أناساً حقيقيين يعيشون فيه. ولتقريب الصورة إلى أذهاننا، يمكن القول إنَّ جنَّة عدن هي صورة مُصغَّرة ومُبسَّطة عن هذه السَّماء.

في السَّماء، سوف تزول الطبيعة الخاطئة للإنسان:

«وَلَنْ يَدْخُلَهَا شَيْءٌ دَنِسٌ وَلاَ مَا يَصْنَعُ رَجِسًا وَكَذِبًا، إِلاَّ الْمَكْتُوبِينَ فِي سِفْرِ حَيَاةِ ...»

(رؤيا ٢١: ٢٧)

وسوف يكون الإنسان بارَّاً بصورة مقبولة تماماً لدى الله. وقد كتب النبي داود الكلمات التالية فيما هو يُفكِّر في رؤية الرب:

«أَمَّا أَنَا فَبِالْبِرِّ أَنْظُرُ وَجْهَكَ. أَشْبَعُ إِذَا اسْتَيْقَظْتُ بِشَبَهِكَ»

(المزمور ١٧: ١٥)

وسوف يسترجع الإنسان علاقته الفريدة مع الله:

«وَسَمِعْتُ صَوْتًا عَظِيمًا مِنَ السَّمَاءِ قَائِلاً: هُوَذَا مَسْكَنُ اللهِ مَعَ النَّاسِ، وَهُوَ سَيَسْكُنُ مَعَهُمْ، وَهُمْ يَكُونُونَ لَهُ شَعْبًا، وَاللهُ نَفْسُهُ يَكُونُ مَعَهُمْ إِلهًا لَهُمْ» (رؤيا ٢١: ٣)

وكل شيء يتعلَّق بالحياة سيكون رائعاً:

«وَسَيَمْسَحُ اللهُ كُلَّ دَمْعَةٍ مِنْ عُيُونِهِمْ، وَالْمَوْتُ لاَ يَكُونُ فِي مَا بَعْدُ، وَلاَ يَكُونُ حُزْنٌ وَلاَ صُرَاخٌ وَلاَ وَجَعٌ فِي مَا بَعْدُ، لأَنَّ الأُمُورَ الأُولَى قَدْ مَضَتْ. وَقَالَ الْجَالِسُ عَلَى الْعَرْشِ: هَا أَنَا أَصْنَعُ كُلَّ شَيْءٍ جَدِيدًا! ...»

(رؤيا ٢١: ٤، ٥)

ولن تكون هناك جنازات، أو علاقات مُحطَّمة، أو قبور، أو وداع يكسر القلب، أو مُستشفيات، أو أجسام سقيمة وصحَّة عليلة، أو عُكَّازات أو كراسي مُقعَدين؛ بل ستكون السَّماء مكاناً لأفراح سماويَّة لا تنتهي:

«... أَمَامَكَ شِبَعُ سُرُورٍ. فِي يَمِينِكَ نِعَمٌ إِلَى الأَبَدِ» (المزمور ١٦: ١١)

كذلك، لن تكون أجسامنا محصورة زمنيًّا أو مكانيًّا. لهذا، ربما سيكون بمقدورنا الانتقال من مكان لآخر بلمح البصر، وسيكون بإمكاننا أن نتعرَّف على الأشخاص الذين كنا نعرفهم أو نسمع عنهم أثناء حياتنا على الأرض.

وعلى أقل تقدير، سوف تكون هناك مدينة كبيرة تشغل جزءاً من السَّماء. وقد قام أحد العلماء بعمليَّة حسابيَّة لأبعاد هذه المدينة فوجد أنه إذا تم استغلال ٢٥٪ من مساحتها، فسوف تتَّسع لما يزيد عن ٢٠ بليون شخص. ويُطلق الكتاب المقدَّس على هذه المدينة اسم «أورشليم الجديدة»:

« ... وَأَرَانِي الْمَدِينَةَ الْعَظِيمَةَ أُورُشَلِيمَ الْمُقَدَّسَةَ ... لَهَا مَجْدُ اللهِ، وَلَمَعَانُهَا شِبْهُ أَكْرَمِ حَجَرٍ كَحَجَرِ يَشْبٍ بَلُّورِيٍّ. وَكَانَ لَهَا سُورٌ عَظِيمٌ وَعَالٍ، وَكَانَ لَهَا اثْنَا عَشَرَ بَابًا، وَعَلَى الأَبْوَابِ اثْنَا عَشَرَ مَلاَكًا»

(رؤيا ٢١: ١٠-١٢)

«وَأَبْوَابُهَا لَنْ تُغْلَقَ نَهَارًا، لأَنَّ لَيْلاً لاَ يَكُونُ هُنَاكَ» (رؤيا ٢١: ٢٥)

«وَسُوقُ الْمَدِينَةِ ذَهَبٌ نَقِيٌّ كَزُجَاجٍ شَفَّافٍ» (رؤيا ٢١: ٢١)

«وَأَرَانِي الملاك نَهْرًا صَافِيًا مِنْ مَاءِ حَيَاةٍ لاَمِعًا كَبَلُّورٍ، خَارِجًا مِنْ عَرْشِ اللهِ ...»

(رؤيا ٢٢: ١)

وهكذا، سوف تكون هذه المدينة فريدةً من نوعها ولا مثيل لها. فلن يكون هناك تلوُّث، ولا مرض، ولا فساد، ولا لُصوص، ولا جريمة؛ بل ستكون كاملةً في كل شيء. وسوف يبقي سُكَّان السماء فيها إلى أبد الآبدين.

«وَلاَ يَكُونُ لَيْلٌ هُنَاكَ، وَلاَ يَحْتَاجُونَ إِلَى سِرَاجٍ أَوْ نُورِ شَمْسٍ، لأَنَّ الرَّبَّ الإِلهَ يُنِيرُ عَلَيْهِمْ، وَهُمْ سَيَمْلِكُونَ إِلَى أَبَدِ الآبِدِينَ» (رؤيا ٢٢: ٥)

«... وَأَسْكُنُ فِي بَيْتِ الرَّبِّ إِلَى مَدَى الأَيَّامِ» (المزمور ٢٣: ٦)

ولعلَّنا نستطيع أن نختم هذا الجزء بالآية التالية التي رغم أنها لا تتحدَّث عن السماء فقط، إلاَّ أنها تُبيِّن لنا أنَّ الله أعَدَّ للمؤمنين أشياءً رائعةً تفوق الوصف:

«مَا لَمْ تَرَ عَيْنٌ، وَلَمْ تَسْمَعْ أُذُنٌ، وَلَمْ يَخْطُرْ عَلَى بَالِ إِنْسَانٍ: مَا أَعَدَّهُ اللهُ لِلَّذِينَ يُحِبُّونَهُ»

(١ كورنثوس ٢: ٩)

٣. النبيّ أخنوخ

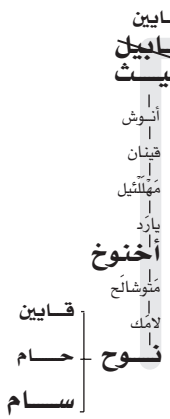

لا يذكر الكتاب المقدَّس الشيء الكثير عن الأجيال التي ظهرت بعد مولد «شيث». لكن هناك رجُل يذكُره الكتاب المقدَّس بصورة موجزة ألا وهو «أخنوخ». كان أخنوخ رجُلاً بارًّا آمن بأنَّ الرب وحده هو القادر على أن يُخلِّصه من عواقب الخطيَّة. تقول كلمة الله:

«وَسَارَ أَخْنُوخُ مَعَ اللهِ، وَلَمْ يُوجَدْ أي أختفى لأَنَّ اللهَ أَخَذَهُ» (تكوين ٥: ٢٤)

يقول الكتاب المقدَّس إنَّه بسبب إيمان أخنوخ، قام الله بأخذه إلى السَّماء قبل أن يموت. وبحسب ما يقوله الكتاب المقدَّس، لم يحدث مثل هذا الأمر سوى مرَّة واحدة أخرى بعد ذلك. وسوف نتعلَّم لاحقاً المزيد عن الإيمان ونعرف لماذا يُعتبر الإيمان عاملاً رئيسيًّا لقبول الله لنا.

«بِالإِيمَانِ نُقِلَ أَخْنُوخُ لِكَيْ لاَ يَرَى الْمَوْتَ، وَلَمْ يُوجَدْ لأَنَّ اللهَ نَقَلَهُ. إِذْ قَبْلَ نَقْلِهِ شُهِدَ لَهُ بِأَنَّهُ قَدْ أَرْضَى اللهَ. وَلكِنْ بِدُونِ إِيمَانٍ لاَ يُمْكِنُ إِرْضَاؤُهُ، لأَنَّهُ يَجِبُ أَنَّ الَّذِي يَأْتِي إِلَى اللهِ يُؤْمِنُ بِأَنَّهُ مَوْجُودٌ، وَأَنَّهُ يُجَازِي الَّذِينَ يَطْلُبُونَهُ» (عبرانيين ١١: ٥، ٦)

تلخِّص العبارة الأخيرة الأمر بكل وضوح. فلكي تأتي إلى الله، يجب أن تؤمن أوَّلاً أنه موجود وأنه سيوضِّح لك الطريق للشركة معه.

٤. النبيّ نوح

يعتقد الكثيرون أنَّ كلمة الله هي عبارة عن سلسلة متواصلة من المُعجزات المُذهلة. لكن في حقيقة الأمر أنَّ المُعجزات كانت هي الاستثناء وليست القاعدة. فقد كانت تمُرُّ قرون عديدة قبل أن يحدث شيء عجيب يُزلزل الأرض. وعند هذه النُّقطة من قصَّتنا، يُدوِّن الكتاب المقدَّس أنَّ ما لا يقل عن عشرة أجيال قد انقضت قبل وقوع الحدث الكبير اللاحق في تاريخ العالم. وكان كل جيل من هذه الأجيال يُمثِّل فترة زمنيَّة طويلة زاد فيها عدد سُكَّان العالم بصورة مُذهلة.

انقضت مئات السنين دون أن ينسى الله وعده بأنه سيُرسل المُخلِّص الموعود. وكان هناك أشخاص يؤمنون بالله من كل قلوبهم في كل جيل. عاش آدم ٩٣٠ سنة. وهكذا، فقد كان بإمكان الناس أن يعرفوا الكثير عن الله وعن طُرقه من خلال هؤلاء الأشخاص المؤمنين، فالكتاب المقدس يقول بأن الله:

«... لَمْ يَتْرُكْ نَفْسَهُ بِلاَ شَاهِدٍ» (أعمال ١٤: ١٧)

لكن للأسف الشديد، رغم أنَّ عدد سُكَّان العالم كان في تزايُد مُستمر، إلاَّ أنَّ عدد الذين

كانوا يؤمنون بالله لم يكُن يتزايد بنفس المُعدَّل. فالكتاب المقدَّس يقول إنَّ جميع الناس – باستثناء فئة قليلة جداً – أداروا ظهورهم لله.

عُنف

لم يرفض الناس الله فحسب، بل أصرُّوا على اتِّباع الشيطان بجميع الطرق والوسائل. ويقول الكتاب المقدَّس:

«وَرَأَى الرَّبُّ أَنَّ شَرَّ الإِنْسَانِ قَدْ كَثُرَ فِي الأَرْضِ، وَأَنَّ كُلَّ تَصَوُّرِ أَفْكَارِ قَلْبِهِ إِنَّمَا هُوَ شِرِّيرٌ كُلَّ يَوْمٍ ... وَفَسَدَتِ الأَرْضُ أَمَامَ اللهِ، وَامْتَلأَتِ الأَرْضُ ظُلْمًا. وَرَأَى اللهُ الأَرْضَ فَإِذَا هِيَ قَدْ فَسَدَتْ، إِذْ كَانَ كُلُّ بَشَرٍ قَدْ أَفْسَدَ طَرِيقَهُ عَلَى الأَرْضِ» (تكوين ٦: ٥، ١١، ١٢)

يمكن للمرء أن يحصل على صورة واضحة عن وضع العالم آنذاك من خلال مُتابعة النشرات الإخبارية عن ما يحدث في وقتنا الحاضر في بعض دول العالم التي تعمُّها الفوضى، والحرب، والعُنف، والاغتصاب، وما إلى ذلك من شرور! ويقول الكتاب المقدَّس إنَّ أفكار الإنسان كانت تتمحور حول الشرِّ دوماً. وهكذا، فقد عَمَّت الفوضى والفساد، وأصبح العالم مكاناً خطراً للعيش!

علاوة على ذلك، كانت المُجتمعات في تلك الأيام تُركِّز على أن يعيش المرء لنفسه وشهواته.[٢] وهكذا، فقد ازدرى الإنسان بخطَّة الله وراح يتبع فلسفته الخاصَّة في الحياة دون أن يَطلُب وجه الله. وفي الوقت الذي كان فيه الإنسان يبتعد عن البِرِّ والصَّلاح شيئاً فشيئاً، كان يقترب من الخطيَّة أكثر فأكثر:

«لأَنَّهُمْ لَمَّا عَرَفُوا اللهَ لَمْ يُمَجِّدُوهُ أَوْ يَشْكُرُوهُ كَإِلهٍ، بَلْ حَمقُوا فِي أَفْكَارِهِمْ، وَأَظْلَمَ قَلْبُهُمُ الْغَبِيُّ. وَبَيْنَمَا هُمْ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ حُكَمَاءُ صَارُوا جُهَلاَءَ، وَأَبْدَلُوا مَجْدَ اللهِ الَّذِي لاَ يَفْنَى بِشِبْهِ صُورَةِ الإِنْسَانِ الَّذِي يَفْنَى، وَالطُّيُورِ، وَالدَّوَابِّ، وَالزَّحَّافَاتِ.

لِذلِكَ أَسْلَمَهُمُ اللهُ أَيْضًا فِي شَهَوَاتِ قُلُوبِهِمْ إِلَى النَّجَاسَةِ، لإِهَانَةِ أَجْسَادِهِمْ بَيْنَ ذَوَاتِهِمِ. الَّذِينَ اسْتَبْدَلُوا حَقَّ اللهِ بِالْكَذِبِ، وَاتَّقَوْا وَعَبَدُوا الْمَخْلُوقَ دُونَ الْخَالِقِ، الَّذِي هُوَ مُبَارَكٌ إِلَى الأَبَدِ. آمِينَ.

لِذلِكَ أَسْلَمَهُمُ اللهُ إِلَى أَهْوَاءِ الْهَوَانِ، لأَنَّ إِنَاثَهُمُ اسْتَبْدَلْنَ الاسْتِعْمَالَ الطَّبِيعِيَّ بِالَّذِي عَلَى خِلاَفِ الطَّبِيعَةِ، وَكَذلِكَ الذُّكُورُ أَيْضًا تَارِكِينَ اسْتِعْمَالَ الأُنْثَى الطَّبِيعِيَّ، اشْتَعَلُوا بِشَهْوَتِهِمْ بَعْضِهِمْ لِبَعْضٍ، فَاعِلِينَ الْفَحْشَاءَ ذُكُورًا بِذُكُورٍ، وَنَائِلِينَ فِي أَنْفُسِهِمْ جَزَاءَ ضَلاَلِهِمِ الْمُحَقَّ. وَكَمَا لَمْ يَسْتَحْسِنُوا أَنْ يُبْقُوا اللهَ فِي مَعْرِفَتِهِمْ، أَسْلَمَهُمُ اللهُ إِلَى ذِهْنٍ مَرْفُوضٍ لِيَفْعَلُوا مَا لاَ يَلِيقُ.

مَمْلُوئِينَ مِنْ كُلِّ إِثْمٍ وَزِنًا وَشَرٍّ وَطَمَعٍ وَخُبْثٍ، مَشْحُونِينَ حَسَدًا وَقَتْلاً وَخِصَامًا وَمَكْرًا وَسُوءًا، نَمَّامِينَ مُفْتَرِينَ، مُبْغِضِينَ للهِ، ثَالِبِينَ مُتَعَظِّمِينَ مُدَّعِينَ، مُبْتَدِعِينَ شُرُورًا، غَيْرَ طَائِعِينَ لِلْوَالِدَيْنِ، بِلاَ فَهْمٍ وَلاَ عَهْدٍ وَلاَ حُنُوٍّ وَلاَ رِضىً وَلاَ رَحْمَةٍ. الَّذِينَ إِذْ عَرَفُوا حُكْمَ اللهِ أَنَّ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ مِثْلَ هذِهِ يَسْتَوْجِبُونَ الْمَوْتَ، لاَ يَفْعَلُونَهَا فَقَطْ، بَلْ أَيْضًا يُسَرُّونَ بِالَّذِينَ يَعْمَلُونَ.[٣]» (رومية ١: ٢١-٣٢)

يقول الكتاب المقدَّس إنَّ الإنسان باع نفسه للخطيَّة في تلك الفترة. لكن كما رأينا من قبل، فإنَّ للخطيَّة عواقب وخيمة دوماً. فكما أنَّ مُخالفة قانون الجاذبيَّة تؤدي إلى إصابات بليغة وعظام مكسورة، فإنَّ تجاهُل كلمة الله يؤدي إلى عواقب وخيمة أيضاً. وحيث أنَّ الله لا يُطيق الخطيَّة، فقد حزن لذلك كثيراً وقرَّر أن يُزيل الإنسان عن وجه الأرض:

«فَقَالَ الرَّبُّ: أَمْحُو عَنْ وَجْهِ الأَرْضِ الإِنْسَانَ الَّذِي خَلَقْتُهُ ...» (تكوين ٦: ٧)

وهكذا، رُغم أنَّ الإنسان تجاهل الله واستثناه من حياته؛ إلاَّ أنَّ الله كان ما زال يُحمِّل

الإنسان مسئوليَّة أعماله وتصرُّفاته.

نوح (انظر الخط الزمني في الفصل التاسع من هذا الكتاب صفحة ١٤٣)

رغم كل شرور البشر، كان هناك رجُل وعائلته مُختلفين تماماً عن باقي الناس حيث تقول كلمة الله:

«وَأَمَّا نُوحٌ فَوَجَدَ نِعْمَةً فِي عَيْنَيِ الرَّبِّ. ... كَانَ نُوحٌ رَجُلاً بَارًّا كَامِلاً فِي أَجْيَالِهِ. وَسَارَ نُوحٌ مَعَ اللهِ»
(تكوين ٦: ٨-٩)

رغم أنَّ نوحاً كان رجُلاً بارًّا في سلوكه، إلاَّ أنَّ كلمة الله تُبيِّن بوضوح أنه كان شخصاً خاطئاً في نظر الله. وبحسب قانون الخطيَّة والموت، كان يجب على نوح أن يموت. لكنَّ الكتاب المقدَّس يُشير أيضاً إلى أنَّ نوحاً كان يُقدِّم لله ذبائح حيوانيَّة ممَّا يُشير إلى أنه كان يُدرك حاجته لوجود بديل بريء يُسدِّد عنه أُجرة الموت. وهكذا، فقد كان نوح يؤمن أنَّ الله سيعمل بطريقة ما على إنقاذه من عقاب الخطيَّة. ويقول الكتاب المقدَّس إنَّه بسبب إيمان نوح بالله، فقد اعتبره الله بارًّا. ويمكننا أن نُدرك أنَّ نوحاً كان يتمتَّع بعلاقة سليمة مع الله من خلال الآية التي تقول «وَسَارَ نُوحٌ مَعَ اللهِ».

«فَقَالَ اللهُ لِنُوحٍ: نِهَايَةُ كُلِّ بَشَرٍ قَدْ أَتَتْ أَمَامِي، لأَنَّ الأَرْضَ امْتَلأَتْ ظُلْمًا مِنْهُمْ. فَهَا أَنَا مُهْلِكُهُمْ مَعَ الأَرْضِ. اِصْنَعْ لِنَفْسِكَ فُلْكًا مِنْ خَشَبِ جُفْرٍ. تَجْعَلُ الْفُلْكَ مَسَاكِنَ، وَتَطْلِيهِ مِنْ دَاخِلٍ وَمِنْ خَارِجٍ بِالْقَارِ»
(تكوين ٦: ١٣، ١٤)

وسيلة نجاة

قال الله لنوح أن يبني فُلكاً. ولم يكُن هذا الفُلك مُجرَّد قارب صغير، بل كان سفينة ضخمة على غرار السفن الحديثة العابرة للمُحيطات. كان الفُلك يتألَّف من عِدَّة طوابق، ونظام تهوية، وباب واحد فقط. وقد بُني هذا الفُلك من خشب مطلي بطبقة من القار؛ وهي مادة كانت تُستخدم في القرون الغابرة لمنع تسرُّب المياه إلى السفن.[٤] وقد بقي هذا الفُلك أضخم سفينة بُنيت في جميع العصور إلى أن تم بناء سفينة مُشابهة لها في الحجم والأبعاد في سنة ١٨٤٤ ألا وهي السفينة التي يُطلق عليها اسم «بريطانيا العُظمى». وما زالت أبعاد فُلك نوح هي الأبعاد المثاليَّة لبناء السفن الكبيرة حتى وقتنا الحاضر. ويجب أن نعرف أنه لم يتم بناء هذا الفُلك لكي يسير بسرعة كبيرة، بل فقط للحفاظ على حياة من فيه. قال الله لنوح:

«فَهَا أَنَا آتٍ بِطُوفَانِ الْمَاءِ عَلَى الأَرْضِ لأُهْلِكَ كُلَّ جَسَدٍ فِيهِ رُوحُ حَيَاةٍ مِنْ تَحْتِ السَّمَاءِ. كُلُّ مَا فِي الأَرْضِ يَمُوتُ.
وَلكِنْ أُقِيمُ عَهْدِي اتفاقيَّة، أو وعد، أو عقد مَعَكَ، فَتَدْخُلُ الْفُلْكَ أَنْتَ وَبَنُوكَ وَامْرَأَتُكَ وَنِسَاءُ بَنِيكَ مَعَكَ.
وَمِنْ كُلِّ حَيٍّ مِنْ كُلِّ ذِي جَسَدٍ، اثْنَيْنِ مِنْ كُلٍّ تُدْخِلُ إِلَى الْفُلْكِ لاسْتِبْقَائِهَا مَعَكَ. تَكُونُ ذَكَرًا وَأُنْثَى. مِنَ الطُّيُورِ كَأَجْنَاسِهَا، وَمِنَ الْبَهَائِمِ كَأَجْنَاسِهَا، وَمِنْ كُلِّ دَبَّابَاتِ الأَرْضِ كَأَجْنَاسِهَا. اثْنَيْنِ مِنْ كُلٍّ تُدْخِلُ إِلَيْكَ لاسْتِبْقَائِهَا. وَأَنْتَ، فَخُذْ لِنَفْسِكَ مِنْ كُلِّ طَعَامٍ يُؤْكَلُ وَاجْمَعْهُ عِنْدَكَ، فَيَكُونَ لَكَ وَلَهَا طَعَامًا.
فَفَعَلَ نُوحٌ حَسَبَ كُلِّ مَا أَمَرَهُ بِهِ اللهُ. هكَذَا فَعَلَ» (تكوين ٦: ١٧-٢٢)

الطاعة

كان نوح يؤمن بالله ويُطيعه. رغم ذلك، لم يكُن اتِّباع تعليمات الله أمراً سهلاً بالنسبة له لأنه لم يصنع سفينةً من قَبل!

قال الله لنوح إنَّ الطوفان سيحدث بعد ١٢٠ سنة.[٥] وكان ينبغي على نوح في هذه الفترة أن يبني الفُلك وأن يُحذِّر الناس من خطر الدينونة القادمة.[٦]

«وَقَالَ الرَّبُّ لِنُوحٍ: ادْخُلْ أَنْتَ وَجَمِيعُ بَيْتِكَ إِلَى الْفُلْكِ، لأَنِّي إِيَّاكَ رَأَيْتُ بَارًّا لَدَيَّ فِي هذَا الْجِيلِ. فَفَعَلَ نُوحٌ حَسَبَ كُلِّ مَا أَمَرَهُ بِهِ الرَّبُّ. ... فِي ذلِكَ الْيَوْمِ عَيْنِهِ دَخَلَ نُوحٌ، وَسَامٌ وَحَامٌ وَيَافَثُ بَنُو نُوحٍ، وَامْرَأَةُ نُوحٍ، وَثَلاَثُ نِسَاءِ بَنِيهِ مَعَهُمْ إِلَى الْفُلْكِ. هُمْ وَكُلُّ الْوُحُوشِ كَأَجْنَاسِهَا، وَكُلُّ الْبَهَائِمِ كَأَجْنَاسِهَا، وَكُلُّ الدَّبَّابَاتِ الَّتِي تَدِبُّ عَلَى الأَرْضِ كَأَجْنَاسِهَا، وَكُلُّ الطُّيُورِ كَأَجْنَاسِهَا: كُلُّ عُصْفُورٍ، كُلُّ ذِي جَنَاحٍ. وَدَخَلَتْ إِلَى نُوحٍ إِلَى الْفُلْكِ، اثْنَيْنِ اثْنَيْنِ مِنْ كُلِّ جَسَدٍ فِيهِ رُوحُ حَيَاةٍ. وَالدَّاخِلاَتُ دَخَلَتْ ذَكَرًا وَأُنْثَى، مِنْ كُلِّ ذِي جَسَدٍ، كَمَا أَمَرَهُ اللهُ. وَأَغْلَقَ الرَّبُّ عَلَيْهِ» (تكوين ٧: ١، ٥، ١٣-١٦)

باب واحد

استغرق تحميل الفُلك سبعة أيَّام، وأخذ نوح معه في الفُلك زوجاً واحداً من كل صنف من الحيوانات غير الطاهرة وسبعة أزواج من الحيوانات الطاهرة التي كانت تُقدَّم ذبائح (انظر تكوين ٧: ٢، ٣ و٨: ٢٠) كان الفُلك يتَّسع لجميع تلك الحيوانات بما فيها الحيوانات التي انقرضت بعد ذلك. وكانت الحيوانات تشغل نحو ٦٠ بالمئة فقط من حجم الفُلك.[٧] أمَّا المساحة المتبقية فكانت مُخصَّصة على الأرجح لتخزين الطعام. وربما ساعد اختيار الحيوانات الفتيَّة المُعتدلة الحجم في توفير المساحة. كما أنَّ دخول بعض الحيوانات في سباتها الشتوي ساعد في توفير الطعام أيضاً. ومن المؤكَّد أنَّ الله كان قادراً على إطعام جميع من في السفينة من بشر وحيوانات بالطريقة التي يُريدها.

بعد اكتمال تحميل الفُلك، أغلق الله على نوح ومن معه داخل الفُلك. وحينما حان وقت الدينونة، بدأ منسوب المياه يرتفع شيئاً فشيئاً عن سطح الأرض. ورغم أنَّ المياه كانت تضرب الفُلك بقوَّة، إلاَّ أنَّ نوحاً لم يفتح كُوَّة الفُلك، ولم يخف هو وعائلته من تحطُّم باب الفُلك بسبب الطوفان القوي. وهكذا، فقد كان نوح ومن معه في مأمنٍ تامٍّ لأنَّ الله أغلق عليهم الباب الوحيد للنجاة. وبهذا، فقد أغلق الله الباب على الذين آمنوا، وأبقى غير المؤمنين خارجاً.

ما من شكٍّ أنَّ الله رؤوف ورحيم حيث أنه أعطى البشر ١٢٠ سنة لكي يرجعوا عن طُرقهم الشرِّيرة ويستفيدوا من رحمته. لكنَّ فترة الإمهال قد انتهت الآن وحانت ساعة الدينونة التي تحدَّث عنها الله من قَبل؛ فالله يحفظ وعوده دائماً.

«فِي سَنَةِ سِتِّ مِئَةِ مِنْ حَيَاةِ نُوحٍ، فِي الشَّهْرِ الثَّانِي، فِي الْيَوْمِ السَّابِعَ عَشَرَ مِنَ الشَّهْرِ فِي ذلِكَ الْيَوْمِ، انْفَجَرَتْ كُلُّ يَنَابِيعِ الْغَمْرِ الْعَظِيمِ، وَانْفَتَحَتْ طَاقَاتُ السَّمَاءِ. وَكَانَ الْمَطَرُ عَلَى الأَرْضِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا وَأَرْبَعِينَ لَيْلَةً»

(تكوين ٧: ١١، ١٢)

ينابيع الغَمر وطاقات السَّماء

في بادئ الأمر، تصدَّعت الأرض وتدفَّقت منها كميَّات هائلة من المياه الجوفيَّة. فالكتاب المقدس يتحدَّث عن تفجُّر «كُل ينابيع الغَمْر العظيم». وتقول إحدى النظريَّات إنَّ الضغط الشديد قذف بالمياه عالياً. ثم نزلت هذه المياه وغيرها من مياه الأمطار إلى الأرض بقوَّة هائلة كما لو أنَّ طاقات السَّماء قد فُتحت فجأةً.

إنَّ الكلمة العبريَّة التي تصف هذا الحدث تعني «طوفان مُفْجِع». ولم يرد استخدام تلك الكلمة في الكتاب المقدَّس بأكمله إلاَّ لوصف هذا الطوفان العظيم. فلم يحدث مثل هذا الطوفان لا من قَبل ولا من بَعد! ورغم أنَّ الكثير من الأشياء التي حدثت في هذا الطوفان

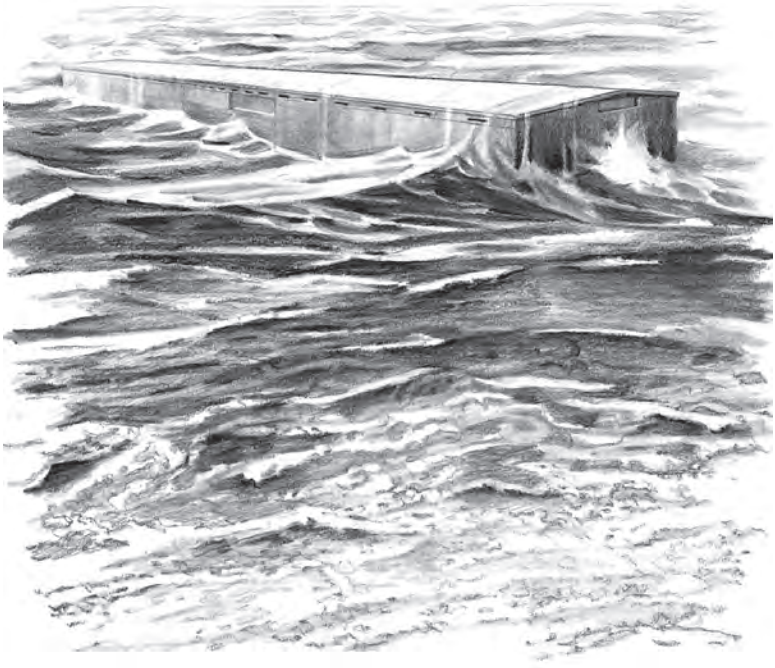

قابلة للتفسير العلمي، إلاَّ أنه ينبغي علينا أن نتذكَّر أنَّ الله القدير كان قادراً على خلق الظروف المواتية للطوفان، وقادراً على إحداث النتائج المُروِّعة التي نتجت عنه!

استمرَّ المطر أربعين يوماً، لكنَّنا نستنتج من خلال آيات الكتاب المقدَّس أنَّ المياه الجوفيَّة استمرَّت في التدفُّق لمدَّة ١٥٠ يوماً.

«وَكَانَ الطُّوفَانُ أَرْبَعِينَ يَوْمًا عَلَى الأَرْضِ. وَتَكَاثَرَتِ الْمِيَاهُ وَرَفَعَتِ الْفُلْكَ، فَارْتَفَعَ عَنِ الأَرْضِ. وَتَعَاظَمَتِ الْمِيَاهُ وَتَكَاثَرَتْ جِدًّا عَلَى الأَرْضِ، فَكَانَ الْفُلْكُ يَسِيرُ عَلَى وَجْهِ الْمِيَاهِ. وَتَعَاظَمَتِ الْمِيَاهُ كَثِيرًا جِدًّا عَلَى الأَرْضِ، فَتَغَطَّتْ جَمِيعُ الْجِبَالِ الشَّامِخَةِ الَّتِي تَحْتَ كُلِّ السَّمَاءِ»

(تكوين ٧: ١٧-١٩)

«كُلُّ مَا فِي أَنْفِهِ نَسَمَةُ رُوحِ حَيَاةٍ مِنْ كُلِّ مَا فِي الْيَابِسَةِ مَاتَ. فَمَحَا اللهُ كُلَّ قَائِمٍ كَانَ عَلَى وَجْهِ الأَرْضِ: النَّاسَ، وَالْبَهَائِمَ، وَالدَّبَّابَاتِ، وَطُيُورَ السَّمَاءِ. فَانْمَحَتْ مِنَ الأَرْضِ. وَتَبَقَّى نُوحٌ وَالَّذِينَ

مَعَهُ فِي الْفُلْكِ فَقَطْ»

(تكوين ٧: ٢٢-٢٣)

«ثُمَّ ذَكَرَ اللهُ نُوحًا وَكُلَّ الْوُحُوشِ وَكُلَّ الْبَهَائِمِ الَّتِي مَعَهُ فِي الْفُلْكِ. وَأَجَازَ اللهُ رِيحًا عَلَى الأَرْضِ فَهَدَأَتِ الْمِيَاهُ. وَانْسَدَّتْ يَنَابِيعُ الْغَمْرِ وَطَاقَاتُ السَّمَاءِ، فَامْتَنَعَ الْمَطَرُ مِنَ السَّمَاءِ. وَرَجَعَتِ الْمِيَاهُ عَنِ الأَرْضِ رُجُوعًا مُتَوَالِيًا. وَبَعْدَ مِئَةٍ وَخَمْسِينَ يَوْمًا نَقَصَتِ الْمِيَاهُ» (تكوين ٨: ١-٣)

يعتقد بعض العلماء أنَّ الجبال لم تكُن بهذا الارتفاع قبل حدوث ذلك الطوفان. ولو كان بمقدورنا أن نُمهِّد سطح الأرض ونجعله مُستوياً في وقتنا الحاضر، فسوف تُغطِّي مياه البحار والمُحيطات الأرض على ارتفاع ثلاثة كيلومترات تقريباً. ويقول الكتاب المقدَّس إنَّ الجبال التي نراها اليوم قد ارتفعت بعد الطوفان، كما أنَّ الوديان وأحواض البحار والمُحيطات تشكَّلت بعد الطوفان أيضاً.

«كَسَوْتَهَا الْغَمْرَ كَثَوْبٍ. فَوْقَ الْجِبَالِ تَقِفُ الْمِيَاهُ. مِنِ انْتِهَارِكَ تَهْرُبُ ... تَصْعَدُ إِلَى الْجِبَالِ. تَنْزِلُ إِلَى الْبِقَاعِ، إِلَى الْمَوْضِعِ الَّذِي أَسَّسْتَهُ لَهَا. وَضَعْتَ لَهَا تُخْمًا لاَ تَتَعَدَّاهُ. لاَ تَرْجِعُ لِتُغَطِّيَ الأَرْضَ»

(المزمور ١٠٤: ٦-٩)

كوكب مُختلف

بقي آدم وعائلته في الفُلك لمدَّة ٣٧١ يوماً قبل أن يفتح الله الباب ويسمح لهم بالخروج. وقبل خروجهم بوقت طويل، تراجع منسوب المياه واستقر الفُلك على منطقة جبلية. وحينما غادروا الفُلك لم تكُن الأرض قد جفَّت فحسب، بل وكانت خصبة وصالحة للزراعة أيضاً. وهكذا، فقد أصبح كوكب الأرض مُختلفاً تماماً عن السابق؛ وهي نفس الأرض التي نعيش عليها الآن.

«وَكَلَّمَ اللهُ نُوحًا قَائِلاً: 'اخْرُجْ مِنَ الْفُلْكِ أَنْتَ وَامْرَأَتُكَ وَبَنُوكَ وَنِسَاءُ بَنِيكَ مَعَكَ. وَكُلَّ الْحَيَوَانَاتِ الَّتِي مَعَكَ مِنْ كُلِّ ذِي جَسَدٍ: الطُّيُورِ، وَالْبَهَائِمِ، وَكُلَّ الدَّبَّابَاتِ الَّتِي تَدِبُّ عَلَى الأَرْضِ، أَخْرِجْهَا مَعَكَ. وَلْتَتَوَالَدْ فِي الأَرْضِ وَتُثْمِرْ وَتَكْثُرْ عَلَى الأَرْضِ'.

فَخَرَجَ نُوحٌ وَبَنُوهُ وَامْرَأَتُهُ وَنِسَاءُ بَنِيهِ مَعَهُ. ... وَبَنَى نُوحٌ مَذْبَحًا لِلرَّبِّ. وَأَخَذَ مِنْ كُلِّ الْبَهَائِمِ الطَّاهِرَةِ وَمِنْ كُلِّ الطُّيُورِ الطَّاهِرَةِ وَأَصْعَدَ مُحْرَقَاتٍ عَلَى الْمَذْبَحِ» (تكوين ٨: ١٥-١٨، ٢٠)

وَعد

كان أوَّل شيءٍ فعله نوح بعد خروجه من الفُلك هو أنه بنى مذبحاً للرب وقدَّم عليه حيوانات طاهرة لله. ورغم أنَّ تلك الذبائح لم تعمل على إزالة الخطيَّة، إلاَّ أنها تُصوِّر الشيء الضروري لدفع أُجرة الخطيَّة ألا وهو: الدم المسفوك من خلال الموت. وكان ذلك بمثابة دليل على أنَّ نوحاً كان يثق بالله ويؤمن بأنَّ الله سيحفظ وعده ويُخلِّصه هو وعائلته بطريقةٍ ما من عقاب الخطيَّة. وقد سُرَّ الله بتقدمة نوح.

«وَبَارَكَ اللهُ نُوحًا وَبَنِيهِ وَقَالَ لَهُمْ: أَثْمِرُوا وَاكْثُرُوا وَامْلأُوا الأَرْضَ»

(تكوين ٩: ١)

«وَهَا أَنَا مُقِيمٌ مِيثَاقِي مَعَكُمْ وَمَعَ نَسْلِكُمْ مِنْ بَعْدِكُمْ ... أُقِيمُ مِيثَاقِي مَعَكُمْ فَلاَ يَنْقَرِضُ كُلُّ ذِي جَسَدٍ أَيْضًا بِمِيَاهِ الطُّوفَانِ. وَلاَ يَكُونُ أَيْضًا طُوفَانٌ لِيُخْرِبَ الأَرْضَ» (تكوين ٩: ٩-١١)

«وَقَالَ اللهُ: هذِهِ عَلاَمَةُ الْمِيثَاقِ الَّذِي أَنَا وَاضِعُهُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ... وَضَعْتُ قَوْسِي فِي السَّحَابِ فَتَكُونُ عَلاَمَةَ مِيثَاقٍ بَيْنِي وَبَيْنَ الأَرْضِ» (تكوين ٩: ١٢-١٣)

قطع اللّه وعداً بأنه لن يُهلك الأرض ثانيةً بطوفان. وقد وضع اللّه قوس قزح في السَّماء كتذكير بهذا الوعد. ورغم مرور آلاف السنين على ذلك الطوفان، إلاَّ أنَّ اللّه ما زال يحفظ وعده.

«وَكَانَ بَنُو نُوحٍ الَّذِينَ خَرَجُوا مِنَ الْفُلْكِ سَامًا وَحَامًا وَيَافَثَ ... هؤُلاَءِ الثَّلاَثَةُ هُمْ بَنُو نُوحٍ. وَمِنْ هؤُلاَءِ تَشَعَّبَتْ كُلُّ الأَرْضِ» (تكوين ٩: ١٨، ١٩)

وهكذا، فقد بدأ الإنسان بدايةً جديدةً على سطح هذه الأرض. وبعد سنوات طويلة، مات نوح:

«فَكَانَتْ كُلُّ أَيَّامِ نُوحٍ تِسْعَ مِئَةٍ وَخَمْسِينَ سَنَةً، وَمَاتَ» (تكوين ٩: ٢٩)

٥. بابل

غالباً ما يُطلَق على الأصحاح العاشر من سفر التكوين اسم «قائمة الأُمَم». فهو يُخبرنا عن أصل الجماعات العرقيَّة الرئيسيَّة ابتداءً من أبناء نوح الثلاثة. وينتهي هذا الأصحاح بالآية التالية:

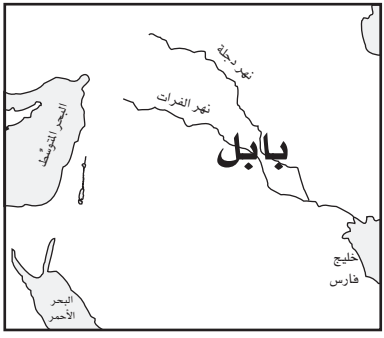

«هؤُلاَءِ قَبَائِلُ بَنِي نُوحٍ حَسَبَ مَوَالِيدِهِمْ بِأُمَمِهِمْ. وَمِنْ هؤُلاَءِ تَفَرَّقَتِ الأُمَمُ فِي الأَرْضِ بَعْدَ الطُّوفَانِ» (تكوين ١٠: ٣٢)

ومرَّة أخرى، انقضت قرون عديدة وزاد عدد سُكَّان الأرض من جديد. والآن، تنتقل أحداث قصَّتنا إلى ما يُسمِّيه المؤرِّخون بمهد الحضارة؛ أي إلى بلاد ما بين النهرين القديمة أو ما يُعرف في وقتنا الحاضر بالعراق.

«وَكَانَتِ الأَرْضُ كُلُّهَا لِسَانًا وَاحِدًا وَلُغَةً وَاحِدَةً. وَحَدَثَ فِي ارْتِحَالِهِمْ شَرْقًا أَنَّهُمْ وَجَدُوا بُقْعَةً فِي أَرْضِ شِنْعَارَ وَسَكَنُوا هُنَاكَ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: 'هَلُمَّ نَصْنَعُ لِبْنًا وَنَشْوِيهِ شَيًّا'. فَكَانَ لَهُمُ اللِّبْنُ مَكَانَ الْحَجَرِ، وَكَانَ لَهُمُ الْحُمَرُ مَكَانَ الطِّينِ. وَقَالُوا: 'هَلُمَّ نَبْنِ لأَنْفُسِنَا مَدِينَةً وَبُرْجًا رَأْسُهُ بِالسَّمَاءِ. وَنَصْنَعُ لأَنْفُسِنَا اسْمًا لِئَلاَّ نَتَبَدَّدَ عَلَى وَجْهِ كُلِّ الأَرْضِ'» (تكوين ١١: ١-٤)

خطَّة الإنسان

بعد الطوفان، قال اللّه لنوحٍ وبَنيه:

«... أَثْمِرُوا وَاكْثُرُوا وَامْلأُوا الأَرْضَ» (تكوين ٩: ١)

لكنَّ الإنسان لم يسعَ إلى تغيير المُخطَّط الإلهي فحسب، بل أراد أن يُضيف إليه بعض العناصر الأخرى الخَلاَّقة:

أوَّلاً: أراد الناس أن يبقوا في مكانٍ واحدٍ وأن يبنوا مدينةً كبيرة. وكان هذا التفكير عصياناً مُباشراً لأمر اللّه الذي قال للإنسان أن يملأ الأرض. ونرى مَرَّةً أخرى أنَّ الإنسان شعر بأنه يعرف الصواب أفضل من اللّه.

وكما ترى، فقد كان الإنسان – وما زال – يواجه مُشكلةً في إطاعة الله! هل تساءلت يوماً لماذا لا يحتاج الآباء والأمَّهات أن يُعلِّموا أبناءهم كيف يعصون أوامرهم وتعليماتهم؟ السبب هو أنَّ العصيان موجود في قلب الإنسان ويخرج منه بصورة تلقائيَّة. وبصورة أساسيَّة فإننا لا نُحب أن يُقال لنا ما ينبغي علينا القيام به؛ بل نُفضِّل أن نقوم بالأشياء التي نُريدها نحن. وقد كانت هذه هي المُشكلة التي عانى منها شعب بابل.

ثانياً: إلى جانب رغبة سُكَّان بابل في بناء مدينة عظيمة، فقد أرادوا أيضاً أن يبنوا بُرجاً يُمجِّدون به أنفسهم حيث راحوا يقولون بعضهم لبعض:

«... نَصْنَعُ لأَنْفُسِنَا اسْمًا ...» (تكوين ١١: ٤)

ويُمكننا هُنا أن نسمع هَمسات الشيطان الشرِّيرة من جديد! فقد كان هذا هو طُموحه هو الآخر. وهكذا، من الواضح تماماً أنَّ الله لم يكُن جزءاً من خطَّة الناس في ذلك الوقت. فحينما ينشغل الناس بخططهم وطموحاتهم الشخصيَّة، فمن المؤكَّد أنَّ الكبرياء تُهيمن عليهم وتجعلهم يُديرون ظهورهم لله. ومن المُستحيل أن تسعى لتمجيد نفسك فيما أنت تقف بجانب إله فائق السُموِّ والعظَمة والقوَّة! وكما رأينا سابقاً، فإنَّ الكتاب المقدَّس يقول إنَّ الله هو الوحيد الذي يستحق التمجيد.

لهذا، لم تكُن خطط الإنسان تتوافق مع وصايا الله على الإطلاق؛ بل إنَّ الإنسان راح يعمل من جديد بصورة مُنفردة ومُستقلَّة عن الله العليِّ.

تُعتبر بابل أوَّل حادثة مُدوَّنة في الكتاب المقدَّس تُشير إلى سعي الإنسان لتنظيم نفسه دينيَّاً. وغالباً ما ترمز بابل في الكتاب المقدَّس إلى جهود الإنسان الدينيَّة. فحينما حاول هؤلاء الأشخاص أن يبنوا بُرجاً يصل إلى السَّماء، كانوا في حقيقة الأمر يبتكرون طريقتهم الخاصَّة بهم للوصول إلى الله. ويمكنك أن تتخيَّل هؤلاء الأشخاص وهُم يعملون كالعبيد في ذلك الحرِّ الشديد في جمع الطين، وشَيِّ الطوب، وتثبيت قوالب الطوب في أماكنها بواسطة الزِّفت. وهكذا، من المؤكَّد أنَّهم بذلوا جُهداً هائلاً في بناء ذلك البُرج من أجل الوصول إلى السَّماء؛ لكنَّ خطَّتهم لم تنجح. فهناك طريق واحد فقط يؤدي إلى السَّماء ألا وهو طريق

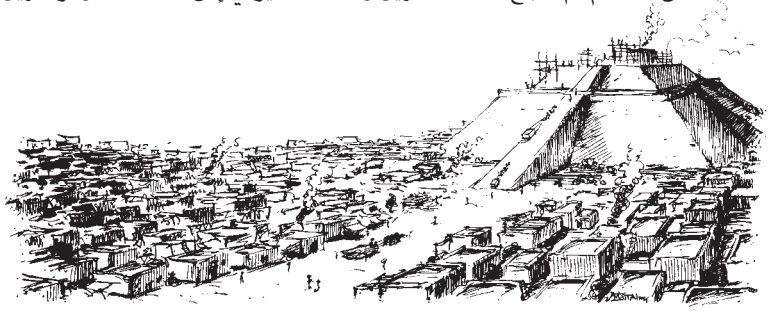

الله.

إذا أردنا أن نُقدِّم تعريفاً مُبسَّطاً للتديُّن فيمكننا القول بأنه **جُهود الإنسان للوصول إلى الله.** والإنسان يميل للتديُّن بطبيعته. فهو يبحث بصورة دائمة عن طُرق جديدة يصل من

خلالها إلى الله. لكنَّ هذه الجهود هي جهود عقيمة. فالكتاب المقدَّس يقول إنَّ الإنسان يعيش في صحراء روحيَّة قاحلة؛ أي أنه ضالٌّ ولا يستطيع العثور على طريق العودة إلى الله بجُهوده الشخصيَّة. كما أنَّ الإنسان لا يستطيع أن يتخلَّص من خطيئته ولا أن يجد البِرَّ الكافي الذي يجعله مقبولاً لدى الله.

وعلى النقيض من التديُّن، فإنَّ كلمة الله تُعلِّمُنا أنَّ الطريق الصحيح الوحيد المؤدي إلى الله قد وَفَّرها الله نفسه حينما قَدَّم للإنسان طريقةً للنجاة من عقاب الخطيَّة. وهكذا، فالله هو الذي يُنقذنا لأنه هو المُخلِّص. ويوضِّح الكتاب المقدَّس أنَّ الرب:

«... يُفَكِّرُ أَفْكَارًا حَتَّى لاَ يُطْرَدَ عَنْهُ مَنْفِيٌّ» (٢ صموئيل ١٤: ١٤)

لكنَّ أهل بابل تغاضوا عن هذه الحقيقة. وبالطبع، لم يكُن الله غافلاً عمَّا يفعلون؛ بل كان يعرف أدقَّ التفاصيل:

«فَنَزَلَ الرَّبُّ ٨ لِيَنْظُرَ الْمَدِينَةَ وَالْبُرْجَ اللَّذَيْنِ كَانَ بَنُو آدَمَ يَبْنُونَهُمَا. وَقَالَ الرَّبُّ: هُوَذَا شَعْبٌ وَاحِدٌ وَلِسَانٌ وَاحِدٌ لِجَمِيعِهِمْ، وَهذَا ابْتِدَاؤُهُمْ بِالْعَمَلِ. وَالآنَ لاَ يَمْتَنِعُ عَلَيْهِمْ كُلُّ مَا يَنْوُونَ أَنْ يَعْمَلُوهُ» (تكوين ١١: ٥، ٦)

كان الله يعرف الحقيقة التي أثبتها التاريخ نفسه ألا وهي أنَّ البشر يستطيعون من خلال وجود لُغة مُشتركة بينهم أن يُحقِّقوا تقدماً تكنولوجيًّا سريعاً. ويبدو أنَّ هناك نمطاً شائعاً لدى الإنسان ألا وهو أنه كُلَّما حقَّق المزيد من التقدُّم وشعر بالمزيد من الراحة فإنَّ حاجته لله تتضاءل! ورغم أنَّ الله أعطى الإنسان إرادةً حُرَّةً، إلاَّ أنه لم يكُن يُريده أن يحيا بصورة مُستقلَّة عنه.

الشَّتات

إنَّ قصَّة بابل تُعبِّر عن نفسها بنفسها. فقد فعل الله شيئاً واجه فيه تحدِّي الإنسان له. فقد قال الله:

«هَلُمَّ نَنْزِلْ وَنُبَلْبِلْ ❖ هُنَاكَ لِسَانَهُمْ حَتَّى لاَ يَسْمَعَ بَعْضُهُمْ لِسَانَ بَعْض. فَبَدَّدَهُمُ الرَّبُّ مِنْ هُنَاكَ عَلَى وَجْهِ كُلِّ الأَرْضِ، فَكَفُّوا عَنْ بُنْيَانِ الْمَدِينَةِ» (تكوين ١١: ٧، ٨)

❖ ملحوظة: لاحظ مرَّة أخرى استخدام ضمير الجمع (نَنْزِلْ ... نُبَلْبِلْ) في هذه الآية. فبما أنَّ الكتاب المقدَّس يقول بوضوح إنه يوجد إله واحد فقط، فمن البديهي أن نتساءل: مع مَنْ يتكلَّم الله هنا حينما يقول: «هَلُمَّ نَنْزِلْ ونُبَلْبِلْ ...»؟ سوف نُجيب عن هذا السؤال في وقتٍ لاحق.

ومهما كانت الطريقة التي استخدمها الله لتشتيت هؤلاء الناس، فقد أعطاهم لُغات جديدة. ولا بُدَّ أنَّ الله قام بعمل هائل بهذا الشأن. فالأشخاص الذين يتعلَّمون لُغة أخرى غير لُغتهم الأم يعرفون أنَّ ابتكار لُغة جديدة ليس بالأمر السهل على الإطلاق. وما من شكٍّ في أنَّ بعض اللغات التي أوجدها الله مُعقَّدة جداً لدرجة أنَّ عُلماء اللغة يحتاجون إلى سنوات طويلة لتعلُّمها. وحتَّى عندما يتعلَّمونها فإنهم لا يُتقنونها تماماً.

لم تختفِ المدينة التي حاول هؤلاء الناس أن يبنوها؛ لكنها أصبحت تُعرف باسم «بابل» التي تعني «ارتباك»، أو «تشويش»، أو «بَلْبَلَة».

«لِذلِكَ دُعِيَ اسْمُهَا ‹بَابِلَ› لأَنَّ الرَّبَّ هُنَاكَ بَلْبَلَ لِسَانَ كُلِّ الأَرْضِ. وَمِنْ هُنَاكَ بَدَّدَهُمُ الرَّبُّ عَلَى وَجْهِ كُلِّ الأَرْضِ» (تكوين ١١: ٩)

الفصل السَّادس

١. النبيُّ أيُّوب.
٢. النبيُّ إبراهيم.
٣. الإيمان الحقيقي.
٤. هاجر وإسماعيل.
٥. إسماعيل وإسحاق.
٦. الربُّ يُدَبِّر.

١ . النبيُّ أيُّوب

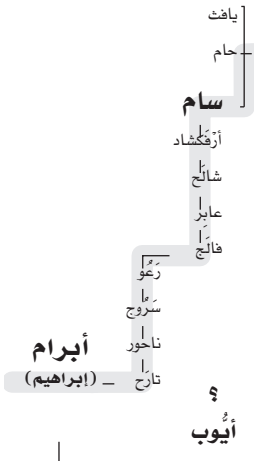

بعد أن بَلبل الله ألسنة الناس في بابل، انقضت عدَّة أجيال قبل أن يُدوِّن لنا الكتاب المقدَّس تدخُّل الله التالي في التاريخ. وخلال كل تلك السنين، لم ينسَ الله وعده بإرسال المُخلِّص. ورغم أنَّ مُعظم الناس عاشوا حياتهم دون أن يؤمنوا بالله، إلاَّ أنَّ كُلَّ جيلٍ كان شاهداً على أشخاص آمنوا بوعود الله. ومن بين هؤلاء الأشخاص نبي يُدعى أيُّوب.

كان أيُّوب رجُلاً باراً احتمل آلاماً نفسيَّةً وجسديَّةً يعجز العقل البشري عن تصوُّرها! فمن أجل تعليم البشر دروساً هامَّةً، سمح الله للشيطان بأن يُجرِّد أيُّوب من مُمتلكاته، وأفراد عائلته، وصحَّته. لكن رُغم كل هذا البؤس والشقاء، فقد عرف أيُّوب أنَّ أسوأ مُشكلة لديه هي حالة الخطيَّة المُلازمة له مُنذ ولادته. ففي أحد الحوارات بين أيُّوب والله، قال أيُّوب لله:

«وَحَتَّى لَوِ اغْتَسَلْتُ بِالثَّلْجِ وَنَظَّفْتُ يَدَيَّ بِالإِشْنَانِ، فَإِنَّكَ تَطْرَحُنِي فِي مُسْتَنْقَعِ نَتِنٍ حَتَّى تَكْرَهَنِي ثِيَابِي» (أيُّوب ٩: ٣٠، ٣١ – التفسيرية)

كان أيُّوب يعرف أنَّ غسل جسده لن يجعله باراً أمام الله القُدُّوس الذي بلا خطيَّة. فحتَّى لو نَظَّف جسده من الخارج، فسوف يبقى خاطئاً من الداخل ويستحق دينونة الله. لهذا، كان أيُّوب يخشى من دينونة الله ويتمنَّى وجود شخص وسيط يمكنه أن يتقرَّب من الله نيابةً عنه وأن يضع إحدى يديه على أيّوب واليد الأخرى على الله لمصالحتهما معاً:

«لَيْسَ بَيْنَنَا مُصَالِحٌ يَضَعُ يَدَهُ عَلَى كِلَيْنَا. لِيَرْفَعْ عَنِّي عَصَاهُ وَلاَ يَبْغَتْنِي رُعْبُهُ» (أيُّوب ٩: ٣٣، ٣٤)

ورغم أنَّ أيُّوب كان يُقدِّم الذبائح الحيوانيَّة عن خطاياه، إلاَّ أنه كان يعرف أنَّ تلك الذبائح لا تقدر أن ترفع عنه أجرة خطاياه. فقد كانت مُجرَّد غطاء مُؤقَّت. وربما كانت معرفته هذه، إلى جانب إدراكه لعَظَمة الله وقداسته، هي التي دفعته إلى طرح سؤالٍ مهم جداً:

«... فَكَيْفَ يَتَبَرَّرُ الإِنْسَانُ عِنْدَ اللهِ؟» (أيُّوب ٩: ٢)

كان أيُّوب يتساءل كيف يمكنه أن يتخلَّص من خطيئته وأن يحصل على برٍّ مُساوٍ لبر الله لكي يكون مقبولاً في محضر الله القُدُّوس! ويُمكن تلخيص رَدّ الله بالكلمات التالية: «ليس عليك يا أيُّوب سوى أن تثق بي وسوف أهتم أنا بمُشكلة خطيَّتك. فسوف أُعطيك البِرَّ الذي تحتاج إليه لكي تمثُل في محضري. فقط ثق بي!»

وقد كان هذا هو ما فعله أيُّوب تماماً. فقد وضع ثقته في الله وأشار إلى أنَّ المُخلِّص سيأتي إلى الأرض ليُتمِّم وعد الله لآدم وحوَّاء بتخليص البشريَّة من عواقب الخطيَّة المُدمِّرة. وقد قال أيُّوب عن المُخلِّص إنه فاديه:

«أَمَّا أَنَا فَإِنِّي مُوقِنٌ أَنَّ فَادِيَّ حَيٌّ، وَأَنَّهُ لاَبُدَّ فِي النِّهَايَةِ أَنْ يَقُومَ عَلَى الأَرْضِ. وَبَعْدَ أَنْ يَفْنَى جِلْدِي، فَإِنِّي بِذَاتِي أُعَايِنُ اللهَ . الَّذِي أُشَاهِدُهُ لِنَفْسِي فَتَنْظُرُهُ عَيْنَايَ وَلَيْسَ عَيْنًا آخَرَ، قَدْ فَنِيَتْ كُلْيَتَايَ شَوْقاً فِي دَاخِلِي.»

(أيُّوب ١٩: ٢٥-٢٧ - التفسيرية)

لقد عرف أيُّوب أنَّه حينما يموت فسوف يرى الله. وكان يتوق إلى ذلك لأنه يثق بالله ويتمتَّع بعلاقة سليمة معه. وسوف نرى لاحقاً لماذا دعا أيُّوب المُخلِّص الموعود وَليَّه أو فاديه.

٢ . النبيُّ إبراهيم

في نفس تلك الفترة التي عاش فيها أيُّوب تقريباً، كان هناك زوجان اسمهما «أبرام» و«ساراي» يعيشان معاً.

«وَكَانَتْ سَارَايُ عَاقِرًا لَيْسَ لَهَا وَلَدٌ» (تكوين ١١: ٣٠)

وُلد أبرام في المنطقة المعروفة حالياً باسم العراق. كانت مدينة «أور» الواقعة إلى الجنوب من بابل هي مسقط رأس أبرام. وقد تبع أبرام تعليمات الرب وترك بيته متوجِّهاً إلى حاران. وهناك تكلَّم الله إليه مَرَّةً أخرى.

وَقَالَ الرَّبُّ لأَبْرَامَ: «اذْهَبْ مِنْ أَرْضِكَ وَمِنْ عَشِيرَتِكَ وَمِنْ بَيْتِ أَبِيكَ إِلَى الأَرْضِ الَّتِي أُرِيكَ». ... فَذَهَبَ أَبْرَامُ كَمَا قَالَ لَهُ الرَّبُّ ... وَكَانَ أَبْرَامُ ابْنَ خَمْسٍ وَسَبْعِينَ سَنَةً لَمَّا خَرَجَ مِنْ حَارَانَ

(تكوين ١٢: ١، ٤)

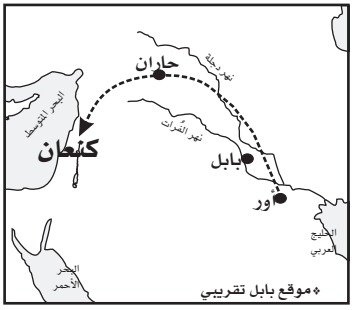

موقع بابل تقريبي

كانت هذه نَقلة كبيرة بالنسبة لأبرام لا سيَّما أنه لم يكُن يعرف إلى أين هو ذاهب! فالله لم يُخبره بذلك. وهكذا، فقد كان ينبغي عليه أن يثق بأن الله سيقوده أثناء رحلته تلك يوماً فيوماً. وكانت وُجهته المجهولة هي كنعان التي تُعرف في يومنا هذا باسم أرض فلسطين.

«... فَأَتَوْا إِلَى أَرْضِ كَنْعَانَ. ... فَبَنَى هُنَاكَ مَذْبَحًا لِلرَّبِّ الَّذِي ظَهَرَ لَهُ»

(تكوين ١٢: ٥، ٧)

آمن أبرام أنَّ الله سيُخلِّصه من عقاب الخطيَّة فبنى مذبحاً وقدَّم عليه ذبيحة حيوانية عن خطاياه. ورغم أنَّ الذبائح الحيوانيَّة كانت مُجرَّد صورة عن ما يلزم لإزالة الخطيَّة، إلاَّ أنَّ ذبيحة أبرام كانت دليلاً واضحاً على إقراره بحاجته لبديل يدفع أُجرة الموت بدلاً عنه. وهكذا، فقد كان أبرام يؤمن بالله مثلما فعل هابيل، ونوح، وجميع الأشخاص الأبرار الذين سبقوه.

كان أبرام يعيش حياةً شبه بدويَّة ممَّا دفع السُّكان المحلِّيين لتسميته «العبراني» بمعنى الشخص العابر أو المُرتحل. وحينما استقرَّ أبرام في منطقة واحدة لفترة طويلة، أصبح

المكان الذي يُقيم فيه يُدعى «حبرون». ومنذ ذلك الوقت فصاعداً، أصبح أبرام ونسلُه يُعرفون بالعبرانيِّين.

أربعة وعود

كذلك، قطع الله لأبرام أربعة وُعود مُحدَّدة:

فَأَجْعَلَكَ أُمَّةً عَظِيمَةً ...[٢]
وَأُبَارِكَكَ وَأُعَظِّمَ اسْمَكَ، وَتَكُونَ بَرَكَةً ...[٣]
وَأُبَارِكُ مُبَارِكِيكَ، وَلاَعِنَكَ أَلْعَنُهُ ...
وَتَتَبَارَكُ فِيكَ جَمِيعُ قَبَائِلِ الأَرْضِ (تكوين ١٢: ٢، ٣)

❖ ملحوظة: حينما يُبارك الله فإنه يُعطي فضلاً وإحساناً؛ وحينما يَلعن فإنه يجلب التعاسة والشقاء.

كان الوعد الأوَّل الذي قطعه الله هو خبر سارّ لأبرام. ولكي يُصبح أُمَّةً عظيمةً، كان ينبغي عليه أوَّلاً أن يُصبح أباً. لكن حيث أنه لم يكُن لديه أبناء لأنَّ زوجته ساراي كانت قد تجاوزت سِنَّ الإنجاب، فقد أصيب بالحيرة ولم يعرف كيف سيتحقَّق هذا الوعد! لكن حيث أنَّ الله قد قطع وعداً، فهذا يعني أنه سيُتمِّم وعده.

أمَّا الوعد الأخير فكان مُرتبطاً بالوعد الأوَّل، وكان يُشير إلى المُخلِّص بصورة مُباشرة! فقد كان الله يقول لأبرام إنَّ واحداً من نسله سيكون هو المخلِّص الموعود الذي سيُقدِّم الله من خلاله الرجاء للعالم، والذي سيُخلِّص الناس من مُشكلة الخطيَّة. ويقول الكتاب المقدَّس إنَّ أبرام صَدَّق الله وفرح بفكرة أنه سيرى اليوم الذي سيأتي فيه المُخلِّص.[٤]

«بَعْدَ هذه الأُمُورِ صَارَ كَلاَمُ الرَّبِّ إِلَى أَبْرَامَ فِي الرُّؤْيَا قَائِلاً: 'لاَ تَخَفْ يَا أَبْرَامُ. أَنَا تُرْسٌ لَكَ. أَجْرُكَ كَثِيرٌ جِدًّا'. فَقَالَ أَبْرَامُ: 'أَيُّهَا السَّيِّدُ الرَّبُّ، مَاذَا تُعْطِينِي وَأَنَا مَاضٍ عَقِيمًا ... ؟' ... ثُمَّ أَخْرَجَهُ اللهُ إِلَى خَارِجٍ وَقَالَ: 'انْظُرْ إِلَى السَّمَاءِ وَعُدَّ النُّجُومَ إِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَعُدَّهَا'. وَقَالَ لَهُ: 'هكَذَا يَكُونُ نَسْلُكَ'. فَآمَنَ أبرام بِالرَّبِّ فَحَسِبَهُ لَهُ بِرًّا» (تكوين ١٥: ١، ٢، ٥، ٦)

إنَّ الآية الأخيرة أعلاه مُحمَّلة بالمعاني. وسوف نتأمَّل في ثلاث كلمات لها معانٍ عميقة ألا وهي: «بِرّ» و«حَسِبَ»، و«إيمان». وحيث أنَّ كلمة «إيمان» بالغة الأهميَّة، فسوف أفرد لها قسماً خاصاً للحديث عنها.

البِرّ

لقد رأينا سابقاً أنَّ كلمة «بِرّ» تُستخدم للإشارة إلى كمال الله – أي أنه بلا خطيَّة، وقُدُّوس، وطاهر، ومُنزّه عن الشرور والخطايا. وما من شكٍّ أنَّ مثل هذا الكمال بعيدٌ كُلَّ البُعد عن قدرات الإنسان. ورغم أنَّ البعض يعيشون حياةً مُستقيمةً، إلاَّ أنه ما من أحدٍ يجرؤ على القول بأنه كامل.

وهذه هي النُقطة المهمة هُنا. فلكي يعيش المرء في محضر الله، يجب أن يكون بارَّاً مثل الله. ومن وُجهة نظر بشريَّة، يمكن القول بكل يقين إنَّ هذا أمر مُستحيل. لكنَّ الكتاب المقدَّس يقول إنَّ أبرام حَقَّق هذا المستوى من البِرّ – لا لأنَّه فعل ذلك بقدرته؛ بل لأنَّ الله حسبه له كذلك.

الحساب

ما المقصود بعبارة «... فَحَسِبَهُ لَهُ بِرًّا»؟ إنَّ كلمة «حَسِبَ» تعني «قَيَّد لَه أو لحسابه».

وتستخدم الترجمة اليونانيَّة لهذه الآية كلمة قويَّة جداً للإشارة إلى كلمة «حَسِبَ»؛ وهي كلمة تتعامل مع حقيقة واقعة. فقد تكون مُفلساً تماماً فيأتي أحد أصدقائك ويقول لك إنه قَيَّد لحسابك مبلغ ١٠٠ دينار. وهكذا، فقد أصبح معك ١٠٠ دينار دون أدنى شكٍّ في ذلك. وبالتالي، فإنَّ كلمة «حَسِبَ» هي كلمة تُشير إلى حقيقة واقعة وليس إلى افتراضات.

يقول الكتاب المقدَّس إنَّ الرب حسب البِرَّ لأبرام. وبالتالي، لم يُكن أبرام هو مصدر البِرّ؛ بل الله. وهذا لا يعني أنَّ أبرام أصبح شخصاً بارَّاً من تلقاء نفسه وراح يعيش فجأةً حياةً كاملةً هنا على الأرض؛ بل يعني أنَّ الله نظر إلى أبرام كما لو كان شخصاً بارَّاً. وبذلك أصبح أبرام يمتلك كل ما يحتاج إليه للمُثول في محضر الرب.

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا هو: «كيف حصل أبرام على هذا البر الذي أتاح له أن يقف أمام الرب؟» نجد الإجابة عن هذا السؤال في الكلمة الثالثة التي سنتحدَّث عنها الآن.

«فَآمَنَ أبرام بِالرَّبِّ فَحَسِبَهُ لَهُ بِرًّا» (تكوين ١٥: ٦)

نرى هنا أنَّ أبرام آمن بالله وصَدَّق كلامه ووعوده.

٣ . الإيمان الحقيقي

قد يُسيء البعض فهم هذه الكلمة الثالثة التي تتحدَّث عن «الإيمان». لهذا، يجب علينا أن نفهم بعض الأمور المُتعلِّقة بها حسب ما هو مذكور في كلمة الله:

- غالباً ما تُستخدم الكلمات الدالَّة على الإيمان والثقة كمترادفات. فعلى سبيل المثال:
  - **آمن** أبرام بالربِّ — **آمن** بما قاله الله.
  - وضع أبرام **إيمانه** في الربِّ — كان لديه **إيمان** بكلمته.
  - **وثق** أبرام بالربِّ — عرف أنَّ الله **جدير بالثقة**.
  - كان لأبرام **ثقة** في الرب — كانت **ثقته** بالله وحده.
- الإيمان الحقيقي يقوم على الحقائق وليس على المشاعر. فعندما تجلس على كُرسيٍّ ما فإنك تُلقي عليه نظرة خاطفة لكي تتأكَّد من بعض الحقائق. فإن وجدت أنَّ الكُرسي متين وقادر على حملك فسوف تجلس عليه وأنت واثق بأنه سيحملك. وبالكيفيَّة نفسها، كان إيمان أبرام قائماً على حقيقة وعد الله له. وهكذا، فهو لم يكن يتبع الله لأنه شعر بمشاعر روحيَّة غامضة؛ بل كان الأمر حقيقة واقعة كما هو واضح في هذه المُعادلة الحسابيَّة البسيطة:

قال الله: «سوف يكون لك ولد».

+ الله عظيم ويستطيع أن يفعل أي شيء.

= سوف يكون لأبرام ولد.

- إنَّ الأمر لا يتعلَّق بمقدار إيمانك؛[٥] بل بالإله الذي تضع ثقتك فيه. فإن كان لديك إيمان

كثير بإله باطل فهذا لن يُساعدك على الإطلاق. لكن كما سنرى لاحقاً، فإنَّ قدراً ضئيلاً من الإيمان بالإله الحيِّ الحقيقي قد أحدث فرقاً كبيراً بالنسبة لأبرام. وهكذا، فإنَّ النقطة الجوهريَّة لا تتعلَّق بمقدار إيمانك؛ بل بالإله الذي تضع ثقتك به.

- الإيمان الحقيقي (بحسب تعريف الكتاب المقدَّس) لا يتوقَّف على القبول العقلي للحقائق؛ لأنه لو كان كذلك لما أمكن تسميته إيماناً حقيقيًّاً.

يمكن توضيح فكرة الإيمان بالمثال التالي: صديقان يسيران معاً فيصلان إلى جسر مُعلَّق مُتأرجح. وعندها، يقول أحدهما للآخر: «هل تعتقد تؤمن أنَّ هذا الجسر آمن؟» فيُجيبه الآخر: «بالطبع!» فيقول الأوَّل: «إذن، تعال بنا نعبُره!» فإن تردَّد الصديق الثاني وبدأ في اختلاق الأعذار لكي لا يَعبُر الجسر، فسوف يكون إيمانه هذا مشكوكاً فيه. فهو يعترف بفمه فقط أنه يؤمن بالجسر، لكنَّ تصرُّفاته تدُل على أنه يشك فيه في قلبه. والنقطة المهمة هنا هي أنَّ إيماننا يجب أن ينعكس على أعمالنا.

كان إيمان أبرام يتخطَّى حدود الموافقة العقليَّة. فقد جازف بحياته، وسُمعته، وكل ما لديه بسبب وعود الله له. ولأنه آمن، فقد أطاع الله، وارتحل إلى أرضٍ غريبة، وقَدَّم الذبائح من مُنطلق ثقته بأنَّ الله سيُخلِّصه من عقاب الخطيَّة.

في الوقت نفسه، يجب أن نُدرك أنَّ طاعة أبرام لم تكُن مُجرَّد مُحاولة منه لإثبات حقيقة إيمانه سواء لله أو للآخرين. بل إنَّ قيامه بالأشياء التي أمره الله بها كان نتيجةً طبيعيَّةً لإيمانه بالله.

لقد طرحنا في السابق سؤالاً مؤلفاً من شقَّين: (أ) كيف يمكننا أن نتخلَّص من دَين الخطيَّة؟ (ب) كيف يمكننا أن نحصل على بِرٍّ يُعادل بِرَّ الله لكي نكون مقبولين في مَحضره؟» والحل الذي يُقدِّمه الكتاب المقدَّس للشق الثاني من السؤال هو حل بسيط: ثق بالرب، وآمن بوعوده؛ وعندها، سوف يُعطيك الله البر الذي تحتاج إليه لكي تمثُل في محضره.

يقول الكتاب المقدَّس إنَّ أبرام كان يمتلك هذه الثقة في أنَّ الله سيحفظ كلمته، وأنه:

«كَانَ يَنْتَظِرُ الْمَدِينَةَ الَّتِي لَهَا الأَسَاسَاتُ، الَّتِي صَانِعُهَا وَبَارِئُهَا اللهُ» (عبرانيِّين ١١: ١٠)

كان أبرام يتوق إلى السَّماء. ورغم أنَّه كان يعرف أنَّ جسده سيموت في نهاية المطاف، إلاَّ أنه كان يؤمن أنَّ الله قد أعطاه البِرَّ الذي يحتاج إليه لكي يَمثُل في محضره ويبقى معه إلى أبد الآبدين.

لكن ما زال هناك سؤال لم نُجب عنه: «كيف أمكن لأبرام أن يعيش في السماء إن لم يكُن دَيْن خطيئته قد سُدِّد بالكامل؟» هذا هو الشق الآخر من ذلك السؤال المزدوج. فلا يُمكن فصل موضوع التخلُّص من دَيْن الخطيَّة عن موضوع الحصول على البِرِّ المطلوب. فقد كانت عواقب الخطيَّة قائمةً. وبالتالي، كيف كان بالإمكان تسديد ذلك الدَّين إذا كان أبرام موجوداً في السَّماء؟

في الحقيقة أنَّه كانت لدى الله خطة لمعالجة دَيْن الخطيَّة. وكان كُلُّ ما ينبغي على أبرام أن يفعله هو أن يثق بأنَّ الرب سيحفظ وعده؛ فهو المُخلِّص.

٤ . هاجر وإسماعيل

انقضَت سنوات وسنوات دون أن يُرزَق أبرام وساراي بأبناء. لهذا، فقد قرَّرا حل الموضوع بطريقتهما الخاصَّة! وبحسب الطريقة المقبولة اجتماعيًّا في ذلك الزمان للتعامل مع العُقم، أخذت ساراي خادمتها «هاجر» وقدَّمتها لزوجها أبرام لكي يضطجع معها ويُنجب منها أبناءً. وبالفعل، أنجب أبرام ابناً من هاجر أسماه إسماعيل. وبهذا، أصبح لدى أبرام نسل حَيّ الآن يمكنه أن يُتمِّم وعد الله. على الرغم من ذلك، كانت هُناك مشكلة! فقد عالج أبرام وساراي الأمر بطريقتهما الخاصة وليس بطريقة الله.

«وَلَمَّا كَانَ أَبْرَامُ ابْنَ تِسْعٍ وَتِسْعِينَ سَنَةً ظَهَرَ الرَّبُّ لأَبْرَامَ وَقَالَ لَهُ: أَنَا اللهُ الْقَدِيرُ. سِرْ أَمَامِي وَكُنْ كَامِلاً، ... فَلاَ يُدْعَى اسْمُكَ بَعْدُ أَبْرَامَ بَلْ يَكُونُ اسْمُكَ إِبْرَاهِيمَ، لأَنِّي أَجْعَلُكَ أَبًا لِجُمْهُورٍ مِنَ الأُمَمِ» (تكوين ١٧: ١، ٥)

اعتقد أبرام (الذي أصبح اسمه إبراهيم) أنه لم تَعُد لديه مُشكلة في قَبول ما يقوله الله له بشأن المُخلِّص الموعود لأنه أصبح لديه نسل حيث أنَّ هاجر قد أنجبت له ابناً ألا وهو إسماعيل! لكنَّ الأمر المُدهش هو أنَّ الله استمرَّ في الحديث عن ذلك المُخلِّص الموعود الذي سيأتي!

«وَقَالَ اللهُ لإِبْرَاهِيمَ: سَارَايُ امْرَأَتُكَ لاَ تَدْعُو اسْمَهَا سَارَايَ، بَلِ اسْمُهَا سَارَةُ. وَأُبَارِكُهَا وَأُعْطِيكَ أَيْضًا مِنْهَا ابْنًا. أُبَارِكُهَا فَتَكُونُ أُمَمًا، وَمُلُوكُ شُعُوبٍ مِنْهَا يَكُونُونَ» (تكوين ١٧: ١٥، ١٦)

لم يكن ذلك بالخبر السار. فلماذا يذكُر الله سارة بعد كُلِّ ما حدث؟ فقد أنجب إبراهيم ابناً ألا وهو إسماعيل! أفلا يُمكن أن يأتي المُخلِّص الموعود من خلاله؟ ولماذا كان ينبغي أن يأتي المُخلِّص من سارة؟ فقد كانت سارة عجوزاً وكان حَمْلُها وإنجابُها أمراً مُستحيلاً!

«فَسَقَطَ إِبْرَاهِيمُ عَلَى وَجْهِهِ وَضَحِكَ، وَقَالَ فِي قَلْبِهِ: 'هَلْ يُولَدُ لابْنِ مِئَةِ سَنَةٍ؟ وَهَلْ تَلِدُ سَارَةُ وَهِيَ بِنْتُ تِسْعِينَ سَنَةً؟' وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ لِلهِ: 'لَيْتَ إِسْمَاعِيلَ يَعِيشُ أَمَامَكَ!'» (تكوين ١٧: ١٧، ١٨)

حاول إبراهيم أن يقول لله إنَّ إسماعيل يصلُح لأن يكون مرشحاً مقبولاً! لكن استمع إلى رَدِّ الله عليه:

«فَقَالَ اللهُ: بَلْ سَارَةُ امْرَأَتُكَ تَلِدُ لَكَ ابْنًا وَتَدْعُو اسْمَهُ إِسْحَاقَ. وَأُقِيمُ عَهْدِي مَعَهُ عَهْدًا أَبَدِيًّا لِنَسْلِهِ مِنْ بَعْدِهِ. وَأَمَّا إِسْمَاعِيلُ فَقَدْ سَمِعْتُ لَكَ فِيهِ. هَا أَنَا أُبَارِكُهُ وَأُثْمِرُهُ وَأُكَثِّرُهُ كَثِيرًا جِدًّا. اثْنَيْ عَشَرَ رَئِيسًا يَلِدُ، وَأَجْعَلُهُ أُمَّةً كَبِيرَةً. وَلكِنْ عَهْدِي أُقِيمُهُ مَعَ إِسْحَاقَ الَّذِي تَلِدُهُ لَكَ سَارَةُ فِي هذَا الْوَقْتِ فِي السَّنَةِ الآتِيَةِ» (تكوين ١٧: ١٩-٢١)

وهكذا، فقد أوضح الله لإبراهيم وسارة أنه لا يَقبل إلاَّ بالأشياء التي تتمُّ حسب طريقته هو. لهذا، سوف تُنجب سارة الطفل الموعود خلال سنة واحدة، وقد أطلق الله على ذلك الطفل اسم «إسحاق». في الوقت نفسه، لم يَنس الله إسماعيل أيضاً. وسوف نقرأ المزيد عن إسماعيل لاحقاً في هذا الفصل.

الزوَّار الثلاثة

راح إبراهيم وسارة ينتظران وعد الله من جديد. وفي تلك الأثناء، كلَّمهما الله ثانيةً في هيئة رجل يُرافقه اثنان من الملائكة في هيئة بشر أيضاً.

قال الرب: أَيْنَ زَوْجَتُكَ؟

أجاب إبراهيم قائلاً: هَا هِيَ فِي الْخَيْمَةِ.

فقال الرب: إِنِّي أَرْجِعُ إِلَيْكَ فِي مِثْلِ هَذَا الْوَقْتِ مِنَ السَّنَةِ الْقَادِمَةِ فَتَكُونُ سَارَةُ آنَئِذٍ قَدْ وَلَدَتْ لَكَ ابْناً. وَكَانَتْ سَارَةُ وَرَاءَهُ، عِنْدَ بَابِ الْخَيْمَةِ، فَسَمِعَتْ حَدِيثَهُ. وَكَانَ إِبْرَاهِيمُ وَسَارَةُ عَجُوزَيْنِ طَاعِنَيْنِ جِدّاً فِي السِّنِّ وَقَدْ تَجَاوَزَتْ سَارَةُ سِنَّ الْيَأْسِ. فَضَحِكَتْ سَارَةُ فِي نَفْسِهَا قَائِلَةً: أَبَعْدَ أَنْ فَنِيَ عُمْرِي وَأَصْبَحَ زَوْجِي شَيْخاً يَكُونُ لِي هَذَا التَّنَعُّمُ؟

فَقَالَ الرَّبُّ لإِبْرَاهِيمَ: لِمَاذَا ضَحِكَتْ سَارَةُ قَائِلَةً: أَحَقّاً أَلِدُ ابْناً وَقَدْ بَلَغْتُ سِنَّ الشَّيْخُوخَةِ؟ أَيَتَعَذَّرُ عَلَى الرَّبِّ شَيْءٌ؟ سَأَرْجِعُ إِلَيْكَ فِي مِثْلِ هَذَا الْوَقْتِ مِنَ السَّنَةِ الْقَادِمَةِ فَتَكُونُ سَارَةُ قَدْ أَنْجَبَتِ ابْناً.

سارة: فَخَافَتْ سَارَةُ وَأَنْكَرَتْ قَائِلَةً: لَمْ أَضْحَكْ.

فَقَالَ الرب: لاَ، بَلْ ضَحِكْتِ.

(تكوين ١٨: ٩-١٥ – التفسيرية)

لا بُدَّ أنَّ تلك الحادثة كانت إعلاناً لسارة لكي تعرف أنَّ الله العليم قد قرأ أفكارها. ورغم أنَّها حاولت أن تُنكر أنها ضحكت في قلبها، إلاَّ أنَّ الإنكار لا ينطلي على الله. لهذا، فقد واجهها الرب قائلاً: «لا، بَلْ ضَحِكْتِ!» فالله يُحمِّل كل شخصٍ مسئوليَّة أفعاله.

آمن إبراهيم وسارة بأنَّ الله سيحفظ وعده. لكن كما نرى، فقد كان إيمانهما مُتأرجحاً بين صُعود وهُبوط! ففي بعض الأحيان، كان إبراهيم وسارة يُصارعان مع الشك. لكنَّ الأمر المُدهش بشأن الله هو أنه وَعَد بأنه سيُكرم الإيمان حتَّى ولو كان بسيطاً بحجم حبَّة الخردل المعروفة بصغرها.[٥] وكما ذكرنا سابقاً فإنَّ النقطة المهمَّة ليست مقدار الإيمان الذي لديك؛ بل الإله الذي تؤمن به. وقد كان إبراهيم وسارة يؤمنان بالله الحيِّ الحقيقي ويضعان ثقتهما فيه.

٥. إسماعيل وإسحاق

«وَافْتَقَدَ الرَّبُّ سَارَةَ كَمَا قَالَ، وَفَعَلَ الرَّبُّ لِسَارَةَ كَمَا تَكَلَّمَ. فَحَبِلَتْ سَارَةُ وَوَلَدَتْ لإِبْرَاهِيمَ ابْناً فِي شَيْخُوخَتِهِ، فِي الْوَقْتِ الَّذِي تَكَلَّمَ اللهُ عَنْهُ. وَدَعَا إِبْرَاهِيمُ اسْمَ ابْنِهِ الْمَوْلُودِ لَهُ، الَّذِي وَلَدَتْهُ لَهُ سَارَةُ إِسْحَاقَ» (تكوين ٢١: ١-٣)

حفظ الله وعده لإبراهيم وسارة رغم أنهما كانا قد بلغا سنَّ الشيخوخة. فالله يحفظ وعوده دائماً ويُسَرُّ بعمل المُستحيل. وهكذا، أصبح لإبراهيم ابنان: إسحاق من سارة، وإسماعيل من هاجر. ورغم أنَّ هذا الرجل العجوز أنجب المزيد من الأبناء، إلاَّ أننا لا نعرف عنهم الكثير كما نعرف عن إسماعيل وإسحاق.

حينما كان عُمر إسماعيل ستَّة عشر عاماً تقريباً، وعُمر إسحاق سنتين فقط، وقعت حادثة

غريبة غَيَّرت حياة إسماعيل وتاريخ العالم.

« وَرَأَتْ سَارَةُ أَنَّ ابْنَ هَاجَرَ الْمِصْرِيَّةِ الَّذِي أَنْجَبَتْهُ لإِبْرَاهِيمَ يَسْخَرُ مِن ابْنِهَا إِسْحقَ » (تكوين ٢١: ٩ – التفسيرية)

سخر إسماعيل من إسحاق. فقد كان إسماعيل فتىً في سنِّ السادسة عشرة ولم يكُن يُدرك خطَّة الله لإسحاق أو أنه سيجعله أباً لأمَّة عظيمة يخرج منها الأنبياء، والكتاب المقدَّس، والمُخلِّص نفسه في نهاية المطاف! أمَّا سارة فلم تحتمل سُخرية إسماعيل من ابنها.

«فَقَالَتْ سارة لإِبْرَاهِيمَ: 'اطْرُدْ هذِهِ الْجَارِيَةَ وَابْنَهَا، لأَنَّ ابْنَ هذِهِ الْجَارِيَةِ لاَ يَرِثُ مَعَ ابْنِي إِسْحَاقَ'. فَقَبُحَ الْكَلاَمُ جِدًّا فِي عَيْنَيْ إِبْرَاهِيمَ لِسَبَبِ ابْنِهِ» (تكوين ٢١: ١٠، ١١)

رغم أنَّ الله قال بأنَّ المُخلِّص الموعود سيأتي من نسل إسحاق، إلاَّ أنَّ ذلك لا يُلغي حقيقة أنَّ إسماعيل هو ابن إبراهيم أيضاً. ومن الواضح أنَّ إبراهيم كان يُحب ابنه إسماعيل أيضاً. وهكذا، أصبح إبراهيم عالقاً بين غيرة زوجته سارة ورغبتها في حماية ابنها إسحاق من ناحية، وبين محبَّته لإسماعيل من ناحية أخرى. وهُنا تدخَّل الله وقال لإبراهيم:

«لاَ يَقْبُحُ فِي عَيْنَيْكَ مِنْ أَجْلِ الْغُلاَمِ وَمِنْ أَجْلِ جَارِيَتِكَ. فِي كُلِّ مَا تَقُولُ لَكَ سَارَةُ اسْمَعْ لِقَوْلِهَا، لأَنَّهُ بِإِسْحَاقَ يُدْعَى لَكَ نَسْلٌ. وَابْنُ الْجَارِيَةِ أَيْضًا سَأَجْعَلُهُ أُمَّةً لأَنَّهُ نَسْلُكَ»

(تكوين ٢١: ١٢، ١٣)

وهكذا، فقد كان الله يقول لإبراهيم أن يُعطي هاجر حُرِّيتها.

«فَبَكَّرَ إِبْرَاهِيمُ صَبَاحًا وَأَخَذَ خُبْزًا وَقِرْبَةَ مَاءٍ وَأَعْطَاهُمَا لِهَاجَرَ، وَاضِعًا إِيَّاهُمَا عَلَى كَتِفِهَا، وَالْوَلَدَ، وَصَرَفَهَا. فَمَضَتْ وَتَاهَتْ فِي بَرِّيَّةِ بِئْرِ سَبْعٍ. وَلَمَّا فَرَغَ الْمَاءُ مِنَ الْقِرْبَةِ طَرَحَتِ الْوَلَدَ تَحْتَ إِحْدَى الأَشْجَارِ، وَمَضَتْ وَجَلَسَتْ مُقَابِلَهُ بَعِيدًا نَحْوَ رَمْيَةِ قَوْسٍ، لأَنَّهَا قَالَتْ: 'لاَ أَنْظُرُ مَوْتَ الْوَلَدِ'. فَجَلَسَتْ مُقَابِلَهُ وَرَفَعَتْ صَوْتَهَا وَبَكَتْ» (تكوين ٢١: ١٤–١٦)

يُمكن للمرء أن يتخيَّل حالة اليأس التي مَرَّت بها هاجر في ذلك الوقت. فقد اعتقدت أنه سيتعيَّن عليها أن تُربِّي ابنها وحدها دون أيَّة مُساعدة ودون مكانٍ تُقيم فيه في هذا العالم. لكنَّها نسيت في وسط همومها أنَّ الله قادرٌ على العناية بها وبابنها إسماعيل.

«فَسَمِعَ اللهُ صَوْتَ الْغُلاَمِ، وَنَادَى مَلاَكُ اللهِ هَاجَرَ مِنَ السَّمَاءِ وَقَالَ لَهَا: 'مَا لَكِ يَا هَاجَرُ؟ لاَ تَخَافِي، لأَنَّ اللهَ قَدْ سَمِعَ لِصَوْتِ الْغُلاَمِ حَيْثُ هُوَ. قُومِي احْمِلِي الْغُلاَمَ وَشُدِّي يَدَكِ بِهِ، لأَنِّي سَأَجْعَلُهُ أُمَّةً عَظِيمَةً'. وَفَتَحَ اللهُ عَيْنَيْهَا فَأَبْصَرَتْ بِئْرَ مَاءٍ، فَذَهَبَتْ وَمَلأَتِ الْقِرْبَةَ مَاءً وَسَقَتِ الْغُلاَمَ. وَكَانَ اللهُ مَعَ الْغُلاَمِ فَكَبِرَ، وَسَكَنَ فِي الْبَرِّيَّةِ، وَكَانَ يَنْمُو رَامِيَ قَوْسٍ»

(تكوين ٢١: ١٧–٢٠)

يقول الكتاب المقدَّس إنَّ الله كان مع إسماعيل إلى أن كبر وصار رجُلاً. ورغم أنَّ مُخلِّص العالم كان سيأتي من نَسل إسحاق، إلاَّ أنَّ الله بارك إسماعيل أيضاً. فالله هو إله جميع البشر! وكما وَعد الله، أصبح إسماعيل بالفعل أُمَّةً عظيمةً حيث أنَّ الكثير من الشعوب العربيَّة ترجع في أصلها إلى إسماعيل.

«وَسَكَنَ إسماعيل فِي بَرِّيَّةِ فَارَانَ، وَأَخَذَتْ لَهُ أُمُّهُ زَوْجَةً مِنْ أَرْضِ مِصْرَ» (تكوين ٢١: ٢١)

٦ . الربُّ يُدَبِّر

بعد مُغادرة إسماعيل، ينتقل الكتاب المقدَّس إلى واقعةٍ فريدةٍ يَصعُب نسيانها في حياة النبيِّ إبراهيم:

وَحَدَثَ بَعْدَ هذِهِ الأُمُورِ أَنَّ اللهَ امْتَحَنَ إِبْرَاهِيمَ، فَقَالَ لَهُ: «يَا إِبْرَاهِيمُ!».
فَقَالَ: «هأَنَذَا».
فَقَالَ: «خُذِ ابْنَكَ وَحِيدَكَ، الَّذِي تُحِبُّهُ، إِسْحَاقَ، وَاذْهَبْ إِلَى أَرْضِ الْمُرِيَّا، وَأَصْعِدْهُ هُنَاكَ مُحْرَقَةً عَلَى أَحَدِ الْجِبَالِ الَّذِي أَقُولُ لَكَ».
فَبَكَّرَ إِبْرَاهِيمُ صَبَاحًا وَشَدَّ عَلَى حِمَارِهِ، وَأَخَذَ اثْنَيْنِ مِنْ غِلْمَانِهِ مَعَهُ، وَإِسْحَاقَ ابْنَهُ، وَشَقَّقَ حَطَبًا لِمُحْرَقَةٍ، وَقَامَ وَذَهَبَ إِلَى الْمَوْضِعِ الَّذِي قَالَ لَهُ اللهُ. وَفِي الْيَوْمِ الثَّالِثِ رَفَعَ إِبْرَاهِيمُ عَيْنَيْهِ وَأَبْصَرَ الْمَوْضِعَ مِنْ بَعِيدٍ، فَقَالَ إِبْرَاهِيمُ لِغُلاَمَيْهِ: «اجْلِسَا أَنْتُمَا هَهُنَا مَعَ الْحِمَارِ، وَأَمَّا أَنَا وَالْغُلاَمُ فَنَذْهَبُ إِلَى هُنَاكَ وَنَسْجُدُ، ثُمَّ نَرْجِعُ إِلَيْكُمَا».
فَأَخَذَ إِبْرَاهِيمُ حَطَبَ الْمُحْرَقَةِ وَوَضَعَهُ عَلَى إِسْحَاقَ ابْنِهِ، وَأَخَذَ بِيَدِهِ النَّارَ وَالسِّكِّينَ. فَذَهَبَا كِلاَهُمَا مَعًا. وَكَلَّمَ إِسْحَاقُ إِبْرَاهِيمَ أَبَاهُ وَقَالَ: «يَا أَبِي!».
فَقَالَ: «هأَنَذَا يَا ابْنِي».
فَقَالَ: «هُوَذَا النَّارُ وَالْحَطَبُ، وَلكِنْ أَيْنَ الْخَرُوفُ لِلْمُحْرَقَةِ؟»
فَقَالَ إِبْرَاهِيمُ: «اللهُ يَرَى لَهُ الْخَرُوفَ لِلْمُحْرَقَةِ يَا ابْنِي». فَذَهَبَا كِلاَهُمَا مَعًا.
فَلَمَّا أَتَيَا إِلَى الْمَوْضِعِ الَّذِي قَالَ لَهُ اللهُ، بَنَى هُنَاكَ إِبْرَاهِيمُ الْمَذْبَحَ وَرَتَّبَ الْحَطَبَ وَرَبَطَ إِسْحَاقَ ابْنَهُ وَوَضَعَهُ عَلَى الْمَذْبَحِ فَوْقَ الْحَطَبِ. ثُمَّ مَدَّ إِبْرَاهِيمُ يَدَهُ وَأَخَذَ السِّكِّينَ لِيَذْبَحَ ابْنَهُ. فَنَادَاهُ مَلاَكُ الرَّبِّ مِنَ السَّمَاءِ وَقَالَ: «إِبْرَاهِيمُ! إِبْرَاهِيمُ!».
فَقَالَ: «هأَنَذَا».
فَقَالَ: «لاَ تَمُدَّ يَدَكَ إِلَى الْغُلاَمِ وَلاَ تَفْعَلْ بِهِ شَيْئًا، لأَنِّي الآنَ عَلِمْتُ أَنَّكَ خَائِفٌ اللهَ، فَلَمْ تُمْسِكِ ابْنَكَ وَحِيدَكَ عَنِّي».
فَرَفَعَ إِبْرَاهِيمُ عَيْنَيْهِ وَنَظَرَ وَإِذَا كَبْشٌ وَرَاءَهُ مُمْسَكًا فِي الْغَابَةِ بِقَرْنَيْهِ، فَذَهَبَ إِبْرَاهِيمُ وَأَخَذَ الْكَبْشَ وَأَصْعَدَهُ مُحْرَقَةً عِوَضًا عَنِ ابْنِهِ. فَدَعَا إِبْرَاهِيمُ اسْمَ ذلِكَ الْمَوْضِعِ «يَهْوَهْ يِرْأَهْ» الربُّ يُدَبِّر. حَتَّى إِنَّهُ يُقَالُ الْيَوْمَ: «فِي جَبَلِ الرَّبِّ يُرَى».
وَنَادَى مَلاَكُ الرَّبِّ إِبْرَاهِيمَ ثَانِيَةً مِنَ السَّمَاءِ وَقَالَ: «بِذَاتِي أَقْسَمْتُ يَقُولُ الرَّبُّ، أَنِّي مِنْ أَجْلِ أَنَّكَ فَعَلْتَ هذَا الأَمْرَ، وَلَمْ تُمْسِكِ ابْنَكَ وَحِيدَكَ، أُبَارِكُكَ مُبَارَكَةً، وَأُكَثِّرُ نَسْلَكَ تَكْثِيرًا كَنُجُومِ السَّمَاءِ وَكَالرَّمْلِ الَّذِي عَلَى شَاطِئِ الْبَحْرِ، وَيَرِثُ نَسْلُكَ بَابَ أَعْدَائِهِ، وَيَتَبَارَكُ فِي نَسْلِكَ جَمِيعُ أُمَمِ الأَرْضِ، مِنْ أَجْلِ أَنَّكَ سَمِعْتَ لِقَوْلِي» (تكوين ٢٢: ١-١٨)

يا لها من قصَّة عميقة ومؤثِّرة بالفعل! رُبَّما يُخيَّل إلينا للوهلة الأولى أنَّ الله يؤيِّد تقديم ذبائح بشريَّة له. لكن يجب علينا أن نقرأ القصَّة كاملةً وأن ننظر إلى ما هو أبعد من ذلك!

خُذ ابنَك

أمر الله إبراهيم أن يأخذ ابنه إسحاق وأن يُقدِّمه ذبيحةً على المذبح؛ أي أن يذبحه! ورغم أنَّ كلمة الله تتحدَّث عن إسحاق باعتباره الابن الوحيد لإبراهيم، إلاَّ أنَّ هذا لا يعني أنه لم يكُن لإبراهيم أبناء آخرون. لكنَّ الرب كان يُوجِّه نظر إبراهيم إلى الابن الذي سيأتي منه المُخلِّص. وقد انتظر إبراهيم هذا الابن لسنوات طويلة. وفي الحقيقة أنَّ إسحاق لم يكُن الابن الذي وعد الله بأنه سيكون أباً لأمَّةٍ عظيمة فحسب، بل كان

أيضاً الابن الذي سيأتي من نسله المُخلِّص الموعود. وهكذا، فقد كان الله واضحاً تماماً في الأمر الذي أصدره لإبراهيم بأن يُقدِّم ابنه إسحاق ذبيحة! لكن كيف يُمكن لابنٍ ميِّتٍ أن تكون له ذُريَّة؟

من المؤكَّد أنَّ طلب الله قد سبَّب حيرةً كبيرةً لإبراهيم. ومن المُرجَّح أنَّ إبراهيم كان قد شاهد مراراً القرابين البشريَّة التي كانت الأمم الأخرى تُقدِّمها لاسترضاء آلهتها في ذلك الزمان. رغم ذلك، كان الأمر الذي أصدره الله لإبراهيم بأن يذبح ابنه يُخالف كل ما عرفه إبراهيم عن الخالق. فقد وعد الله إبراهيم أن يكون لابنه إسحاق نسل كثير. وهكذا، لم يكُن عقل إبراهيم قادراً على التوفيق بين وعد الله السابق له وبين أمره الحالي. رغم ذلك، كان إبراهيم قد تعلَّم أنَّ الرب جدير بالثقة؛ لهذا فقد فعل كل ما أمره الله به. فقد نادى ابنه، وجهَّز حماره، وأخذ كل ما يلزمه لتقديم محرقة للرب، وعقد العزم على تنفيذ ما أمره الله به. ولا بُدَّ أنَّ قلب إبراهيم كان يتمزَّق حُزناً وألماً! فقد كانت الطاعة في هذا الأمر مؤلمة جداً لإبراهيم، لكنَّها أظهرت إيمانه المُطلَق بصلاح الله.

لا يتركنا الكتاب المقدَّس نُخمِّن ماذا كان يُفكِّر إبراهيم في تلك اللحظات. بل إنَّ كلمة الله تقول لنا إنَّ إبراهيم كان يتمسَّك بوعد الله، وكان مُقتنعاً بأنَّه حتَّى لو ذبح ابنه إسحاق فسوف يُقيمه الرب من الموت:

«بِالإِيمَانِ قَدَّمَ إِبْرَاهِيمُ إِسْحَاقَ وَهُوَ مُجَرَّبٌ. قَدَّمَ الَّذِي قَبِلَ الْمَوَاعِيدَ، وَحِيدَهُ ... إِذْ حَسِبَ أَنَّ اللهَ قَادِرٌ عَلَى الإِقَامَةِ مِنَ الأَمْوَاتِ أَيْضًا»

(عبرانيِّين ١١: ١٧، ١٩)

يقول لنا الكتاب المقدَّس إنَّ الله كان يمتحن إيمان إبراهيم. وسوف نفهم سبب ذلك في الصفحات القليلة القادمة.

انطلق إبراهيم، وإسحاق، واثنان من خُدَّام إبراهيم إلى جبل المُرِيَّا. وحينما اقتربوا من ذلك الجبل، قال إبراهيم للغُلامين اللذين كانا برفقته أن ينتظراه هناك، ثُمَّ أكمل الطريق هو وإسحاق وحدهما إلى أعلى الجبل. كان إبراهيم يحمل معه السكِّين والنار، وكان ابنه إسحاق يحمل الحطب. وأثناء الطريق، سأل إسحاق أباه إبراهيم عن الأضحية. فمن المؤكَّد أنَّ إسحاق كان قد رأى الكثير من الذبائح من قَبل. ولم يكُن الأمر يحتاج إلى كثيرٍ من الذكاء لكي يُدرك غياب أهم عُنصر ألا وهو الذبيحة نفسها:

«وَكَلَّمَ إِسْحَاقُ إِبْرَاهِيمَ أَبَاهُ وَقَالَ: 'يَا أَبِي!'. فَقَالَ: 'هأَنَذَا يَا ابْنِي'. فَقَالَ: 'هُوَذَا النَّارُ وَالْحَطَبُ، وَلكِنْ أَيْنَ الْخَرُوفُ لِلْمُحْرَقَةِ؟'» (تكوين ٢٢: ٧)

هل كان إسحاق يُفكِّر في تلك اللحظات في طُقوس التضحية بالأبناء التي كانت تُمارس في بعض الديانات المُجاورة؟ في الحقيقة أنَّنا لا نعرف ما الذي كان يدور في ذهنه بالتحديد؛ لكنَّ الشيء المؤكَّد هو أنَّ إيمانه بالله كان قويَّاً هو الآخر. وحينما أجابه أبوه إنَّ الله سيُدبِّر الخروف للمُحرقة، تابع إسحاق طريقه مع أبيه بكل خضوع حيث يقول الكتاب المقدَّس إنهما تابعا طريقهما معاً.

أرشد الله إبراهيم إلى المكان المُحدَّد الذي يُريده أن يبني فيه المذبح على جبل المُرِيَّا. وبعد

سنواتٍ طويلة، تمَّ بناء الهيكل اليهودي ثُمَّ قُبَّة الصخرة في الموقع نفسه.

إبراهيم يوثق إسحاق

«فَلَمَّا أَتَيَا إِلَى الْمَوْضِعِ الَّذِي قَالَ لَهُ اللهُ، بَنَى هُنَاكَ إِبْرَاهِيمُ الْمَذْبَحَ وَرَتَّبَ الْحَطَبَ وَرَبَطَ إِسْحَاقَ ابْنَهُ وَوَضَعَهُ عَلَى الْمَذْبَحِ فَوْقَ الْحَطَبِ» (تكوين ٢٢: ٩)

لم يكُن إسحاق طفلاً صغيراً. فالكلمة العبريَّة التي تُترجَم «ولد» أو «غُلام» كانت تُستخدم للإشارة إلى الأبناء الذكور منذ حداثتهم إلى أن يصلوا السن التي تؤهلهم للخدمة العسكريَّة. ومن المؤكَّد أنَّ إسحاق كان في سنٍّ تؤهله للمقاومة والدفاع عن نفسه. ورغم أنَّ إبراهيم كان شيخاً طاعناً في السِنِّ، إلاَّ أنَّ الكتاب المقدَّس لا يُشير إلى أيِّ عِراك بينه وبين ابنه إسحاق في ذلك المكان. وهكذا، من الواضح تماماً أنَّ إسحاق خضع لأبيه ممَّا يدل على ثقته به لأنه كان يعرف أنَّ أباه يؤمن بالله ويُطيع كلمته.

أصبح إسحاق بلا حول ولا قُوَّة بعد أن ربطه أبوه ووضعه على المذبح. فقد تلقَّى أبوه أمراً واضحاً ومُباشراً من الله بأن يذبحه. ولم تكُن لدى إسحاق أية وسيلة يستطيع من خلالها أن يُخلِّص نفسه. ويقول الكتاب المقدَّس إنَّ إبراهيم مَدَّ يده وتناول السكِّين. ارتجفت ذراع ذلك الرجل العجوز، وارتخى فكَّاه، وكاد قلبه أن يتمزَّق من شدَّة الحُزن والألم. فها هو

مُزمعٌ على ذبح ابنه الحبيب! وما من شكٍّ أنَّ إبراهيم واجه ضغطاً هائلاً في تلك اللحظات. رغم ذلك، ارتفعت اليد المُرتجفة ببُطء فلمع نَصْل السكِّين المعدني تحت أشعة الشمس. وهكذا، فقد عقد إبراهيم العزم على ذبح ابنه بالفعل امتثالاً لأمر الله؛ وعندها تدخَّل الله من سمائه مُنادياً إبراهيم:

«لاَ تَمُدَّ يَدَكَ إِلَى الْغُلاَمِ وَلاَ تَفْعَلْ بِهِ شَيْئًا، لأَنِّي الآنَ عَلِمْتُ أَنَّكَ خَائِفٌ اللهَ، فَلَمْ تُمْسِكِ ابْنَكَ وَحِيدَكَ عَنِّي» (تكوين ٢٢: ١٢)

من المؤكَّد أنَّ إبراهيم وإسحاق بكيا في تلك اللحظة من شدَّة الفرح والراحة. فقد تدخَّل الله أخيراً ونقض حُكم الموت! ورغم أنَّ حُكم الموت كان ما زال قائماً، إلاَّ أنه زال عن إسحاق على أقل تقدير!

البديل

يقول الكتاب المقدَّس إنَّ الله دَبَّر حيواناً ليكون بديلاً عن إسحاق:

«فَرَفَعَ إِبْرَاهِيمُ عَيْنَيْهِ وَنَظَرَ وَإِذَا كَبْشٌ وَرَاءَهُ مُمْسَكًا فِي الْغَابَةِ بِقَرْنَيْهِ ...» (تكوين ٢٢: ١٣أ)

كان الكبش عالقاً من قرنيه بفروع أشجار الغابة ممَّا منعه من الفرار:

«... فَذَهَبَ إِبْرَاهِيمُ وَأَخَذَ الْكَبْشَ وَأَصْعَدَهُ مُحْرَقَةً عِوَضًا عَنِ ابْنِهِ»

(تكوين ٢٢: ١٣ب)

وهكذا، كان الموت لازماً ضرورياً وقائماً؛ لكنَّ الذي مات هو الكبش عوضاً عن إسحاق. وبهذا، نجا إسحاق من الموت لأنَّ كبشاً بريئاً مات بدلاً عنه؛ فقد وفَّر الله البديل. وعندها، أدرك إبراهيم أنَّ الله:

«... مُخَلِّصُهُ فِي زَمَانِ الضِّيقِ ...» (إرميا ١٤: ٨)

«فَدَعَا إِبْرَاهِيمُ اسْمَ ذلِكَ الْمَوْضِعِ يَهْوَهْ يِرْأَهْ الربُّ يُدَبِّر. حَتَّى إِنَّهُ يُقَالُ الْيَوْمَ: فِي جَبَلِ الرَّبِّ يُرَى» (تكوين ٢٢: ١٤)

لاحظ كيف أنَّ إبراهيم سَمَّى ذلك الجبل «يَهْوَه يَرْأَه» (أي: «الربُّ يُدَبِّر»). فقد رأينا كيف قام الله بتدبير ذبيحة بديلة عن إسحاق. لكن لماذا لم يُطلق إبراهيم على ذلك الجبل اسم «يَهْوَه رَأى» أو «الربُّ دَبَّرَ» (بصيغة الماضي)؟ سوف نُجيب عن هذا السؤال في فصلٍ لاحق.

درسٌ للجميع

تنتهي القصَّة بقيام الله بتأكيد وعده لإبراهيم بأنه سيُكَثِّر نسله من خلال إسحاق ليُصبح أُمَّةً عظيمةً – أُمَّة إسرائيل. وقد تضمَّن هذا الوعد أنَّ المُخلِّص الموعود سيأتي من نسل إبراهيم وإسحاق. كما أنَّ الله قال لإبراهيم إنَّ الآتي سيكون بَرَكةً لجميع الأمم.

«بِذَاتِي أَقْسَمْتُ يَقُولُ الرَّبُّ، أَنِّي مِنْ أَجْلِ أَنَّكَ فَعَلْتَ هذَا الأَمْرَ، وَلَمْ تُمْسِكِ ابْنَكَ وَحِيدَكَ، ... يَتَبَارَكُ فِي نَسْلِكَ جَمِيعُ أُمَمِ الأَرْضِ، مِنْ أَجْلِ أَنَّكَ سَمِعْتَ لِقَوْلِي» (تكوين ٢٢: ١٦، ١٨)

كان أمر الله لإبراهيم بأن يُضحِّي بابنه أمراً فريداً مقصوراً على إبراهيم فقط. فلم يكُن الله عازماً على أن يأمر أيَّ شخص آخر بالقيام بنفس ذلك الشيء ثانيةً. وقد أراد الله أن يوصل بعض الحقائق لإبراهيم (ولنا أيضاً) عن الدينونة، والإيمان، والخلاص من خلال بديل.

وكما أنَّ إسحاق كان محكوماً عليه بالموت بأمرٍ مُباشر من الله، فإنَّ البشريَّة كلها محكومٌ عليها بالموت أيضاً.[٦] لقد كان إسحاق مربوطاً فوق المذبح وعاجزاً عن تخليص نفسه؛ لكنَّ أباه إبراهيم كان يثق بالرب ويؤمن أنَّ إلهه المُحب سيحل تلك المُعضلة بطريقة ما. وهذا هو ما فعله الله تماماً. فقد دَبَّر طريقةً لإنقاذ إسحاق من الموت عن طريق توفير بديل. وكانت تلك الطريقة تقوم على موت نفس عوضاً عن نفس أخرى؛ أي موت نفس بريئة بدلاً من النفس المُخطئة.

وكما قام هابيل بتقديم خروف ليموت عوضاً عنه، فقد مات الكبش أيضاً عوضاً عن إسحاق. وكما أنَّ الله قَبِلَ ذبيحة هابيل، فقد قَبِل أيضاً أن يكون ذلك الكبش بديلاً عن إسحاق. كانت تلك الفكرة هي فكرة الله. وكانت هذه الفكرة تعني أنه ينبغي على الإنسان أن يأتي إلى الله بالطريقة التي حَدَّدها الله نفسه، وأن يؤمن بأنَّ كلمة الله صادقة.

الفصل السَّابع

١ – يعقوب ويهوذا.
٢ – النبيُّ موسى.
٣ – فرعون والفصح.

١. يعقوب ويهوذا

«وَأَسْلَمَ إِبْرَاهِيمُ رُوحَهُ وَمَاتَ بِشَيْبَةٍ صَالِحَةٍ، شَيْخًا وَشَبْعَانَ أَيَّامًا، وَانْضَمَّ إِلَى قَوْمِهِ. وَدَفَنَهُ إِسْحَاقُ وَإِسْمَاعِيلُ ابْنَاهُ فِي مَغَارَةِ الْمَكْفِيلَةِ ... هُنَاكَ دُفِنَ إِبْرَاهِيمُ وَسَارَةُ امْرَأَتُهُ»

(تكوين ٢٥: ٨-١٠)

ما الذي حدث بعد رحيل إبراهيم؟ كما قال الله، فقد تشعَّب نسل إسماعيل وأصبح أُمماً عظيمةً. كما أنَّ الله جَدَّد وَعده أو عَهده مع إسحاق وقال له بأنه سيجعله أباً للأُمَّة التي سيأتي منها المُخلِّص. وعاش كلٌّ من إسماعيل وإسحاق حياةً طويلةً ثم ماتا.

يعقوب

كان لإسحق ابنان: عيسو ويعقوب. كان عيسو مثل قايين؛ فقد عاش حياته بطريقته الخاصَّة، وكان يفعل ما يراه مُناسباً في عينيه. أمَّا يعقوب فكان يؤمن بالله فاعتبره الله باراً. وكثيراً ما كان يعقوب يُقدِّم لله ذبائح حيوانيَّة على المذبح.

«فَأَتَى يَعْقُوبُ إِلَى لُوزَ ... وَبَنَى هُنَاكَ مَذْبَحًا، ... لأَنَّهُ هُنَاكَ ظَهَرَ لَهُ اللهُ ...»

(تكوين ٣٥: ٦، ٧)

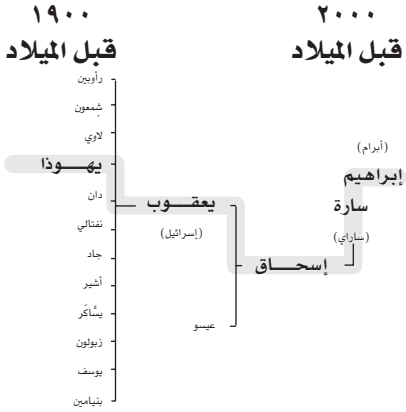

كذلك، كان يعقوب يؤمن بالمبادئ المُعلنة في كلمة الله:

«... وَبِدُونِ سَفْكِ دَمٍ لاَ تَحْصُلُ مَغْفِرَةٌ» (عبرانيِّين ٩: ٢٢)

«لأَنَّ نَفْسَ الْجَسَدِ هِيَ فِي الدَّمِ، فَأَنَا أَعْطَيْتُكُمْ إِيَّاهُ عَلَى الْمَذْبَحِ لِلتَّكْفِيرِ عَنْ نُفُوسِكُمْ، لأَنَّ الدَّمَ يُكَفِّرُ عَنِ النَّفْسِ» (لاويِّين ١٧: ١١)

ورغم إخفاقات يعقوب الكثيرة أثناء حياته، إلاَّ أنَّ الله كان مركز ثقته. وقد تغيَّر اسمه لاحقاً إلى «إسرائيل» الذي معناه «الله يَغلب». وقد جَدَّد الله وعده مع يعقوب أيضاً؛ وهو نفس الوعد الذي قطعه لإبراهيم وإسحاق من قَبل. وهكذا، فقد قال الله ليعقوب:

«أَنَا الرَّبُّ إِلهُ إِبْرَاهِيمَ أَبِيكَ وَإِلهُ إِسْحَاقَ. ... وَيَكُونُ نَسْلُكَ كَتُرَابِ الأَرْضِ، وَتَمْتَدُّ غَرْبًا وَشَرْقًا وَشَمَالاً وَجَنُوبًا، وَيَتَبَارَكُ فِيكَ وَفِي نَسْلِكَ جَمِيعُ قَبَائِلِ الأَرْضِ» (تكوين ٢٨: ١٣، ١٤)

كانَ اللهُ يقولُ ليعقوب إنَّ واحداً من نَسله سيكون بَرَكةً لجميع الأمم – وهذه إشارة إلى المُخلِّص الموعود.

كان ليعقوب (أو إسرائيل) اثني عشر ابناً أصبحوا فيما بعد رؤساء الأسباط (القبائل) الاثني عشر الذين تألَّفت منهم أُمَّة إسرائيل![1] وقبل أن يموت يعقوب، تنبَّأ أنَّ المُخلِّص سيأتي من نسل ابنه يهوذا.

عاش إبراهيم وإسحق ويعقوب حياةً شبه بدويَّة في أرض كنعان. وفي أواخر سنوات يعقوب، ضربت مجاعة شديدة البلاد ممَّا دفعه هو وأبناؤه إلى الارتحال إلى مصر. وفي ذلك الوقت، كان عدد الأشخاص الذين نزلوا إلى مصر سبعين شخصاً فقط، وقد استقبلتهم مصر استقبالاً جيداً وعاملتهم مُعاملة حسنة. وكما نعرف جميعنا فقد كان أحد أبناء يعقوب الاثني عشر – ألا وهو يوسف – قد أُخِذَ عبداً إلى مصر قبل سنوات طويلة من تلك المجاعة. لكن بسبب عناية الله بيوسف، وبسبب استخدامه لمواهبه بطريقة حكيمة، أصبح يوسف مسئولاً رفيع المستوى عند فرعون. وهذا هو السبب الذي جعل فرعون يُعامل عائلة يوسف معاملة حسنة حيث أعطاهم أرضاً في دلتا النيل الخصبة في منطقة تُسمَّى «جاسان» فبقوا فيها بانتظار انتهاء المجاعة.

وبعد ٣٥٠ سنة، كان نسل يعقوب ما زال هناك في مصر؛ لكنَّ عددهم آنذاك كان قد بلغ مليونين ونصف المليون نسمة تقريباً. وهكذا، فقد أصبح نسل إبراهيم وإسحق ويعقوب أُمَّة كبيرة بالفعل؛ لكنهم لم يكونوا في الأرض التي أرادهم الله أن يكونوا فيها. فقد وعدهم الله بأرض كنعان وليس بأرض جاسان في مصر. لكنَّ الله لم يَنس وعده حيث أنه قال ليعقوب قبل أن ينزل هو وعائلته إلى أرض مصر:

«وَهَا أَنَا مَعَكَ، وَأَحْفَظُكَ حَيْثُمَا تَذْهَبُ، وَأَرُدُّكَ إِلَى هذِهِ الأَرْضِ، لأَنِّي لاَ أَتْرُكُكَ حَتَّى أَفْعَلَ مَا كَلَّمْتُكَ بِهِ» (تكوين ٢٨: ١٥)

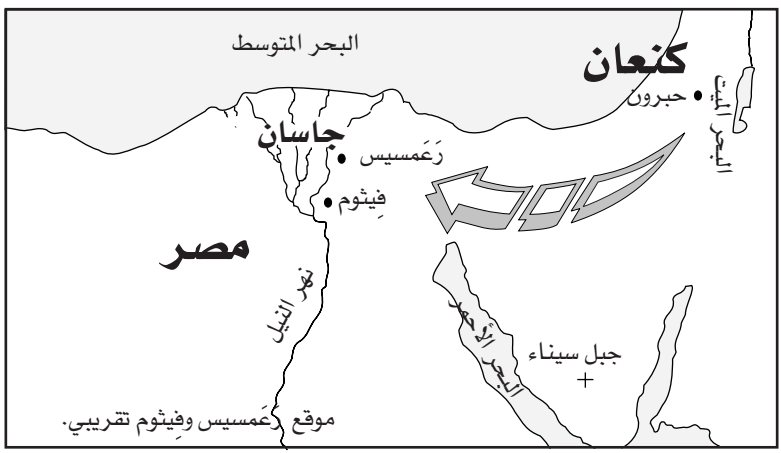

٢ . النبيّ موسى

لم يكُن بإمكان فرعون مصر أن يتجاهل وجود مليونين ونصف عبراني في أرض مصر. لهذا فقد خرج بالفكرة التالية:

فَقَالَ فرعون لِشَعْبِهِ: «هُوَذَا بَنُو إِسْرَائِيلَ شَعْبٌ أَكْثَرُ وَأَعْظَمُ مِنَّا. هَلُمَّ نَحْتَالُ لَهُمْ لِئَلاَّ يَنْمُوا، فَيَكُونَ إِذَا حَدَثَتْ حَرْبٌ أَنَّهُمْ يَنْضَمُّونَ إِلَى أَعْدَائِنَا وَيُحَارِبُونَنَا وَيَصْعَدُونَ مِنَ الأَرْضِ».

فَجَعَلُوا عَلَيْهِمْ رُؤَسَاءَ تَسْخِيرٍ لِكَيْ يُذِلُّوهُمْ بِأَثْقَالِهِمْ، فَبَنَوْا لِفِرْعَوْنَ مَدِينَتَيْ مَخَازِنَ: فِيثُومَ، وَرَعَمْسِيسَ.
وَلكِنْ بِحَسْبِمَا أَذَلُّوهُمْ هكَذَا نَمَوْا وَامْتَدُّوا. فَاخْتَشَوْا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ. فَاسْتَعْبَدَ الْمِصْرِيُّونَ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِعُنْفٍ، وَمَرَّرُوا حَيَاتَهُمْ بِعُبُودِيَّةٍ قَاسِيَةٍ فِي الطِّينِ وَاللَّبِنِ وَفِي كُلِّ عَمَلٍ فِي الْحَقْلِ ...
(خروج ١: ٩-١٤)

لكنَّ الله لم يَنْسَ وعوده حيث يقول الكتاب المقدَّس:

فَسَمِعَ اللهُ أَنِينَهُمْ، فَتَذَكَّرَ اللهُ مِيثَاقَهُ مَعَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ. وَنَظَرَ اللهُ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَعَلِمَ اللهُ وَرَقَّ لِحَالِهِمْ (خروج ٢: ٢٣، ٢٥)

كان لدى الله خطَّة لتخليص بَني إسرائيل من عبوديتهم، وكان الشخص الذي اختاره الله لهذه المهمَّة هو رجل عبراني يُدعى «موسى». وُلِد موسى في مصر من أبوين ينحدران من نسل إبراهيم وإسحق ويعقوب (أو إسرائيل) ورغم أنَّ ملك مصر أمر بطرح كل ابنٍ عبرانيٍّ يولد في النهر، إلاَّ أنَّ عناية الله شاءت أن ينجو موسى من الموت وأن يتربَّى في بيت فرعون ويتلقَّى أحسن تعليم موجود في ذلك الزمان في أرض مصر. وحدث بعد أن كَبُر موسى أنه لمح رجُلاً مصرياً يضرب رجُلاً عبرانياً، فما كان منه إلاَّ أن قتله وهرب إلى الصحراء لينجو بحياته. وهناك، أصبح موسى راعي غنم وبقي كذلك مُدَّة أربعين سنة. وكان رعي الخراف تدريباً خاصاً أعَدَّه الله لموسى.

وَأَمَّا مُوسَى ... فَسَاقَ الْغَنَمَ إِلَى وَرَاءِ الْبَرِّيَّةِ وَجَاءَ إِلَى جَبَلِ اللهِ حُورِيبَ. وَظَهَرَ لَهُ مَلاَكُ الرَّبِّ بِلَهِيبِ نَارٍ مِنْ وَسَطِ عُلَّيْقَةٍ. فَنَظَرَ وَإِذَا الْعُلَّيْقَةُ تَتَوَقَّدُ بِالنَّارِ، وَالْعُلَّيْقَةُ لَمْ تَكُنْ تَحْتَرِقُ. فَقَالَ مُوسَى: «أَمِيلُ الآنَ لأَنْظُرَ هذَا الْمَنْظَرَ الْعَظِيمَ. لِمَاذَا لاَ تَحْتَرِقُ الْعُلَّيْقَةُ؟».
فَلَمَّا رَأَى الرَّبُّ أَنَّهُ مَالَ لِيَنْظُرَ، نَادَاهُ اللهُ مِنْ وَسَطِ الْعُلَّيْقَةِ وَقَالَ: «مُوسَى، مُوسَى!». فَقَالَ: «هأَنَذَا». فَقَالَ: «لاَ تَقْتَرِبْ إِلَى ههُنَا. اخْلَعْ حِذَاءَكَ مِنْ رِجْلَيْكَ، لأَنَّ الْمَوْضِعَ الَّذِي أَنْتَ وَاقِفٌ عَلَيْهِ أَرْضٌ مُقَدَّسَةٌ». ثُمَّ قَالَ: «أَنَا إِلهُ أَبِيكَ، إِلهُ إِبْرَاهِيمَ وَإِلهُ إِسْحَاقَ وَإِلهُ يَعْقُوبَ ... « (خروج ٣: ١-٦)

من المؤكَّد أنَّ دم موسى قد تجمَّد في عروقه في تلك اللحظة. فقد كان يعرف عن الإله العليِّ، ويعرف أنَّ الله هو خالق ومالك كل شيء، وأنَّه إله قُدُّوس ومُنفصل عن البشر بسبب خطاياهم. وقد كان موسى نفسه خاطئاً – فقد كان قاتل نَفْس.

فَغَطَّى مُوسَى وَجْهَهُ لأَنَّهُ خَافَ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى اللهِ. فَقَالَ الرَّبُّ: «إِنِّي قَدْ رَأَيْتُ مَذَلَّةَ شَعْبِيَ الَّذِي فِي مِصْرَ وَسَمِعْتُ صُرَاخَهُمْ مِنْ أَجْلِ مُسَخِّرِيهِمْ. إِنِّي عَلِمْتُ أَوْجَاعَهُمْ. ... فَالآنَ هَلُمَّ فَأُرْسِلَكَ إِلَى فِرْعَوْنَ، وَتُخْرِجُ شَعْبِي بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ مِصْرَ» (خروج ٣: ٦، ٧، ١٠)

لا بُدَّ أنَّ موسى تَنهَّد تنهيدة راحة حينذاك. فالله لم يأت لكي يُعاقبه على خطيئته، بل لكي يُوكله بمهمَّة. لكن كانت هناك مُشكلة. فقد كان موسى راعي غنم؛ أمَّا المهمَّة فكانت تبدو صعبة للغاية! فمَنْ يَكونُ هُوَ في نهاية المطاف؟ ومَنْ سيضع ثقته في رجُل يقول بأنه تحدَّث مع عُلَّيقة (شجرة صغيرة) مُشتعلة؟ لهذا، قال موسى لله:

«هَا أَنَا آتِي إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَقُولُ لَهُمْ: إِلهُ آبَائِكُمْ أَرْسَلَنِي إِلَيْكُمْ. فَإِذَا قَالُوا لِي: مَا اسْمُهُ؟ فَمَاذَا أَقُولُ لَهُمْ؟»
فَقَالَ اللهُ لِمُوسَى: «أَهْيَهِ الَّذِي أَهْيَهْ». وَقَالَ: «هكَذَا تَقُولُ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ: أَهْيَهْ أَرْسَلَنِي إِلَيْكُمْ»
(خروج ٣: ١٣، ١٤)

إنَّ عبارة «أهْيَه الذي أهْيَه» تعني «أنا الكائن الدائم»؛ أي أنَّ الله موجود بقدرته الذاتيَّة.

«... هَذا هُوَ اسْمي إلى الأبَد، وَهُوَ الاسْمُ الذي أُدْعى بِهِ مِنْ جيل إلى جيل. اذْهَبْ وَاجْمَعْ شُيوخَ إسرائيلَ وَقُلْ لَهُمْ: إنَّ الرَّبَّ إلَهَ آبائكُمْ، إلَهَ إبراهيمَ وَإسْحاقَ وَيَعْقوبَ قَدْ تَجَلَّى لي قائلاً: إنَّني حَقّاً قَدْ تَفَقَّدْتُكُمْ، وَشَهِدْتُ مَا أصابَكُمْ في مِصْرَ، وَها أنا قَدْ وَعَدْتُ أنْ أُخْرِجَكُمْ مِنْ ضيقَة مِصْرَ ... إلى أرْضِ الكَنْعانيِّينَ ... هَذِهِ الأرْضِ التي تَفيضُ لَبَناً وَعَسَلاً، فَيَسْمَعُ الشُّيوخُ لِكَلامِكَ ...»

(خروج ٣: ١٥-١٧ – التفسيرية)

ورُغم أنَّ موسى كان يخشى من العواقب، إلاَّ أنه كان يعلم أيضاً أنَّ الله يُحافظ على وعوده دوماً. وهكذا، فقد حَزَم موسى أمتعته وعاد مُتوجهاً إلى مصر، وإلى فرعون، وإلى عبيد بني إسرائيل. وفيما كان موسى في طريقه إلى مصر التقى بأخيه هارون الذي أرسله الله ليكون الناطق بلسانه.

ثُمَّ مَضَى مُوسَى وَهَارُونُ وَجَمَعَا جَمِيعَ شُيُوخِ بَنِي إِسْرَائِيلَ. فَتَكَلَّمَ هَارُونُ بِجَمِيعِ الْكَلاَمِ الَّذِي كَلَّمَ الرَّبُّ مُوسَى بِهِ، وَصَنَعَ الآيَاتِ أَمَامَ عُيُونِ الشَّعْبِ. فَآمَنَ الشَّعْبُ. وَلَمَّا سَمِعُوا أَنَّ الرَّبَّ افْتَقَدَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَنَّهُ نَظَرَ مَذَلَّتَهُمْ، خَرُّوا وَسَجَدُوا (خروج ٤: ٢٩-٣١)

وهكذا، فقد تَمَّ الأمر بحسب قول الله تماماً. فقد آمن الشعب وسجدوا للرب. وكان الله يحفظ وعده.

٣ . فرعون والفصح

كان إقناع موسى وهارون لشيوخ بني إسرائيل بأنَّ الله قد تكلَّم معهما أمراً سهلاً بالمقارنة مع إقناع فرعون بالفكرة نفسها.

وَبَعْدَ ذلِكَ دَخَلَ مُوسَى وَهَارُونُ وَقَالاَ لِفِرْعَوْنَ: «هكَذَا يَقُولُ الرَّبُّ إِلهُ إِسْرَائِيلَ: أَطْلِقْ شَعْبِي لِيُعَيِّدُوا لِي فِي الْبَرِّيَّةِ». فَقَالَ فِرْعَوْنُ: «مَنْ هُوَ الرَّبُّ حَتَّى أَسْمَعَ لِقَوْلِهِ فَأُطْلِقَ إِسْرَائِيلَ؟ لاَ أَعْرِفُ الرَّبَّ، وَإِسْرَائِيلَ لاَ أُطْلِقُهُ» (خروج ٥: ١، ٢)

كان فرعون مُحقّاً في نقطة واحدة فقط ألا وهي أنه لا يعرف الرب. فقد كانت مصر تعبد العديد من الآلهة مثل إله الشمس، وإله العواصف، وإله النيل. بل حتَّى أنَّ فرعون نفسه كان يُعتَبَر إلهاً! وكان لكل إله من هذه الآلهة رمز خاص به مثل النسر، والضفدع، والعقرب، وغيرها. وبالتالي، فقد كان المصريون القدماء يعبدون الخليقة بدلاً من الخالق. ولم يكن فرعون يجهل الإله الحقيقي الواحد فحسب، بل كان يرفض فكرة التعرُّف إليه أيضاً. ففي نظره، كانت عبادة الله والخضوع لمشيئته تعني بالنسبة له خسارة كبيرة في القوَّة والمكانة. كما أنَّ إطلاق سراح العبرانيين كان يعني خسارةً اقتصاديَّةً كبيرةً لأنَّ ذلك سيتسبَّب في فقدان جزء كبير من الأيدي العاملة. لذلك، فقد كان فرعون يُعارض فكرة إطلاق سراح العبرانيين مُعارضة شديدة.

فَقَالَ الرَّبُّ لِمُوسَى: «الآنَ تَنْظُرُ مَا أَنَا أَفْعَلُ بِفِرْعَوْنَ. فَإِنَّهُ بِيَدٍ قَوِيَّةٍ يُطْلِقُهُمْ، وَبِيَدٍ قَوِيَّةٍ يَطْرُدُهُمْ

مِنْ أَرْضِه». لِذلِكَ قُلْ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ: أَنَا الرَّبُّ. وَأَنَا أُخْرِجُكُمْ مِنْ تَحْتِ أَثْقَالِ الْمِصْرِيِّينَ وَأُنْقِذُكُمْ مِنْ عُبُودِيَّتِهِمْ وَأُخَلِّصُكُمْ بِذِرَاعٍ مَمْدُودَةٍ وَبِأَحْكَامٍ عَظِيمَةٍ (خروج ٦: ١، ٦)

قال الله لنبيِّه موسى إنه سيجلب الدينونة على مصر على شكل ضربات (أو مصائب) لأنَّ فرعون لن يُطلق الشعب العبراني إلاَّ بهذه الطريقة. شعر موسى وهارون بالقلق حينما علموا بأمر هذه الضربات. فإن كان الله سيجلب المصائب على مصر، فما الذي سيفعله فرعون انتقاماً؟ لكنَّ الله شَجَّع العبرانيين وأعاد تذكيرهم بوعوده لآبائهم الأوائل:

وَأَتَّخِذُكُمْ لِي شَعْبًا، وَأَكُونُ لَكُمْ إِلهًا. فَتَعْلَمُونَ أَنِّي أَنَا الرَّبُّ إِلهُكُمُ الَّذِي يُخْرِجُكُمْ مِنْ تَحْتِ أَثْقَالِ الْمِصْرِيِّينَ. وَأُدْخِلُكُمْ إِلَى الأَرْضِ الَّتِي رَفَعْتُ يَدِي أَنْ أُعْطِيَهَا لإِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ. وَأُعْطِيكُمْ إِيَّاهَا مِيرَاثًا. أَنَا الرَّبُّ (خروج ٦: ٧، ٨)

شعب الله

قال الله إنَّ بني إسرائيل سيُصبحون شعباً له. ولم يكُن هذا يعني أنَّ شعب إسرائيل هو الوحيد الذين يمكنه أن يَتبع الله الحقيقي الواحد؛ بل كان القصد من ذلك أنَّ الله يُريد أن يُعَرِّفَ جميع أمم الأرض على ذاته من خلال شعب إسرائيل الذي اختاره الله ليكون نموذجاً حيًّا على تعامُلات الله مع البشر جميعاً. وسوف نرى لاحقاً كيف قام شعب الله بهذا الدور المُحدَّد.

قال الله إنه سيُنزل الضربات على مصر من أجل تحرير العبرانيين. وأثناء ذلك، سوف يُعلِّم الأمَّتين دَرساً هامًّاً عن ذاته:

الدرس الذي سيتعلَّمه بنو إسرائيل:

«فَتَعْلَمُونَ أَنِّي أَنَا الرَّبُّ إِلهُكُمُ الَّذِي يُخْرِجُكُمْ مِنْ تَحْتِ أَثْقَالِ الْمِصْرِيِّينَ» (خروج ٦: ٧)

الدرس الذي سيتعلَّمه المصريون:

«فَيَعْرِفُ الْمِصْرِيُّونَ أَنِّي أَنَا الرَّبُّ حِينَمَا أَمُدُّ يَدِي عَلَى مِصْرَ وَأُخْرِجُ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَيْنِهِمْ» (خروج ٧: ٥)

وهكذا، فقد كان الله عازماً على تعليم الأمَّتين الدرس نفسه: أنَّه هو الإله الحيّ الحقيقي الواحد. رغم ذلك، لم يكن فرعون مُستعداً للإصغاء لما يقوله له موسى وهارون. لذلك، قال الله لموسى:

«اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ فِي الصَّبَاحِ. إِنَّهُ يَخْرُجُ إِلَى الْمَاءِ، وَقِفْ لِلِقَائِهِ عَلَى حَافَةِ النَّهْرِ ... وَتَقُولُ لَهُ: الرَّبُّ إِلهُ الْعِبْرَانِيِّينَ أَرْسَلَنِي إِلَيْكَ قَائِلاً: أَطْلِقْ شَعْبِي ... وَهُوَذَا حَتَّى الآنَ لَمْ تَسْمَعْ. هكَذَا يَقُولُ الرَّبُّ: بِهذَا تَعْرِفُ أَنِّي أَنَا الرَّبُّ: هَا أَنَا أَضْرِبُ بِالْعَصَا الَّتِي فِي يَدِي عَلَى الْمَاءِ الَّذِي فِي النَّهْرِ فَيَتَحَوَّلُ دَمًا. وَيَمُوتُ السَّمَكُ الَّذِي فِي النَّهْرِ وَيَنْتِنُ النَّهْرُ. فَيَعَافُ الْمِصْرِيُّونَ أَنْ يَشْرَبُوا مَاءً مِنَ النَّهْرِ» (خروج ٧: ١٥-١٨)

كان هذا هو ما حدث تماماً. فقد وَجَّه الله ضربةً قويةً إلى صميم الديانة المصرية القديمة بأن جعل أحد آلهتها – ألا وهو نهر النيل – يتحوَّل إلى دَم. وبهذا، أصبح النهر كريهاً. رغم ذلك،

... فَاشْتَدَّ قَلْبُ فِرْعَوْنَ فَلَمْ يَسْمَعْ لَهُمَا ... وَلَمْ يُوَجِّهْ قَلْبَهُ إِلَى هذَا أَيْضًا (خروج ٧: ٢٢، ٢٣)

الله الحقيقي والآلهة الزائفة

استمرَّ الله في تحذير فرعون بأن يُطلق بني إسرائيل. وفي كل مَرَّة كان فرعون يُقسِّي قلبه ويرفض أمر الله، كان الله يجلب ضربة جديدة على مصر. وكانت كل ضربة من هذه الضربات تستهدف أحد آلهة المصريين:

ففي الضربة الأولى، تحوَّل نهر النيل إلى دم.

وفي الضربة الثانية، أرسل الله ضفادع فملأت كل مكانٍ دون استثناء.

وفي الضربة الثالثة، أرسل الله بعوضاً شرساً على الناس والبهائم في كل أرض مصر.[٢]

وفي الضربة الرابعة، أرسل الله أسراباً من الذباب على بيوت المصريين.

وفي الضربة الخامسة، أهلك الله كل مواشي المصريين.

وفي الضربة السادسة، أصيب الناس والبهائم بدمامل مُتقيِّحة.

وفي الضربة السابعة، انْهَمر بَرَدٌ شديدٌ على أرض مصر فأتلف الحقول.

وفي الضربة الثامنة، غَطَّى الجراد كل الأرض وأكل الحقول التي لم تتلَف بسبب البَرَد.

وفي الضربة التاسعة، ضرب الله أحد الآلهة الزائفة الأخرى عند المصريين ألا وهو إله الشمس حيث غطَّى كل أرجاء مصر بظلامٍ كثيفٍ جداً لمدة ثلاثة أيام.

كان مجموع الضربات التي أرسلها الله على أرض مصر هو عشر ضربات؛ لكنَّ الضربة العاشرة والأخيرة – والتي كانت الأقوى والأعنف – لم تكُن قد جاءت بَعد. وهكذا، فقد تكلَّم الله مع موسى وهارون فقال:

> ثُمَّ قَالَ الرَّبُّ لِمُوسَى: «ضَرْبَةً وَاحِدَةً أَيْضًا أَجْلِبُ عَلَى فِرْعَوْنَ وَعَلَى مِصْرَ. بَعْدَ ذلِكَ يُطْلِقُكُمْ مِنْ هُنَا. وَعِنْدَمَا يُطْلِقُكُمْ يَطْرُدُكُمْ طَرْدًا مِنْ هُنَا بِالتَّمَامِ». وَقَالَ مُوسَى: «هكَذَا يَقُولُ الرَّبُّ: إِنِّي نَحْوَ نِصْفِ اللَّيْلِ أَخْرُجُ فِي وَسَطِ مِصْرَ، فَيَمُوتُ كُلُّ بِكْرٍ فِي أَرْضِ مِصْرَ، مِنْ بِكْرِ فِرْعَوْنَ الْجَالِسِ عَلَى كُرْسِيِّهِ إِلَى بِكْرِ الْجَارِيَةِ الَّتِي خَلْفَ الرَّحَى ...» (خروج ١١: ١، ٤، ٥)

في حقيقة الأمر أنَّ الضربة الأخيرة كانت هي الأسوأ للمصريِّين وبني إسرائيل على حَدٍّ سواء إن لم يتقيَّدوا بتعليمات الله. فقد كان الله القُدُّوس على وشك إنزال دينونته العادلة على الخطيَّة. لكن بما أنه إله مُحب أيضاً، فقد دَبرَّ باباً للنجاة أيضاً. ولم يكُن الأمر يتعلَّق بالمصريين أو بني إسرائيل. فحينما نتحدَّث عن عدالة الله أو عن محبته، فإنَّ الجميع يقفون مُتساوين في مَحضره. وبالتالي، كما أنَّ محبَّة الله كانت تشمل المصريين والعبرانيين على حَدٍّ سواء، فقد كانت دينونته تشمل أيضاً كل من لا يُطيعه. وهكذا، كانت أوامر الله تتضمَّن الآتي:

خُذوا حَمَلاً ...

> «... عَلَى كُلِّ وَاحِدٍ أَنْ يَأْخُذَ فِي الْعَاشِرِ مِنْ هَذَا الشَّهْرِ حَمَلاً لِعَائِلَتِهِ، وَفْقاً لِبُيُوتِ الآبَاءِ، حَمَلاً لِكُلِّ عَائِلَةٍ» (خروج ١٢: ٣ – التفسيرية)

ذَكَراً، خالياً من كُلِّ عَيب.

لم يسمح الله بإحضار حَمَل مريض أو مُشوَّه أو مُصاب بأي عِلَّة؛ بل أمرهم بأن يكون الحَمَل ذَكَراً وخالياً من كل عَيب.

«وَيَجِبُ أَنْ يَكونَ الحَمَلُ ذَكَراً ابْنَ سَنَةٍ، خَالِيَاً مِنْ كُلِّ عَيْبٍ، تَنْتَقونَهُ مِنَ الخِرْفانِ أوِ المَعيزِ»
(خروج ١٢: ٥ – التفسيرية)

اذبحوا الحملان في الوقت المُحدَّد.

«وَيَكونُ عِنْدَكُمْ تَحْتَ الحِفْظِ إِلَى الْيَوْمِ الرَّابِعَ عَشَرَ مِنْ هذَا الشَّهْرِ. ثُمَّ يَذْبَحُهُ كُلُّ جُمْهُورِ جَمَاعَةِ إِسْرَائِيلَ فِي الْعَشِيَّةِ» (خروج ١٢: ٦)

ضعوا الدم على عَتَبة الباب العُليا والقائمتين.

«وَيَأْخُذُونَ مِنَ الدَّمِ وَيَجْعَلُونَهُ عَلَى الْقَائِمَتَيْنِ وَالْعَتَبَةِ الْعُلْيَا فِي الْبُيُوتِ الَّتِي يَأْكُلُونَهُ فِيهَا»
(خروج ١٢: ٧)

ابقوا داخل بيوتكم حتَّى الصباح.

«وَأَنْتُمْ لا يَخْرُجْ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنْ بَابِ بَيْتِهِ حَتَّى الصَّبَاحِ» (خروج ١٢: ٢٢)

لا تكسروا عظام الحملان.

«فِي بَيْتٍ وَاحِدٍ يُؤْكَلُ. لاَ تُخْرِجْ مِنَ اللَّحْمِ مِنَ الْبَيْتِ إِلَى خَارِجٍ، وَعَظْمًا لاَ تَكْسِرُوا مِنْهُ»
(خروج ١٢: ٤٦)

سوف أجتاز.

«فَإِنِّي أَجْتَازُ فِي أَرْضِ مِصْرَ هذِهِ اللَّيْلَةَ، وَأَضْرِبُ كُلَّ بِكْرٍ فِي أَرْضِ مِصْرَ مِنَ النَّاسِ وَالْبَهَائِمِ. وَأَصْنَعُ أَحْكَامًا بِكُلِّ آلِهَةِ الْمِصْرِيِّينَ. أَنَا الرَّبُّ. وَيَكُونُ لَكُمُ الدَّمُ عَلاَمَةً عَلَى الْبُيُوتِ الَّتِي أَنْتُمْ فِيهَا، فَأَرَى الدَّمَ وَأَعْبُرُ عَنْكُمْ، فَلاَ يَكُونُ عَلَيْكُمْ ضَرْبَةٌ لِلْهَلاَكِ حِينَ أَضْرِبُ أَرْضَ مِصْرَ»
(خروج ١٢: ١٢، ١٣)

حينما جاء الله بالدينونة لكي يقتل الأبكار، كان يَعْبُر عن كل بيت وضع الدم على بابه – سواء كان بيتاً مصرياً أو عبرانياً. فقد كان الدم عبارة عن علامة خارجية على أنَّ الساكنين في هذا البيت يثقون بالله ويؤمنون بكلمته.

أفكار للتأمُّل

هل يمكنك أن تتخيَّل ماذا كان سيحدُث لو أنَّ شخصاً عبرانيًّاً فَكَّر في نفسه قائلاً: «ليس من المعقول أن أذبح أفضل خروفٍ لديَّ! أعتقد أنَّ ذلك الخروف العجوز الذي يوشك على الموت يَفي بالغَرض!»

أو ما الذي كان سيحدُث لو أنَّ شخصاً عبرانيًّاً دعا أصدقاءه وقال لهم: «هيَّا يا رفاق، إنها ليلة جميلة والسماء صافية. لنحتفل في الهواء الطلق!»

هل كان الله سيتغاضى عن ما فعله الرجل الأوَّل ويَعْبُر عن بيته بكل بساطة؟ وهل كان سيتغاضى عن ما فعله الرجل الثاني فيعفو عنه؟ بالتأكيد لا. فحتَّى لو أنَّ بعض الأشخاص خالفوا تعليمات الله بنيَّة حسنة إلاَّ أنَّ نواياهم الحسنة لا تُقلِّل من خطورة الموقف في أنهم عصوا أوامر الله الصريحة والمباشرة. فهُم يفعلون مشيئتهم هُم وليس مشيئة الله – تماماً مثلما فعل قايين والناس في زمن نوح. وبالتالي، فقد كان مصير كل الأشخاص الذين لم يتقيَّدوا بأوامر الله هو الموت مع المصريين لأنهم رفضوا تصديقه. وهكذا، فقد كانوا سيحصلون على ما يستحقونه تماماً.

من ناحية أخرى، ماذا كان سيحدُث لو أنَّ شخصاً مصرياً سمع بأنَّ الله سيُنزل ضربةً أخيرةً ففكَّر في نفسه قائلاً: «أنا أرى أنَّ آلهتنا زائفة، لكنَّ العبرانيين يعبدون الإله الواحد الحقيقي. أنا أريد أن أتبع هذا الإله؛ فما الذي يطلبه الله مِنِّي؟» ما الذي كان سيحدث لو أنَّ هذا الشخص وضع ثقته في الله وحده، وقام بتنفيذ كل أوامر الله المُتعلقة بالحَمَل والدم دون أن يلتفت إلى رأي جيرانه فيه؟ هل كان الله سيعبُر عن بيته في تلك الليلة؟ هل كان سينجو من العقاب؟ أجل، لأنه آمن بالله وجاء لله بحسب الطريقة التي اختارها الله نفسه. فالله يُكرم الذين يُكرمونه، ويُباركهم، ويرحمهم أيضاً.

> فَحَدَثَ فِي نِصْفِ اللَّيْلِ أَنَّ الرَّبَّ ضَرَبَ كُلَّ بِكْرٍ فِي أَرْضِ مِصْرَ، مِنْ بِكْرِ فِرْعَوْنَ الْجَالِسِ عَلَى كُرْسِيِّهِ إِلَى بِكْرِ الأَسِيرِ الَّذِي فِي السِّجْنِ، وَكُلَّ بِكْرِ بَهِيمَةٍ. فَقَامَ فِرْعَوْنُ لَيْلاً هُوَ وَكُلُّ عَبِيدِهِ وَجَمِيعُ الْمِصْرِيِّينَ. وَكَانَ صُرَاخٌ عَظِيمٌ فِي مِصْرَ، لأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ بَيْتٌ لَيْسَ فِيهِ مَيْتٌ. فَدَعَا مُوسَى وَهَارُونَ لَيْلاً وَقَالَ: «قُومُوا اخْرُجُوا مِنْ بَيْنِ شَعْبِي أَنْتُمَا وَبَنُو إِسْرَائِيلَ جَمِيعًا، وَاذْهَبُوا اعْبُدُوا الرَّبَّ كَمَا تَكَلَّمْتُمْ. خُذُوا غَنَمَكُمْ أَيْضًا وَبَقَرَكُمْ كَمَا تَكَلَّمْتُمْ وَاذْهَبُوا. وَبَارِكُونِي أَيْضًا». وَأَلَحَّ الْمِصْرِيُّونَ عَلَى الشَّعْبِ لِيُطْلِقُوهُمْ عَاجِلاً مِنَ الأَرْضِ، لأَنَّهُمْ قَالُوا: «جَمِيعُنَا أَمْوَاتٌ». ... وَكَانَ فِي ذلِكَ الْيَوْمِ عَيْنِهِ أَنَّ الرَّبَّ أَخْرَجَ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ ... (خروج ١٢: ٢٩-٣٣، ٥١)

الله يحفظ كلمته

كان الله رحيماً مع فرعون بأن أعطاه رسالةً واضحةً من خلال النبي موسى. كما أنه منحه الكثير من الفُرص لكي يُطلق سراح بني إسرائيل. لكن حينما استمر فرعون في العناد والرفض، قام الله بمعاقبة المصريين كما قال تماماً. فالله ليس مثلنا نحن البشر. فقد

نُهدِّد بأن نُؤدِّب أبناءنا ثم لا نُنفِّذ ما قُلناه لسببٍ أو لآخر؛ أمَّا الله فهو يحفظ كلمته دائماً.

من ناحية أخرى، اختبر بنو إسرائيل لُطف الله لأنهم آمنوا به. فحينما جاء الله بالدينونة على مصر كان يَعْبُر عن البيوت التي عليها دم. وقد كان سبب عيش هؤلاء الأبناء الأبكار هو ذَبح تلك الحملان عوضاً عنهم. فقد كانت هذه هي الطريقة التي اختارها الله منذ البداية للتكفير عن خطايا الإنسان. وكان هذا هو ما فعله هابيل حينما قَدَّم ذبيحةً عن نفسه فقبلها الله منه. وحينما أوشك إبراهيم على تقديم ابنه إسحاق ذبيحةً، كان الكبش هو البديل عن إسحاق. وفي حالة الشعب العبراني القديم، ماتت الحملان بدلاً عن أبنائهم الأبكار.

ويجب علينا أن نعرف أنَّ هذه الذبائح البديلة كانت بمثابة أقوال مرئيَّة تُعبِّر عن ثقة كل شخص في الله كمُخلِّص له. وحيث أنهم آمنوا بالله، فقد أطاعوه.

أصبحت هذه المناسبة عيداً وتقليداً لدى بني إسرائيل حيث صاروا يأكلون الفصح في كل سنة كتذكار عن تخليص الله لهم من العُبودية.

«وَيَكُونُ لَكُمْ هذَا الْيَوْمُ تَذْكَارًا فَتُعَيِّدُونَهُ عِيدًا لِلرَّبِّ. فِي أَجْيَالِكُمْ تُعَيِّدُونَهُ فَرِيضَةً أَبَدِيَّةً»
(خروج ١٢: ١٤)

ولغاية يومنا هذا، لا زال الكثير من أحفاد إبراهيم وإسماعيل يضعون دم الذبيحة على أبواب وجُدران بيوتهم كعلامةٍ على حماية الله لهم من الشر. وفي حقيقة الأمر أننا لا نعرف يقيناً ما إذا كانت هذه العادة قد جاءت من شخص نجا من دينونة الله عن طريق اتِّباع هذه التعليمات، أم أنها جاءت من مصدر آخر. لكنَّ الشيء الذي نعرفه يقيناً هو أنَّ الله أظهر رحمته لكل الذين آمنوا.

وهكذا، قام الله بتحرير بني إسرائيل من عبوديتهم وأخرجهم من أرض مصر بقيادة النبي موسى. وبهذا، فقد حفظ الله وعده حيث أنَّ كل شيءٍ حدث بحسب كلامه تماماً.

الفصل الثامن

١. المَنّ، والسَّلوى، والماء.
٢. الوصايا العَشر.
٣. المَحكمة.

١ . المَنّ، والسَّلوى، والماء

ما من شَكٍّ أنَّ بني إسرائيل كانوا في حالةٍ من الفوضى حينما انطلقوا في رحلتهم الطويلة. فقد حَثَّهم المصريون على الرحيل بسرعة فحزموا أمتعتهم بسُرعة، ولم يأخذوا معهم سوى الأشياء الضرورية، وانطلقوا في جماعات كبيرة يسوقون مواشيهم أمامهم. وإن أضفنا إلى ذلك أنَّ عددهم كان كبيراً جداً (نحو ٢،٥ مليون شخص)، فمن المؤكد أنَّ الفوضى كانت كبيرة! كان موسى هو القائد، لكن كيف يمكنه أن يصرُخ قائلاً لهذه الجُموع «من هُنا يا رفاق»؟ فقد كان من المُستحيل أن ترى النبي موسى من بين هذه الجُموع الغفيرة. لكنَّ الله القدير حَلَّ هذه المُشكلة بحكمته الإلهية:

وَكَانَ الرَّبُّ يَسِيرُ أَمَامَهُمْ نَهَارًا فِي عَمُودِ سَحَابٍ لِيَهْدِيَهُمْ فِي الطَّرِيقِ، وَلَيْلاً فِي عَمُودِ نَارٍ لِيُضِيءَ لَهُمْ. لِكَيْ يَمْشُوا نَهَارًا وَلَيْلاً (خروج ١٣: ٢١)

وهكذا، تمكَّن الجميع من تنظيم أنفسهم في الحال عن طريق إرشاد الله لهم. فكل ما كان عليهم أن يفعلوه أثناء سيرهم في النهار هو أن يتبعوا عمود السحاب الخاص ويثقوا بأنَّ الله سيُرشدهم. وحتَّى أنه كان بإمكانهم أن يرتحلوا في الليل بفضل عمود النار الذي كان يُنير لهم الطريق. وبهاتين الطريقتين، عمل الله على تنظيم هذا العدد الهائل من بني إسرائيل!

كانت قبائل الصحراء تقطُن المنطقة المحيطة بالطريق القصير الذي يصل مُباشرةً بين مصر وأرض كنعان. وكانت غالبية هذه القبائل قوية وقادرة على القتال والدفاع عن نفسها. ولا يُمكن لأحدٍ أن يلوم تلك القبائل إن قامت بالاستعداد للحرب إذا علمت أنَّ نحو ٢،٥ مليون شخص يتوجَّهون نحوهم. لكنَّ هذا لم يحدُث:

وَكَانَ لَمَّا أَطْلَقَ فِرْعَوْنُ الشَّعْبَ أَنَّ اللهَ لَمْ يَهْدِهِمْ فِي طَرِيقِ أَرْضِ الْفَلَسْطِينِيِّينَ مَعَ أَنَّهَا قَرِيبَةٌ، لأَنَّ اللهَ قَالَ: «لِئَلاَّ يَنْدَمَ الشَّعْبُ إِذَا رَأَوْا حَرْبًا وَيَرْجِعُوا إِلَى مِصْرَ». فَأَدَارَ اللهُ الشَّعْبَ فِي طَرِيقِ بَرِّيَّةِ بَحْرِ سُوفٍ البحر الأحمر. ... (خروج ١٣: ١٧، ١٨)

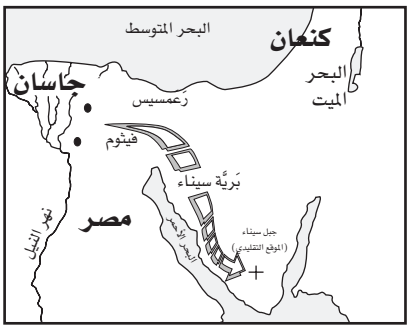

أرشد الله بني إسرائيل وقادهم عبر طريق صحراوي إلى أن وصلوا إلى البحر الأحمر. وهناك حدثت مُعجزة شق البحر الأحمر[1] حيث أنقذهم الرب من أيدي جيوش فرعون التي لحقت بهم ثانيةً. وفي الجانب الآخر من البحر الأحمر، وجد العبرانيون أنفسهم في أرضٍ قاحلة خالية من الأعداء والطعام والماء! لهذا، فقد راحوا يتذمَّرون بشدَّة.

فَتَذَمَّرَ كُلُّ جَمَاعَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ فِي الْبَرِّيَّةِ. وَقَالَ لَهُمَا بَنُو إِسْرَائِيلَ: «لَيْتَنَا مُتْنَا بِيَدِ الرَّبِّ فِي أَرْضِ مِصْرَ، إِذْ كُنَّا جَالِسِينَ عِنْدَ قُدُورِ اللَّحْمِ نَأْكُلُ خُبْزًا لِلشِّبَعِ. فَإِنَّكُمَا أَخْرَجْتُمَانَا إِلَى هذَا الْقَفْرِ لِكَيْ تُمِيتَا كُلَّ هذَا الْجُمْهُورِ بِالْجُوعِ» (خروج ١٦: ٢، ٣)

وهكذا، بدأ بنو إسرائيل يتذمَّرون ويُعبِّرون عن رغبتهم في العودة إلى العبودية في مصر.

وكان موقفهم هذا من تدبير الله مُحزناً حقاً لأنَّ الله كان يهتم بهم ولم يكُن ليتخلَّى عنهم أبداً. فكل ما كان ينبغي عليهم أن يفعلوه هو أن يطلبوا الطعام من الله. لكن عوضاً عن أن يفعلوا ذلك، راحوا يَشكون ويتذمَّرون!

المَنُّ والسَّلوى

فَكَلَّمَ الرَّبُّ مُوسَى قَائِلاً: «سَمِعْتُ تَذَمُّرَ بَنِي إِسْرَائِيلَ. كَلِّمْهُمْ قَائِلاً: فِي الْعَشِيَّةِ تَأْكُلُونَ لَحْمًا، وَفِي الصَّبَاحِ تَشْبَعُونَ خُبْزًا، وَتَعْلَمُونَ أَنِّي أَنَا الرَّبُّ إِلهُكُمْ».
فَكَانَ فِي الْمَسَاءِ أَنَّ السَّلْوَى صَعِدَتْ وَغَطَّتِ الْمَحَلَّةَ. وَفِي الصَّبَاحِ كَانَ سَقِيطُ النَّدَى حَوَالَيِ الْمَحَلَّةِ.
وَلَمَّا ارْتَفَعَ سَقِيطُ النَّدَى إِذَا عَلَى وَجْهِ الْبَرِّيَّةِ شَيْءٌ دَقِيقٌ مِثْلُ قُشُورٍ. دَقِيقٌ كَالْجَلِيدِ عَلَى الأَرْضِ.
فَلَمَّا رَأَى بَنُو إِسْرَائِيلَ قَالُوا بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: «مَنْ هُوَ؟» أي: «ما هذا؟»، لأَنَّهُمْ لَمْ يَعْرِفُوا مَا هُوَ.
فَقَالَ لَهُمْ مُوسَى: «هُوَ الْخُبْزُ الَّذِي أَعْطَاكُمُ الرَّبُّ لِتَأْكُلُوا» (خروج ١٦: ١١-١٥)

بهذه الطريقة، وَفَّر الله لبني إسرائيل الخُبز (المَنّ) واللحم (السَّلوى: وهو طائر السُّماني) حتَّى دون أن يتعبوا في الحصول عليهما. وفي كل يوم، كان الله يُزوِّدهم بالخُبز واللحم مع تذكيرهم بأنَّ الله هُو الذي يُدبِّر. ولا بُدَّ أنَّ بني إسرائيل شعروا ببعض الحرج لأنهم تذمَّروا ولم يثقوا بالله. وبهذا، كان الله يُلقِّن بني إسرائيل درساً آخر.

درس بسيط

كان للخُبز قَصد أعظم من كونه طعاماً حيث قال الله:

«هَا أَنَا أُمْطِرُ لَكُمْ خُبْزًا مِنَ السَّمَاءِ. فَيَخْرُجُ الشَّعْبُ وَيَلْتَقِطُونَ حَاجَةَ الْيَوْمِ بِيَوْمِهَا. لِكَيْ أَمْتَحِنَهُمْ، أَيَسْلُكُونَ فِي نَامُوسِي أَمْ لاَ» (خروج ١٦: ٤)

قال الله لموسى أن يُخبر الشعب أن لا يجمعوا من الخُبز إلاَّ بقدر ما يحتاجونه ليوم واحد فقط. وكان هذا أمر واضح وسهل التطبيق.

لكِنَّهُمْ لَمْ يَسْمَعُوا لِمُوسَى، بَلْ أَبْقَى مِنْهُ أُنَاسٌ إِلَى الصَّبَاحِ، فَتَوَلَّدَ فِيهِ دُودٌ وَأَنْتَنَ. فَسَخِطَ عَلَيْهِمْ مُوسَى (خروج ١٦: ٢٠)

كان هذا الدرس سهلاً وبسيطاً ولم يتأذَّى أي شخص من الشعب. لكنَّهم تعلَّموا من خلاله أنَّ الله يعني تماماً ما يقوله، وأنه ينبغي عليهم أن يثقوا به. فغالباً ما تكون عواقب العصيان وخيمة!

الشكوى والتذمُّر

ثُمَّ ارْتَحَلَ كُلُّ جَمَاعَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَرِّيَّةِ سِينٍ بِحَسَبِ مَرَاحِلِهِمْ عَلَى مُوجِبِ أَمْرِ الرَّبِّ، وَنَزَلُوا فِي رَفِيدِيمَ. وَلَمْ يَكُنْ مَاءٌ لِيَشْرَبَ الشَّعْبُ. فَخَاصَمَ الشَّعْبُ مُوسَى وَقَالُوا: «أَعْطُونَا مَاءً لِنَشْرَبَ ... لِمَاذَا أَصْعَدْتَنَا مِنْ مِصْرَ لِتُمِيتَنَا وَأَوْلاَدَنَا وَمَوَاشِيَنَا بِالْعَطَشِ؟» فَصَرَخَ مُوسَى إِلَى الرَّبِّ قَائِلاً: «مَاذَا أَفْعَلُ بِهذَا الشَّعْبِ؟ بَعْدَ قَلِيلٍ يَرْجُمُونَنِي». (خروج ١٧: ١-٤)

من الواضح أنَّ بني إسرائيل لم يتعلَّموا درساً من التجربة السابقة. لكنَّ تذمُّرهم في هذه المرَّة كان بسبب الماء وليس الطعام. ونرى هنا أنَّ بني إسرائيل لم يكونوا خاضعين لمشيئة الله، ولم يكونوا صورة حَسَنة لشعب الله.

فَقَالَ الرَّبُّ لِمُوسَى: «مُرَّ قُدَّامَ الشَّعْبِ، وَخُذْ مَعَكَ مِنْ شُيُوخِ إِسْرَائِيلَ. وَعَصَاكَ ... خُذْهَا فِي يَدِكَ وَاذْهَبْ. هَا أَنَا أَقِفُ أَمَامَكَ هُنَاكَ عَلَى الصَّخْرَةِ فِي حُورِيبَ، فَتَضْرِبُ الصَّخْرَةَ فَيَخْرُجُ مِنْهَا مَاءٌ لِيَشْرَبَ الشَّعْبُ». فَفَعَلَ مُوسَى هكَذَا أَمَامَ عُيُونِ شُيُوخِ إِسْرَائِيلَ (خروج ١٧: ٥، ٦)

الماء

هُناك بعض اللوحات الفنيَّة التي تُمثِّل هذه المُعجزة حيث يتم تصوير النبي موسىواقفاً بجانب صخرة وهو مُمسك بعصاه في يده، وجدول ماء صغير ينساب من الصخرة على الأرض. لكن في ضوء عطش الشعب، من المؤكَّد أنَّ اللّه لم يُخرج من الصخرة جدولاً صغيراً؛ بل أخرج دفقاً هائلاً من الماء حيث يقول الكتاب المقدَّس:

شَقَّ الصَّخْرَةَ فَانْفَجَرَتِ الْمِيَاهُ. جَرَتْ فِي الْيَابِسَةِ نَهْرًا (خروج ١٠٥: ٤١)

وهكذا، فقد سَدَّد اللّه احتياج الشعب مَرَّةً أخرى رغم أنَّهم لم يكونوا يستحقون ذلك. فقد كان بإمكان اللّه خالقهم ومالكهم أن يُعاقبهم بسبب عدم إيمانهم وعصيانهم. ففي نهاية المطاف، فإنَّ للخطيَّة عواقبها. رغم ذلك، كان اللّه صبوراً ولطيفاً معهم رغم عدم استحقاقهم لنعمته. وهكذا هو حال اللّه دائماً؛ فرغم أنَّ الإنسان الخاطئ لا يستحق محبة اللّه ونعمته، إلاَّ أنَّ اللّه يعتني به رغم خطاياه.

٢. الوصايا العشر

قال الرب إنه ينبغي على بني إسرائيل أن يكونوا نموذجاً وقُدوةً حسنةً لبقيَّة الشعوب عن علاقة اللّه بالإنسان، وعن علاقة الإنسان باللّه. لكنَّهم كانوا بحاجة لتعلُّم الكثير عن اللّه. وهكذا، فقد كان اللّه يُعلن عن ذاته لهم بصورة دائمة، وكان الإعلان الكبير عن نفسه على وشك البدء:

فِي الشَّهْرِ الثَّالِثِ بَعْدَ خُرُوجِ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ، فِي ذلِكَ الْيَوْمِ جَاءُوا إِلَى بَرِّيَّةِ سِينَاءَ ... هُنَاكَ نَزَلَ إِسْرَائِيلُ مُقَابِلَ الْجَبَلِ. وَأَمَّا مُوسَى فَصَعِدَ إِلَى اللهِ. فَنَادَاهُ الرَّبُّ مِنَ الْجَبَلِ قَائِلاً: «هكَذَا ... تُخْبِرُ بَنِي إِسْرَائِيلَ: أَنْتُمْ رَأَيْتُمْ مَا صَنَعْتُ بِالْمِصْرِيِّينَ. وَأَنَا حَمَلْتُكُمْ عَلَى أَجْنِحَةِ النُّسُورِ وَجِئْتُ بِكُمْ إِلَيَّ. فَالآنَ إِنْ سَمِعْتُمْ لِصَوْتِي، وَحَفِظْتُمْ عَهْدِي تَكُونُونَ لِي خَاصَّةً مِنْ بَيْنِ جَمِيعِ الشُّعُوبِ. فَإِنَّ لِي كُلَّ الأَرْضِ. وَأَنْتُمْ تَكُونُونَ لِي مَمْلَكَةَ كَهَنَةٍ وَأُمَّةً مُقَدَّسَةً. هذِهِ هِيَ الْكَلِمَاتُ الَّتِي تُكَلِّمُ بِهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ» (خروج ١٩: ١-٦)

إذا ... سوف

بعبارة أخرى، كان اللّه يقول لبني إسرائيل: «إذا أطعتموني، سوف أقبلكم وتكونون شهادةً لي أمام جميع الأمم الأخرى». وهكذا، كان الشرط الوحيد هو: «إذا أطعتموني، سوف ...».

كان سجل بني إسرائيل سيِّئاً حتى ذلك الحين. فقد جمعوا خبزاً أكثر من حاجتهم رغم أنَّ اللّه أخبرهم ألَّا يفعلوا ذلك. كما أنهم تذمَّروا أكثر ممَّا وثقوا في اللّه. وكان واقع حالهم يقول: «يا رب، لقد أخفقنا في إطاعة كلمتك. أنت قُدُّوس؛ أمَّا نحن فخُطاة. وإن كُنت ستنظر إلينا كأشخاص مُقدَّسين، وإنْ كُنت ستقبلنا على أساس طاعتنا لك، فنحن في ورطة حقيقية!»

ما مِنْ مُشكلة!

لكن حينما قام موسى بجمع الشعب وسألهم عن رأيهم بما قاله الله، رَدَّ الشعب بحماس قائلين:

فَأَجَابَ جَمِيعُ الشَّعْبِ مَعًا وَقَالُوا: «**كُلُّ مَا تَكَلَّمَ بِهِ الرَّبُّ نَفْعَلُ**». فَرَدَّ مُوسَى كَلاَمَ الشَّعْبِ إِلَى الرَّبِّ (خروج ١٩: ٨)

صاح الشعب معاً بصوت واحد «نعم يا رب، سوف نفعل كل ما تطلبه منَّا. وإن أردتنا أن نكون كَهَنة رائعين فسوف نكون كذلك. وإن أردتنا أن نكون قدّيسين فما مِنْ مُشكلة في ذلك أيضاً. فسوف نكون أفضل أُمَّة مُقدَّسة رأتها عيناك. أجل، يمكننا أن نكون كذلك!» ربما كان في كلامهم ذاك بعض المُبالغة. ففي حقيقة الأمر أنّهم لم يكونوا آنذاك قد فهموا المعنى الحقيقي للقداسة أو البِرّ. لذلك، كان لا بُدَّ أن يشرح الله لهم معنى هذه الأشياء بالتفصيل.

وسائل الإيضاح البصريَّة

بدأ الدرس ببعض وسائل الإيضاح البصريَّة

فَقَالَ الرَّبُّ لِمُوسَى: «اذْهَبْ إِلَى الشَّعْبِ وَقَدِّسْهُمُ الْيَوْمَ وَغَدًا، وَلْيَغْسِلُوا ثِيَابَهُمْ، وَيَكُونُوا مُسْتَعِدِّينَ لِلْيَوْمِ الثَّالِثِ. لأَنَّهُ فِي الْيَوْمِ الثَّالِثِ يَنْزِلُ الرَّبُّ أَمَامَ عُيُونِ جَمِيعِ الشَّعْبِ عَلَى جَبَلِ سِينَاءَ» (خروج ١٩: ١٠، ١١)

قال الله لموسى أنه يجب عليهم أن يتقدَّسوا؛ أي أن يُكرِّسوا أنفسهم له. وهكذا، فقد أخبرهم الله أنه ينبغي عليهم أن يغسلوا ثيابهم. وقد ساعدتهم وسيلة الإيضاح البصريَّة هذه على أن يُدركوا حاجتهم للابتعاد عن الخطيَّة. رغم ذلك، لم يكن هذا الطقس يُزيل الخطيَّة. وبالتالي، فإنَّ الاغتسال من الخارج لا يجعل المرء طاهراً من الداخل. كما أنَّ الأيدي النظيفة لا تخلق قلباً نقيَّاً.

وهكذا، رغم أنَّ غسل بني إسرائيل لملابسهم كان علامةً خارجيَّةً على طهارتهم ونقاوتهم أمام الله، إلاَّ أنَّ الاغتسال في حَدِّ ذاته لم يُطهِّرهم من الخطيَّة. فكل ما في الأمر هو أنَّ هذه المُمارسات أو الطقوس كانت تساعد الشعب على فهم أنَّ الرب قُدُّوس وبار، وأنه لا يُمكن الاقتراب منه إلاَّ بالطريقة التي وضعها هو.

لكنَّ الله لم يكُن قد انتهى من هذه الوسيلة البصريَّة بَعْد:

«وَتُقِيمُ لِلشَّعْبِ حُدُودًا مِنْ كُلِّ نَاحِيَةٍ، قَائِلاً: احْتَرِزُوا مِنْ أَنْ تَصْعَدُوا إِلَى الْجَبَلِ أَوْ تَمَسُّوا طَرَفَهُ. كُلُّ مَنْ يَمَسُّ الْجَبَلَ يُقْتَلُ قَتْلاً» (خروج ١٩: ١٢)

كانت هذه الحدود هي صورة بصريَّة (أو رمز) للانفصال القائم بين الله والإنسان بسبب الخطيَّة. وبهذا، فقد حَذَّر الله الإنسان من خطورة الاقتراب منه لأنه قُدُّوس، ولأنَّه لا يُمكن للإنسان الخاطئ أن يعيش في مَحضره. وقد كان هذا تذكير بأنَّ الموت هو عاقبة الخطيَّة:

«وَحَدَثَ فِي الْيَوْمِ الثَّالِثِ لَمَّا كَانَ الصَّبَاحُ أَنَّهُ صَارَتْ رُعُودٌ وَبُرُوقٌ وَسَحَابٌ ثَقِيلٌ عَلَى الْجَبَلِ، وَصَوْتُ بُوقٍ شَدِيدٌ جِدًّا. فَارْتَعَدَ كُلُّ الشَّعْبِ الَّذِي فِي الْمَحَلَّةِ. وَأَخْرَجَ مُوسَى الشَّعْبَ مِنَ الْمَحَلَّةِ لِمُلاَقَاةِ اللهِ، فَوَقَفُوا فِي أَسْفَلِ الْجَبَلِ. وَكَانَ جَبَلُ سِينَاءَ كُلُّهُ يُدَخِّنُ مِنْ أَجْلِ أَنَّ الرَّبَّ نَزَلَ عَلَيْهِ بِالنَّارِ، وَصَعِدَ دُخَانُهُ كَدُخَانِ الأَتُونِ، ... وَمُوسَى يَتَكَلَّمُ وَاللهُ يُجِيبُهُ بِصَوْتٍ»

(خروج ١٩: ١٦-١٩)

كانت وسائل الإيضاح المرئيَّة الأخيرة التي استخدمها الله مُؤثِّرة ومُخيفة حيث أنه استخدم الرعد، والبرق، والسحاب الكثيف، وصوت بوق قوي جداً، ودُخان، ونار. وعندها، أصيب الشعب كله بحالة صدمة! فبما أنَّ الإنسان خاطئ، فقد كان من الطبيعي أن يرتعد ويرتجف في مَحضر الله القُدُّوس. وهكذا، فقد كان الله يوصل أفكاره للناس بهذه الوسائل المرئيَّة.

كان الإنسان على وشك أن يكتسب المزيد من المعرفة والفهم لطبيعة الله. فقد كان الله مُزمعاً على تحديد معنى كلمة «مُقدَّس» وكلمة «بار». فكأنَّ الله يقول لهم: «لقد رأيتم بأُم أعينكم أنني إله يهتم بكم. والآن، إذا أطعتم الوصايا العشر التي سأُعطيكم إيَّاها، سوف تكونون لي شعباً مُقدَّساً – أي شعباً يتمتَّع بعلاقة خاصة معي».[٢] في جنَّة عدن، أعطى الله لآدم وصيَّة واحدة فقط؛ لكنَّ آدم أخفق في إطاعتها. والآن، كان الله على وشك إعطاء الإنسان عشر وصايا. وهكذا، فقد تكلَّم الله:

الوصيَّة الأولى

«أَنَا الرَّبُّ إِلهُكَ الَّذِي أَخْرَجَكَ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ مِنْ بَيْتِ الْعُبُودِيَّةِ. لاَ يَكُنْ لَكَ آلِهَةٌ أُخْرَى أَمَامِي» (خروج ٢٠: ٢، ٣)

أوصى الله الإنسان أن لا يَعبُد إلهاً آخر. وقد كان السبب في ذلك واضحاً تماماً.

«أَنَا الرَّبُّ وَلَيْسَ آخَرُ. لاَ إِلهَ سِوَايَ ...» (إشعياء ٤٥: ٥)

لم يكُن هناك سوى إله واحد حقيقي يستحق العبادة والإكرام. ولم يكُن الأمر يتعلَّق بالثقة بأحد الآلهة، بل بالثقة بالله الحي الحقيقي. فينبغي على الأشخاص الذين يُريدون أن يكونوا أبراراً أن يعبدوا الله الخالق الحقيقي الذي قطع وعوده لإبراهيم وإسحق ويعقوب.

غالباً ما يشعُر الناس بالارتياح لأنهم التزموا بهذه الوصيَّة ولم يعبدوا إلهاً وثنياً. لكنَّ التطبيق الفعلي لهذه الوصيَّة هو كالتالي: إذا كان هناك شخص أو شيء أهم لديك من الله – سواء كان ذلك عائلة، أو أصدقاء، أو مُرشدين روحيين، أو مكانة، أو عمل، أو مال – فاعلم أنك قد خَرَقت هذه الوصيَّة.

الوصيَّة الثانية

«لاَ تَصْنَعْ لَكَ تِمْثَالاً مَنْحُوتًا، وَلاَ صُورَةً مَا مِمَّا فِي السَّمَاءِ مِنْ فَوْقُ، وَمَا فِي الأَرْضِ مِنْ تَحْتُ، وَمَا فِي الْمَاءِ مِنْ تَحْتِ الأَرْضِ. لاَ تَسْجُدْ لَهُنَّ وَلاَ تَعْبُدْهُنَّ ...» (خروج ٢٠: ٤، ٥)

تقول لنا الوصيَّة الأولى إنه ينبغي علينا أن لا نعبد إلهاً آخر غير الله الحقيقي. ثُمَّ تأتي الوصيَّة الثانية لتقول لنا أن لا نعبد صورة أو تمثال أي إله سواء كان حقيقياً أو زائفاً. وحتى أنَّ الله لا يُريدنا أن ننحني لأية صور أو أيقونات أو تماثيل تُمثله هو نفسه. فحيث أنَّ الله روح، فلا حاجة للإنسان أن يصنع صورة محسوسة له. فما من صورة أو تمثال من صُنع الإنسان تستحق أن تُعبد لأنَّ الذي يستحق العبادة هو الله الحي الحقيقي الواحد فقط.

«أَنَا الرَّبُّ هذَا اسْمِي، وَمَجْدِي لاَ أُعْطِيهِ لآخَرَ، وَلاَ تَسْبِيحِي لِلْمَنْحُوتَاتِ» (إشعياء ٤٢: ٨)

وهكذا، فقد وضع الله شَرطاً آخر للقداسة ألا وهو أن لا نَعبُد أي صورة أو تمثال له أو لغيره.

الوصيَّة الثالثة

«لاَ تَنْطِقْ بِاسْمِ الرَّبِّ إِلهِكَ بَاطِلاً، لأَنَّ الرَّبَّ لاَ يُبْرِئُ مَنْ نَطَقَ بِاسْمِهِ بَاطِلاً»
(خروج ٢٠: ٧)

يقول لنا الله في هذه الوصيَّة إنه ينبغي علينا أن نحترمه ونُوقِّره دوماً. فبما أنه هو الله صاحب السيادة والسُّلطان، فيجب عدم ذِكر اسمه باستخفاف. وبما أنه هو دَيَّان كل الأرض، فهو يستحق كل إجلال وإكرام. وبما أنه ملك الملوك ورب الأرباب، فهو يستحق كل سُجود.

إذا سَبَق لك أن استعملت اسم الله للحلف أو القَسَم فاعلم أنك قد خَرَقت هذه الوصيَّة. وحتَّى إن قُلت: "سوف أفعل كذا وكذا إن شاء الله" دون أن تعني حقاً أنه ستقوم بذلك الشيء، فهذا يعني أنك لم تحترم اسم الله وأنك خرقت هذه الوصيَّة. وإن حَلفت قائلاً: "الله شاهد أنني لم أفعل كذا وكذا" في حين أنك تعلم أنك مُذنب، فهذا يعني أنك أسأت استخدام اسم الله أيضاً.

الوصيَّة الرابعة

«اُذْكُرْ يَوْمَ السَّبْتِ لتُقَدِّسَهُ. سِتَّةَ أَيَّامٍ تَعْمَلُ وَتَصْنَعُ جَمِيعَ عَمَلِكَ، وَأَمَّا الْيَوْمُ السَّابِعُ فَفِيهِ سَبْتٌ لِلرَّبِّ إِلهِكَ. لاَ تَصْنَعْ عَمَلاً مَا ...» (خروج ٢٠: ٨-١٠)

قال الله لبني إسرائيل إنه ينبغي عليهم أن يُقدِّسوا اليوم السابع (أي يوم السبت) كيوم راحة) وكان هذا اليوم الخاص يُبيِّن لبقيَّة العالم أنَّ الله يُقيم علاقةً خاصةً معهم حيث يقول الكتاب المقدَّس:

«وَأَنْتَ تُكَلِّمُ بَنِي إِسْرَائِيلَ قَائِلاً: سُبُوتِي تَحْفَظُونَهَا، لأَنَّهُ عَلاَمَةٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ فِي أَجْيَالِكُمْ لِتَعْلَمُوا أَنِّي أَنَا الرَّبُّ الَّذِي يُقَدِّسُكُمْ» (خروج ٣١: ١٣)

لقد أراد الله من بني إسرائيل أن يعرفوا أنَّ القداسة تتطلَّب منهم أن يحفظوا يوم السَّبت كعلامة خاصَّة على تفرُّدهم وتميُّزهم.

الوصيَّة الخامسة

«أَكْرِمْ أَبَاكَ وَأُمَّكَ ...» (خروج ٢٠: ١٢)

في هذه الوصيَّة، قال الله إنه ينبغي على الأبناء أن يُكرموا آباءهم وأمهاتهم. فينبغي أن تكون العائلة مكاناً للسِّلم وليس للخصام. ويجب على الأبناء أن يحترموا ويُطيعوا آباءهم وأمَّهاتهم. وبالمقابل، يجب على الآباء والأمَّهات أيضاً أن يسعوا لما فيه خير أبنائهم وصالحهم.

يقول الله لجميع الأبناء أنَّ القداسة تتطلَّب وجود علاقة احترام وإكرام بينهم وبين آبائهم وأمهاتهم. فقد أراد الله أن تكون العائلة مكاناً للنظام والاحترام وليس مكاناً للفوضى والغضب.

من الأمور التي تدل على عدم احترام الأبناء لآبائهم وأمهاتهم: الردَّ عليهم بوقاحة، وتجاهُلهم، ومُجادلتهم، والتجهُّم في وجوههم، ومعاملتهم بقسوة، وانتقادهم.

الوصيَّة السادسة

«لاَ تَقْتُلْ» (خروج ٢٠: ١٣)

الله هو مُعطي الحياة للإنسان. لذلك، لا يحق لأي شخص أن يحرم شخصاً آخر من حياته. لكنَّ الله كان يقصد ما هو أكثر من القتل الفعلي. فقد كان الله يستهدف النوايا الكامنة وراء الفعل نفسه حيث يقول لنا الكتاب المقدَّس:

لأَنَّ كَلِمَةَ الله ...مُمَيِّزَةٌ أَفْكَارَ الْقَلْبِ وَنِيَّاته. وَلَيْسَتْ خَلِيقَةٌ غَيْرَ ظَاهِرَةٍ قُدَّامَهُ، بَلْ كُلُّ شَيْءٍ عُرْيَانٌ وَمَكْشُوفٌ لِعَيْنَيْ ذلِكَ الَّذِي مَعَهُ أَمْرُنَا (عبرانيين ٤: ١٢، ١٣)

وحيث أنَّ الله ينظر إلى القلب، فهو يرى القتل بمنظورٍ أشمل ممَّا نراه نحن. فالله يعتبر بعض أنواع الغضب قتلاً:

قَدْ سَمِعْتُمْ أَنَّهُ قِيلَ لِلْقُدَمَاءِ: لاَ تَقْتُلْ، وَمَنْ قَتَلَ يَكُونُ مُسْتَوْجِبَ الْحُكْمِ. وَأَمَّا أَنَا فَأَقُولُ لَكُمْ: إِنَّ كُلَّ مَنْ يَغْضَبُ عَلَى أَخِيهِ بَاطِلاً يَكُونُ مُسْتَوْجِبَ الْحُكْمِ ... وَمَنْ قَالَ: يَا أَحْمَقُ، يَكُونُ مُسْتَوْجِبَ نَارِ جَهَنَّمَ (مَتَّى ٥: ٢١، ٢٢)

وعليه، إن أراد المرء أن يتقيَّد بمعايير الله للبرّ والقداسة، فينبغي عليه أن لا يفقد أعصابه أو أن يغضب بلا مُبرِّر معقول في نظر الله.

الوصيَّة السابعة

«لاَ تَزْنِ» (خروج ٢٠: ١٤)

يقول الله إنَّ الوقت الوحيد الذي يُمكن للمرء أن يُمارس فيه الجنس هو بعد الزواج. وأنَّ الشخص الوحيد الذي يمكن للمرء أن يمارس معه الجنس هو شريك الحياة الزوجية (الزوج والزوجة)

لكنَّ الله لا يتوقف عند هذا الحد لأنه ينظر إلى القلوب أيضاً ويعرف نوايا الإنسان الشريرة.

«قَدْ سَمِعْتُمْ أَنَّهُ قِيلَ لِلْقُدَمَاءِ: لاَ تَزْنِ. وَأَمَّا أَنَا فَأَقُولُ لَكُمْ: إِنَّ كُلَّ مَنْ يَنْظُرُ إِلَى امْرَأَةٍ لِيَشْتَهِيَهَا، فَقَدْ زَنَى بِهَا فِي قَلْبِهِ» (مَتَّى ٥: ٢٧، ٢٨)

وهذا يعني أنَّك إذا نظرت بشهوة إلى امرأة ليست زوجتك، فقد خرقت هذه الوصيَّة. لذلك، إذا أردت أن تكون باراً في نظر الله فيجب عليك أن تُراعي الطهارة والقداسة في أفكارك وتصرفاتك.

الوصيَّة الثامنة

«لاَ تَسْرِقْ» (خروج ٢٠: ١٥)

لا يُريد الله من أيِّ شخص أن يأخذ ما ليس له. فالله هو الوحيد الذي يُعطي كل شخص حَقَّ حيازة المُمتلكات. لذلك فإنَّ السرقة هي عصيان صريح لله. والشخص الذي يسرق لا يُمكن أن يكون باراً.

السرقة تشمل الغش سواء في الامتحانات أو في دفع الضرائب.

الوصيَّة التاسعة

«لاَ تَشْهَدْ عَلَى قَرِيبِكَ شَهَادَةَ زُورٍ» (خروج ٢٠: ١٦)

يجب على الإنسان أن يكون صادقاً دوماً لأنَّ الله لا يُحب الكذب والخداع. وقد رأينا سابقاً أنَّ الشيطان كاذب ومُخادع بطبيعته. أمَّا الله فهو على النقيض تماماً لأنَّ الصدق هو من صفات الله الجوهرية؛ فهو:

«... اللهُ الْمُنَزَّهُ عَنِ الْكَذِبِ ...» (تيطُس ١: ٢)

لذلك، حينما يقول لنا الله شيئاً ما، يمكننا أن نثق به تماماً لأنه:

«... لاَ يُمْكِنُ أَنَّ اللهَ يَكْذِبُ ...» (عبرانيين ٦: ١٨)

وحيث أنَّ الله صادق تماماً فهو ينظر إلى أي كذب على أنه إهانة لشخصه. فالشيطان هو الكذاب وأبو الكذاب. وكل من يكذب إنَّما يتشبَّه بالشيطان. ويجب أن نعلم أنَّ النميمة، والاتهامات الباطلة، والافتراء هي خطايا بحسب تعريف هذه الوصيَّة.

الوصيَّة العاشرة

«لاَ تَشْتَهِ بَيْتَ قَرِيبِكَ. لاَ تَشْتَهِ امْرَأَةَ قَرِيبِكَ، وَلاَ عَبْدَهُ، وَلاَ أَمَتَهُ، وَلاَ ثَوْرَهُ، وَلاَ حِمَارَهُ، وَلاَ شَيْئًا مِمَّا لِقَرِيبِكَ» (خروج ٢٠: ١٧)

يجب على الإنسان أن يحرص كل الحرص على عدم اشتهاء مُمتلكات الآخرين، أو قدراتهم، أو مظاهرهم، أو أي شيءٍ يَخصُّهم.

نحن مُعرضون لخطر خرق هذه الوصية كثيراً في مجتمعاتنا. فمثل هذه الأمور ماكرة للغاية لا سيَّما وأنَّنا نسعى دوماً للحفاظ على نفس المستوى المعيشي الذي يعيش فيه جيراننا. وكثيراً ما يقول لنا بعض الأشخاص إننا نستحق الحصول على مثل هذه الأشياء. لكن في حقيقة الأمر أنَّ اشتهاء مُمتلكات الآخرين خطيَّة في نظر الله.

قال الشيطان: «سأكون مثل الله العليّ». وبهذا، فقد اشتهى الشيطان مكانة الله. ويجب أن

نعلم أنَّ اشتهاء مُمتلكات الغير، والجشع، والغيرة، والحسد هي أمور غير مقبولة مُطلقاً عند الله لأنها خطايا، ولأنها الطريق الذي سلكه إبليس منذ القديم.

لقد أصبحت أعرف الآن

بهذه الوصية العاشرة والأخيرة، ختم الله الوصايا التي أعطاها لشعبه القديم. وقد كتبها لهم على حجرين – رُبَّما لكي يُؤكد لهم أنَّ شريعته لا تتغيَّر. فمع مرور الوقت، قد يُقنع المرء نفسه بأنَّه لا بأس في

الغش؛ لكنَّ شريعة الله تعود لتُذكِّره بأنَّ الغش ما زال خطيَّة.

وهكذا، فقد عرف الإنسان ما هي الأشياء التي يعتبرها الله خطيَّة لأنَّ شريعة الله كشفت ذلك:

> فَمَاذَا نَقُولُ؟ هَلِ النَّامُوسُ خَطِيَّةٌ؟ حَاشَا! بَلْ لَمْ أَعْرِفِ الْخَطِيَّةَ إِلاَّ بِالنَّامُوسِ. فَإِنَّنِي لَمْ أَعْرِفِ الشَّهْوَةَ لَوْ لَمْ يَقُلِ النَّامُوسُ: «لاَ تَشْتَهِ» (رومية ٧: ٧)

رغم ذلك، كانت هناك بعض الأسئلة التي تحتاج إلى إجابات مثل: إلى أيِّ حَدٍّ سيكون الله صارماً في تطبيق هذه الوصايا على الناس؟ وهل سيكون مقبولاً لدى الله أن يخرق الناس هذه الوصايا بين الحين والآخر؟ وما الذي كان يتوقَّعه الله من البشر؟

٣. المحكمة

قد يعتقد البعض أنَّ الوصايا العشر غامضة إلاَّ إذا عرفنا كيف ومتى نُطبِّقها. فهل هناك أيّ استثناءات لهذه الوصايا؟ ولنفترض أنَّ شخصاً ما قد زنى في الماضي، هل سيُسجِّل الله هذه الخطيَّة ضدَّه إلى الأبد؟ وما الذي يتوقَّعه الله مِنَّا؟

في البداية، يقول الله لنا إنه لكي نكون مقبولين لديه، يجب علينا أن نُطبِّق الوصايا العشر جميعها دون استثناء.

«لكِنْ أَشْهَدُ أَيْضًا لِكُلِّ إِنْسَانٍ ... **أَنَّهُ مُلْتَزِمٌ أَنْ يَعْمَلَ بِكُلِّ النَّامُوسِ**» (غلاطية ٥: ٣)

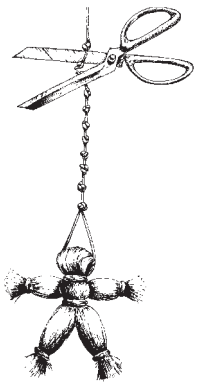

يُمكن تشبيه خرق شريعة الله بقطع حَبل يحتوي على عشر عُقَد. فيكفي أن تقطع عُقدة واحدة فقط لكي ينقطع الحبل بأكمله. وبالطريقة نفسها، إذا قمت بخرق وصيَّة واحدة فقط من وصايا الله العشر، فسوف تكون مُذنباً بخرق معيار الله للصواب والخطأ.

وبالتالي، لا يُمكننا أن نختار أربعاً من هذه الوصايا ونترك الباقي. فالله واضح جداً ومُحدَّد للغاية. فهو يأمرنا بإطاعة جميع الوصايا العشر. ولا يقتصر الأمر على ذلك فحسب، بل إنه يقول لنا:

... لأَنَّ مَنْ حَفِظَ كُلَّ النَّامُوسِ، وَإِنَّمَا عَثَرَ فِي وَاحِدَةٍ، فَقَدْ صَارَ مُجْرِمًا فِي الْكُلِّ (يعقوب ٢: ١٠)

وهكذا، إذا خالفنا وصيَّة واحدة فقط – ولو لمرَّة واحدة – فكأننا بذلك قد خالفنا جميع الوصايا. وما لم نكُن كاملين، فلا يمكن لله أن يَقبَلنا في مَحضره.

إنَّ الله كامل القداسة؛ لذلك فهو لا يَقبل في مَحضره إلاَّ الأشخاص الكاملين في برِّهم. وبالتالي، يجب أن يكون برُّ الإنسان مُعادلاً لبرِّ الله وإلاَّ فلن يكون بالإمكان استعادة العلاقة المُنقطعة بينهما.

ويجب علينا أن نُراعي الوصايا العشر وغيرها من نواهي الرب لأن الله يُحاسبنا على كل خطية، بما في ذلك الخطايا التي نرتكبها سهواً:

«إِنْ أَخْطَأَ أَحَدٌ سَهْوًا وَارْتَكَبَ إِحْدَى نَوَاهِي الرَّبِّ التِي يَنْبَغِي أَلاَّ يَرْتَكِبَهَا، يَكُونُ مُذْنِبًا وَمَسْئُولاً عَنْ إِثْمِهِ» (لاويين ٥: ١٧)

ذات مَرَّة، كُنت أُعلِّم هذا الموضوع لخطيبين شابَّين. وحينما وصلت إلى هذه النقطة في الدرس، ضرب الشاب بقبضته على الطاولة وأقسم. (وعندها، قالت له خطيبته إنه قد خالف إحدى وصايا الله لأنه أساء استخدام اسم الله. وفي الحقيقة أنَّ توقيت خطيبته كان سيِّئاً!) وعلى أي حال فقد قال ذلك الشاب: «الله ليس عادلاً! فإذا كانت هذه هي الطريقة الوحيدة لكي أُصبح مقبولاً لدى الله، فهو يُعقِّد الأمور ويجعلها مُستحيلة! فلا يُمكنني أن أُطبِّق هذه الوصايا دون أن أُخطئ على الإطلاق!» وقد كان إحباطه واضحاً تماماً!

معرفة الخطيَّة

كان الله يعرف تماماً أنَّ الإنسان لا يستطيع أن يُطبِّق جميع هذه الوصايا دون أن يُخطئ. وبالتالي، لم يكُن هذا الأمر مُفاجئاً لله على الإطلاق. وقد كان قصد الله واضحاً من إعطاء الوصايا العشر:

وَنَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّ كُلَّ مَا يَقُولُهُ النَّامُوسُ فَهُوَ يُكَلِّمُ بِهِ الَّذِينَ فِي النَّامُوسِ، **لِكَيْ يَسْتَدَّ كُلُّ فَمٍ، وَيَصِيرَ كُلُّ الْعَالَمِ تَحْتَ قِصَاصٍ مِنَ اللهِ**

(رومية ٣: ١٩)

تقول الآية أعلاه شيئين اثنين:

١. إنَّ الناموس موضوع لسَدِّ أفواه الأشخاص الذين يقولون إنَّ حياتهم جيِّدة بما يكفي لقبولهم لدى الله. وفي الحقيقة أنَّ كل من يدرس هذه الوصايا يُدرك أنَّ أمثال هؤلاء مُخطئون في تقديرهم لأنفسهم.

٢. تُبيِّن لنا الوصايا العشر أنَّنا مُذنبين بالفعل بخرق ناموس الله. ففي البداية، كان الإنسان صديقاً لله، وخالياً من أي شَرٍّ. لكن حينما عَصى آدم وحوَّاء أوامر الله، قام الله بوضع رداء الصداقة جانباً وارتدى رداء القاضي. وهكذا، عوضاً عن أن يكون الله صديقاً للإنسان، أصبح قاضياً يستدعي الإنسان للمثول أمامه في قاعة المحكمة دون أن يكون هناك مُحامي دفاع. فما من مُحام يستطيع الدفاع عن الإنسان الخاطئ أمام الله مهما كان هذا المحامي بارعاً وذكياً. كما أنَّه لن تكون هناك هيئة مُحلَّفين، ولا رشوة لأنَّ القاضي الكامل والعادل قد نَطَق بالحُكم بعد أن وجد الإنسان مُذنباً بخرق وصايا الله.

لأَنَّهُ بِأَعْمَالِ النَّامُوسِ كُلُّ ذِي جَسَدٍ لاَ يَتَبَرَّرُ أَمَامَهُ. لأَنَّ بِالنَّامُوسِ مَعْرِفَةَ الْخَطِيَّةِ (رومية ٣: ٢٠)

إنَّ القصد من الوصايا العشر هو أن نُدرك أنَّنا خُطاة. فهي تُبيِّن لنا قداسة الله من جهة، وطبيعتنا الخاطئة من جهة أخرى. ويمكن القول أيضاً إنَّ الوصايا العشر بمثابة معيار بسيط للصواب والخطأ؛ فهي مثل ميزان الحرارة الذي يُبيِّن لنا أننا مَرضى. رغم ذلك فهي (الوصايا) عاجزة تماماً عن تقديم العلاج الشافي لنا.

مرآة

من ناحية أخرى فإنَّ الوصايا العشر هي أشبه بمرآة تعكس وجهاً قذراً. فإن كُنت بمفردك فلا يمكنك أن تعرف ما إذا كان وجهك نظيفاً أم قذراً. لكن إن رآك شخص ما فقد يقول لك: «هناك بعض الأوساخ على وجهك». وقد تُنكر ذلك وتقول: «لا، إنَّ وجهي ليس مُتَّسخاً. أنا لا أرى شيئاً». وقد تعتقد ذلك حقاً. لكن إن نظرت في مرآة، فسوف ترى على الفور أنَّ وجهك مُتَّسخ بالفعل؛ وعندها لن يكون بمقدورك أن تُنكر تلك الحقيقة. وبعبارة أخرى، سوف تصمُت وتسكُت لأنك أدركت أنَّ وجهك مُتَّسخ.

ويمكن تطبيق الشيء نفسه على الخطيَّة. فنحن لم نكُن نعرف ما هي الخطيَّة إلاَّ حينما أعطانا الله الناموس (أو الوصايا العشر) فكما أنَّ المرآة تكشف الأوساخ الموجودة على وجوهنا، فإنَّ الوصايا العشر تكشف لنا عن طبيعتنا الخاطئة.

لم يُعطنا الله الوصايا العشر كقوانين ينبغي علينا تطبيقها لنتمتع بعلاقة سليمة مع الله. فلم يكُن هذا هو قصد الناموس. فإن حاولنا أن نُصبح أبراراً من خلال تطبيقنا للناموس فسوف يكون هذا شبيهاً بمحاولة تنظيف الأوساخ التي على وجوهنا عن طريق تنظيف زجاج المرآة! لكنَّ المرايا مصنوعة لكي تعكس صورتنا فقط، وليس لكي تُنظِّف الأوساخ عنها. وفي حقيقة الأمر أننا إن حاولنا تنظيف وجهنا في المرآة فقد نتسبَّب في اتِّساخ المرآة أيضاً ممَّا يُقلِّل من قدرتها على عكس الصورة بوضوح. لذلك، فإنَّ الأشخاص الذين يحاولون إرضاء الله عن طريق تطبيق الوصايا العشر عادةً ما ينتهون إلى تعديل هذه الوصايا أو تقليلها لكي لا يظهروا بصورة سيِّئة للغاية.

وُجهة نظر الله

هناك طريقة أخرى للنظر إلى الأمر. هل تذكُر كيف عقدنا مقارنة بين نظرتنا لذلك الجرذ المُتعفِّن وبين نظرة الله للخطيَّة؟ إنَّ محاولة إرضاء الله عن طريق تطبيق الوصايا العشر هو أشبه ما يكون برش بعض العطر على ذلك الجرذ المُتعَفِّن. وكما نعرف جميعنا فإنَّ رش بعض العطر على جرذ ميِّت لن يجعله أكثر قبولاً لدينا. فسوف يبقى الجرذ كريهاً وبغيضاً في نظرنا. كذلك، فإنَّ إطاعة الوصايا العشر لا تجعلنا مقبولين أكثر لدى الله؛ بل سنبقى خُطاة في نَظره.

و هذا يُرجعنا إلى سبب إعطاء الوصايا العشر. فقد أعطى الله الناموس (أو الوصايا العشر):

«... لِكَيْ تَصِيرَ الْخَطِيَّةُ خَاطِئَةً جِدًّا بِالْوَصِيَّةِ» (رومية ٧: ١٣)

فالله يريدنا أن نرى جميع الخطايا كما يراها هو؛ أي أن نرى بأنَّ الخطيَّة خاطئة جدَّاً، ومُدمِّرة، وتُهين مَجد الله، وبغيضة، ومُخيفة، وشرِّيرة، وقذرة. فالله يريدنا أن نستوعب أنَّ قداسته وطهارته أكبر بكثير جدَّاً من أيِّ برٍّ يمكننا تحقيقه بمفردنا. كما أنه يريدنا أن نُدرك أننا لا يمكننا أن نقترب من قداسته حتَّى ونحن في أفضل أحوالنا.

الهُوَّة السحيقة

رغم هذا كُلِّه، ما زال بإمكان بعض الأشخاص أن يُقنعوا أنفسهم بأنَّ الله يُحبهم أكثر من الآخرين لأنهم يعتقدون أنهم أفضل من سواهم. لكن حينما أعطى الله الوصايا العشر، كان يهدف من ذلك أن يُدرك جميع الناس الحقيقة التالية:

«هأَنَذَا بِالإِثْمِ صُوِّرْتُ، وَبِالْخَطِيَّةِ حَبِلَتْ بِي أُمِّي» (المزمور ٥١: ٥)

وهكذا، لم يَعُد بإمكان المرء أن يعرف حالته الخاطئة فحسب، بل أصبح بمقدوره أن يحصل على لَمحة خاطفة عن كَمال الله. فقداسة الله هي أسمى من أن يصل إليها الإنسان. وقد كانت الهُوَّة التي سَبَّبتها الخطيَّة سحيقة جدَّاً بصورة لم يتوقَّعها الإنسان نفسه. وحيث أنه ما من شخص أمكنه تطبيق الناموس بأكمله، فقد عجز هذا الناموس عن بناء جسرٍ فوق هذه الهُوَّة السحيقة.

فئتان اثنتان

ما مِنْ شَكٍّ أنَّ رَدَّ فعل بني إسرائيل على القراءة الأولى للوصايا العشر يعكس تفكير الكثير من الناس في وقتنا الحاضر. فالكتاب المقدَّس يقول إنَّ جميع بني إسرائيل ارتعدوا من شِدَّة الخوف؛ لكن من المُرجَّح أنَّ الغالبيَّة العُظمى منهم خافوا من البرق والرعد فقط. وهكذا، فقد كانوا مشغولين بتلك الأمور الخارجية التي تدل على عَظَمة الله وقوَّته؛ لكنهم لم يلتفتوا إلى مغزى الوصايا العشر. بل في الحقيقة أنهم شعروا بأنهم سيتمكنون من تطبيق هذه الوصايا بكل سهولة. وهذا هو حال الكثيرين في وقتنا الحاضر أيضاً. فهُم يُركِّزون على إطاعة هذه الوصايا ويُخفقون في فهم المغزى الحقيقي منها.

من ناحية أخرى، كانت هناك فئة أخرى من بني إسرائيل فهموا تماماً قداسة الله. وهكذا،

فقد عرفوا ما الذي يعنيه الله بقوله: البِرّ يعني عدم وجود أي خطيَّة. وقد خافوا هُم أيضاً؛ لكن لسبب مُختلف عن الفئة الأولى. فقد خافوا لأنهم عرفوا أنهم لن يتمكنوا من تطبيق هذه الوصايا بصورة كاملة تماماً.

ومهما كان السبب فإنَّ الكتاب المقدَّس يقول إنَّ بني إسرائيل خافوا وارتعبوا:

وَقَالُوا لِمُوسَى: «تَكَلَّمْ أَنْتَ مَعَنَا فَنَسْمَعَ. وَلاَ يَتَكَلَّمْ مَعَنَا اللهُ لِئَلاَّ نَمُوتَ» (خروج ٢٠: ١٩)

وَقَالَ الرَّبُّ لِمُوسَى: «اصْعَدْ إِلَيَّ إِلَى الْجَبَلِ، وَكُنْ هُنَاكَ، فَأُعْطِيَكَ لَوْحَيِ الْحِجَارَةِ وَالشَّرِيعَةِ وَالْوَصِيَّةِ الَّتِي كَتَبْتُهَا لِتَعْلِيمِهِمْ» (خروج ٢٤: ١٢)

أصبحت الوصايا العشر سارية المفعول منذ ذلك الوقت، وكان الله قد بدأ بمحاسبة بني إسرائيل على مراعاتها والتقيُّد بها باعتبارها المعيار الأخلاقي الذي يحتكمون إليه. رغم ذلك، عرف الأشخاص الصادقون مع أنفسهم أنه ينبغي عليهم أن يأتوا إلى الله بطريقة أخرى إن أرادوا أن يكونوا مَرْضِيِّين أمامه!

الاقتراحات العشرة؟

تُسمَّى الوصايا العشر أحيانا «الشريعة الأدبيَّة» أو «القانون الأخلاقي» لأنها تُعنى بالسلوكيات الأخلاقيَّة والأدبيَّة.

و رُغم أنَّ الشريعة الأدبيَّة لا تستطيع أن تُعيد علاقتنا المقطوعة بالله، إلاَّ أنَّ هذا لا يعني أنها عديمة النفع. فكما أنَّ القوانين الطبيعية تُنظِّم الكون الذي نعيش فيه، فإنَّ القوانين الأخلاقيَّة تُنظِّم الناس.

لقد رفضت الكثير من البُلدان معايير السلوك الواردة في الكتاب المقدَّس وجازفت بالعيش في مجتمعات مُحايدة أخلاقياً. وفي الحقيقة أنه لا يوجد مُجتمع مُحايد أخلاقياً، ولم يسبق أن كانت هناك حضارة مُحايدة أخلاقياً أيضاً. وفي الواقع أنَّ عدم اتخاذ موقف هو موقف في حَدِّ ذاته.

أدَّى رفض الأمور الحتميَّة الواردة في الكتاب المقدَّس إلى عدم الاكتراث بالخطيَّة. كما أنَّ الأجيال اعتادت شيئاً فشيئاً على التعايش مع الخطيَّة. لكنَّ الكتاب المقدَّس يُعلِّمنا أنَّ هذا الأمر سيؤدي إلى الفوضى والدمار في نهاية المطاف.

مِنْ أيِّ نوعٍ أنت؟

يُقِرّ غالبيـة النـاس بأنهـم خُطـاة. رغـم ذلك، فـإنَّ عـدداً قليـلاً من هؤلاء يعترفـون بأنهم خُطـاة لا حَـول لهـم ولا قـُوَّة. والفـرق بين الفئتـين كبيـر للغاية.

- يعتقد الخُطاة أنه يوجد شيء يمكنهم فعله لكي يُصبحوا مَقبولين لدى الله. وربما يظن هؤلاء أنَّ الله يريدهم أن يُطبِّقوا الوصايا العشر. أو لعلهم يعتقدون أنَّ الذهاب إلى دُور العبادة، والصلاة المُنتظمة، والصوم، والحج، والصدقة، والإحسان إلى الجيران سيجعلهم مقبولين لدى الله.

إنَّ القول بأنَّه إذا زادت حَسَنات المرء على سيِّئاته فسوف يُصبح جديراً بقبول الله له هو قول غريب تماماً عن تعاليم الكتاب المقدَّس. فرغم أنَّ فعل الخير يستحق المديح والثناء، إلاَّ أنَّ الكتاب المقدَّس يُعلِّمنا بأنَّ جميع هذه الأعمال لا يُمكنها أن تُصلح العلاقة المبتورة بيننا وبين الله. فهناك مُشكلة خطيرة لا يمكننا التخلُّص منها ألا وهي «حالة الخطيَّة».

فكرة ليست موجودة في كلمة الله

- من ناحية أخرى، فإنَّ الخاطئ الذي لا حول له ولا قُوَّة يعرف تماماً أنه ما من شيء يمكنه القيام به لكي يُصبح مقبولاً لدى الله. فهو لا يستطيع أن يتخلَّص من حالة الخطيَّة التي تُفسِد حياته. لهذا، فإنَّ الكتاب المقدَّس يقول بأننا عَديمي الحيلة:

كُلُّنَا أَصْبَحْنَا كَنَجِس، وَأَضْحَتْ جَمِيعُ أَعْمَالِ بِرِّنَا كَثَوْبِ قَذِرٍ، فَذَبُلْنَا كَأَوْرَاقِ الشَّجَرِ وَعَبَثَتْ بِنَا آثَامُنَا كَالرِّيحِ.

(إشعياء ٦٤: ٦ – التفسيرية)

وهكذا، يبقى صلاحنا بعيداً كل البعد عن قداسة الله. وللتشبيه فقط، يمكننا القول بأنَّ كل أعمال البِرّ التي نقوم بها ليست سوى جرذان قذرة. وكما أنَّ الجرذ الميِّت بغيض في نظرنا، فإنَّ الخطيَّة بغيضة جدَّاً في نظر الله الكُليّ القداسة.

الفصل التاسع

١. خَيمة الاجتماع.
٢. عدم الإيمان.
٣. قُضاة، ومُلوك، وأنبياء.

١ . خَيمة الاجتماع

كما رأينا في الفصل السابق، كانت هناك فئة من بني إسرائيل تعتقد أنَّ الله سيَقبلهم إن قاموا بتطبيق الوصايا العشر؛ لكن للأسف الشديد فقد اختاروا طريقاً قادهم إلى بَريَّة روحيَّة قاحلة. بالمقابل، كانت هناك فئة من بني إسرائيل مستعدة للسماح لله بإظهار طريق القبول الوحيد عنده.

في ضوء ما يقوله الكتاب المقدَّس ككُل، لنُفكِّر قليلاً في السؤال التالي: لو كان الله يكتب خطَّة دَرس لتعليم الإنسان ما ينبغي عليه فعله بالتحديد لكي يكون باراً أمامه، فكيف كان سيبدأ؟ أو ما هي النقطة الأولى التي سينطلق منها في شرح هذا الدرس؟

خطَّة الدرس – النقطة الأولى

مثال توضيحي: بينما كان أحد الأشخاص يسبح في النهر جرفه التيار القوي فراح يتخبَّط ويصرخ طلباً للنجدة! كان هناك بعض الأشخاص المتواجدين في المكان؛ لكنَّ أحداً منهم لم يكُن قادراً على مساعدته باستثناء سبَّاحٍ قويٍّ وماهر.

استمر الناس في حَثِّ ذلك المُنقذ على مساعدة الرجل الغريق لكنه لم يُصغ لهم؛ بل وقف يراقب ما يجري مثل الآخرين. وحينما أصبح ذلك الرجل الغريق يائساً من وجود من يُنقذه، قفز ذلك السبَّاح الماهر في الماء وسحب الغريق إلى ضفَّة النهر.

وحينما بدأ الناس ينتقدون ذلك المُنقذ على تأخُّره أجابهم قائلاً: «لم يكُن ذلك الرجُل الغريق ليسمح لي بإنقاذه طالما أنه كان يمتلك بعض القُوَّة. ولم يكُن بمقدوري مساعدته وإنقاذه إلاَّ إذا استسلم وتوقَّف عن محاولة مساعدة نفسه بنفسه.[١]

الخُلاصة: الخطوة الأولى للاقتراب من الله هي أن تُدرك أنك خاطئ لا حَول لك ولا قُوَّة، وأنك عاجز عن تخليص نفسك بنفسك من العقاب الأبدي للخطيَّة.

لو قام الله باستعراض درسه بهذه الطريقة لكُنت قد سمعت بني إسرائيل يصرخون قائلين: لكنك يا رب أوضحت هذه النقطة من قَبل. نحن نعرف هذا!» ولكان الله أجابهم قائلاً: «أجل، أنا أعرف ذلك، لكن هذه هي النقطة الرئيسية التي أريدكم أن تفهموها. فالخطوة الأولى لكي أقبلكم هي أن تُدركوا أنكم خُطاة عاجزون عن تخليص أنفسكم. فأنا لا أُخلِّص إلاَّ الأشخاص الذين توقفوا عن محاولة تخليص نفسهم بأنفسهم».

قد يكون هذا الدرس افتراضياً، لكنَّ تطبيقه العملي واقعي وحقيقي. فهذا هو ما يُعلِّمه الكتاب المقدَّس. والآن، لنتقدَّم خطوة أخرى إلى الأمام.

> وَكَلَّمَ الرَّبُّ مُوسَى قَائِلاً: «كَلِّمْ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ يَأْخُذُوا لِي تَقْدِمَةً. مِنْ كُلِّ مَنْ يَحِثُّهُ قَلْبُهُ تَأْخُذُونَ تَقْدِمَتِي. ... فَيَصْنَعُونَ لِي مَقْدِسًا لأَسْكُنَ فِي وَسَطِهِمْ» (خروج ٢٥: ١، ٢، ٨)

وسيلة إيضاح بصريَّة

كان ينبغي على بني إسرائيل أن يبنوا مَقْدِسَاً (أو مكاناً مُقدَّساً) يُدعى خَيمة الاجتماع

لكي يسكُن الله في وسطهم. وبالطبع لم يطلُب الله منهم أن يفعلوا ذلك لأنه يحتاج إلى مسكن، بل كان قصد الله أن يُقدِّم لهم وسيلة إيضاح بصريَّة. وأثناء دراستنا، سوف نتمكَّن من فهم المعنى الكامل وراء ذلك شيئاً فشيئاً. وحيث أنَّ شرح ذلك يحتاج إلى العديد من الصفحات، فأرجو أن تصبر وتُكمل قراءتك لهذا الفصل قبل أن تنتقل إلى الفصل الذي يليه لأنَّ هذا الفصل يُعتبر جُزءاً هامَّاً من قصَّتنا.

بدأ الأمر بأن طلب الله بعض المُتطوِّعين لمشروع البناء. فقد كان الله يريد من الناس أن يُعطوا من تلقاء أنفسهم ومن صميم قلوبهم دون إكراه. بعبارة أخرى كان الأمر متروكاً لكل شخص لكي يُقدِّم ما يشاء. لكن رغم ذلك، فقد أوضح الله نقطة واحدة هامَّة للغاية:

«بِحَسَبِ جَمِيعِ مَا أَنَا أُرِيكَ مِنْ مِثَالِ الْمَسْكَنِ، وَمِثَالِ جَمِيعِ آنِيَتِهِ هكَذَا تَصْنَعُونَ» (خروج ٢٥: ٩)

التصميم الأصلي

كانت خيمة الاجتماع هذه قابلة للفك والتركيب لكي يسهل حملها ونقلها من مكان لآخر. وكانت جدران الخيمة مصنوعة من ألواح خشبية، وسقفها مصنوعاً من أقمشة تشبه السجَّاد. وكانت خيمة الاجتماع مؤلفة من قسمين: القسم الأوَّل يشغل ثُلث الخيمة ويُسمَّى «قُدس الأقداس»؛ والقسم الثاني يشغل ثُلثي الخيمة ويُسمَّى «القُدس». وكانت هناك ستارة سميكة تفصل بين «القُدس» و«قُدس الأقداس»؛ وغالباً ما تُسمَّى هذه الستارة «الحجاب».

«فَيَفْصِلُ لَكُمُ الْحِجَابُ بَيْنَ الْقُدْسِ وَقُدْسِ الأَقْدَاسِ» (خروج ٢٦: ٣٣)

اكتمل بناء خيمة الاجتماع مع ساحتها الخارجية التي تُحيط بها ستائر كتَّانيَّة على شكل سياج يرتفع نحو سبعة أقدام (متران تقريباً) وكان هناك باب واحد فقط يؤدِّي إلى الساحة وخيمة الاجتماع.

كانت هناك سبع قطع أساسيَّة داخل الخيمة وفي الساحة الخارجية.[٢]

مُخطَّط عام لخيمة الاجتماع

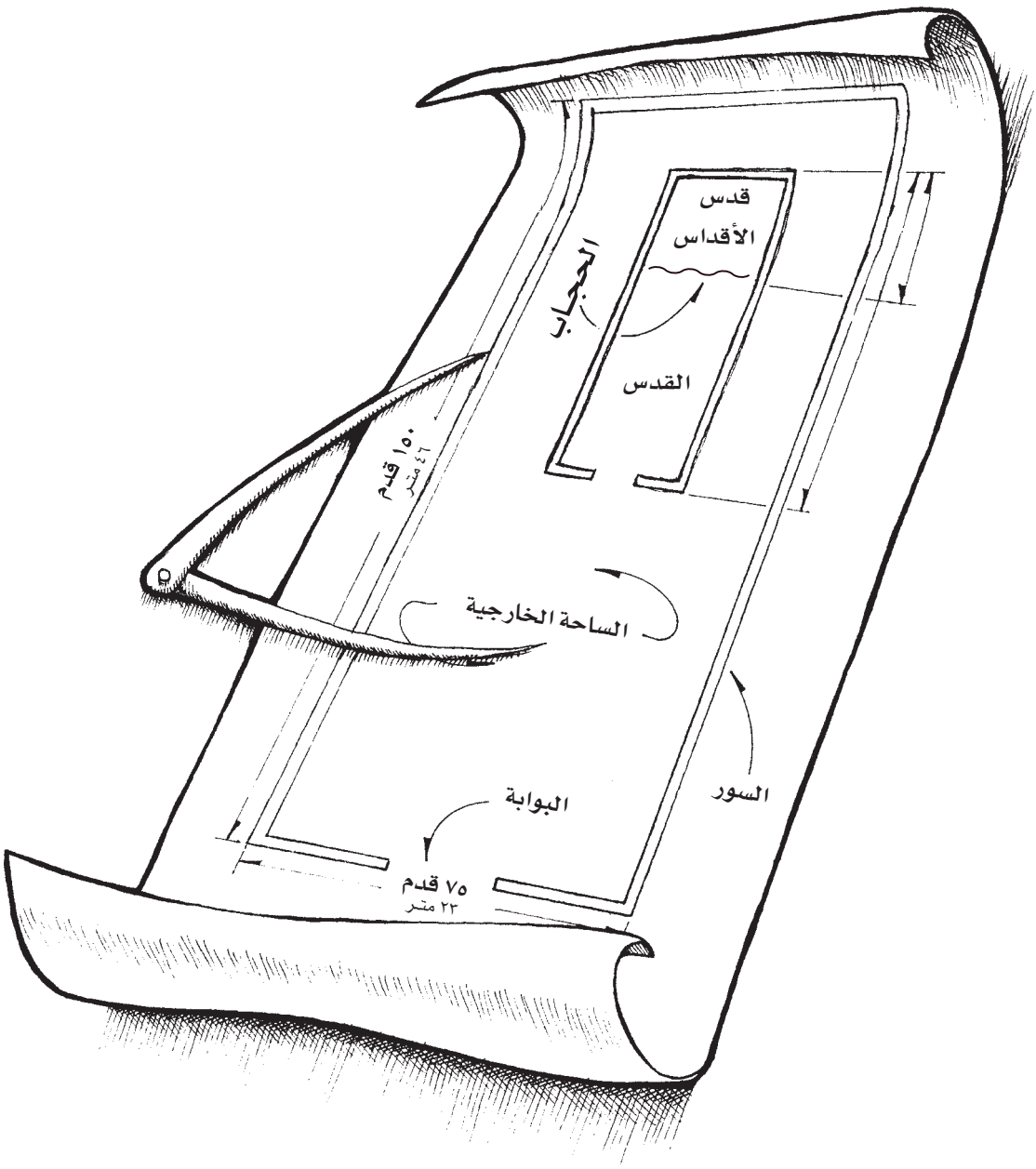

الساحة الخارجية

❶المذبح النحاسي:

كان المذبح موجوداً في الساحة الخارجية لخيمة الاجتماع، وكان كبير الحجم ومصنوعاً من خشب السّنط المُغطَّى بالنحاس. وكانت هناك أربعة قرون على زوايا المذبح الأربع، وعصوان جانبيان يُستخدمان لحمله.

❷المِرْحَضَة (حوض الاغتسال):

كان هذا الحوض الكبير موضوعاً في المنطقة الواقعة بين خيمة الاجتماع والمذبح النحاسي. كان الحوض مليئاً بالماء لكي يَستخدمه الكهنة لغسل أيديهم وأرجلهم قبل أن يدخلوا خيمة الاجتماع. وكان هذا الاغتسال ضرورياً للإشارة إلى أنَّ الإنسان لا يستطيع أن يأتي إلى الله ما لم يكُن طاهراً.

❸المنارة (الشمعدان):

لم يُحدِّد الله مقاسات هذا الشمعدان، لكنه حَدَّد شكله. فقد كان يتألف من جذع رئيسي وست شُعب جانبية (أي ما مجموعه سبعة سُرُج) وكان هذا الشمعدان هو المصدر الوحيد لإنارة خيمة الاجتماع.

❹مائدة الخُبز:

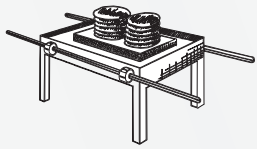

كان يوضع على هذه المائدة الخاصة اثني عشر رغيفاً من الخُبز يُمثِّل كُلٌّ منها أحد أسباط (قبائل) بني إسرائيل، وترمز إلى عناية الله بهم.

❺مَذبح البخور:

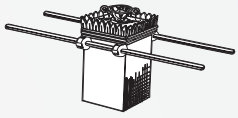

كان هذا المذبح موضوعاً أمام الحجاب الذي يفصل بين «القُدس» و«قُدس الأقداس» وكان المذبح مُخصَّصاً لتقديم البخور العَطِر فقط بينما يجتمع بنو إسرائيل خارجاً للصلاة. وكان البخور الصاعد إلى السماء يرمز إلى الصلوات المرفوعة إلى الله.

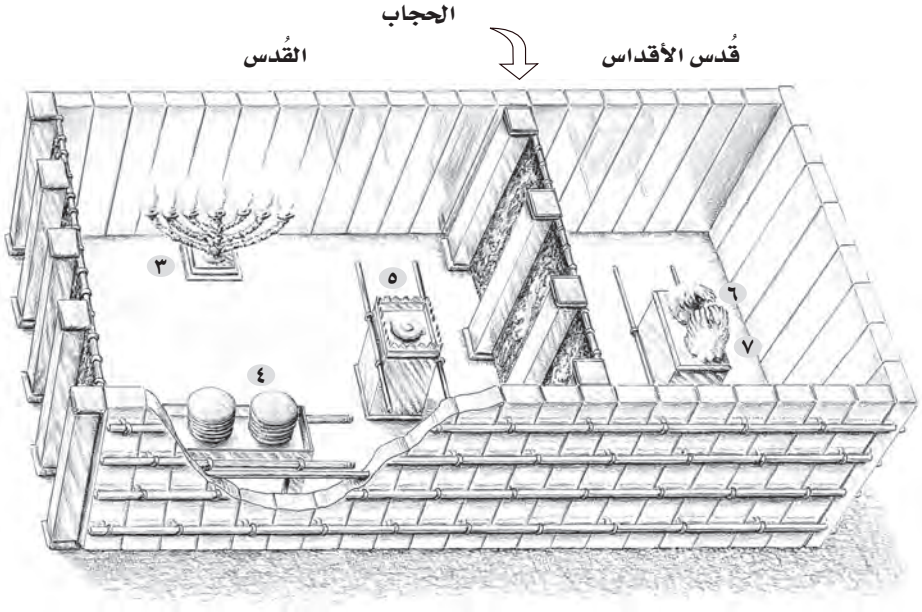

٦ تابوت العهد:

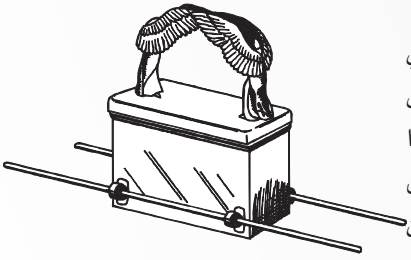

كان هذا الصندوق الخشبي المُغشَّى بالذهب الخالص مصنوعاً لكي يوضع فيه لوحا الوصايا العشر ووعاء يحتوي على عَيِّنة من الخُبز الذي كان الله يُزودهم به في البَريَّة.

٧ غطاء التابوت:

كان لتابوت العهد غطاء ذهبي وضع فوقه ملاكان مُتقابلان يبسطان أجنحتهما. ويُسمَّى هذا الغطاء أيضاً «كُرسي الرحمة» أو «عرش النعمة».

كان تابوت العهد وغطاؤه الشيئين الوحيدين الموجودين داخل قُدس الأقداس حيث قال الله:

«وَأَنَا أَجْتَمِعُ بِكَ هُنَاكَ وَأَتَكَلَّمُ مَعَكَ، مِنْ عَلَى الْغِطَاءِ مِنْ بَيْنِ الْكَرُوبَيْنِ اللَّذَيْنِ عَلَى تَابُوتِ الشَّهَادَةِ، بِكُلِّ مَا أُوصِيكَ بِهِ إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ»

(خروج ٢٥: ٢٢)

الكهنة

«وافْرِزْ لي هرون أخاكَ وأولادَهُ ... مِنْ بَيْنِ بَني إسرائيلَ لِيَكونوا لي كَهَنَةً» (خروج ٢٨: ١ - التفسيرية)

أمر الله موسى أن يُعيِّن هارون رئيساً للكهنة، وأولاده كهنة في خيمة الاجتماع. وقد فصل الله هؤلاء الأشخاص عن غيرهم لا لأنهم مُميِّزين عنهم، بل لكي يحترم الشعب قداسة الله. فلم يَقبل الله بوجود جماعة فوضويَّة تعتني بخيمة الاجتماع. لذلك، فقد تَمَّ تدريب الكهنة تدريباً خاصاً لكي يتبعوا تعليمات الله. وهكذا، أصبح هؤلاء الكهنة يشرفون على خيمة الاجتماع ويهتمون بها وبكل ما يتعلَّق بها أثناء ارتحال بني إسرائيل من مكانٍ لآخر.

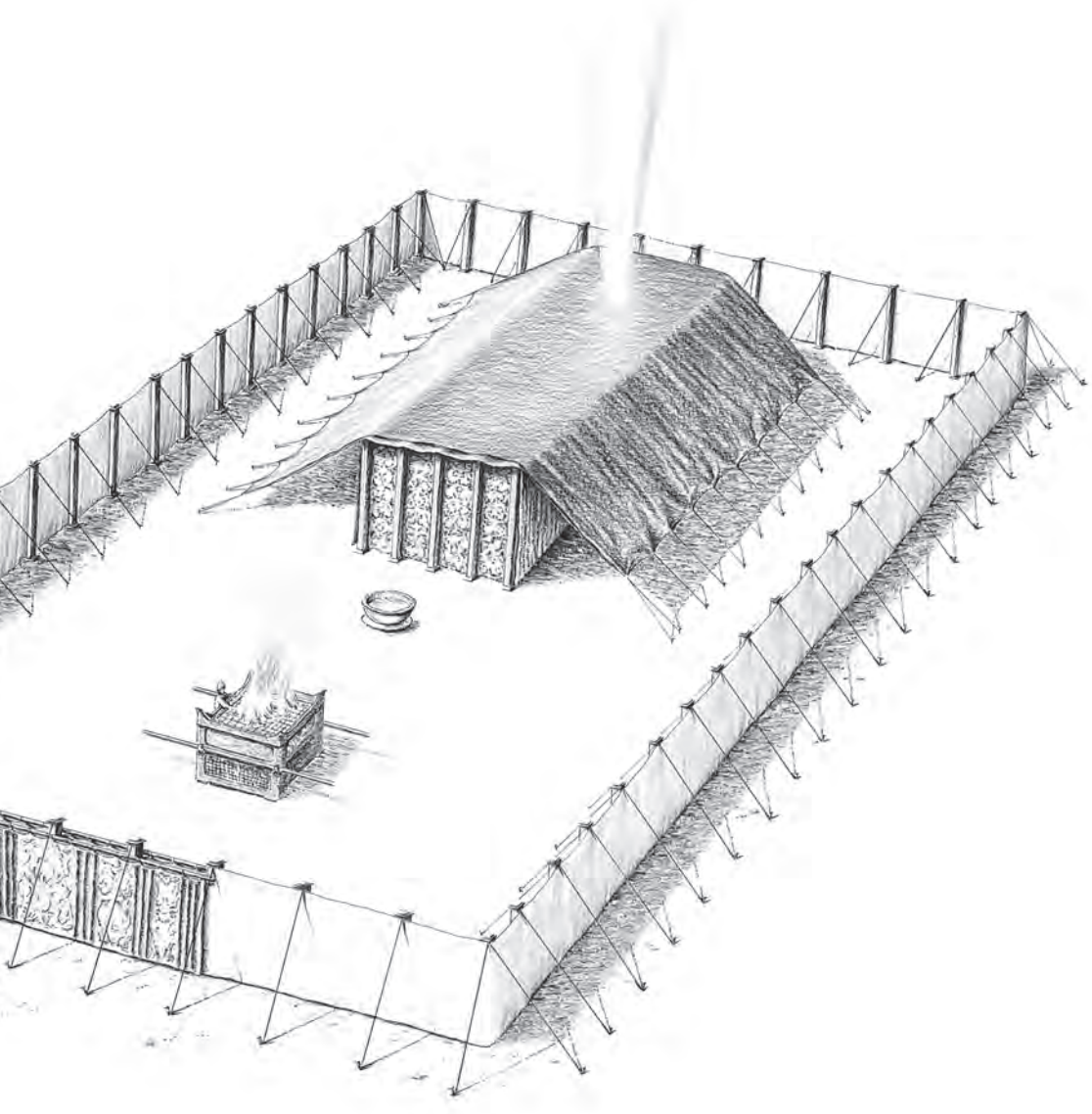

اكتمال خيمة الاجتماع

اكتمل بناء خيمة الاجتماع بعد تسعة شهور من وصول بني إسرائيل إلى جبل سيناء.

فَنَظَرَ مُوسَى جَمِيعَ الْعَمَلِ، وَإِذَا هُمْ قَدْ صَنَعُوهُ كَمَا أَمَرَ الرَّبُّ ...

(خروج ٣٩: ٤٣)

وَكَانَ فِي الشَّهْرِ الأَوَّلِ مِنَ السَّنَةِ الثَّانِيَةِ فِي أَوَّلِ الشَّهْرِ أَنَّ الْمَسْكَنَ أُقِيمَ (خروج ٤٠: ١٧)

باكتمال خيمة الاجتماع، استقرَّت السحابة (التي كانت تُرشد بني إسرائيل) فوق قُدس الأقداس. وكانت هذه السحابة تُشير إلى حضور الله في وسط شعبه.

ثُمَّ غَطَّتِ السَّحَابَةُ خَيْمَةَ الاجْتِمَاعِ ... فَلَمْ يَقْدِرْ مُوسَى أَنْ يَدْخُلَ خَيْمَةَ الاجْتِمَاعِ، لأَنَّ السَّحَابَةَ حَلَّتْ عَلَيْهَا وَبَهَاءُ الرَّبِّ مَلأَ الْمَسْكَنَ

(خروج ٤٠: ٣٤، ٣٥)

استخدام وسيلة الإيضاح البصريَّة

بعد أن اكتملت خيمة الاجتماع، كان الوقت قد حان لاستخدام وسيلة الإيضاح البصريَّة هذه. لذلك، قال الله لموسى:

كَلِّمْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَقُلْ لَهُمْ: إِذَا قَرَّبَ إِنْسَانٌ مِنْكُمْ قُرْبَانًا لِلرَّبِّ مِنَ الْبَهَائِمِ، فَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ تُقَرِّبُونَ قُرْبَانَكُمْ (لاويين ١: ٢)

كان الله يأمُر الإنسان بأن يُحضِر ذبيحةً إلى خيمة الاجتماع. أمَّا مواصفات هذه الذبيحة فهي على النحو التالي:

- أن تكون من البقر أو الغنم: «... فَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ تُقَرِّبُونَ قُرْبَانَكُمْ»

(لاويين ١: ٢)

فلا يُمكن أن تكون من الحيوانات الأخرى مثل الحصان أو الجمل.

- أن تكون ذكراً: «... فَذَكَرًا ...» (لاويين ١: ٣)
- أن تكون خالية من الأمراض والعاهات والعيوب: «... صَحِيحًا ...»

(لاويين ١: ٣)

وكان ينبغي على المرء أن يُقدِّم الذبيحة عند مدخل خيمة الاجتماع طلباً لرضى الله عنه:

«... إِلَى بَابِ خَيْمَةِ الاجْتِمَاعِ يُقَدِّمُهُ لِلرِّضَا عَنْهُ أَمَامَ الرَّبِّ» (لاويين ١: ٣)

كان يجب تقديم الذبائح على المذبح النحاسي* الموجود في الساحة الخارجية لخيمة الاجتماع. وكانت الخطوة الأولى للاقتراب من الله تتطلَّب أن يعترف الشخص بأنه خاطئ عديم الحيلة. بعد ذلك، كان ينبغي على الشخص الذي يُحضر الذبيحة أن يقوم بشيء آخر:

* غالباً ما يقترن استخدام «النحاس» في الكتاب المقدَّس بإدانة الخطيَّة.

«... وَيَضَعُ يَدَهُ عَلَى رَأْسِ الْمُحْرَقَةِ، فَيُرْضَى عَلَيْهِ لِلتَّكْفِيرِ عَنْهُ ...»

(لاويين ١: ٤)

حينما يضع المرء يده على رأس الذبيحة فكأنه بذلك يُوحِّد نفسه معها كبديل عنه وينقل خطيئته وحُزنه على خطاياه إلى ذلك الحيوان. وحيث أنَّ الحيوان قد حَمل خطيَّة الإنسان فلا بُدَّ أن يموت «لأنَّ أُجرة الخطيَّة موت». وهكذا، كان ذلك الشخص يذبح الحيوان إقراراً منه بأنَّ خطيَّته هي التي تسبَّبت في موت ذلك الحيوان.

وبهذا نرى موت البريء بدلاً عن الخاطئ. ويقول الكتاب المقدَّس إنَّ الله كان يَقبل الذبائح بدلاً عن الناس.

كان هذا الأمر مألوفاً لدى بني إسرائيل. ألم يكُن الأشخاص المؤمنون بالله منذ زمن آدم وهابيل ونوح يُقدِّمون لله ذبائح حيوانيَّة؟ بَلى.

مُخلِّص بارّ

قام الله من جديد بتذكير الشعب أنَّ الطريقة الوحيدة التي تجعلهم مقبولين لديه هي أن يؤمنوا بأنه:

«... إِلهٌ بَارٌّ وَمُخَلِّصٌ ...» (إشعياء ٤٥: ٢١)

وبتقديم الشعب للذبائح الحيوانية كانوا بذلك يُقدِّمون دليلاً خارجياً على ثقتهم الداخلية بالله. فقد كانت تلك دلالة قوية على أنهم يؤمنون بالرب. وبما أنَّ الموت هو عقاب الخطيَّة، فقد كانت الذبيحة تُصوِّر الأمر اللازم لغُفران الخطيَّة:

«... وَبِدُونِ سَفْكِ دَمٍ لاَ تَحْصُلُ مَغْفِرَةٌ» (عبرانيين ٩: ٢٢)

«لأَنَّ نَفْسَ الْجَسَدِ هِيَ فِي الدَّمِ، فَأَنَا أَعْطَيْتُكُمْ إِيَّاهُ عَلَى الْمَذْبَحِ لِلتَّكْفِيرِ عَنْ نُفُوسِكُمْ، لأَنَّ الدَّمَ يُكَفِّرُ عَنِ النَّفْسِ» (لاويين ١٧: ١١)

حينما كان الله يرى موت الحيوان، كان يَقبل بذلك على اعتبار أنَّ شَرط شريعة الخطيَّة والموت قد تحقَّق – فيجب أن يكون هناك ثمن للخطيَّة ألا وهو الموت. وهكذا، حينما كان المرء يُقدِّم ذبيحةً عن نفسه، لم يكُن الله يُطالبه بتسديد دَين خطيئته تلك، بل كان يحترم ثقة الإنسان به ويحسب له ذلك برًّا – تماماً كما فعل مع إبراهيم.

«... فَآمَنَ إِبْرَاهِيمُ بِاللهِ فَحُسِبَ لَهُ بِرًّا» (رومية ٤: ٣)

وحيث أنَّ ذلك البرّ يأتي من الله، فقد كان يُزوِّد الإنسان بالكمال الذي يحتاج إليه للمثول في مَحضر الله.

لم يكن هناك أي شيء جديد في هذا كُلِّه. فقد كانت هذه هي الطريقة التي مارسها هابيل، ونوح، وإبراهيم، وجميع الأبرار عبر التاريخ. لكن من المؤكَّد أنَّ دماء الحيوانات (أو حياتها) لا تلغي دَين الخطيَّة بالكامل عن الإنسان لأنَّ حياة الحيوان لا تُعادل في قيمتها حياة الإنسان. لذلك فإنَّ الكتاب المقدَّس يُعلِّمنا أنَّ الذبائح الحيوانية كانت:

«... ظِلاًّ وَاهِيَاً وسيلة تعليمية بصريَّة ... وَلَمْ تَكُنْ لِتُصَوِّرَ الحَقِيقَةَ كَما هِيَ. ... فَمِنَ المُسْتَحيلِ أَنْ يُزيلَ دَمُ الثِّيرانِ وَالتُّيوسِ خَطايا النَّاسِ»

(عبرانيين ١٠: ١، ٤ – التفسيرية)

يوم الكفَّارة

كان بإمكان الكهنة تأدية واجباتهم الدينية في مُحيط خيمة الاجتماع. لكن كان هناك استثناء واحد فقط ألا وهو أنهم لا يستطيعون الدخول إلى قُدس الأقداس.

كان قُدس الأقداس هو المكان الذي يُمثِّل بصورة رمزيَّة مَسكن الله مع الإنسان. لهذا، لم يكُن يُسمح لأيِّ شخص بالاقتراب من ذلك المكان أو حتَّى بإلقاء نظرة خاطفة عليه. لذلك، كان الحجاب الفاصل بين الغرفتين («القُدس» و«قُدس الأقداس») سميكاً ليحجب كل شيء عن العيون الفضوليَّة ويحمي أقدس مكان. وحتَّى أنه لم يكُن يُسمح لرئيس الكهنة («هارون») بدخول قدس الأقداس إلاَّ في يوم واحد في السنة ألا وهو «يوم الكفَّارة».[٢]

ولكنَّ رَئيسَ الكَهَنَةِ وَحدَهُ يَدخُلُ إلى المَسكنِ الثَّاني مرَّةً في السَّنَة، ولا يَدخُلُها إلاَّ ومعَهُ الدَّمُ الَّذي يُقَدِّمُهُ كَفّارَةً لِخَطاياهُ وللخطايا الَّتي ارتَكَبَها الشَّعبُ عَنْ جَهلٍ مِنهُم. (عبرانيين ٩: ٧ – المشتركة)

أمَّا إذا لم يتقيَّد هارون بأوامر الله فكان مصيره الموت:

وَقَالَ الرَّبُّ لِمُوسَى: «كَلِّمْ هَارُونَ أَخَاكَ أَنْ لاَ يَدْخُلَ كُلَّ وَقْتٍ إِلَى الْقُدْسِ دَاخِلَ الْحِجَابِ أَمَامَ الْغِطَاءِ الَّذِي عَلَى التَّابُوتِ لِئَلاَّ يَمُوتَ، لأَنِّي فِي السَّحَابِ أَتَرَاءَى عَلَى الْغِطَاءِ» (لاويين ١٦: ٢)

كان يوم الكفَّارة هو مناسبة سنويَّة لتذكير الإنسان بحاجته لسَتر خطيئته عن عيني الله. وكان هذا اليوم يتكرَّر في كل سنة لأنَّه رغم أنَّ الله لم يكُن يُحاسب الشعب على خطاياهم التي يُكفِّرون عنها بتقديم ذبائح حيوانية، إلاَّ أنَّ تلك الذبائح الحيوانية لم تكُن قادرة على إزالة دَيْن الخطيَّة. فقد كان ذلك الدم مُجرَّد كفَّارة مؤقتة (أو غطاء مؤقَّت)

كانت خيمة الاجتماع، والأثاث الموجود فيها وخارجها، والكهنة، والذبائح، ويوم الكفَّارة جُزءاً من

وسيلة الإيضاح البصريَّة التي استخدمها الله مع الشعب. وقد ساعدت هذه الوسيلة على شرح الأمر الذي كان الله يعتزم القيام به من أجل البشر جميعاً.

٢ . عدم الإيمان

كان بنو إسرائيل يتعلَّمون المزيد والمزيد عن الله. وكان الله أميناً معهم حيث كان يوفِّر لهم ما يحتاجونه من طعام وماء. ويقول لنا الكتاب المقدَّس إنَّ عناية الله بهم وصلت إلى حَدٍّ جعل أحذيتهم متينة جداً بحيث لا تهترئ بسهولة. كذلك، كان لدى بني إسرائيل قانون أخلاقي يعيشون بموجبه. ورغم أنَّ مراعاتهم للوصايا العشر لم تجعلهم مقبولين لدى الله، إلاَّ أنها قدَّمت لهم معياراً للحياة الصحيحة التي من شأنها توحيد الأمَّة. وهكذا فقد أصبحوا يعرفون الصواب من الخطأ. كما أنَّ الله أظهر لهم محبته عن طريق تقديم طريقة يُصبحون فيها مقبولين أمامه – بالإيمان – من خلال الذبائح الدمويَّة. وربما تعتقد أنَّ بني إسرائيل كانوا شاكرين ومُمتنِّين للأبد بسبب كل ما كان الرب يفعله لأجلهم. لكن حتَّى لو كانوا شاكرين فإنَّ تصرفاتهم لم تُظهر ذلك لأنهم بدؤوا يتذمَّرون ويشكون ثانيةً.

وفي حال أننا نعتقد أنفسنا أبراراً، أو أننا نظن أنَّ بني إسرائيل هُم وحدهم العنيدين وقساة القلب، يجب علينا أن نتذكر بأننا مخلوقين من نفس الدم واللحم.

في الأصل، كان بنو إسرائيل يعملون كمُمثِّلين عن الجنس البشري بأكمله. ورغم أنهم أصبحوا يعرفون الله بصورة أفضل سنة تلو الأخرى، إلاَّ أنَّ هذه المعرفة العميقة جعلتهم عُرضة للمزيدٍ من المسئوليَّة حيث يقول الكتاب المقدَّس:

«... فَكُلُّ مَنْ أُعْطِيَ كَثِيرًا يُطْلَبُ مِنْهُ كَثِيرٌ، وَمَنْ يُودِعُونَهُ كَثِيرًا يُطَالِبُونَهُ بِأَكْثَرَ» (لوقا ١٢: ٤٨)

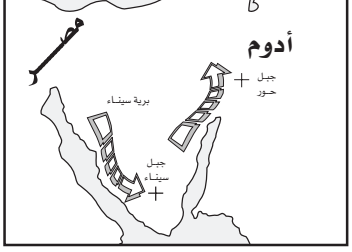

وممَّا لا شَكَّ فيه أنَّ بني إسرائيل كانوا في ذلك الوقت يعرفون عن الله أكثر من أيِّ أُمَّة أخرى على وجه الأرض. رغم ذلك فإننا نقرأ في كلمة الله أنهم استمروا في شكواهم وتذمُّرهم:

وَارْتَحَلُوا مِنْ جَبَلِ هُورَ فِي طَرِيقِ بَحْرِ سُوفٍ لِيَدُورُوا بِأَرْضِ أَدُومَ، فَضَاقَتْ نَفْسُ الشَّعْبِ فِي الطَّرِيقِ. وَتَكَلَّمَ الشَّعْبُ عَلَى اللهِ وَعَلَى مُوسَى قَائِلِينَ: «لِمَاذَا أَصْعَدْتُمَانَا مِنْ مِصْرَ لِنَمُوتَ فِي الْبَرِّيَّةِ؟ لأَنَّهُ لاَ خُبْزَ وَلاَ مَاءَ، وَقَدْ كَرِهَتْ أَنْفُسُنَا الطَّعَامَ السَّخِيفَ!» (عدد ٢١: ٤، ٥)

كانت تلك الاتِّهامات خاطئة وغير صحيحة؛ فقد كان الله يُسدِّد كل احتياجاتهم. لكن عوضاً عن أن يشكروا الرب على عنايته اليومية بهم، راحوا يتَّهمونه بالإهمال والتقصير. وبذلك، فقد تجاهلوا شريعة الله بأن كذبوا وأهانوا اسم الله.

وكما رأينا سابقاً، فإنَّ مخالفة وصايا الله تستوجب العقاب. فكما أنَّ عدم مُراعاتنا لقانون الجاذبيَّة يمكن أن تؤدي إلى كسر عظامنا أو حتَّى موتنا، فإنَّ التعدِّي على شريعة الله الأخلاقيَّة له عواقبه هو الآخر.

في الماضي، تغاضى الله مراراً* عن خطايا الشعب وكان رحيماً معهم. لكنَّ بني إسرائيل لم يكونوا مُبتدئين في علاقتهم مع الله خالقهم ومالكهم. فقد تعلَّموا الكثير من الأشياء عنه، وهُم يعرفون الوصايا العشر ممَّا جعلهم عُرضة للمسئولية. لذلك، لم يكن بإمكان الله أن يتغاضى عن خطايا الشعب وأن يقول: «لا بأس، سوف أتظاهر بأنها لم تحدُث». فالخطيَّة لها عواقبها دائماً:

*يتغاضى الله عن الخطيَّة لفترة ما فقط؛ لكنه يُدين جميع الخطايا في نهاية المطاف. قارن أعمال ١٧: ٣٠.

«فَأَرْسَلَ الرَّبُّ عَلَى الشَّعْبِ الْحَيَّاتِ الْمُحْرِقَةَ، فَلَدَغَتِ الشَّعْبَ، فَمَاتَ قَوْمٌ كَثِيرُونَ مِنْ إِسْرَائِيلَ»
(عدد ٢١: ٦)

قال الله منذ البداية إنَّ الخطيَّة ستؤدي إلى الموت: جسديَّاً، وعلاقيَّاً، وروحيَّاً. وقد بيَّن الله هذه الحقيقة بصورة واضحة تماماً حيث أرسل حيَّات سامَّة لدغت الكثيرين منهم فماتوا.

شعر بنو إسرائيل باليأس وأدركوا أنَّه ما من أحد يستطيع أن يُنقذهم من عقاب الله سوى الله نفسه. وهكذا فقد أدركوا أنهم بلا حَول ولا قُوَّة.

فَأَتَى الشَّعْبُ إِلَى مُوسَى وَقَالُوا: «قَدْ أَخْطَأْنَا إِذْ تَكَلَّمْنَا عَلَى الرَّبِّ وَعَلَيْكَ، فَصَلِّ إِلَى الرَّبِّ لِيَرْفَعَ عَنَّا الْحَيَّاتِ» (عدد ٢١: ٧)

إنَّ قصد الله من الدينونة أو العقاب هو أن يُحدِث تغييراً في مواقفنا وتفكيرنا.

وفي الكتاب المقدَّس، يتم التعبير عن هذا التغيير بكلمة «توبة». ولا يُمكن للإنسان أن يتوب ويرجع إلى الله إلاَّ أثناء حياته على الأرض. أمَّا بعد أن يموت المرء جسدياً ويقف أمام الله للقصاص والدينونة فسوف يكون الوقت قد فات على التوبة (تغيير الموقف أو الفكر).

اعترف بنو إسرائيل بأنَّ ما عملوه كان خطيَّةً، وتابوا، والتمسوا من الله أن يُخلِّصهم. وبهذا، فقد رجعوا إلى الثقة بالله من جديد:

فَصَلَّى مُوسَى لأَجْلِ الشَّعْبِ. فَقَالَ الرَّبُّ لِمُوسَى: «اصْنَعْ لَكَ حَيَّةً مُحْرِقَةً وَضَعْهَا عَلَى رَايَةٍ، فَكُلُّ مَنْ لُدِغَ وَنَظَرَ إِلَيْهَا يَحْيَا». فَصَنَعَ مُوسَى حَيَّةً مِنْ نُحَاسٍ وَوَضَعَهَا عَلَى الرَّايَةِ، فَكَانَ مَتَى لَدَغَتْ حَيَّةٌ إِنْسَانًا وَنَظَرَ إِلَى حَيَّةِ النُّحَاسِ يَحْيَا (عدد ٢١: ٧-٩)

لم تكُن الحيَّة النُحاسيَّة المرفوعة على عمود حيلة أو خدعة أو سحراً؛ بل كان الله يُعطي بني إسرائيل فرصة أخرى لإظهار إيمانهم به. فإذا لدغت الحيَّة أحدهم، كان كُلُّ ما ينبغي عليه فعله هو الالتفات والنظر إلى تلك الحيَّة النُحاسيَّة لكي يشفى. وبتلك النظرة، كان كل شخص يُعبِّر عن إيمانه بالرب وثقته بأنَّ الله صادق في كلمته.

والآن لنفترض أنَّ شخصاً ما لدغته حيَّة ولم ينظُر إلى الحيَّة النُحاسيَّة؛ بل قال لجيرانه: «لا بُدَّ أنَّ موسى المُسنَّ رجل مُختل عقلياً. فإن كان يعتقد أنَّ النظر إلى الحيَّة النُحاسيَّة السخيفة سيشفي الناس من لدغات الحيَّات السامَّة فمن المؤكد أنه مَخبول! أنا لا أؤمن بذلك». في هذه الحالة سوف يموت هذا الرجل لا بسبب لدغة الحيَّة فحسب، بل وأيضاً بسبب عدم إيمانه بالله. فالله يُكرِم الإيمان ويُدين عدم الإيمان.

من المهم جداً أن نعرف أنَّ الله يُحَمِّلنا مسئوليَّة كل شيء نعرفه عنه. لذلك، يجب أن نُدرك مسئوليتنا عن كل ما نعرفه ونقوم به.

مُراجعة: الموت

يتحدَّث الكتاب المقدَّس عن الموت بثلاث طُرق مُختلفة:

١- موت الجسد: انفصال روح الإنسان عن جسده.

٢- موت العلاقة: انفصال روح الإنسان عن الله.

٣- موت الفرح الأبدي: انفصال روح الإنسان عن الله إلى أبد الآبدين.

... لأَنَّ أُجْرَةَ الْخَطِيَّةِ هِيَ مَوْتٌ ... (رومية ٦: ٢٣)

٣ . قُضاة، وملوك، وأنبياء

نأتي الآن إلى درس يوجز قروناً من الأحداث في بضع صفحات فقط. وإلى الأشخاص غير المُغرمين بالتاريخ، أرجو أن تعرفوا أنَّ هذا الدرس سيكون خفيف الظل. وحتَّى لو لم تفهموا كل التفاصيل، فسوف تحصلون على خلفيَّة بسيطة تُساعدكم لاحقاً. وقد يكون من المفيد أن تقارنوا العناوين المُدوَّنة في بداية كل قسم مع الجدول الزمني الموجود في نهاية هذا الفصل.

انقضت أربعون سنة منذ أن غادر بنو إسرائيل مصر ودخلوا أرض كنعان. وقد مات موسى قبل أن يدخل الأرض الموعودة وحَلَّ محلَّه قائد قدير اسمه «يشوع».

بعد أن دخل بنو إسرائيل أرض كنعان، انقضت عِدَّة سنوات قبل أن يتمكنوا من الاستيطان فيها بشكل كامل. وقد تَمَّ تقسيم الأرض بين الأسباط. وفي مُعظم الحالات، كان كل سبط يُمثِّل واحداً من أبناء يعقوب (أو إسرائيل) الاثني عشر.

زمن القضاة

آمن بنو إسرائيل بالله لفترة من الوقت؛ لكنهم سُرعان ما بدأوا بالانحراف عن الحق شيئاً فشيئاً إلى أن انتهى بهم الأمر إلى عبادة الأوثان. لهذا، عاقب الله بني إسرائيل على عبادتهم لتلك الآلهة الزائفة بأن سمح لأمم أجنبيَّة بغزوهم وإرغامهم على خدمتهم ودفع الجزية. وفي وقت لاحق، ندم بنو إسرائيل وراحوا يصرخون إلى الله لكي يُخلِّصهم من مُضطهديهم. وهكذا، أقام الله قادةً (يُطلق عليهم في الكتاب المقدَّس اسم «قُضاة») يقودون بني إسرائيل في طرد هؤلاء الغُزاة. وهكذا، بقي الله يُرسل قُضاةً إلى بني إسرائيل طوال ٣٠٠ سنة تقريباً فبلغ عددهم ١٥ قاضياً. وكانت الدورة التي يدور فيها بنو إسرائيل بصورة دائمة ومستمرة هي على النحو التالي:

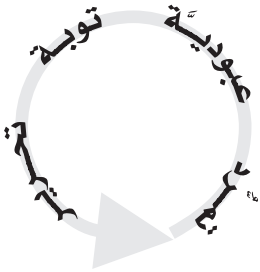

استخدم الله في بعض الأوقات أُمماً أخرى لمعاقبة بني إسرائيل حينما كانوا يعبدون آلهة زائفة. وفي أوقات أخرى، كان الله يستخدم بني إسرائيل لمعاقبة بعض الأمم الأخرى بسبب عبادتها للأوثان. وهكذا، فإنَّ الله لا يعرف المُحاباة ولا التمييز؛ بل هو يريد من كل الشعوب والأمم أن تثق به هو وحده دون سواه.

زمن الملوك

كان بنو إسرائيل الأكثر امتيازاً بين جميع أمم العالم لأنَّ الله نفسه كان قائدهم وملكهم.

لكن مع مرور الوقت، راح بنو إسرائيل يُراقبون الأمم الأخرى. وعندها، رفضوا الله وطالبوا بوجود ملك بشري عليهم. ورغم أنَّ الله استجاب لطلبهم، إلاَّ أنَّ ميلهم للزوغان وعبادة الأوثان بقي على حاله.

اعتلى عرش بني إسرائيل ملوك كثيرون، لكنَّ الملوك الذين آمنوا بالرب وأطاعوه كانوا قليلين. لذلك، استمرَّت دورة السنوات الماضية (تمرُّد – عبوديَّة – توبة – تحرير) مع وجود اختلاف واحد فقط ألا وهو وجود مُلوك بدلاً من القُضاة على بني إسرائيل.

بَرَز عدد من هؤلاء الملوك. وربما كان أعظم وأفضل هؤلاء الملوك هو الملك داود الذي آمن بالله إيماناً حقيقيًّاً ووضع ثقته فيه وذلك خلافاً للكثير من الملوك الذين ملكوا على بني إسرائيل. فقد آمن داود أنَّ الله هو الوحيد الذي يُمكنه أن يُخلِّصه من عقاب الخطيَّة. وقد أطلق داود على الرب لقب «مُخلِّص».

كذلك، كان الملك داود نبيًّاً عظيماً. وقد ألهمه الله بكتابة بعض النصوص المقدَّسة حيث اشتهر بكتابة الكثير من الأناشيد الروحيَّة التي عَبَّر فيها عن حمده وتسبيحه لله على محبته ورحمته. كما كتب داود عن المُخلِّص الموعود. وقد وعد الله داود بأنَّ المُخلِّص الموعود سيكون من نَسله.[٤] كان الملك داود يطمح بأن يستبدل خيمة الاجتماع المُتنقِّلة بمبنى دائم يتبع التصميم نفسه ويُدعى «هيكل». وقد أراد أن يبني هذا الهيكل في أورشليم التي أصبحت العاصمة في عهده. ورغم أنَّ داود جمع المواد اللازمة للبناء، إلاَّ أنَّ ابنه سُليمان هو الذي قام ببناء الهيكل فعليًّاً.

لم يكُن الملك سُليمان معروفاً بحكمته فحسب، بل عُرف بالهيكل الذي بناه أيضاً. وقد بُني هذا الهيكل المهيب في أورشليم على جبل المُريَّا (رُبَّما في نفس المكان الذي أوشك فيه النبي إبراهيم على تقديم ابنه إسحاق ذبيحة لله).

بعد موت سُليمان، انقسمت الأمَّة إلى قسمين: احتفظت الأسباط (أو القبائل) العشرة الشماليَّة باسم «إسرائيل»، في حين أصبح السِّبطان الجنوبيَّان يُشكِّلان شعب «يهوذا». ويبدو أنَّ هذا التقسيم كان أوَّل خطوة لابتعاد بني إسرائيل عن الله بصورة شبه دائمة. وقد كانت الأسباط الشماليَّة هي السَّبَّاقة إلى هذا الأمر. كان الشعب يتظاهر بإطاعة الله؛ لكنَّ قلوبهم كانت بعيدة كل البعد عنه. لهذا، فقد أخفقوا في أن يكونوا شهادة حَيَّة للعالم بالطريقة التي تُرضي الله.

الأنبياء

أرسل الله العديد من الأنبياء إلى بني إسرائيل فوعظوهم بشأن السلوكيات الأخلاقيَّة المُنحرفة وحذَّروهم من الدينونة القادمة. وقد دَوَّى صوت هؤلاء الأنبياء ضد بني إسرائيل مُحذِّرين إيَّاهم بأنَّ الله سيُدينهم ويُعاقبهم بسبب أنانيتهم وشرورهم حيث أنهم أصبحوا قُساة القلوب تجاه الغُرباء، ولم يعودوا يتعاطفون مع الضعفاء، وراحوا يستولون على ما ليس لهم:

هَذَا مَا يَقُولُهُ الرَّبُّ: مِنْ أَجْلِ مَعَاصِي إِسْرَائِيلَ الثَّلاثِ وَالأَرْبَعِ لَنْ أَرُدَّ عَنْهُمْ سَخَطِي، لأَنَّهُمْ بَاعُوا

الصِّدِّيقَ لِقَاءَ الْفِضَّةِ، وَالْبَائِسَ مُقَابِلَ نَعْلَيْنِ. الَّذِينَ يَسْحَقُونَ رَأْسَ الْمِسْكِينِ فِي التُّرَابِ، وَيَجُورُونَ عَلَى الْبَائِسِينَ، وَيُعَاشِرُ الرَّجُلُ وَابْنُهُ امْرَأَةً وَاحِدَةً، فَيَتَدَنَّسُ بِذَلِكَ اسْمِي الْمُقَدَّسُ. يَرْقُدُونَ إِلَى جُوَارِ الْمَذْبَحِ فَوْقَ ثِيَابٍ مَرْهُونَةٍ، وَيَشْرَبُونَ فِي هَيْكَلِ إِلَهِهِمْ خَمْرَ الْمُغَرَّمِينَ.

(عاموس ٢: ٦-٨ – التفسيرية)

وقد أوحى الله إلى العديد من الأنبياء لكتابة الأسفار المقدَّسة فكتبوا وقدَّموا معلومات مُحدَّدة عن المُخلِّص الموعود الذي سيأتي.

وبصورة عامَّة، لم يَلْقَ هؤلاء الأنبياء استقبالاً حسناً من بني إسرائيل لأنهم كانوا يُبلغونهم رسالةً لا يرغبون في سماعها. فعلى سبيل المثال، قال النبي إشعياء للشعب:

لِذَلِكَ يَقُولُ الرَّبُّ: لأَنَّ هَذَا الشَّعْبَ يَقْتَرِبُ مِنِّي بِفَمِهِ وَيُكْرِمُنِي بِشَفَتَيْهِ، بَيْنَمَا قَلْبُهُ بَعِيدٌ عَنِّي. وَمَا مَخَافَتُهُمْ مِنِّي سِوَى تَقْلِيدٍ تَلَقَّنُوهُ مِنَ النَّاسِ.

(إشعياء ٢٩: ١٣ – التفسيرية)

احتقر الجزء الأكبر من بني إسرائيل رسالة الأنبياء ورفضوا وضع ثقتهم بالله. بل إنهم تمادوا وقتلوا الكثير من أولئك الأنبياء. والأسوأ من ذلك هو ظهور العديد من الأنبياء الكذبة الذين استخدمهم الشيطان لتضليل الشعب. ورغم أنَّ الله قَدَّم لشعبه تعليمات واضحة للتمييز بين الصواب والخطأ، إلاَّ أنَّ الأنبياء الكذبة كانوا أكثر شعبيَّةً من الأنبياء الحقيقيين وذلك لأنهم كانوا يقولون للشعب ما يُريدون سماعه فقط. وهكذا، أرسل الله النبي إرميا إلى الشعب لكي يُحذِّرهم من الأنبياء الكذبة:

هكَذَا قَالَ رَبُّ الْجُنُودِ: «لاَ تَسْمَعُوا لِكَلاَمِ الأَنْبِيَاءِ الَّذِينَ يَتَنَبَّأُونَ لَكُمْ، فَإِنَّهُمْ يَجْعَلُونَكُمْ بَاطِلاً. يَتَكَلَّمُونَ بِرُؤْيَا قَلْبِهِمْ لاَ عَنْ فَمِ الرَّبِّ. قَائِلِينَ قَوْلاً لِمُحْتَقِرِيَّ: ‘قَالَ الرَّبُّ: يَكُونُ لَكُمْ سَلاَمٌ!’ وَيَقُولُونَ لِكُلِّ مَنْ يَسِيرُ فِي عِنَادِ قَلْبِهِ: ‘لاَ يَأْتِي عَلَيْكُمْ شَرٌّ’ . . . لَمْ أُرْسِلِ الأَنْبِيَاءَ بَلْ هُمْ جَرَوْا. لَمْ أَتَكَلَّمْ مَعَهُمْ بَلْ هُمْ تَنَبَّأُوا. وَلَوْ وَقَفُوا فِي مَجْلِسِي لأَخْبَرُوا شَعْبِي بِكَلاَمِي وَرَدُّوهُمْ عَنْ طَرِيقِهِمِ الرَّدِيءِ وَعَنْ شَرِّ أَعْمَالِهِمْ» (إرميا ٢٣: ١٦، ١٧، ٢١، ٢٢)

تشتُّت بني إسرائيل

في نهاية المطاف، أنزل الله دينونته على شعبه. فقد غزا الأشوريُّون الأسباط العشرة الشماليَّة في سنة ٧٢٢ قبل الميلاد وأخذوهم أسرى (وهو ما يُعرف في الكتاب المقدَّس بـ «السَّبي»). ولا يُدوِّن لنا الكتاب المقدَّس عَودةً مُنظمةً لهؤلاء المَسبيين إلى أرض كنعان.

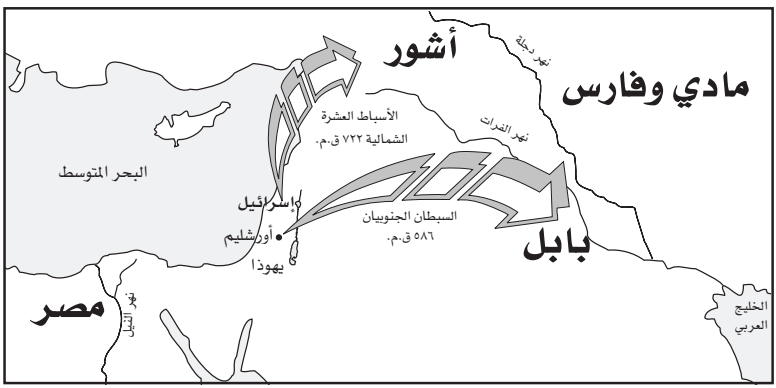

سبط يهوذا يتعرض للسبي

سبط يهوذا يتعرَّض للسبي

بقي السبطان الجنوبيان ككيان سياسي مُستقل حتَّى عام ٥٨٦ قبل الميلاد إلى أن اجتاح البابليُّون* مدينة أورشليم ودمَّروا هيكل سُليمان العظيم وسبوا الشعب.

أثناء وجود الشعب في السبي، بدأ يُطلق عليهم اسم «يهود» حيث أنَّ أغلبهم كانوا من سِبط يهوذا. وبما أنَّ الهيكل لم يعُد قائماً كمركز للعبادة، فقد قام اليهود بإنشاء المجامع** كمكان للتفاعُل الاجتماعي، والتعليم، ودراسة الأسفار المقدَّسة.

*البابليُّون: شعب ينتمي إلى المنطقة التي بُني فيها بُرج بابل.

**كلمة «مَجْمَع» تعني: مكان للاجتماع.

استمر السبي سبعين سنة. لكن في عام ٥٣٦ قبل الميلاد، بدأ السبطان الجنوبيان بالعودة إلى مكانهم السابق والاستقرار في أورشليم والمناطق المُحيطة بها والتي كان سبط يهوذا قد استولى عليها في السابق. وقد قام هؤلاء بإعادة بناء الهيكل رغم أنَّ الهيكل الجديد لم يكُن بفخامة وبهاء هيكل سُليمان. وبهذا، عاد هؤلاء إلى ممارسة نظام الذبائح.

تأثير اليونانيِّين

في نحو سنة ٤٠٠ قبل الميلاد توقَّف الوحي الإلهي وبقي صامتاً طوال أربعة قرون كاملة تقريباً. لكنَّ التاريخ لم يتوقَّف بالطبع. فقد قام القائد اليوناني الشهير «الإسكندر الكبير» باجتياح منطقة الشرق الأوسط واكتسح اليهود في تلك الغزوات. وقد قام مبعوثو الإسكندر الكبير بجعل اللغة اليونانيَّة لُغة التجارة. كما أنَّ الثقافة الهِلِّينيَّة أصبحت رمزاً للنفوذ والقوَّة لبضعة قرون لاحقة.

تبنَّت فئة من اليهود الثقافة الإغريقية ومزجتها بمعتقداتهم الدينية؛ وقد عُرفت هذه الفئة باسم «الصدّوقيّون». ورغم أنَّ هؤلاء الصدّوقيّين كانوا قليلي العدد، إلاَّ أنهم كانوا واسعي الثراء والنفوذ. لذلك، فقد سيطروا على رئيس الكهنة الذي أصبح منصبه عُرضة للبيع والشراء.

بقي اليهود تحت نير الاستعمار اليوناني لمُدَّة ٢٠٠ سنة تقريباً إلى أن ثاروا في سنة ١٦٦ قبل

الميلاد بقيادة شخص يُدعى «يهوذا المكابي» الذي قاد الشعب إلى فترة من الحُكم الذاتي.

في هذه الفترة، ظهر على الساحة أيضاً حزب من اليهود المُتحمِّسين دينيًّاً يُدعون «الفرّيسيُّون». حارب الفرِّيسيُّون ضد تأثير الثقافة اليونانية وتمسَّكوا بشريعة موسى. وبسبب حماسهم الزائد، فقد أحاطوا شريعة موسى بمجموعة أخرى من القوانين حتى لا يتمكن أحد من مُخالفة الشريعة الحقيقية. وقد أصبحت هذه القوانين الإضافيَّة سُلطة في حَدِّ ذاتها؛ بل أصبحت تُعادل شريعة موسى نفسها.

كذلك، كانت هناك جماعة ذات نفوذ مهمة في الحياة اليهوديَّة تُعرف باسم «الكَتَبة». فقبل اختراع الطباعة والمطابع، كان هؤلاء الكَتَبة ينسخون الأسفار المقدَّسة بعناية بالغة. وكانت كلمة «كاتب» تُشير إلى سِعة علمهم وحماسهم الديني. كما كان هذا الاسم يصف العمل الذي يقومون به أكثر ممَّا يصف حزبهم الديني أو السياسي. وللأسف الشديد، فقد كان الجهد الكبير الذي يبذلونه في نَسخ الأسفار المقدَّسة ممزوجاً بالكبرياء والعجرفة.

الرُّومان

استمَّرت حُريَّة اليهود في ظِلّ قيادة المكابيِّين لمدة لا تزيد عن ١٠٠ سنة. لكنَّ قبضة روما الحديدية جاءت لتسحق حُريَّة اليهود في سنة ٦٧ قبل الميلاد وذلك حينما دخل القائد العسكري «بومبي» القدس.

كانت روما مُتساهلة مع الديانة اليهوديَّة طالما أنَّ اليهود يدفعون الضرائب ولا يتمرَّدون عليها. وهكذا، فقد دخل العالم آنذاك في مرحلة سلام غير مُستقرَّة تماماً.

كانت الإمبراطوريَّة الرومانيَّة أكبر من أن تُدار بفعاليَّة من روما. لذلك، اختارت روما قادة محلِّيين لإدارة المناطق المختلفة. وقد تم تعيين رجُل يُدعى «هيرودس» على يهوذا (التي أصبحت آنذاك ولاية رومانيَّة) كمَلِك صُوَري فقط. وكان هيرودس هذا (المعروف باسم «هيرودس الكبير») رجلاً قاسياً جداً، وكان يتبع الديانة اليهودية بالاسم فقط. وقد حَكم هيرودس الكبير وسُلالته اليهود تحت ظِلّ السُّلطة الرومانية لمدة ١٠٠ سنة. وعلى أيِّ حال، كان الشعب يتوق للخلاص من حُكم هيرودس الكبير ويتمنَّى مجيء مُنقذ يُريحهم من معاناتهم.

انقضت أكثر من ألفي سنة على وَعد الله لإبراهيم بأنَّ المُخلِّص الموعود سيأتي من نَسله. وكان هناك عبر القرون أشخاص قلائل آمنوا بكلمة الله وحافظوا على علاقتهم السليمة مع الله. وكان هؤلاء المؤمنون الحقيقيون ينتظرون بشوق مجيء ذلك المُخلِّص. وفي تلك السنوات المُبكِّرة من الإمبراطوريَّة الرومانية، كان الأشخاص الذين يتمسَّكون بكل قوَّة بوعود الله ما زالوا ينتظرون تحقُّق هذا الوعد. وقد حان الوقت المُحدَّد لتحقُّق ذلك الوعد دون أن يدري الشعب بذلك. فقد أصبح المسرح جاهزاً. وعندها، لا بُدَّ أنَّ ملائكة السماء قد صمتت، ولا بُدَّ أنَّ الشيطان قد ارتعد. فَمَنْ سيكون هذا المُخلِّص الموعود يا تُرى؟

قال الأنبياء ...

كان الله يعرف أنَّ كثيرين سيأتون ويدَّعون أنهم ذلك المُخلِّص الموعود. ولكي يضمن الله أنَّ الناس سيتمكنون من التمييز بين الأشخاص الزائفين وبين المُخلِّص الحقيقي الموعود، فقد أوحى للأنبياء أن يكتبوا عن مجيء ذلك المُخلِّص على مدى مئات السنوات. وهكذا، هناك أكثر من ٣٠٠ نبوءة مُحدَّدة ترتبط بالمُخلِّص في التوراة، ومزامير داود (الزَّبور)، والأسفار النبويَّة. ويجب أن نعلم أنَّ فرصة تحقُّق هذه النبوءات جميعها في شخص واحد هي فُرصة ضئيلة للغاية. ونحن لا نقول هذا على سبيل المُبالغة؛ فقد قام الدكتور «بيتر ستونر» (وهو أستاذ فخري في العلوم في جامعة وستمونت) بعمليَّة حسابية وجد من خلالها أنَّ فُرصة تحقُّق ٤٨ من هذه النبوءات في شخص واحد هي ١٠ أُس ١٥٧؛ أي فُرصة واحدة في بلايين البلايين من الفُرص؛ وهو رقم هائل جداً بحيث يصعُب استيعابه أو حتَّى قراءته (فهو رقم ١ أمامه ١٥٨ صفراً)! وقد قالت الجمعيَّة العلميَّة الأمريكيَّة إنَّ هذه الحسابات التي أجراها الدكتور «بيتر ستونر» دقيقة تماماً.

لن يكون بمقدورنا في هذا الكتاب إلاَّ أن نتناول عدداً قليلاً من هذه النبوءات الثلاثمائة. وسوف أقوم في معظم الحالات بذِكر اسم النبي وعدد السنوات الفاصلة بين إعلان النبوَّة وتحقُّقها. وفي فصلٍ لاحق، سوف أقتبس مقطعاً كاملاً من الكتاب المقدَّس أوحى الله به إلى النبي إشعياء لكي يُدوِّنه. وحينما تقرأه، سوف تَرى بنفسك عَمَّن يتحدَّث ذلك المقطع.

شجرة العائلة: من آدم إلى المسيح

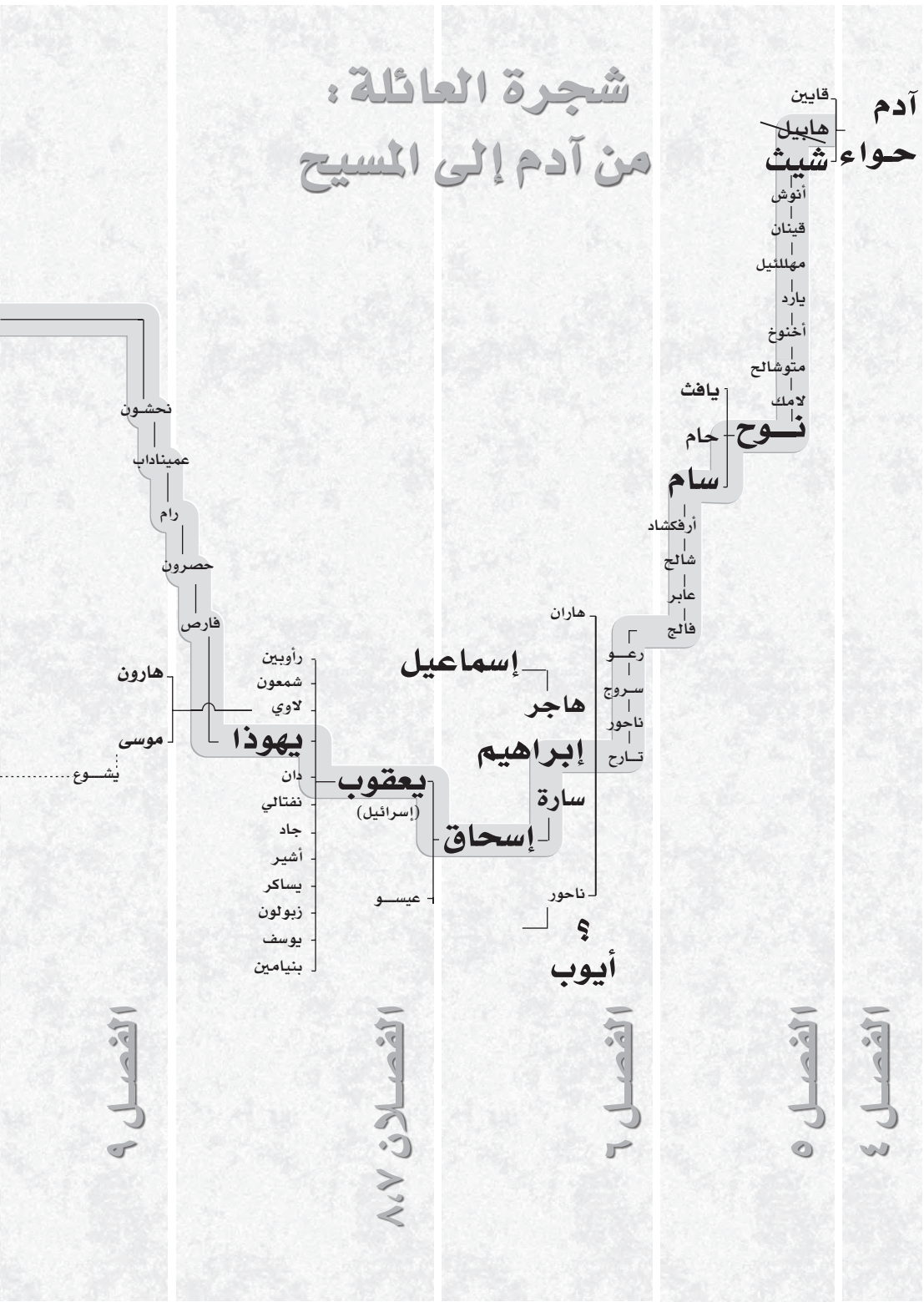

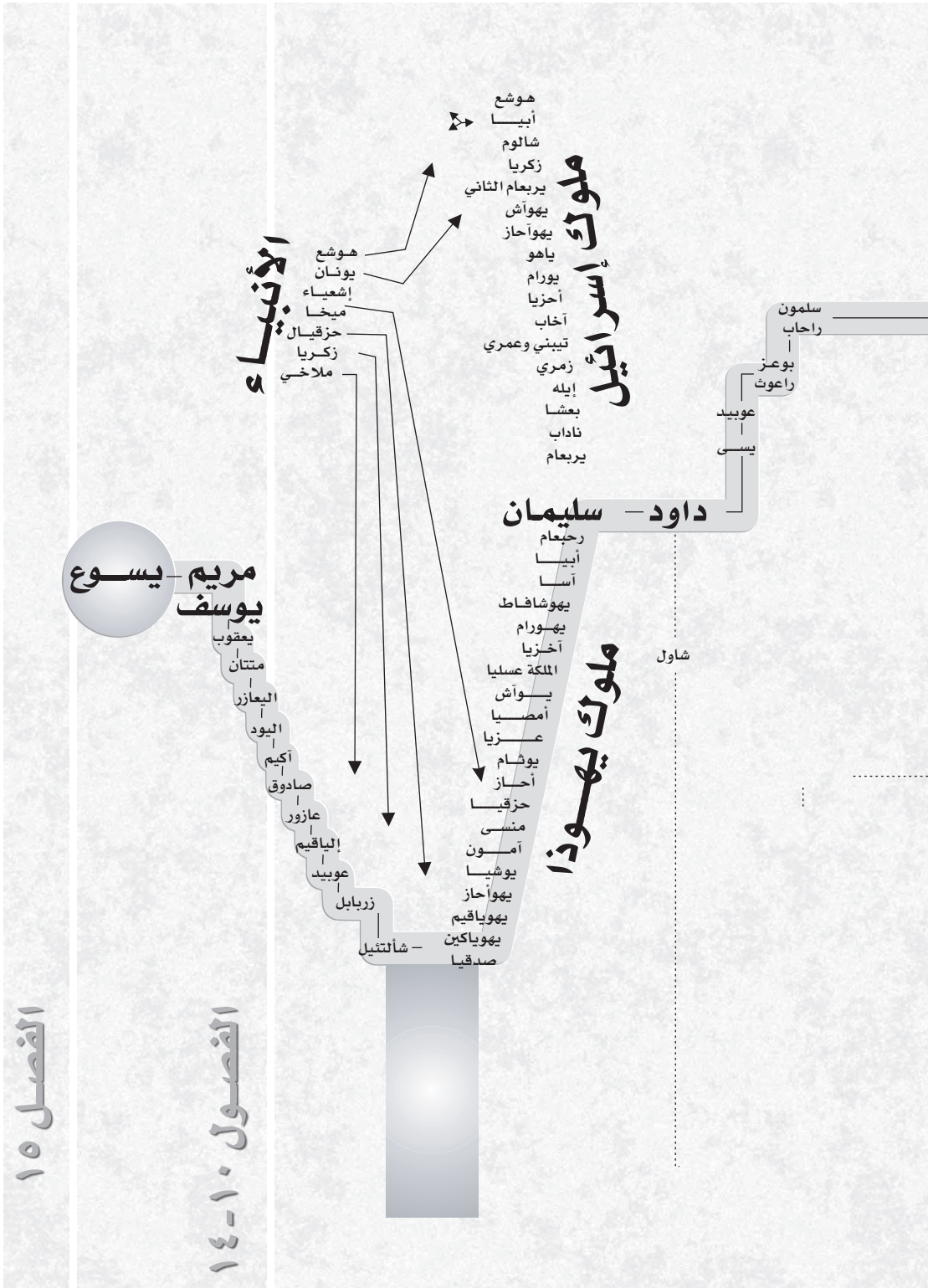

ملوك إسرائيل
هوشع
أبيا
شالوم
زكريا
يربعام الثاني
يهوآش
يهوآحاز
ياهو
يورام
أحزيا
آخاب
تيبني وعمري
زمري
إيله
بعشا
ناداب
يربعام
الأنبياء
هوشع
يونان
إشعياء
ميخا
حزقيال
زكريا
ملاخي
سلمون
راحاب
بوعز
راعوث
عوبيد
يسى
داود
سليمان
شاول
ملوك يهوذا
رحبعام
أبيا
آسا
يهوشافاط
يهورام
آخزيا
الملكة عسليا
يوآش
أمصيا
عزيا
يوثام
أحاز
حزقيا
منسى
آمون
يوشيا
يهوأحاز
يهوياقيم
يهوياكين
صدقيا
شألتئيل
زربابل
عوبيد
إلياقيم
عازور
صادوق
آكيم
اليود
اليعازر
متتان
يعقوب
يوسف
مريم
يسوع
الفصول ١٠-١٤
الفصل ١٥

الفصل العاشر

١. الملاك جبرائيل.
٢. المسيح.
٣. بين المُعَلِّمين.
٤. النبيّ يوحنَّا.

١ . الملاك جبرائيل

أبقى الشيطان الإنسان في قبضة الموت لعدَّة قُرون. وقد ظل الإنسان يعاني طويلاً تحت عبْء الخطيَّة الثقيل مع أملٍ واحدٍ فقط يلوح في الأُفق ألا وهو مجيء المُخلِّص الموعود. فرغم أنَّ الله سمح – بُمقتضى رحمته الواسعة – بموت حيوان بريء بدلاً من الإنسان، إلاَّ أنَّ تلك لم تكُن سوى دُفعة مؤقتة عن الخطيَّة. ففي فكر الله الأزلي، لم يكن دم الحيوانات يُزيل الخطيَّة؛ بل كل ما كان يفعله هو أنه يُكفِّر عن الخطيَّة (يُغطِّيها) لفترة زمنيَّة محدودة فقط. وهذا هو ما يوضِّحه الكتاب المقدَّس تماماً:

«لأَنَّهُ لاَ يُمْكِنُ أَنَّ دَمَ ثِيرَانٍ وَتُيُوسٍ يَرْفَعُ خَطَايَا» (عبرانيين ١٠: ٤)

إذاً ما هو الحل لمُشكلة الخطيَّة؟ رُبَّما يكون هناك شخص مستعد للموت من أجل شخص آخر؛ لكنَّ هذا لا يُعتبر حَلاً أيضاً لأنَّ الشخص الخاطئ لا يُمكنه أن يُخلِّص خاطئاً آخر!

يمكن تشبيه هذا الواقع برَجُلين وقعا في حُفرة عميقة داخل مَنْجَم قديم. وبينما هُما يُصارعان في الظلام في وسط تلك الحفرة، قال أحدهما للآخر: «أخرِجني من هذا المكان المُرعب. إنني أغرق في هذا الوحل الكريه!» فأجابه رفيقه: «هل أنت مُدركٌ لما تقول؟ إنني أغرق مثلك ولا أستطيع مساعدتك!» وبالطريقة نفسها، لا يمكن لشخصٍ خاطئٍ أن يُنقذ خاطئاً آخر من حُفرة الخطيَّة.

كان لا بُدَّ من وجود شخص يمكنه تقديم المساعدة. لكن إذا نظرنا إلى العالم كله فلن نجد شخصاً واحداً كاملاً بلا خطيَّة سواء كان نبيًّاً أو كاهناً. فقد وُلد الناس جميعاً منذ بدء الزمان باعتبارهم أبناء آدم؛ أي أنهم وُلدوا وهُم يحملون طبيعة آدم الخاطئة. لذلك، لم يكُن هناك شخص واحد على وجه الأرض يمكنه أن يقوم بدور المُخلِّص لأنَّه ينبغي عليه أن يتعامل مع عقوبة خطيئته هو قبل كل شيء.

وهكذا، احتاج الإنسان لمن ينقذه من حُفرة الخطيَّة. وكان ينبغي على هذا المُخلِّص أن يكون بلا خطيَّة، وأن يكون قادراً على تخليص كل البشر من مُستنقع الخطيَّة المُرعب. لكن من عَساه يكون هذا المُخلِّص؟ وأين يمكن لله أن يجد شخصاً كهذا بلا خطيَّة؟ هل سيوكل الله هذه المهمَّة لأحد ملائكته أو أنبيائه؟ لم يكُن الناس يملكون إجابات لهذه الأسئلة! وكيف سيقوم الله بالإعلان عن شخصيَّة هذا المخلِّص الموعود الذي سيُخلِّص العالم؟ وحينما يأتي، كيف يمكن للناس أن يعرفوه؟

قبل مجيء المُخلِّص الموعود، كان الله مُزمعاً على إرسال رسول خاصٍّ للإعلان عن ذلك الحدث. ولا يُمكن للمرء هُنا إلاَّ أن يتساءل ما إذا كانت الملائكة تتناقش فيما بينها حول من سيكون حامل هذه البشارة أو هذا الخبر السعيد. هل سيكون واحداً منهم؟ لكن في ذلك الوقت بدأت الأنباء تصل عن شخصيَّة المُخلِّص.

زكريَّا الكاهن

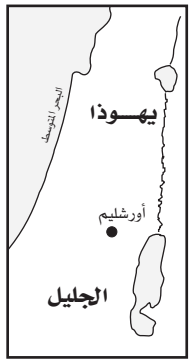

كَانَ فِي أَيَّام هيرُودُسَ مَلك الْيَهُودِيَّة كَاهِنٌ اسْمُهُ زَكَرِيَّا ... وَامْرَأَتُهُ مِنْ بَنَات هارُونَ وَاسْمُهَا أَلِيصَابَاتُ. وَكَانَا كِلاَهُمَا بَارَّيْنِ أَمَامَ اللهِ، سَالِكَيْنِ فِي جَمِيعِ وَصَايَا الرَّبِّ وَأَحْكَامِهِ بِلاَ لَوْم. وَلَمْ يَكُنْ لَهُمَا وَلَدٌ، إِذْ كَانَتْ أَلِيصَابَاتُ عَاقِرًا. وَكَانَا كِلاَهُمَا مُتَقَدِّمَيْنِ فِي أَيَّامِهِمَا.

فَبَيْنَمَا هُوَ يَكْهَنُ فِي نَوْبَةِ فِرْقَتِهِ أَمَامَ اللهِ، حَسَبَ عَادَةِ الْكَهَنُوتِ، أَصَابَتْهُ الْقُرْعَةُ أَنْ يَدْخُلَ إِلَى هَيْكَلِ الرَّبِّ وَيُبَخِّرَ. وَكَانَ كُلُّ جُمْهُورِ الشَّعْبِ يُصَلُّونَ خَارِجًا وَقْتَ الْبَخُورِ.

فَظَهَرَ لَهُ مَلاَكُ الرَّبِّ وَاقِفًا عَنْ يَمِينِ مَذْبَحِ الْبَخُورِ. فَلَمَّا رَآهُ زَكَرِيَّا اضْطَرَبَ وَوَقَعَ عَلَيْهِ خَوْفٌ. فَقَالَ لَهُ الْمَلاَكُ: «لاَ تَخَفْ يَا زَكَرِيَّا، لأَنَّ طِلْبَتَكَ قَدْ سُمِعَتْ، وَامْرَأَتُكَ أَلِيصَابَاتُ سَتَلِدُ لَكَ ابْنًا وَتُسَمِّيهِ يُوحَنَّا. وَيَكُونُ لَكَ فَرَحٌ وَابْتِهَاجٌ، وَكَثِيرُونَ سَيَفْرَحُونَ بِوِلاَدَتِهِ، لأَنَّهُ يَكُونُ عَظِيمًا أَمَامَ الرَّبِّ، ... وَيَرُدُّ كَثِيرِينَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَى الرَّبِّ إِلهِهِمْ. وَيَتَقَدَّمُ أَمَامَهُ ... لِيَرُدَّ قُلُوبَ الآبَاءِ إِلَى الأَبْنَاءِ، وَالْعُصَاةَ إِلَى فِكْرِ الأَبْرَارِ، لِكَيْ يُهَيِّئَ لِلرَّبِّ شَعْبًا مُسْتَعِدًّا» (لوقا ١: ٥-١٧)

قال الملاك جبرائيل لزكريَّا الكاهن إنَّ ابنه يوحنَّا (المعروف أيضاً باسم يحيى) سيكون هو الرسول الذي يُهيِّئ الطريق لمجيء الرب. كانت البشارة بولادة ابن لزكريَّا في مثل هذه السن مُفرحة له، ولكنَّ الأمر الذي أفرحهُ أكثر هو البشارة بمجيء الرب. وقبل أن يحدث ذلك بأربعمئة سنة، كتب النبي ملاخي عن هذا الحدث فقال:

«هأَنَذَا أُرْسِلُ مَلاَكِي فَيُهَيِّئُ الطَّرِيقَ أَمَامِي. وَيَأْتِي بَغْتَةً إِلَى هَيْكَلِهِ السَّيِّدُ الَّذِي تَطْلُبُونَهُ، وَمَلاَكُ الْعَهْدِ الَّذِي تُسَرُّونَ بِهِ. هُوَذَا يَأْتِي، قَالَ رَبُّ الْجُنُودِ» (ملاخي ٣: ١)

كانت تلك النبوءة واضحة تماماً. ولا بُدَّ أنَّ الكاهن زكريا قد تعجَّب من عدم رؤيتها من قَبل! فقد كانت واضحة كل الوضوح! فرب الجنود قال: «**هأَنَذَا أُرْسِلُ** مَلاَكِي فَيُهَيِّئُ الطَّرِيقَ **أَمَامِي!**» علاوة على ذلك فقد قال الملاك إنَّ الرسول الذي سيُهيِّئ الطريق أمام الرب هو ابن زكريَّا الكاهن – يوحنَّا!

أليصابات

عاد زكريا إلى بيته وهو في حالة ذهول، وقد حفظ الله وعده حيث أنَّ الأمر تَمَّ كما قال الملاك تماماً:

وَبَعْدَ تِلْكَ الأَيَّامِ حَبِلَتْ أَلِيصَابَاتُ امْرَأَتُهُ، وَأَخْفَتْ نَفْسَهَا خَمْسَةَ أَشْهُرٍ قَائِلَةً: «هكَذَا قَدْ فَعَلَ بِيَ الرَّبُّ فِي الأَيَّامِ الَّتِي فِيهَا نَظَرَ إِلَيَّ، لِيَنْزِعَ عَارِي بَيْنَ النَّاسِ» (لوقا ١: ٢٤، ٢٥)

كان السؤال الذي يُحيِّر زكريَّا هو: كيف سيأتي رَبُّ الجُنود إلى الأرض؟ هل سيأتي في عربة ذهبيَّة تتقدّمها سبعة خيول بيضاء وتُحيط بها حشود الملائكة النورانيَّة؟ هل سيخلع الحُكَّام الرومان وهيرودس الكبير عن عروشهم؟ لكنَّ الملاك لم يقل له أيَّ شيءٍ عن ذلك!

مَريم

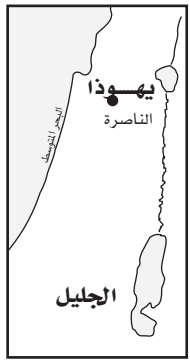

ينتقل المشهد الآن إلى موقع آخر حيث يقوم الملاك جبرائيل بزيارة أخرى إلى فتاة شابَّة تُدعى «مريم».

«وَفِي الشَّهْرِ السَّادِسِ أُرْسِلَ جِبْرَائِيلُ الْمَلاَكُ مِنَ اللهِ إِلَى مَدِينَةٍ مِنَ الْجَلِيلِ اسْمُهَا نَاصِرَةُ، إِلَى عَذْرَاءَ مَخْطُوبَةٍ لِرَجُلٍ مِنْ بَيْتِ دَاوُدَ اسْمُهُ يُوسُفُ. وَاسْمُ الْعَذْرَاءِ مَرْيَمُ» (لوقا ١: ٢٦، ٢٧)

كان يوسف ومريم مخطوبين في ذلك الوقت. وتقول الأسفار المقدسة إنهما كانا من سلالة النبي داود الذي حكم بني إسرائيل كملك قبل ١٠٠٠ سنة من عصرهما.

فَدَخَلَ إِلَيْهَا الْمَلاَكُ وَقَالَ: «سَلاَمٌ لَكِ أَيَّتُهَا الْمُنْعَمُ عَلَيْهَا! اَلرَّبُّ مَعَكِ. مُبَارَكَةٌ أَنْتِ فِي النِّسَاءِ». فَلَمَّا رَأَتْهُ اضْطَرَبَتْ مِنْ كَلاَمِهِ، وَفَكَّرَتْ: «مَا عَسَى أَنْ تَكُونَ هذِهِ التَّحِيَّةُ!» فَقَالَ لَهَا الْمَلاَكُ: «لاَ تَخَافِي يَا مَرْيَمُ، لأَنَّكِ قَدْ وَجَدْتِ نِعْمَةً عِنْدَ اللهِ. وَهَا أَنْتِ سَتَحْبَلِينَ وَتَلِدِينَ ابْنًا وَتُسَمِّينَهُ يَسُوعَ»

(لوقا ١: ٢٨-٣١)

ماذا؟ أصابت الدهشة مريم لدرجة أنها عجزت عن الكلام! وحينما تمالكت نفسها أخيراً تكلَّمت وطرحت سؤالاً منطقياً جداً:

فَقَالَتْ مَرْيَمُ لِلْمَلاَكِ: «كَيْفَ يَكُونُ هذَا وَأَنَا لَسْتُ أَعْرِفُ رَجُلاً؟»
فَأَجَابَ الْمَلاَكُ وَقَالَ لَهَا: «اَلرُّوحُ الْقُدُسُ يَحِلُّ عَلَيْكِ، وَقُوَّةُ الْعَلِيِّ تُظَلِّلُكِ، فَلِذلِكَ أَيْضًا الْقُدُّوسُ الْمَوْلُودُ مِنْكِ يُدْعَى ابْنَ اللهِ» (لوقا ١: ٣٤، ٣٥)

كانت مريم ستُصبح أُمَّ المُخلِّص الذي وعد الله به إبراهيم ونسله عبر العصور!

أصبح الأمر واضحاً الآن. فقد كانت مريم تعرف القصص القديمة جيداً. ففي جنَّة عَدْن، وعد الله حوَّاء بأنَّ المُخلِّص الموعود سيأتي من نَسلها. فالله لم يقُل إنَّ المُخلِّص سيأتي من نسلها هي وآدم، بل من نسلها هي فقط. وقد كان ذلك الوعد على وشك أن يتحقَّق، وسوف يولد الطفل من عذراء – فسوف يكون من نسلها هي فقط بمعنى أنه لن يكون له أب بشري. وهكذا، رُغم أنَّ كلمات الرب لحوَّاء في جنَّة عَدْن لم تكُن مفهومة آنذاك، إلاَّ أنها أصبحت ذات مغزىً مهم الآن.

كان لتلك الملاحظة الصغيرة مَعانٍ عظيمة. فحيث أنَّ الطفل لن يُحبَل به من زَرْع رَجُل، فهو لن يكون جزءاً من سلالة آدم المُلوَّثة بالخطيَّة. فقد ورث جميع أحفاد آدم طبيعته الخاطئة.[1] لكنَّ يسوع لن يكون ابناً لآدم، بل ابناً لله (سوف تجد في الصفحات اللاحقة من هذا الفصل شرحاً لعبارة «ابن الله») وبالتالي، سوف يحمل هذا الطفل طبيعة الله العليّ. لهذا، يقول الكتاب المقدَّس:

الإِنْسَانُ الأَوَّلُ آدم مِنَ الأَرْضِ تُرَابِيٌّ. الإِنْسَانُ الثَّانِي الرَّبُّ يسوع مِنَ السَّمَاءِ

(١ كورنثوس ١٥: ٤٧)

وهكذا، لا عجب أنَّ الملاك أشار إلى الطفل بأنه «القُدُّوس». سوف يكون هذا الطفل بلا خطيَّة مثل الله تماماً. وبالتالي، سوف يكون يسوع هذا كاملاً منذ لحظة الحبل به.

وعليه، لن يأتِ رَبُّ الجُنود بكل العَظَمة والفخامة السماويَّة، بل سيأتي إلى كوكب الأرض مثلما جاء جميع بني البشر – أي أنه سيأتي كطفل رضيع! ثُمَّ قال الملاك جبرائيل لمريم:

«وَهُوَذَا أَلِيصَابَاتُ نَسِيبَتُكِ هِيَ أَيْضًا حُبْلَى بِابْنٍ فِي شَيْخُوخَتِهَا، وَهذَا هُوَ الشَّهْرُ السَّادِسُ لِتِلْكَ الْمَدْعُوَّةِ عَاقِرًا، لأَنَّهُ لَيْسَ شَيْءٌ غَيْرَ مُمْكِنٍ لَدَى اللهِ».

فَقَالَتْ مَرْيَمُ: «هُوَذَا أَنَا أَمَةُ الرَّبِّ. لِيَكُنْ لِي كَقَوْلِكَ». فَمَضَى مِنْ عِنْدِهَا الْمَلاَكُ (لوقا ١: ٣٦-٣٨)

كانت مريم تعرف أنَّ أليصابات قد تجاوزت سن الحَبَل والولادة. لكن إذا كان بإمكان أليصابات أن تَحبل، فيجدُر بها أن تُصدِّق أنَّ عذراء مثلها يمكن أن تلد طفلاً هي الأخرى. وهكذا، اختارت مريم أن تُصدِّق كلام الملاك وأن تثق بالله.

النبي يوحنَّا

وَأَمَّا أَلِيصَابَاتُ فَتَمَّ زَمَانُهَا لِتَلِدَ، فَوَلَدَتِ ابْنًا (لوقا ١: ٥٧)

تَمَّت ولادة يوحنَّا (يحيى) بذات الطريقة التي وعد بها الله زكريَّا الكاهن. ويقول الكتاب المقدَّس إنَّ تلك كانت حادثة رائعة لأنَّ المرأة العاقر كانت تُعتبر عاراً على مُجتمعها. وبعد أنْ أطلق زكريَّا وأليصابات اسم يوحنَّا على ابنهما، انفتح فم زكريا في الحال وانطلق لسانه فتكلَّم مُباركاً الله حيث يقول الكتاب المقدَّس:

وَامْتَلأَ زَكَرِيَّا أَبُوهُ مِنَ الرُّوحِ الْقُدُسِ، وَتَنَبَّأَ قَائِلاً: «مُبَارَكٌ الرَّبُّ ... كَمَا تَكَلَّمَ بِفَمِ أَنْبِيَائِهِ الْقِدِّيسِينَ الَّذِينَ هُمْ مُنْذُ الدَّهْرِ. ... لِيَصْنَعَ رَحْمَةً مَعَ آبَائِنَا وَيَذْكُرَ عَهْدَهُ الْمُقَدَّسَ، الْقَسَمَ الَّذِي حَلَفَ لإِبْرَاهِيمَ أَبِينَا ...»

(لوقا ١: ٦٧، ٧٠، ٧٢، ٧٣)

كان نشيد زكريَّا عبارة عن رحلة مُصغَّرة عبر تاريخ العالم تظهر فيه وعود الله المُتكرِّرة التي أعطاها عبر القرون بأنه سيُرسل مُخلِّصاً لهذا العالم. ويمكنك هنا أن ترى زكريَّا العجوز وهو يحمل طفله عالياً ويُحدِّق في عينيه ويقول:

«وَأَنْتَ أَيُّهَا الصَّبِيُّ نَبِيَّ الْعَلِيِّ تُدْعَى، لأَنَّكَ تَتَقَدَّمُ أَمَامَ وَجْهِ الرَّبِّ لِتُعِدَّ طُرُقَهُ ...»

(لوقا ١: ٧٦)

وهكذا، كان يوحنَّا هو رسول الله الذي سيُعلن عن مجيء المُخلِّص الموعود إلى العالم.

اسم ومعنى!

يُدوِّن لنا الكتاب المقدَّس أقوال العديد من الأنبياء الذين عاشوا قبل ميلاد يسوع بوقت طويل وكتبوا عن مجيئه بدقَّة مُتناهية. فقبل ميلاد يسوع بسبعمئة سنة، كتب النبي إشعياء:

لأَنَّهُ يُولَدُ لَنَا وَلَدٌ وَنُعْطَى ابْنًا، وَتَكُونُ الرِّيَاسَةُ عَلَى كَتِفِهِ، وَيُدْعَى اسْمُهُ عَجِيبًا، مُشِيرًا، إِلهًا قَدِيرًا، أَبًا أَبَدِيًّا، رَئِيسَ السَّلاَمِ

(إشعياء ٩: ٦)

لاحظ أنَّ الولد يُدعى «إلهاً قديراً» – وهُما اسمان يعنيان شيئاً واحداً فقط ألا وهو أنَّ هذا الولد هو الله.

وكما رأينا من قَبل، فإنَّ لله أسماء وألقاب عديدة يصف كُلٌّ منها شيئاً عن شخصيته. وهناك تناقض مُثير للدهشة والاستغراب بين اسمين من الأسماء التي تُطْلَق على يسوع:

١. «**ابن الله**»: اعتقد البعض أنَّ لقب «ابن الله» يعني أنَّ الله أقام علاقة جنسيَّة مع مريم. لكنَّ مثل هذه الفكرة ليست خاطئة فحسب، بل هي تجديف على الله؛ فحاشا لله أن يفعل شيئاً كهذا! ويجب أن نعرف أنَّ هذه الفكرة ليست موجودةً في كلمة الله على الإطلاق. بل في حقيقة الأمر أنَّ كلمة الله تُعلِّم شيئاً مُختلفاً تماماً. فالكتاب المقدَّس يُخبرنا بوضوح أنَّ مريم كانت عذراء، وأنها بقيت كذلك إلى أن ولدت يسوع. وهكذا، فقد حَملت مريم بيسوع بمُعجزة وليس بسبب أيّ علاقة جنسيَّة. فقد أمر الله جسم مريم أن يفعل شيئاً خارقاً للطبيعة ألا وهو أن تَلِد طفلاً رغم كونها عذراء.

لكن إذا لم تكُن عبارة «ابن الله» تحمل معنىً جسدياً، فما الذي تعنيه؟

تستخدم مُعظم اللغات كلمة «ابن» للدلالة على معاني بعيدة كل البُعد عن التناسُل الجسدي. فعلى سبيل المثال، إذا قُلنا إنَّ فلاناً هو «ابن الجَبَل» فنحن لا نعني أنَّ الجبل هو الذي أنجبه؛ بل نعني بذلك أنه يسكن الجبال أو يعيش في منطقة جبليَّة. وإن قُلنا إنَّ فُلاناً هو «ابن النيل» فنحن لا نقصد أنَّ نهر النيل قد أنجب طفلاً؛ بل نعني أنَّ ذلك الشخص يعيش في مصر أو على ضفاف نهر النيل. كذلك، فإنَّ الكتاب المقدَّس يستخدم كلمة «ابن» لتوضيح أمر ما بشأن الشخص المَعني. تأمَّل في الأمثلة التالية:

- وَيُوسُفُ الَّذِي دُعِيَ ... بَرْنَابَا، الَّذِي يُتَرْجَمُ ابْنَ الْوَعْظِ أو «ابن التشجيع»، ...

(أعمال الرسل ٤: ٣٦)

تَمَّ إطلاق لقب «ابن الوَعْظ» (أو «ابن التشجيع») على يوسف لا لأنَّ اسم أبيه كان «تَشجيع»؛ بل لأنَّه (أي يوسف) كان يتميَّز بتشجيع الآخرين!

- ... أَبْنَاء الْمَعْصِيَة (أفسس ٥: ٦)

من الواضح أنَّ هذه الآية لا تعني أنَّ شخصاً يُدعى «مَعْصِيَة» قد أنجب العديد من الأبناء؛ بل هي تُشير إلى الأشخاص الذين يعصون الله بطبيعتهم.

- ... يَا ابْنَ إِبْلِيسَ! يَا عَدُوَّ كُلِّ بِرّ! ... (أعمال الرسل ١٣: ١٠)

من الواضح أيضاً أنَّ إبليس لم يتزوَّج ويُنجب ابناً! بل إنَّ الآية تُشير إلى شخصٍ شرِّير.

وهكذا، حينما يتحدَّث الكتاب المقدَّس عن يسوع باعتباره «ابن الله» فيجب أن نُدرك أنَّ هذه العبارة تُشير إلى صفته. فيسوع قُدُّوس ويتمتَّع بطبيعة كاملة – أي نفس طبيعة الله – وذلك على النقيض من الإنسان العادي الذي يتمتَّع بطبيعة فاسدة باعتباره «ابن آدم».

وَهُوَ الابن؛ أي يسوع بَهَاءُ مَجْدِهِ أي بهاء مَجْدِ اللهِ ، وَرَسْمُ جَوْهَرِهِ (عبرانيين ١: ٣)

٢. «**ابن الإنسان**»: لا يعني هذا اللفظ أنَّ يسوع جاء من أبٍ بشريٍّ. (فرغم أنَّ يوسف كان خطيب مريم، إلاَّ أنه لم يكُن أب يسوع) وفي الحقيقة أنَّ يسوع لم يستخدم هذا اللفظ إلاَّ للإشارة إلى نفسه بمعنيين:

أ) إعلان بشريَّته: فرغم أنَّ يسوع لم يكُن له أب بشري، إلاَّ أنه اتخذ شكلاً بشريًّا، وعاش كإنسان؛ لكنه كان بلا خطيَّة. وسوف نرى أهميَّة هذا الأمر في وقتٍ لاحقٍ من قصَّتنا.

ب) إعلان هويَّته الحقيقيَّة: فمنذ قرون عديدة، أدرك عُلماء الكتاب المقدَّس أنَّ هذا اللفظ يُشير إلى المسيح. وقد اقتبس يسوع أقوال أنبياء العهد القديم مُشيراً بذلك إلى أنَّه تَمَّم نبوءاتهم عن المُخلِّص الموعود. تأمَّل في ما كتبه النبي دانيال قبل أكثر من ٥٠٠ سنة من ميلاد يسوع:

كُنْتُ أَرَى فِي رُؤَى اللَّيْلِ ... مِثْلُ ابْنِ إِنْسَانٍ ... أُعْطِيَ سُلْطَانًا وَمَجْدًا وَمَلَكُوتًا لِتَتَعَبَّدَ لَهُ كُلُّ الشُّعُوبِ وَالأُمَمِ وَالأَلْسِنَةِ ...

(دانيال ٧: ١٣، ١٤)

وكُلَّما تقدَّمنا أكثر في الكتاب المقدَّس، زاد فهمنا لمعاني هذا اللفظ.

اللَّقبان معاً

هناك مئات الأسماء والألقاب التي تنطبق على يسوع؛ وما هذان اللقبان («ابن الله» و«ابن الإنسان») سوى اثنين منها. وحينما نضع هذين اللفظين معاً فإنهما يعنيان أمراً واحداً ألا وهو أن:

... اللهُ ظَهَرَ فِي الْجَسَدِ ... (١ تيموثاوس ٣: ١٦)

لكنَّ الله لم يتوقف عن كونه إلهاً حينما أصبح إنساناً. كما أنه لم يُصبح خاطئاً حينما اتخذ هيئة إنسان. فرغم أنه قَبِلَ بوجود بعض المحدوديَّات التي يفرضها الجسد المادي، إلاَّ أنه كان يتمتَّع بكل القوة، وكل العلم، وكل الكمال والبر والقداسة.

ورغم أنَّنا قد لا نستوعب كيف أمكنه أن يحصر نفسه في جسد بشري دون أن يفقد صفاته الإلهيَّة، إلاَّ أنَّ هذا هو ما يُعلِّمه الكتاب المقدَّس. فالله العظيم يُمكنه أن يفعل أيَّ شيءٍ باستثناء مُناقضة نفسه. وحيث أنه أوحى لأنبيائه بأن يكتبوا عن مجيئه إلى الأرض بهيئة بشريَّة، فمن المُستحيل أن لا يقوم بذلك. وحينما نتقدَّم أكثر في قصَّتنا، سوف نُدرك سبب قيام الله بالأمور بهذه الطريقة.

توضيح أخير

كما أنَّ الكثيرين أساءوا فهم مُصطلح «ابن الله» مُعتقدين أنه يعني أنَّ الله قد أنجب ولداً من امرأة، فقد اعتقد البعض أنه حيث أنَّ مريم هي أم يسوع، فهذا يعني أنها أم الله. وهذا يعني بالطبع أنَّ مريم كانت إلهةً هي الأخرى. كذلك، فقد آمن البعض أنَّ مريم هي ملكة السماء التي تزوجها الله وأنجبت يسوع. ونقول مَرَّةً أخرى أنَّ الكتاب المقدَّس يعتبر مثل هذه الأفكار والمُعتقدات تجديفاً وقحاً على الله. فكلمة الله لا تُعلِّم مثل هذه الأفكار والمفاهيم بتاتاً! بل إنَّ الكتاب المقدَّس واضح تماماً بهذا الشأن. فقد كانت مريم فتاةً تُحب الله وتوقِّر كلمته المُقدَّسة؛ لكنها لم تكن سوى إنسانة عاديَّة مثل باقي البشر. كما أنها لم تكُن مُعادلة لله بأيِّ شكل من الأشكال. صحيحٌ أنَّ الله استخدمها للمجيء إلى هذا العالم، لكنَّ الأمر يتوقَّف عند هذا الحَدِّ فقط. فقد كانت مريم نفسها إنسانة خاطئة واعترفت بحاجتها لمُخلِّص:

فَقَالَتْ مَرْيَمُ: «تُعَظِّمُ نَفْسِي الرَّبَّ، وَتَبْتَهِجُ رُوحِي بِاللهِ مُخَلِّصِي ...»

(لوقا ١: ٤٦، ٤٧)

٢. المسيح

أَمَّا وِلاَدَةُ يَسُوعَ الْمَسِيحِ فَكَانَتْ هكَذَا: لَمَّا كَانَتْ مَرْيَمُ أُمُّهُ مَخْطُوبَةً لِيُوسُفَ، قَبْلَ أَنْ يَجْتَمِعَا، وُجِدَتْ حُبْلَى مِنَ الرُّوحِ الْقُدُسِ. فَيُوسُفُ رَجُلُهَا إِذْ كَانَ بَارًّا، وَلَمْ يَشَأْ أَنْ يُشْهِرَهَا، أَرَادَ تَخْلِيَتَهَا أن يَتركها سِرًّا

(مَتَّى ١: ١٨، ١٩)

بحسب عادات وتقاليد ذلك الزمان، كان فَسخ الخطبة يتطلَّب طلاقاً. ويمكنك أن تتخيَّل كيف كانت حقيقة مشاعر يوسف آنذاك. فلا بُدَّ أنَّ الألم كان يعتصر قلبه. فقد حبلت مريم ولم يكُن الطفل طفله هو! وقد كان كشف الأمر على الملأ يعني فضح مريم واعتبارها زانية إلاَّ إذا كان كلامها عن الملاك الذي ظهر لها صحيحاً. كلا، لا يُمكن لهذه الرواية أن تكون صحيحة! بل من المُرجَّح أنَّ مريم فقدت صوابها. فرغم أنَّ يوسف أحبَّها، إلاَّ أنه لم يستطع الزواج من فتاة خدعته وراحت تحاول إخفاء خدعتها بقصَّة خرقاء. في الحقيقة أننا لا نعرف كيف كان يوسف يُفكِّر في ذلك

الوقت، لكن هناك أمر نعرفه عنه يقيناً ألا وهو أنه اتَّخذ قراراً صعباً بأن يُطلِّقها بهدوء.

وَلكِنْ فِيمَا هُوَ مُتَفَكِّرٌ فِي هذِهِ الأُمُورِ، إِذَا مَلاَكُ الرَّبِّ قَدْ ظَهَرَ لَهُ فِي حُلْمٍ قَائِلاً: «يَا يُوسُفُ ابْنَ دَاوُدَ، لاَ تَخَفْ أَنْ تَأْخُذَ مَرْيَمَ امْرَأَتَكَ. لأَنَّ الَّذِي حُبِلَ بِهِ فِيهَا هُوَ مِنَ الرُّوحِ الْقُدُسِ. فَسَتَلِدُ ابْنًا وَتَدْعُو اسْمَهُ يَسُوعَ. لأَنَّهُ يُخَلِّصُ شَعْبَهُ مِنْ خَطَايَاهُمْ».

وَهذَا كُلُّهُ كَانَ لِكَيْ يَتِمَّ مَا قِيلَ مِنَ الرَّبِّ بِالنَّبِيِّ الْقَائِلِ: «هُوَذَا الْعَذْرَاءُ تَحْبَلُ وَتَلِدُ ابْنًا، وَيَدْعُونَ اسْمَهُ عِمَّانُوئِيلَ» الَّذِي تَفْسِيرُهُ: اَللهُ مَعَنَا

(مَتَّى ١: ٢٠-٢٣)

سمع يوسف ذلك الكلام بكل وضوح. فمريم ما زالت عذراء، وسوف تلد طفلاً! وسوف يكون اسم الطفل «يسوع» الذي يعني «المُنقذ» أو «المُخلِّص». فسوف يُنقذ الناس ويُخلِّصهم من عواقب خطاياهم. كما قال الملاك إنَّ يسوع سيكون له اسم آخر ألا وهو «عِمَّانوئيل» ومعناه: «الله معنا». وهكذا، سوف يكون يسوع هو الله الذي يعيش بجسد بشري بين الناس.

وقد كتب النبي إشعياء عن هذا الحدث قبل ٧٠٠ سنة من وقوعه فقال:

وَلكِنْ يُعْطِيكُمُ السَّيِّدُ نَفْسُهُ آيَةً: هَا الْعَذْرَاءُ تَحْبَلُ وَتَلِدُ ابْنًا وَتَدْعُو اسْمَهُ عِمَّانُوئِيلَ (إشعياء ٧: ١٤)

من المؤكَّد أنَّ يوسف هَبَّ واقفاً من سريره حينما سمع هذا الكلام. إذاً، فقد كان النبي إشعياء على حق! فها هي تلك النبوءة تتحقَّق بذات الطريقة التي تحدَّث عنها الله. لكن ما الذي سيقوله الناس؟ لا يهُم! وهكذا، فقد قَرَّر يوسف أن يُصدِّق الله ويفعل مشيئته.

فَلَمَّا اسْتَيْقَظَ يُوسُفُ مِنَ النَّوْمِ فَعَلَ كَمَا أَمَرَهُ مَلاَكُ الرَّبِّ، وَأَخَذَ امْرَأَتَهُ. وَلَمْ يَعْرِفْهَا حَتَّى وَلَدَتِ ابْنَهَا الْبِكْرَ. وَدَعَا اسْمَهُ يَسُوعَ (مَتَّى ١: ٢٤، ٢٥)

الولادة

وَفِي تِلْكَ الأَيَّامِ صَدَرَ أَمْرٌ مِنْ أُغُسْطُسَ قَيْصَرَ بِأَنْ يُكْتَتَبَ كُلُّ الْمَسْكُونَةِ (لوقا ٢: ١)

كان قيصر (إمبراطور روما) بحاجة لمزيد من الأموال. وكان إحصاء السُّكان، يعني قيام أُناس أكثر بدفع الضرائب لروما. من المؤكَّد أنَّ يوسف لم يكن سعيداً بهذا الأمر لأنَّ زوجته مريم كانت على وشك الولادة. وحيث أنه كان يعمل في مهنة النجارة، فمن المُرجَّح أنه كان يصنع مهداً للطفل، وأنه كان قد استعان بالقابلة المحليَّة في إعداد مكان نظيف وآمن للولادة. وبسبب هذا الإحصاء المُفاجئ، كان ينبغي عليه أن يأخذ زوجته إلى بيت لحم التي كانت موطناً للملك داود قبل ألف سنة من ذلك الوقت. وهكذا، لا بُدَّ أنَّ قطع مسافة ١٢٠ كيلومتراً مع زوجته التي يمكن أن تلد في أي لحظة لم تكُن بالفكرة المُحبَّبة لديه لا سيَّما أنَّ مثل تلك الرحلات كانت تتم إمَّا على ظهر حمار أو سيراً على الأقدام. لكن لماذا خرج الرومان بهذه الفكرة الآن؟ ولماذا لا يقومون بإحصاء السكان في بلدة يوسف (أي في الناصرة)؟ لكنَّ الرومان لم يُقدِّموا للناس أيّ خيارات. لذلك، كان ينبغي على يوسف أن يصطحب زوجته مريم إلى بيت لحم.

فَذَهَبَ الْجَمِيعُ لِيُكْتَتَبُوا، كُلُّ وَاحِد إِلَى مَدِينَتِه. فَصَعِدَ يُوسُفُ أَيْضًا مِنَ الْجَلِيلِ مِنْ مَدِينَةِ النَّاصِرَةِ إِلَى الْيَهُودِيَّةِ، إِلَى مَدِينَةِ دَاوُدَ الَّتِي تُدْعَى بَيْتَ لَحْمَ، لِكَوْنِهِ مِنْ بَيْتِ دَاوُدَ وَعَشِيرَتِهِ، لِيُكْتَتَبَ مَعَ مَرْيَمَ امْرَأَتِهِ الْمَخْطُوبَةِ وَهِيَ حُبْلَى. وَبَيْنَمَا هُمَا هُنَاكَ تَمَّتْ أَيَّامُهَا لِتَلِدَ. فَوَلَدَتِ ابْنَهَا الْبِكْرَ وَقَمَّطَتْهُ وَأَضْجَعَتْهُ فِي الْمِذْوَدِ، إِذْ لَمْ يَكُنْ لَهُمَا مَوْضِعٌ فِي الْمَنْزِلِ (لوقا ٢: ٣-٧)

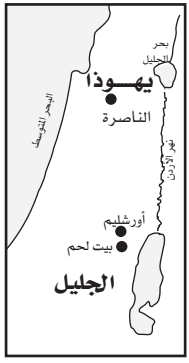

وهكذا، فقد وُلد يسوع في بيت لحم بعيداً عن الناصرة موطن يوسف ومريم. كانت مدينة بيت لحم مُزدحمة جداً لدرجة أنهما لم يتمكَّنا من إيجاد مكان يبيتان فيه سوى إسطبل (حظيرة) للحيوانات. وكان أوَّل مَهْد للطفل يسوع هو «مِذْوَد» (وعاء يُستخدم لإطعام الماشية) نظر يوسف إلى زوجته مريم واعتقد في بادئ الأمر أنَّ كل خططه ذهبت هباءً. فقد كان يُريد أن يوفِّر مكاناً آمناً ونظيفاً لها؛ لكن ها هُما الآن في حظيرة حيوانات قذرة في بيت لحم! رغم هذا كله، حين نظر إلى الطفل شعر أنَّ كل شيء على ما يُرام!

... وَدَعَا اسْمَهُ يَسُوعَ (مَتَّى ١: ٢٥)

الرُّعاة

وَكَانَ فِي تِلْكَ الْكُورَةِ رُعَاةٌ مُتَبَدِّينَ يَحْرُسُونَ حِرَاسَاتِ اللَّيْلِ عَلَى رَعِيَّتِهِمْ، وَإِذَا مَلاَكُ الرَّبِّ وَقَفَ بِهِمْ، وَمَجْدُ الرَّبِّ أَضَاءَ حَوْلَهُمْ، فَخَافُوا خَوْفًا عَظِيمًا. فَقَالَ لَهُمُ الْمَلاَكُ: «لاَ تَخَافُوا! فَهَا أَنَا أُبَشِّرُكُمْ بِفَرَحٍ عَظِيمٍ يَكُونُ لِجَمِيعِ الشَّعْبِ: أَنَّهُ وُلِدَ لَكُمُ الْيَوْمَ فِي مَدِينَةِ دَاوُدَ مُخَلِّصٌ هُوَ الْمَسِيحُ الرَّبُّ. وَهذِهِ لَكُمُ الْعَلاَمَةُ: تَجِدُونَ طِفْلاً مُقَمَّطًا مُضْجَعًا فِي مِذْوَدٍ». وَظَهَرَ بَغْتَةً مَعَ

الْمَلاَكِ جُمْهُورٌ مِنَ الْجُنْدِ السَّمَاوِيِّ مُسَبِّحِينَ اللهَ وَقَائِلِينَ: «الْمَجْدُ لِلهِ فِي الأَعَالِي، وَعَلَى الأَرْضِ السَّلاَمُ، وَبِالنَّاسِ الْمَسَرَّةُ» (لوقا ٢: ٨-١٤)

كان الرُّعاة يقومون بعملهم كالمُعتاد. وغالباً ما كانت خراف قُطعانهم تستخدم لتقديم

الذبائح في الهيكل في أورشليم التي تبعد بضعة كيلومترات إلى الشمال من مدينة بيت لحم. كانت حياة أولئك الرعاة تسير بصورة طبيعيَّة إلى أن ظهرت تلك الملائكة التي هَزَّت عالمهم لا بسبب مولد المُخلِّص فحسب، بل وأيضاً بسبب هويَّته! ولا بُدَّ أنَّ الرعاة راحوا يتساءلون فيما بينهم: «هل سمعت ما سمعته أنا؟ المسيح هو ... الرب!»

المسيح / المسيَّا

المسيح في اللغة العبرية هي المسيَّا. والكلمة في العربية أو العبرية تعني «الشخص المَمْسوح». وقد بقي لقب «المسيَّا» يُطلق على المُخلِّص الموعود لبضعة قرون.

وهكذا، ظهرت تلك الملائكة للرعاة وقالت إنَّ المسيح أو المَسيَّا هو الرب.[٢] فقد كان إعلان الملائكة للرعاة على النحو التالي:

... وُلِدَ لَكُمُ الْيَوْمَ ... مُخَلِّصٌ هُوَ الْمَسِيحُ الرَّبُّ (لوقا ٢: ١١)

وفي الأصل، كانت الملائكة تُعلن ذلك نيابةً عن الله:

أَلَيْسَ أَنَا الرَّبُّ وَلاَ إِلهَ آخَرَ غَيْرِي؟ إِلهٌ بَارٌّ وَمُخَلِّصٌ. لَيْسَ سِوَايَ (إشعياء ٤٥: ٢١)

من المهم أن نُدرك أنَّ هذا هو نفس الإله الواحد؛ وإلاَّ فسوف نُصاب بالارتباك والتشويش. فقد تبدأ في التفكير بأنَّ هناكَ إلهين – واحد كبير والآخر صغير. بالتأكيد لا، فالكتاب المقدَّس بأكمله يؤكِّد على وحدانيَّة الله:

«أَنَا أَنَا الرَّبُّ، وَلَيْسَ غَيْرِي مُخَلِّصٌ» (إشعياء ٤٣: ١١)

وقد كان هناك دوماً وأبداً مُخلِّصٌ واحدٌ فقط:

وَلَمَّا مَضَتْ عَنْهُمُ الْمَلاَئِكَةُ إِلَى السَّمَاءِ، قَالَ الرِّجَالُ الرُّعَاةُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: «لِنَذْهَبِ الآنَ إِلَى بَيْتِ لَحْمٍ وَنَنْظُرْ هذَا الأَمْرَ الْوَاقِعَ الَّذِي أَعْلَمَنَا بِهِ الرَّبُّ». فَجَاءُوا مُسْرِعِينَ، وَوَجَدُوا مَرْيَمَ وَيُوسُفَ وَالطِّفْلَ مُضْجَعًا فِي الْمِذْوَدِ. فَلَمَّا رَأَوْهُ أَخْبَرُوا بِالْكَلاَمِ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ عَنْ هذَا الصَّبِيِّ (لوقا ٢: ١٥-١٧)

كان الرُّعاة أناساً فقراء ولا يتوقَّع المرء أن تتم دعوتهم إلى ميلاد ملك. لكن في حقيقة الأمر أنه كان هناك أشخاص آخرون في طريقهم لرؤية الطفل يسوع.

الحُكَماء (المَجوس)

وَلَمَّا وُلِدَ يَسُوعُ فِي بَيْتِ لَحْمِ الْيَهُودِيَّةِ، فِي أَيَّامِ هِيرُودُسَ الْمَلِكِ، إِذَا مَجُوسٌ مِنَ الْمَشْرِقِ قَدْ جَاءُوا إِلَى أُورُشَلِيمَ قَائِلِينَ: «أَيْنَ هُوَ الْمَوْلُودُ مَلِكُ الْيَهُودِ؟ فَإِنَّنَا رَأَيْنَا نَجْمَهُ فِي الْمَشْرِقِ وَأَتَيْنَا لِنَسْجُدَ لَهُ» (مَتَّى ٢: ١، ٢)

كان المجوس خُبراء في دراسة النجوم، وقد جاءوا من بلادهم. ومن الواضح أنَّ هؤلاء المجوس كانوا مُرهفي الحسِّ لما يفعله الله في العالم حيث أنهم تكبَّدوا الكثير من العناء والمشقَّة والنفقات في سبيل مشاهدة الطفل يسوع. وقد كان يُتوقَّع من أمثال هؤلاء الحُكماء أن يزوروا أحد الملوك. وكان الملك الذي يتربَّع على عرش يهوذا في ذلك الوقت هو هيرودس الكبير الذي من المؤكَّد أنه عَلِمَ بوصول هذه المجموعة المرموقة من حُكماء الشرق. فلا بُدَّ أنَّ الجنود الذين كانوا يحرسون حدود منطقة يهوذا قد شاهدوا هؤلاء الحُكماء وهُم يدخلون يهوذا. ولم يكُن أحد يُفكِّر في أنَّ زيارة هؤلاء المجوس تُشكِّل أيَّ تهديدٍ حيث أنه لم يكُن

بصُحبتهم أي جيش. وكان كل ما سأله هؤلاء المجوس هو: «أين هو الملك الذي وُلد حديثاً؟»

فَلَمَّا سَمِعَ هِيرُودُسُ الْمَلِكُ اضْطَرَبَ وَجَمِيعُ أُورُشَلِيمَ مَعَهُ (مَتَّى ٢: ٣)

أدَّى هذا السؤال الوحيد إلى اضطراب هيرودس. فقد كان يُمسك بزمام السُّلطة بيدٍ من حديد! كما أنه كان مُستعداً لسحق أي شخص يتجرَّأ على مُحاولة انتزاع العرش منه. لذلك، لا عَجَب أنَّ المدينة بأكملها اضطربت أيضاً. فقد كان هيرودس معروفاً بقسوته مع المواطنين – لا سيَّما حينما يكون مُنزعجاً. ولم يكُن أحد يدري ما الذي سيفعله هيرودس في مثل ذلك الوقت! استدعى هيرودس مُستشاريه الدينيِّين:

فَجَمَعَ كُلَّ رُؤَسَاءِ الْكَهَنَةِ وَكَتَبَةِ الشَّعْبِ، وَسَأَلَهُمْ: «أَيْنَ يُولَدُ الْمَسِيحُ؟» (مَتَّى ٢: ٤)

ويُمكن للمرء أن يتخيَّل حَيرة القادة الدينيين. فمُنذ متى يُظهِر هيرودس اهتماماً بالأمور الدينيَّة؟ كما أنهم لم يتوقَّعوا منه أن يسألهم عن المسيَّا! وهكذا، فقد بدا واضحاً أنَّ رجال الدين اليهود لم يلتفتوا إلى ذلك الحدث العظيم الذي حدث في الأرض رغم أنَّ مجوس الشرق أدركوه وجاءوا لأجله. لكنَّ هيرودس لم يكُن شخصاً يُمكن تجاهُله. وقد طرح عليهم سؤالاً يجب عليهم الأجابة عليه: «أَيْنَ يُولَدُ الْمَسِيحُ؟»

النُبوَّة

يُمكننا أن نتخيَّل رجال الدين اليهود في تلك اللحظات وهُم يفتحون سفراً صغيراً ويُفتِّشون فيه بخوف! فقد كان كُلُّ ما يهمهم هو أن يعرف هيرودس أنهم ليسوا الأشخاص الذين تنبَّؤوا بذلك. فقد كان هناك نبيٌّ اسمه «ميخا» هو الذي كتب عن هذا الأمر قبل أكثر من ٧٠٠ سنة. وأخيراً، عثر رجال الدين هؤلاء على الآية التي يبحثون عنها والتي تُجيب عن سؤال الملك هيرودس وقام أحدهم بقراءة ما جاء فيها على مسمع هيرودس:

«أَمَّا أَنْتِ يَا بَيْتَ لَحْمَ أَفْرَاتَةَ، وَأَنْتِ صَغِيرَةٌ أَنْ تَكُونِي بَيْنَ أُلُوفِ يَهُوذَا، فَمِنْكِ يَخْرُجُ لِي الَّذِي يَكُونُ مُتَسَلِّطًا عَلَى إِسْرَائِيلَ، وَمَخَارِجُهُ مُنْذُ الْقَدِيمِ، مُنْذُ أَيَّامِ الأَزَلِ» (ميخا ٥: ٢)

كانت تلك النُبوءة مُحدَّدة جداً. فهي تقول إنَّ ذلك الطفل سيولد في بيت لحم أفراتة. فقد كانت هناك مدينتان تحملان اسم «بيت لحم»: الأولى بالقرب من الناصرة، والثانية إلى الجنوب من أورشليم في منطقة أفراتة. لهذا، كان لا بُدَّ من التمييز بينهما.

لو كان يوسف يعرف هذه المعلومة لوجد تفسيراً حقيقياً لرحلتهما من الناصرة إلى بيت لحم. فقد كان الأمر بأكمله خطَّة الله! وقد استخدم الله إحصاء السُكَّان الروماني لكي يدفعهما إلى الذهاب إلى هناك.

أراد الملك هيرودس أن يعرف ما إذا كان النبي ميخا قد تنبَّأ بالمزيد أم لا. وبالفعل، كان النبي ميخا قد تنبَّأ بما هو أكثر من ذلك. فالنبوءة تقول بوضوح إنَّ المولود موجود مُنذ الأزل! ولا بُدَّ أنَّ وجه هيرودس أصبح شاحباً حينما سمع ذلك. فلا يُمكن أن يكون هذا صحيحاً! فالله هو الوحيد الأزلي! لهذا، ظَنَّ هيرودس أنَّ رجال الدين هؤلاء رُبَّما يُحاولون إفزاعه والتلاعُب به. رغم ذلك فقد عقد العزم على مُسايرتهم حتَّى النهاية إلى أن يستوضح الأمر. وهكذا، فقد صرفهم واستدعى المجوس الذين يزورون المدينة:

حِينَئِذٍ دَعَا هِيرُودُسُ الْمَجُوسَ سِرًّا، وَتَحَقَّقَ مِنْهُمْ زَمَانَ النَّجْمِ الَّذِي ظَهَرَ. ثُمَّ أَرْسَلَهُمْ إِلَى بَيْتِ

لَحْم، وَقَالَ: «اذْهَبُوا وَافْحَصُوا بِالتَّدْقِيقِ عَنِ الصَّبِيِّ. وَمَتَى وَجَدْتُمُوهُ فَأَخْبِرُونِي، لِكَيْ آتِيَ أَنَا أَيْضًا وَأَسْجُدَ لَهُ». فَلَمَّا سَمِعُوا مِنَ الْمَلِكِ ذَهَبُوا. وَإِذَا النَّجْمُ الَّذِي رَأَوْهُ فِي الْمَشْرِقِ يَتَقَدَّمُهُمْ حَتَّى جَاءَ وَوَقَفَ فَوْقُ، حَيْثُ كَانَ الصَّبِيُّ. فَلَمَّا رَأَوْا النَّجْمَ فَرِحُوا فَرَحًا عَظِيمًا جِدًّا. وَأَتَوْا إِلَى الْبَيْتِ، وَرَأَوْا الصَّبِيَّ مَعَ مَرْيَمَ أُمِّهِ. فَخَرُّوا وَسَجَدُوا لَهُ. ثُمَّ فَتَحُوا كُنُوزَهُمْ وَقَدَّمُوا لَهُ هَدَايَا: ذَهَبًا وَلُبَانًا وَمُرًّا.[٣] (مَتَّى ٢: ٧-١١)

واستمرَّ الله في إرشاد هؤلاء الرجال الحُكماء:

ثُمَّ إِذْ أُوحِيَ إِلَيْهِمْ فِي حُلْم أَنْ لاَ يَرْجِعُوا إِلَى هِيرُودُسَ، انْصَرَفُوا فِي طَرِيق أُخْرَى إِلَى كُورَتِهِمْ. وَبَعْدَمَا انْصَرَفُوا، إِذَا مَلاَكُ الرَّبِّ قَدْ ظَهَرَ لِيُوسُفَ فِي حُلْم قَائِلاً: «قُمْ وَخُذِ الصَّبِيَّ وَأُمَّهُ وَاهْرُبْ إِلَى مِصْرَ، وَكُنْ هُنَاكَ حَتَّى أَقُولَ لَكَ. لأَنَّ هِيرُودُسَ مُزْمِعٌ أَنْ يَطْلُبَ الصَّبِيَّ لِيُهْلِكَهُ». فَقَامَ وَأَخَذَ الصَّبِيَّ وَأُمَّهُ لَيْلاً وَانْصَرَفَ إِلَى مِصْرَ. وَكَانَ هُنَاكَ إِلَى وَفَاةِ هِيرُودُسَ ... (مَتَّى ٢: ١٢-١٥)

عمل هيرودس كُلَّ ما في وُسعه لقتل الطفل يسوع؛ وهذا هو ما يؤكده التاريخ المدني أيضاً. رغم ذلك فقد بقي الطفل في مأمنٍ في مصر. في القصص القديمة كانت هناك غيمة فوق مصر إشارةً إلى أنها مكان الاضطهاد والعُنف. أمَّا الآن فقد حدث شيء مُختلف حيث أنَّ الله اختار مصر كمكانٍ يحظى بشرف إقامة الطفل يسوع فيه حيث أنَّ الله قاد يوسف ومريم للذهاب إلى هناك من أجل حماية الطفل يسوع من بطش هيرودس. وبهذا أصبحت مصر مكاناً آمناً لهذه العائلة المُميَّزة.

بعد موت هيرودس، رجع يوسف ومريم والطفل يسوع إلى الناصرة وعاد يوسف إلى عمله كنجار.

وَكَانَ الصَّبِيُّ يَنْمُو وَيَتَقَوَّى بِالرُّوحِ، مُمْتَلِئًا حِكْمَةً، وَكَانَتْ نِعْمَةُ اللهِ عَلَيْهِ (لوقا ٢: ٤٠)

الكلمة

أيُّهما أفضل للتخاطُب: الرسالة أم الشخص الذي كتب الرسالة شخصيًّا؟ رغم أنَّ للرسائل قيمتها، إلاَّ أنك إذا أردت أن تعرف شخصاً ما معرفة حقيقيَّة فما من شيءٍ يُوازي قضاء بعض الوقت معه في الحديث وجهاً لوجه. وقد رأينا أنَّ الله أكرم جميع الذين آمنوا بكلمته المنطوقة والمكتوبة عبر العصور. لكنَّ الله لم يتوقَّف عن إخبارنا عن نفسه؛ بل في حقيقة الأمر أنه سار خطوة أخرى للأمام بأن أظهر نفسه لنا عن طريق مجيئه إلى هذه الأرض.

فِي الْبَدْءِ كَانَ **الْكَلِمَةُ**، وَالْكَلِمَةُ كَانَ عِنْدَ اللهِ، وَكَانَ الْكَلِمَةُ اللهَ. **هذَا كَانَ فِي الْبَدْءِ عِنْدَ اللهِ**. ... وَالْكَلِمَةُ **صَارَ جَسَدًا** وَحَلَّ بَيْنَنَا...

(يوحنَّا ١: ١، ٢، ١٤)

ما هي هذه الكلمة التي كانت عند الله في البدء، والتي أصبحت جسداً؟ يقول لنا الكتاب المقدَّس إنَّ هذه الكلمة لم تكُن سوى يسوع المسيح. فالكلمة الأزلي لم يأخذ الاسم يسوع (الذي يعني «المُخلِّص») إلاَّ بعد أن وُلد كإنسان على أرضنا هذه.

وحينما يقول الكتاب المقدَّس «وَالْكَلِمَةُ كَانَ عِنْدَ اللهِ» فهو لا يعني بذلك أنه كان هناك إلهان. والآن، فكِّر في الأمر بالطريقة التالية: حينما نتكلَّم فإننا لا نُفكِّر في أنَّ كلماتنا مُنفصلة عنَّا نحن. فلا يُمكن لأحدٍ أن يفتح الدماغ ويقطع الجزء الذي يُمثِّل «الكلمات». فالكلمات هي أفكار منطوقة أو مكتوبة. وبطريقة أو بأخرى فإننا نُشكِّل كياناً واحداً مع كلماتنا. فإن قام أحد بانتقاد ما أقوله أو أكتبه فإنه بذلك ينتقدني أنا وليس الحروف المكتوبة على الورقة أو المقاطع الصوتيَّة المنطوقة في الهواء. وبالتالي فإنَّ كل ما تُحقِّقه كلماتي، سواء كان ذلك إيجابياً أو سلبياً، هو نفس ما أُحقِّقه أنا. ففي نهاية المطاف، سوف أكون أنا الشخص الذي تُوجَّه له الملامة أو المديح بسبب تلك الكلمات. وهكذا، فأنا وكلماتي واحد. وبالطريقة نفسها فإنَّ يسوع والله واحد لأنَّ يسوع هو كلمة الله.

ولا عَجَب أنَّ الله، أعظم مُتكلِّم، استخدم أفضل وسيلة للتخاطُب معنا. فهو لم يكُن يُخطِّط لإبقاء نفسه محصوراً في ورق بالنسبة لنا، بل إنه جاء إلينا شخصيًّا:

... **وَالْكَلِمَةُ صَارَ جَسَدًا وَحَلَّ بَيْنَنَا...** (يوحنَّا ١: ١٤)

٣ . بين المُعلِّمين

لا بُدَّ أنَّ تربية الطفل يسوع كانت تجربة مليئة بالمُفاجآت والدهشة ليوسف ومريم. فقد كان يسوع كاملاً وبلا خطيَّة. فحتَّى حينما كان يسوع ولداً صغيراً، لم يكُن عديم الصبر، ولا وقحاً، ولا عصبيَّاً. ورغم أنَّ هناك الكثير من القصص التي تتحدَّث عن السنوات التي قضاها يسوع في الناصرة، إلاَّ أنَّ الكتاب المقدَّس لا يُقدِّم لنا سوى قصَّة واحدة فقط:

وَكَانَ أَبَوَاهُ يَذْهَبَانِ كُلَّ سَنَةٍ إِلَى أُورُشَلِيمَ فِي عِيدِ الْفِصْحِ. وَلَمَّا كَانَتْ لَهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ سَنَةً صَعِدُوا إِلَى أُورُشَلِيمَ كَعَادَةِ الْعِيدِ (لوقا ٢: ٤١، ٤٢)

بحسب الثقافة اليهودية، كان الولد يُصبح عضواً كاملاً في المجتمع الديني حينما يصل إلى سن البلوغ (١٢ سنة)* وعندها، كان يتمتَّع بجميع الامتيازات والمسؤوليات التي يتمتَّع بها الشباب. وحينما قام يوسف ومريم برحلتهما المُعتادة إلى أورشليم في هذه المَرَّة، كان يسوع قد بلغ سنّ الثانية عشرة.[٤]

* في هذه السن، يصبح الولد «ابن العَهد». وما زال اليهود يمارسون هذه العادة حتَّى يومنا هذا في احتفال يُسمَّى «بار ميتزفاه».

طريق العودة

بعد انتهاء العيد، توجَّه الجميع إلى مَواطنهم. ورغم أننا لا نعرف جميع تفاصيل تلك الرحلة، إلاَّ أنه من المُرجَّح أنَّ سُكَّان الناصرة كانوا يسافرون معاً من أجل الرفقة والأمان.

وَبَعْدَمَا أَكْمَلُوا الأَيَّامَ بَقِيَ عِنْدَ رُجُوعِهِمَا الصَّبِيُّ يَسُوعُ فِي أُورُشَلِيمَ، وَيُوسُفُ وَأُمُّهُ لَمْ يَعْلَمَا. وَإِذْ ظَنَّاهُ بَيْنَ الرُّفْقَةِ، ذَهَبَا مَسِيرَةَ يَوْمٍ، وَكَانَا يَطْلُبَانِهِ بَيْنَ الأَقْرِبَاءِ وَالْمَعَارِفِ. وَلَمَّا لَمْ يَجِدَاهُ رَجَعَا إِلَى أُورُشَلِيمَ يَطْلُبَانِهِ (لوقا ٢: ٤٣-٤٥)

عمليَّة البحث

من المؤكَّد أنَّ عمليَّة البحث عن الصبي يسوع رافقها قلق شديد. فقد بحث يوسف ومريم عن يسوع في كل مكان يمكن لصبي مثله أن يوجد فيه. فقد بحثا في سوق الحلوى، وفي كل الأماكن المُحتملة. وحينما يَئِسا من العثور عليه، رجعا إلى أورشليم بحثاً عنه. وأخيراً عثرا عليه في الهيكل:

وَبَعْدَ ثَلاَثَةِ أَيَّامٍ وَجَدَاهُ فِي الْهَيْكَلِ، جَالِسًا فِي وَسْطِ الْمُعَلِّمِينَ، يَسْمَعُهُمْ وَيَسْأَلُهُمْ. وَكُلُّ الَّذِينَ سَمِعُوهُ بُهِتُوا مِنْ فَهْمِهِ وَأَجْوِبَتِهِ (لوقا ٢: ٤٦، ٤٧)

وهكذا، عوضاً عن أن يقوم المُعلِّمون الدينيُّون في الهيكل بتعليم الصبي يسوع، كان يسوع هو الذي يُعلِّمهم. ومن الواضح هنا أنه لم يكُن يُلقي مُحاضرةً، بل كان يطرح أسئلةً عميقة، ويُجيبهم عن أسئلتهم بصورة أذهلت الجميع بمن فيهم رجال الدين!

لم يكُن رجال الدين هم الأشخاص الوحيدون الذين عجزوا عن الكلام؛ فقد بُهت يوسف ومريم أيضاً، لكنهما شعرا بارتياح شديد وتنفَّسا الصُّعداء حينما عثرا عليه. وحينما تجاوزت مريم مرحلة الصدمة سألت يسوع قائلةً:

... «يَا بُنَيَّ، لِمَاذَا فَعَلْتَ بِنَا هكَذَا؟ هُوَذَا أَبُوكَ وَأَنَا كُنَّا نَطْلُبُكَ مُعَذَّبَيْنِ!» (لوقا ٢: ٤٨)

وعندها، وَجَّه يسوع سؤالاً ليوسف ومريم قائلاً:

«لِمَاذَا كُنْتُمَا تَطْلُبَانِنِي؟ أَلَمْ تَعْلَمَا أَنَّهُ يَنْبَغِي أَنْ أَكُونَ فِي مَا لأَبِي؟»

(لوقا ٢: ٤٩)

تذكير لطيف

لم يكُن هذا جواباً وقحاً. فقد كان يسوع يقول ببساطة إنه موجود في المكان الصحيح لصبي مثله – في بيت أبيه. لكن ما الذي عناه بحديثه عن أبيه؟ ومن يكون هذا الأب الذي أشار إليه؟ سوف نتناول هذا الموضوع في القسم اللاحق. أمَّا الآن فيكفي أن نعرف أنَّ يسوع استخدم هذه العبارة كتذكير لطيف لوالديه الأرضيين بحقيقته.

فَلَمْ يَفْهَمَا الْكَلاَمَ الَّذِي قَالَهُ لَهُمَا. ثُمَّ نَزَلَ مَعَهُمَا وَجَاءَ إِلَى النَّاصِرَةِ وَكَانَ خَاضِعًا لَهُمَا. وَكَانَتْ أُمُّهُ تَحْفَظُ جَمِيعَ هذِهِ الأُمُورِ فِي قَلْبِهَا. وَأَمَّا يَسُوعُ فَكَانَ يَتَقَدَّمُ فِي الْحِكْمَةِ وَالْقَامَةِ وَالنِّعْمَةِ، عِنْدَ اللهِ وَالنَّاسِ

(لوقا ٢: ٥٠-٥٢)

٤. النبي يوحنَّا المَعمدان

لم يبدأ يسوع خدمته الفعليَّة إلا حينما بلغ سن الثلاثين تقريباً. وفي ذلك الوقت، كان يوحنَّا (ابن زكريَّا وأليصابات) قد بدأ في تهيئة الطريق له.

وَفِي تِلْكَ الأَيَّامِ جَاءَ يُوحَنَّا الْمَعْمَدَانُ يَكْرِزُ فِي بَرِّيَّةِ الْيَهُودِيَّةِ قَائِلاً: «تُوبُوا، لأَنَّهُ قَدِ اقْتَرَبَ مَلَكُوتُ السَّمَاوَاتِ. فَإِنَّ هذَا هُوَ الَّذِي قِيلَ عَنْهُ بِإِشَعْيَاءَ النَّبِيِّ الْقَائِلِ:

«صَوْتُ صَارِخٍ فِي الْبَرِّيَّةِ: أَعِدُّوا طَرِيقَ الرَّبِّ. اصْنَعُوا سُبُلَهُ مُسْتَقِيمَةً».

... حِينَئِذٍ خَرَجَ إِلَيْهِ أُورُشَلِيمُ وَكُلُّ الْيَهُودِيَّةِ وَجَمِيعُ الْكُورَةِ الْمُحِيطَةِ بِالأُرْدُنِّ (مَتَّى ٣: ١-٣، ٥)

كان النبي يوحنَّا المعمدان يُتمِّم النبوءة القديمة التي قيلت قبل ٧٠٠ سنة على فم النبي إشعياء. فقد كان يُعدُّ الطريق أمام الرب. وقد قال النبي إشعياء في المقطع نفسه:

ارْفَعِي صَوْتَكِ بِقُوَّةٍ، يَا مُبَشِّرَةُ أُورُشَلِيمَ. ارْفَعِي لاَ تَخَافِي. قُولِي لِمُدُنِ يَهُوذَا: «هُوَذَا إِلهُكُمْ!»

(إشعياء ٤٠: ٩)

كان يوحنَّا المعمدان يُخبر كُلَّ من يُصغي إليه بأنَّ المسيح (المُخلِّص الموعود) قد جاء. وقد أدَّى ذلك إلى حالةٍ من الغليان بين الناس ورجال الدين.

المعموديَّة

لُقِّب يوحنَّا بالمَعمدان لأنه كان يُعَمِّد الناس في الماء. ولم يكن طقس المعموديَّة غريباً عند شعوب منطقة الشرق الأوسط في تلك الأيام. ورغم أنَّ المعموديَّة تحمل الكثير من المعاني، إلاَّ أنَّ هناك غموضاً كبيراً يكتنف هذه الكلمة في يومنا هذا.

كلمة «معموديَّة» تعني ضمنيًّاً الاقتران أو الاتِّحاد. وقد كانت هذه الكلمة تُستَخدم في صناعة المنسوجات اليونانية القديمة. فأثناء عمليَّة صبغ القماش، كانت قطعة القماش تُغمس في وعاء الصبغ فتأخذ لون الصبغة الموجودة في الوعاء. وهكذا، كان القماش يَتَّحد تماماً مع

الصبغة.

عرف يوحنَّا أنَّ اليهود ضَلُّوا عن الأسفار المُقدَّسة واعتنقوا أفكاراً بشرية. لذلك فقد قال لهم إنه ينبغي عليهم أن يتركوا طرقهم الضالَّة ويرجعوا إلى الله؛ أي أن يتوبوا. وقد أظهر اليهود الذين اعتمدوا في الماء أنهم اتَّحدوا مع رسالة التوبة التي جاء بها (أي أنهم وافقوا عليها شخصيًّا)

حِينَئِذٍ خَرَجَ إِلَيْهِ أُورُشَلِيمُ وَكُلُّ الْيَهُودِيَّةِ وَجَمِيعُ الْكُورَةِ الْمُحِيطَةِ بِالأُرْدُنِّ، وَاعْتَمَدُوا مِنْهُ فِي الأُرْدُنِّ، مُعْتَرِفِينَ بِخَطَايَاهُمْ. فَلَمَّا رَأَى كَثِيرِينَ مِنَ الْفَرِّيسِيِّينَ وَالصَّدُّوقِيِّينَ يَأْتُونَ إِلَى مَعْمُودِيَّتِهِ، قَالَ لَهُمْ: «يَا أَوْلاَدَ الأَفَاعِي، مَنْ أَرَاكُمْ أَنْ تَهْرُبُوا مِنَ الْغَضَبِ الآتِي؟ فَاصْنَعُوا أَثْمَارًا تَلِيقُ بِالتَّوْبَةِ»

(مَتَّى ٣: ٥-٨)

التوبة

رأى يوحنَّا أنَّ بعض الحضور هُم من الفرِّيسيِّين والصدُّوقيِّين. ورغم أنَّ هاتين الجماعتين لم تكونا بحاجة إحداهما للأخرى، إلاَّ أنه كان يوجد بينهما عامل مُشترك ألا وهو الكبرياء والشعور بأنهم أفضل من الآخرين. وقد سَمَّاهُم يوحنَّا بالأفاعي لأنهم فَرضوا على الآخرين قواعد صارمة جداً دون أن يُمارسوها هُم أنفسهم. لذلك فقد طلب منهم أن يتوبوا؛ أي أن يُغيِّروا أفكارهم وطُرقهم.

معموديَّة يسوع

حِينَئِذٍ جَاءَ يَسُوعُ مِنَ الْجَلِيلِ إِلَى الأُرْدُنِّ إِلَى يُوحَنَّا لِيَعْتَمِدَ مِنْهُ. وَلكِنْ يُوحَنَّا مَنَعَهُ قَائِلاً: «أَنَا مُحْتَاجٌ أَنْ أَعْتَمِدَ مِنْكَ، وَأَنْتَ تَأْتِي إِلَيَّ!» (مَتَّى ٣: ١٣، ١٤)

كان يوحنَّا نبيًّاً، لكنه أدرك أنَّ يسوع أعظم من نبي. ولم يكُن ينبغي على يسوع أن يتوب عن أي شيء لأنه كان كاملاً وبلا خطيَّة. بل في حقيقة الأمر أنَّ يوحنَّا طلب من يسوع أن يُعمِّده بمعموديَّة التوبة لأنه كان يعرف أنه هو الذي يحتاج للمعموديَّة وليس يسوع.

فَأَجَابَ يَسُوعُ وَقَالَ لَهُ: «اسْمَحِ الآنَ، لأَنَّهُ هكَذَا يَلِيقُ بِنَا أَنْ نُكَمِّلَ كُلَّ بِرّ». حِينَئِذٍ سَمَحَ لَهُ

(مَتَّى ٣: ١٥)

أصَرَّ يسوع على أن يعتمد لأنه أراد أن يَتَّحِد مع رسالة يوحنَّا الداعية إلى حياة البِرّ. كما أنه أراد أن يُؤكِّد صحَّة رسالة يوحنَّا.

فَلَمَّا اعْتَمَدَ يَسُوعُ صَعِدَ لِلْوَقْتِ مِنَ الْمَاءِ، وَإِذَا السَّمَاوَاتُ قَدِ انْفَتَحَتْ لَهُ، فَرَأَى رُوحَ اللهِ نَازِلاً مِثْلَ حَمَامَةٍ وَآتِيًا عَلَيْهِ، وَصَوْتٌ مِنَ السَّمَاوَاتِ قَائِلاً: «هذَا هُوَ ابْنِي الْحَبِيبُ الَّذِي بِهِ سُرِرْتُ»

(مَتَّى ٣: ١٦، ١٧)

سوف نتطرَّق إلى هذه الآية بشيءٍ من التفصيل بعد قليل. لكن دعنا الآن نُكمل قصَّتنا هذه.

حَمَل الله

وَفِي الْغَدِ نَظَرَ يُوحَنَّا يَسُوعَ مُقْبِلاً إِلَيْهِ، فَقَالَ: «**هُوَذَا حَمَلُ اللهِ الَّذِي يَرْفَعُ خَطِيَّةَ الْعَالَمِ!** هذَا هُوَ الَّذِي قُلْتُ عَنْهُ: يَأْتِي بَعْدِي، رَجُلٌ صَارَ قُدَّامِي، لأَنَّهُ كَانَ قَبْلِي» (يوحنَّا ١: ٢٩، ٣٠)

قال يوحنَّا عن يسوع بأنه المُخلِّص الموعود الذي سيَحمل خطيَّة العالم. كما أنه قال بأن يسوع كان موجوداً من قَبله؛ أي منذ الأزل. علاوة على ذلك، قال يوحنَّا:

«وَأَنَا قَدْ رَأَيْتُ وَشَهِدْتُ أَنَّ هذَا هُوَ ابْنُ اللهِ» (يوحنّا ١: ٣٤)

ذات مَرَّة، كُنت أشرح بعض الأفكار الكتابيَّة لزوجين شابَّين. وحينما قرأت هذه الآية: «هُوَذَا حَمَلُ اللهِ الَّذِي يَرْفَعُ خَطِيَّةَ الْعَالَمِ!»، دَبَّت الحيويَّة في الزوجة وقالت بصوت مُفعم بالحيويَّة والنشاط: «الحَمَل، الحَمَل! هل لهذا علاقة بكل الحِملان التي كُنَّا نقرأ عنها في العهد القديم؟»

أجبتُها قائلاً: «أجل، له علاقة. وعندما يحين الوقت الملائم، سوف تجدين أنَّ كل الأمور تنسجم معاً بطريقة عجيبة تُثير الدهشة!»

وَحدانيَّةٌ جَـامعَةٌ

عمل الله مع الشعب العبراني القديم مُدَّة ١٠٠٠ سنة لكي يوصلهم إلى النقطة التي لا يعبُدون فيها آلهةً أخرى. وقد استخدم الله الأوقات العصيبة والسبي من أجل إخراج عبادة الأصنام من حياتهم. وأخيراً، عبد الشعب الإله الواحد دون سواه.

لكن بعد ذلك، أراد الله من شعبه ومن الأمم الأخرى أن يفهموا المزيد عنه؛ وهو شيء لم يكونوا مُستعدِّين له إلى أن عرفوا أنَّ الله واحد. فرغم أنَّ الله واحد كما تُشير الآية التالية: «... الرَّبُّ إِلهُنَا رَبٌّ وَاحِدٌ»، إلاَّ أنَّ هذه الوحدانيَّة هي وحدانيَّة جامعة.

نحن كثيراً ما نستخدم الفكرة ذاتها في حديثنا عن إحدى الجامعات أو أحد المُستشفيات. فنحن نعرف أنَّنا نتحدَّث عن جامعة واحدة رغم أنَّها تضم العديد من الكُليَّات. كما أنَّنا نتحدَّث عن مستشفى واحد في حين أنه يشتمل على الكثير من الأقسام. وبالطريقة نفسها، حينما نتحدَّث عن أنَّ الله يمتلك وَحدانيَّة جامعة، فإنَّنا نعني أنَّ الله واحد، لكنه يتألَّف من ثلاثة أقانيم: الآب، والابن، والرُّوح القُدُس. ويُشار إلى هذه الوحدانيَّة الجامعة في اللاهوت بكلمة «الثالوث» والتي تعني أنَّ الله واحدٌ لكنَّه مُثلَّث الأقانيم.

في القرون التي سبقت ميلاد يسوع، أكَّد الأنبياء على هذه الوحدانيَّة الجامعة من خلال ما كتبوه عن الله بصيغة الجَمع. فعلى سبيل المثال، كتب موسى عن خلق الله للإنسان فقال:

وَقَالَ اللهُ: «**نَعْمَلُ** الإِنْسَانَ عَلَى **صُورَتِنَا كَشَبَهِنَا** ...» (تكوين ١: ٢٦)

وحينما أخطأ آدم:

وَقَالَ الرَّبُّ الإِلهُ: «هُوَذَا الإِنْسَانُ قَدْ صَارَ كَوَاحِدٍ **مِنَّا** عَارِفًا الْخَيْرَ وَالشَّرَّ» (تكوين ٣: ٢٢)

كما أنَّ الله قال حينما شَتَّت أهل بابل:

«هَلُمَّ **نَنْزِلْ وَنُبَلْبِلْ** هُنَاكَ لِسَانَهُمْ حَتَّى لاَ يَسْمَعَ بَعْضُهُمْ لِسَانَ بَعْضٍ». فَبَدَّدَهُمُ الرَّبُّ مِنْ هُنَاكَ عَلَى وَجْهِ كُلِّ الأَرْضِ ... (تكوين ١١: ٧، ٨)

وحتَّى إنَّ الكلمة التي كان الأنبياء يستخدمونها في حديثهم عن الله (ألا وهي كلمة «إلوهيم») تحمل معنى الوحدانيَّة الجامعة* ففي اللغة العِبْريَّة، تأتي كلمة «إلوهيم» بصيغة الجَمع فقط لتحمل معنىً مُركَّباً رُغم أنَّ الكلمة نفسها مُفردة.

*اللغة العِبريَّة تُشبه اللغة العربيَّة في أنها تحتوي على صيغة المُفرد، وصيغة المُثنَّى، وصيغة الجَمع (ثلاثة فما فوق) وكلمة إلوهيم تأتي بصيغة الجَمع دوماً.

بمجيء الرب إلى الأرض باعتباره إلهاً وإنساناً في آنٍ واحد، أظهر الله وحدانيَّته الجامعة بقدر هائل من التفصيل. ويمكننا أن نرى ذلك من خلال حديث الملاك جبرائيل مع مريم حيث قال لها:

«**اَلرُّوحُ الْقُدُسُ** يَحِلُّ عَلَيْكِ، وَقُوَّةُ **الْعَلِيِّ** تُظَلِّلُكِ، فَلِذلِكَ أَيْضًا الْقُدُّوسُ الْمَوْلُودُ مِنْكِ يُدْعَى **ابْنَ اللهِ**» (لوقا ١: ٣٥)

ففي هذه الجُملة الواحدة، تكلَّم الملاك جبرائيل عن ثلاثة أقانيم (الروح القدس، والعلي، وابن الله)؛ لكنه تكلَّم عن إله واحد فقط. ومن هذه النقطة فصاعداً في الكتاب المقدَّس، يُصبح هذا الأمر مألوفاً جداً. فعلى سبيل المثال، قرأنا قبل قليل الآيتين التاليتين:

فَلَمَّا اعْتَمَدَ **يَسُوعُ** صَعِدَ لِلْوَقْتِ مِنَ الْمَاءِ، وَإِذَا السَّمَاوَاتُ قَدِ انْفَتَحَتْ لَهُ، فَرَأَى **رُوحَ اللهِ** نَازِلاً مِثْلَ حَمَامَةٍ وَآتِيًا عَلَيْهِ، **وَصَوْتٌ مِنَ السَّمَاوَاتِ** قَائِلاً: «هذَا هُوَ ابْنِي الْحَبِيبُ الَّذِي بِهِ سُرِرْتُ» (مَتَّى ٣: ١٦، ١٧)

نجد الأقانيم الثلاثة في هاتين الآيتين: فهناك يسوع، وهناك روح الله، وهناك صوت من السَّماء؛ لكنَّ هذه الأقانيم الثلاثة تُشكِّل كياناً واحداً وإلهاً واحداً اسمه «الرب».

قد يكون من السهل علينا أن نفهم المقصود حينما نتحدَّث عن إحدى الجامعات أو أحد المُستشفيات في إطار الوحدانيَّة الجامعة. أمَّا حينما نستخدم هذا المفهوم في الحديث عن الله فقد يكون الأمر مُربكاً ومُحيِّراً. وقد حاول الكثيرون عبر السنين توضيح فكرة وحدانيَّة الله الجامعة فضربوا الأمثلة التالية:

١. **الماء:** رغم أنَّ الماء يمكن أن يوجد في شكل سائل، أو بُخار، أو ثلج، إلاَّ أنَّه يبقى ماءً

نوعان من العَظَمَة!

يقول البعض: «هذا مُستحيل! لا يُمكن لله أن يولد كطفل لا حَول له ولا قُوَّة في حظيرة حيوانات قذرة. لا يُمكن لله أن يُصبح إنساناً! فالله أعظم من أن يفعل شيئاً كهذا!»

هل هذا التفكير سليم؟ للإجابة عن هذا السؤال، رُبَّما يتعيَّن علينا أن نُعيد تعريف كلمة «عظيم». فَكِّر في النقطتين التاليتين:

١. هناك عَظَمَة الملك الذي يعيش في قصره البديع، والمُحاط بالثروة والرفاهية والخَدَم الذين يسهرون على راحته. ومثل هذا الملك نادراً ما يُوسِّخ يديه. كما أنه لا يعرف شيئاً عن الصعوبات والمشقَّات التي يواجهها أهل بلده في كل يوم.

٢. ثُمَّ هناك عَظَمَة الطبيب الماهر الذي ترك ممارسة الطب في المُستشفيات الراقية في بلده لكي يخدم في منطقة نائية بحاجة له. فهو يعمل هناك وسط الأمراض والفقر، ويخدم الناس، ويُساعدهم، ويشفيهم، ويفني حياته لأجلهم.

في رأيك، ما هو نوع العَظَمة التي ينتمي إليها إلهنا المُحب والرحيم؟

في جميع هذه الحالات الثلاث.

٢. **الأبعاد:** لكل صندوق ارتفاع، وعرض، وطول. ورغم أنَّ هذه الأبعاد تختلف بعضها عن بعض، إلاَّ أنها لا تنفصل.

٣. **الضَّرب:** ١ × ١ × ١ = ١.

٤. **الشَّمس:** تتكوَّن الشمس من جُرم سماوي مرئي، وأشعَّة ضوئيَّة غير مرئيَّة، وأشعَّة حراريَّة تُعطينا الدفء؛ ورغم أنَّ هذه ثلاثة عناصر مُتميِّزة، إلاَّ أنها تُشكِّل شمساً واحدةً.

ورغم أنَّ هذه الأمثلة التوضيحيَّة يمكن أن تساعدنا إلى حَدٍّ ما، إلاَّ أنها تبقى عاجزةً عن تقديم توضيح كامل لنا. لذلك، يجب علينا أن نحرص على عدم تقييد الله بمستوانا البشري وعدم النظر إليه وكأنه واحد منَّا. فالرب يقول إنَّ جُزءاً من عدم فهمنا له يرجع إلى أننا ننظر إليه أحياناً كما لو كان واحداً من البشر:

... ظَنَنْتَ أَنِّي مِثْلُكَ ... (المزمور ٥٠: ٢١)

حينما كُنَّا أطفالاً صغاراً، كانت هناك الكثير من الأشياء التي لا نفهمها. رغم ذلك فقد كُنَّا نقبلها كما هي. فما هي الكهرباء؟ ولماذا لا تنساب الكهرباء على الأرض حينما نسحب القابس (الفيش) من الحائط؟ إنني لا أراها! وما الذي تعنيه بقولك إنها قد تقتلني إذا أدخلت مسماراً في منفذ الكهرباء؟ وهكذا، فإنَّ عدم فهمنا للكهرباء لا يعني مُطلقاً أنها غير موجودة أو ليست حقيقيَّة.

وكناضجين، قد نتفاخر إلى حَدٍّ ما بقدرتنا على استيعاب العالم من حولنا. فالأشياء التي حَيَّرت القُدماء عبر العصور أصبحت مألوفة لنا. رغم ذلك، يجب علينا أن نبقى متواضعين. فهناك أمور كثيرة في الكون الذي نعرفه ما زالت غامضة لدينا. فالأشخاص الذين سيعيشون بعد ١٠٠ سنة من الآن سيعتبروننا عمياناً في ضوء الأشياء التي كُنَّا نجهلها والتي أصبحت مألوفة لهم. وقد يأتي وقت يصبح فيه مفهوم الثالوث واضحاً كل الوضوح!

وحتَّى لو جاء ذلك اليوم بالفعل، يجب علينا أن نُدرك أنَّ قدرتنا المحدودة على التفكير لا تتوافق مع إلهنا غير المحدود. وكما تقول كلمة الله فإنَّ إله الكتاب المقدَّس هو إله قادر على إثارة دهشتنا بالفعل. فهناك أشياء تتعلَّق بالله وتقع خارج نطاق المنطق بالنسبة لنا حيث أنَّه توجد تعقيدات مُذهلة يصعب علينا فهمها واستيعابها. فحتَّى فكرة وجود إله سرمدي هي ليست بالفكرة التي يسهل استيعابها. كما أنَّ فكرة وجود الله في كل مكان في الوقت نفسه تُحيِّر العقول! وهكذا، فإنَّ محاولة فهم هاتين الحقيقتين عن الله بصورة كاملة قد تكون مُستحيلة لعقولنا المحدودة. وما ينطبق على هاتين الحقيقتين ينطبق أيضاً على فكرة وحدانيَّة الله الجامعة.

«الخفايا للرَّبِّ إلهِنا، لكنَّهُ أعلَنَ كلامَ شريعتِهِ هذِهِ حتى نعمَلَ بها نحنُ وبَنونا إلى الأبد»

(تثنية ٢٩: ٢٨ – المشتركة)

أفكار لا يُعلِّمها الكتاب المقدَّس:

- **التثليثيَّة:** كانت هذه الفكرة سائدة عند المصريِّين القُدماء. فقد كانوا يضعون آلهتهم في مجموعات ثُلاثيَّة. وغالباً ما كانت كل مجموعة ثلاثيَّة من الآلهة تُشكِّل عائلة واحدة. فعلى سبيل المثال، كان أوزيريس هو الأب، وإيزيس هي الأم، وحورس هو الابن. وفي وقتنا الحاضر، يعتقد البعض خطأً أنَّ الله هو الأب، ومريم هي ملكة السماء والأم، ويسوع هو الابن. لكنَّ هذه الفكرة غريبة تماماً عن الكتاب المقدَّس.
- **الشكليَّة:** بحسب هذا الفكر، فإنَّ هناك ثلاثة أدوار يقوم بها شخص واحد مثلما هو الحال في وجود رجُل يلعب دور الابن، والزوج، والأب في آنٍ واحدٍ.

الفصل الحادي عشر

١. التجربة.
٢. السلطة والمجد.
٣. نيقوديموس.
٤. الرَّفض.
٥. خُبز الحياة.

١. التجربة

*(انظر الفصل السابق للاطلاع على شرح معنى عبارة «ابن الله»)

في بداية الخَلق، حاول «لوسيفر» (الشيطان) بكل وقاحة أن يشن ثورةً ضدَّ اللّه من أجل الاستيلاء على عرشه. ورغم أنَّ اللّه الابن كان ما زال يتمتَّع بالصفات الإلهيَّة الكاملة، إلاَّ أنه ترك مجده وجلاله المنظورين ونزل من السماء وجاء إلى الأرض كإنسان. ويبدو أنَّ الشيطان اعتقد أنَّ يسوع أصبح في موقف ضعف آنذاك. وهكذا، راح الشيطان يُفكِّر في النصر العظيم الذي سيُحقِّقه لو أنه تمكَّن من إغراء يسوع بعمل ما يُريده منه. أمَّا فيما يتعلَّق باللّه، فقد كانت تلك فرصة جديدة لإظهار المزيد عن ذاته.

*كلمة «إبليس» تعني الكاذب أو المُفتري.

ثُمَّ أُصْعِدَ يَسُوعُ إِلَى الْبَرِّيَّةِ مِنَ الرُّوحِ لِيُجَرَّبَ مِنْ إِبْلِيسَ. فَبَعْدَ مَا صَامَ أَرْبَعِينَ نَهَارًا وَأَرْبَعِينَ لَيْلَةً، جَاعَ أَخِيرًا

(مَتَّى ٤: ١، ٢)

كان يسوع قد انتهى من فترة صيام طويلة:

فَتَقَدَّمَ إِلَيْهِ الْمُجَرِّبُ وَقَالَ لَهُ: «إِنْ كُنْتَ ابْنَ اللهِ فَقُلْ أَنْ تَصِيرَ هذِهِ الْحِجَارَةُ خُبْزًا» (مَتَّى ٤: ٣)

اقتراح

اقترح الشيطان أن يقوم يسوع بشيء يمكن للجميع أن يتفهَّموه ألا وهو أن يهتم بشؤونه الجسديَّة. وقد نظُنُّ أنَّ تلك كانت فرصة ثمينة ليسوع لكي يُثبت هويَّته الحقيقية. فإن كان هو اللّه فقد خلق العالم بمُجرَّد كلمة منه. وبالتالي، سوف يكون تحويل الحجر إلى خُبز أمراً سهلاً. لكنَّ الأمر كان ينطوي على حيلة! فلو أنه فعل ذلك لكان يتبع أوامر الشيطان.

فَأَجَابَ يسوع وَقَالَ: «مَكْتُوبٌ: لَيْسَ بِالْخُبْزِ وَحْدَهُ يَحْيَا الإِنْسَانُ، بَلْ بِكُلِّ كَلِمَةٍ تَخْرُجُ مِنْ فَمِ اللهِ»
(مَتَّى ٤: ٤)

يسوع يقتبس من الأسفار المُقدَّسة

رَدَّ المسيح على الشيطان عن طريق الاقتباس من أقوال الأسفار المُقدَّسة التي هي كلمة اللّه المكتوبة فقال إنَّ اتِّباع اللّه أكثر أهميَّة من الاهتمام بالحاجات الجسديَّة. وما من شكٍّ أنَّ هذا القول بالغ الأهميَّة لأنَّ الكثيرين يهتمُّون بحياتهم الجسديَّة على حساب حياتهم الروحيَّة.

لأَنَّهُ مَاذَا يَنْتَفِعُ الإِنْسَانُ لَوْ رَبِحَ الْعَالَمَ كُلَّهُ وَخَسِرَ نَفْسَهُ؟ (مرقس ٨: ٣٦)

الشيطان «يقتبس»

ثُمَّ أَخَذَهُ إِبْلِيسُ إِلَى الْمَدِينَةِ الْمُقَدَّسَةِ أورشليم، وَأَوْقَفَهُ عَلَى جَنَاحِ الْهَيْكَلِ، وَقَالَ لَهُ: «إِنْ كُنْتَ ابْنَ اللهِ فَاطْرَحْ نَفْسَكَ إِلَى أَسْفَلُ، لأَنَّهُ مَكْتُوبٌ: 'أَنَّهُ يُوصِي مَلاَئِكَتَهُ بِكَ، فَعَلَى أَيَادِيهِمْ يَحْمِلُونَكَ لِكَيْ لاَ تَصْدِمَ بِحَجَرٍ رِجْلَكَ'.» (مَتَّى ٤: ٥، ٦)

كان هذا تحدياً وقحاً من إبليس! فقد كان يقول ليسوع: «أثبت ذلك! بَرهِن أنك ابن اللّه! فإن

كان الله هو أبوك بالفعل فسوف يُنقذك ويُنجّيك!»

اقتبس الشيطان بعض ما جاء في سفر المزامير. فهو يُحب التديُّن ويستخدم بعض الاقتباسات لخداع الناس وتضليلهم. لكنَّ المُشكلة كانت تكمُن في أنه لم يكُن يقتبس الكلام بصورة صحيحة؛ بل كان يأخذ الأجزاء التي تُناسب أهدافه فقط. وربما تَذكُر أنه فعل ذلك مع آدم وحوَّاء في جَنَّة عَدْن. وها هو الآن يُحاول فعل الشيء نفسه مع يسوع.

المسيح يقتبس ثانيةً من الأسفار المُقدَّسة

رَدَّ يسوع مَرَّةً أخرى على تجربة الشيطان عن طريق الاقتباس من الأسفار المُقدَّسة؛ لكنه كان يقتبس الكلام بصورة دقيقة وصحيحة:

قَالَ لَهُ يَسُوعُ: «مَكْتُوبٌ أَيْضًا: لاَ تُجَرِّبِ الرَّبَّ إِلهَكَ» (مَتَّى ٤: ٧)

يسوع يرفض عَرض الشيطان

ثُمَّ أَخَذَهُ أَيْضًا إِبْلِيسُ إِلَى جَبَل عَال جِدًّا، وَأَرَاهُ جَمِيعَ مَمَالِكِ الْعَالَمِ وَمَجْدَهَا، وَقَالَ لَهُ: «أُعْطِيكَ هذِهِ جَمِيعَهَا إِنْ خَرَرْتَ وَسَجَدْتَ لِي» (مَتَّى ٤: ٨، ٩)

كلمة «شيطان» تعني الخصم أو العدوّ.

عَرَض الشيطان على يسوع أن يُعطيه جميع ممالك العالم ومجدها إن هو سَجَد له. ففي نهاية المطاف، ألم يكُن هذا هو الهدف الذي يسعى إليه يسوع – أن يتبعه جميع الناس؟ لكنَّ الشيء الذي لم يَذكُره الشيطان ليسوع هو أنه إذا سَجَد له فسوف يُصبح خادماً لديه. فالعبادة والخدمة يسيران جنباً إلى جنب دائماً ولا يُمكن التفريق بينهما. لكنَّ خطَّة إبليس هذه لم تنجح أيضاً مع يسوع. فقد اقتبس يسوع مُجدَّداً من الأسفار المُقدَّسة:

حِينَئِذٍ قَالَ لَهُ يَسُوعُ: «اذْهَبْ يَا شَيْطَانُ! لأَنَّهُ مَكْتُوبٌ: لِلرَّبِّ إِلهِكَ تَسْجُدُ وَإِيَّاهُ وَحْدَهُ تَعْبُدُ». ثُمَّ تَرَكَهُ إِبْلِيسُ، وَإِذَا مَلاَئِكَةٌ قَدْ جَاءَتْ فَصَارَتْ تَخْدِمُهُ (مَتَّى ٤: ١٠، ١١)

لم يَنجح الشيطان في محاولاته للإيقاع بيسوع في شِباكه الخادعة. فقد كان يسوع أقوى من أيَّة تجارب، ولم يكُن يسمح بأيَّة مُساومات في مقاومته للتجارب. وهكذا، انسحب الشيطان بصورة مؤقَّتة، لكنه بقي مُصمِّماً على تدمير يسوع!

على الرغم من ذلك، اعتقد الشيطان أنَّه حَقَّق بعض النجاح حينما ألقى بيوحنَّا المعمدان في السجن.[1]

وَلَمَّا سَمِعَ يَسُوعُ أَنَّ يُوحَنَّا أُسْلِمَ، انْصَرَفَ إِلَى الْجَلِيلِ. وَتَرَكَ النَّاصِرَةَ وَأَتَى فَسَكَنَ فِي كَفَرْنَاحُومَ الَّتِي عِنْدَ الْبَحْرِ ... (مَتَّى ٤: ١٢، ١٣)

بلا خَطيَّة

إنَّ الصراع بين الخير والشر ليس صراعاً مُتوازناً. فالرب يسوع، الذي هو نفسه الله الخالق، أقوى بما لا يُقاس من الشيطان الذي هُو مُجرَّد كائن مخلوق. وهكذا، رُغم أنَّ يسوع تعرَّض للتجربة، إلاَّ أنه لم يستسلم لها، بل بقي كاملاً وبلا خطيَّة.

لقد جاء الكثير من الأنبياء الصادقين والكاذبين ورحلوا، لكنَّ أحداً من هؤلاء لم يجرؤ على الادِّعاء بأنه بلا خطيَّة. كما أنَّ الكتاب المقدَّس يُدوِّن حياة الكثيرين الذين تبيَّن أنهم خُطاة، أو الذين اعترفوا بأنهم خُطاة. لكنَّ يسوع لم يفعل ذلك مُطلقاً. فلا نجد في الكتاب المقدَّس بأكمله إشارة واحدة إلى أنَّ يسوع أخطأ أو أنه طلب المغفرة. وحتَّى أنَّ الأشخاص الذين كانوا مُقرَّبين جِدَّاً منه، والذين كان بإمكانهم أن يعرفوا أيَّة زَلاَّت في شخصيَّته (في حال وجودها) كتبوا بأنَّ يسوع:

... لَمْ يَفْعَلْ خَطِيَّةً، وَلاَ وُجِدَ فِي فَمِهِ مَكْرٌ

كانت تجربة الشيطان ليسوع مُجرَّد طريقة أخرى أظهر يسوع من خلالها اتِّحاده بالبشر. فحينما يُدين الله البشر جميعاً في النهاية، لن يكون بمقدور أيِّ شخص أن يقول له: «يا رب، أنت لا تفهمني جيداً! فقد وُلِدت أنت في قصر، أمَّا أنا فوُلِدت في مكانٍ قذر! وأنت لم تتعرَّض لأي تجربة، بينما تعرَّضت أنا للكثير منها. لهذا، كيف يمكنك أن تُدينني في حين أنك لم تواجه ما واجهته أنا ولم تختبر ما اختبرته أنا؟» لا، لن يكون بمقدور أيِّ شخصٍ أن يقول هذا الكلام لأنَّ الكتاب المقدَّس يقول بأنه ليس لنا إله:

... غَيْرٌ قَادِرٍ أَنْ يَرْثِيَ لِضَعَفَاتِنَا، بَلْ مُجَرَّبٌ فِي كُلِّ شَيْءٍ مِثْلَنَا، بِلاَ خَطِيَّةٍ (عبرانيين ٤: ١٥)

٢. السلطة والمجد

وَبَعْدَمَا أُسْلِمَ يُوحَنَّا جَاءَ يَسُوعُ إِلَى الْجَلِيلِ يَكْرِزُ بِبِشَارَةِ مَلَكُوتِ اللهِ وَيَقُولُ: «قَدْ كَمَلَ الزَّمَانُ وَاقْتَرَبَ مَلَكُوتُ اللهِ، فَتُوبُوا وَآمِنُوا بِالإِنْجِيلِ»

(مرقس ١: ١٤، ١٥)

بعد أن أخفق بنو إسرائيل في أن يكونوا نُوراً يُظهِر علاقة الله بالبشر، جاء يسوع بملكوت جديد. فهو لم يُقدِّم إمبراطوريَّة سياسيَّة قائمة على شرائع منقوشة على حجارة ويستحيل تطبيقها، بل قَدَّم ملكوتاً روحيَّاً مُتاحاً للجميع، ومكتوباً في قلوب البشر، ويستمد القُوَّة من الله.

كان يسوع يقول للناس أن يتوبوا. وكانت التوبة (أي: تغيير الفكر) شيئاً يحدث في القلب؛

وهو المكان الذي أراد يسوع أن يبدأ بالوصول إليه وتغييره.

وَفِيمَا هُوَ يَمْشِي عِنْدَ بَحْرِ الْجَلِيلِ أَبْصَرَ سِمْعَانَ وَأَنْدَرَاوُسَ أَخَاهُ يُلْقِيَانِ شَبَكَةً فِي الْبَحْرِ، فَإِنَّهُمَا كَانَا صَيَّادَيْنِ. فَقَالَ لَهُمَا يَسُوعُ: «هَلُمَّ وَرَائِي فَأَجْعَلَكُمَا تَصِيرَانِ صَيَّادَيِ النَّاسِ». فَلِلْوَقْتِ تَرَكَا شِبَاكَهُمَا وَتَبِعَاهُ. ثُمَّ اجْتَازَ مِنْ هُنَاكَ قَلِيلاً فَرَأَى يَعْقُوبَ بْنَ زَبْدِي وَيُوحَنَّا أَخَاهُ، وَهُمَا فِي السَّفِينَةِ يُصْلِحَانِ الشِّبَاكَ. فَدَعَاهُمَا لِلْوَقْتِ. فَتَرَكَا أَبَاهُمَا زَبْدِي فِي السَّفِينَةِ مَعَ الأَجْرَى وَذَهَبَا وَرَاءَهُ

(مرقس ١: ١٦-٢٠)

سُلطان يسوع

ثُمَّ دَخَلُوا كَفَرْنَاحُومَ، وَلِلْوَقْتِ دَخَلَ الْمَجْمَعَ فِي السَّبْتِ وَصَارَ يُعَلِّمُ. فَبُهِتُوا مِنْ تَعْلِيمِهِ لأَنَّهُ كَانَ يُعَلِّمُهُمْ كَمَنْ لَهُ سُلْطَانٌ وَلَيْسَ كَالْكَتَبَةِ

(مرقس ١: ٢١، ٢٢)

كان الذين سمعوا يسوع يعرفون أنه مُختلف عن سواه! فقد كان تعليمه جذَّاباً للغاية؛ ولا عَجَب في ذلك لأنهم كانوا يستمعون إلى الله نفسه. لكنَّ يسوع لم يتكلَّم بسُلطان فحسب، بل أظهر ذلك أيضاً:

وَكَانَ فِي مَجْمَعِهِمْ رَجُلٌ بِهِ رُوحٌ نَجِسٌ، فَصَرَخَ قَائِلاً: «آهِ! مَا لَنَا وَلَكَ يَا يَسُوعُ النَّاصِرِيُّ؟ أَتَيْتَ لِتُهْلِكَنَا! أَنَا أَعْرِفُكَ مَنْ أَنْتَ: قُدُّوسُ اللهِ!»

(مرقس ١: ٢٣، ٢٤)

كان الروح النجس (أحد الشياطين التابعة لإبليس) يُهيمن على ذلك الرجل ويسكُن فيه بموافقته ورضاه. وقد تعرَّف ذلك الروح النجس على يسوع ودعاه «قُدُّوس الله»!

فَانْتَهَرَهُ يَسُوعُ قَائِلاً: «اخْرَسْ! وَاخْرُجْ مِنْهُ!» (مرقس ١: ٢٥)

وحيث أنَّ الشياطين تُحرِّف الحقائق لأغراضها ومقاصدها، لم يكُن يسوع يريد منها أن تُخبر الآخرين عن حقيقته. لكنَّ يسوع أثبت أنه المُخلِّص الموعود حينما أمر ذلك الروح النجس أن يخرج من ذلك الرجُل.

فَصَرَعَهُ الرُّوحُ النَّجِسُ وَصَاحَ بِصَوْتٍ عَظِيمٍ وَخَرَجَ مِنْهُ. فَتَحَيَّرُوا كُلُّهُمْ، حَتَّى سَأَلَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا قَائِلِينَ: «مَا هذَا؟ مَا هُوَ هذَا التَّعْلِيمُ الْجَدِيدُ؟ لأَنَّهُ بِسُلْطَانٍ يَأْمُرُ حَتَّى الأَرْوَاحَ النَّجِسَةَ فَتُطِيعُهُ!» فَخَرَجَ خَبَرُهُ لِلْوَقْتِ فِي كُلِّ الْكُورَةِ الْمُحِيطَةِ بِالْجَلِيلِ (مرقس ١: ٢٦-٢٨)

من المؤكَّد أنَّ قُوَّة يسوع الخارقة قد أصبحت عنواناً رئيسيًّاً مُتداولاً بين الناس. ولم تكُن هذه سوى البداية فقط!

فَأَتَى إِلَيْهِ أَبْرَصُ يَطْلُبُ إِلَيْهِ جَاثِيًا وَقَائِلاً لَهُ: «إِنْ أَرَدْتَ تَقْدِرْ أَنْ تُطَهِّرَنِي» فَتَحَنَّنَ يَسُوعُ وَمَدَّ يَدَهُ وَلَمَسَهُ وَقَالَ لَهُ: «أُرِيدُ، فَاطْهُرْ!». فَلِلْوَقْتِ وَهُوَ يَتَكَلَّمُ ذَهَبَ عَنْهُ الْبَرَصُ وَطَهَرَ (مرقس ١: ٤٠-٤٢)

في الأزمنة القديمة، كان البَرَص مرضاً مُخيفاً كالموت البطيء، وكان يتسبَّب في تشويه الجسم بصورة فظيعة. لكنَّ الكتاب المقدَّس يُخبرنا أنَّ يسوع شفى جميع أنواع الأمراض الخبيثة والصعبة. ولم يحدُث قَطّ أن عجز يسوع عن شفاء أي شخص؛ بل إنه أقام الموتى أيضاً!

ومن المُهم أن نُدرك أنَّ يسوع لم يقُم بتلك الأعمال بهدف تسلية السُكَّان المحليين. بل في حقيقة الأمر أنه كان يُشفق على هؤلاء الأشخاص ويؤكد لهم أنه جاء هو والرسالة التي يحملها من السَّماء. لهذا، فهو لم يكُن بحاجة لحصان أو عربة أو جيش؛ بل كان كل ما

يحتاج إليه هو أن يتكلَّم مع الناس. فيجب أن لا ننسى أنه «الكلمة» ... المُخلِّص الموعود الذي كتب عنه جميع الأنبياء.

الشياطين

كان يسوع (وما زال) يملك سلطاناً كاملاً على الخليقة بأكملها بما في ذلك الكائنات الروحيَّة المخلوقة. يقول لنا الكتاب المقدَّس:

> فَإِنَّهُ فِيهِ خُلِقَ الْكُلُّ: مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا عَلَى الأَرْضِ، مَا يُرَى وَمَا لاَ يُرَى، سَوَاءٌ كَانَ عُرُوشًا أَمْ سِيَادَاتٍ أَمْ رِيَاسَاتٍ أَمْ سَلاَطِينَ. الْكُلُّ بِهِ وَلَهُ قَدْ خُلِقَ. الَّذِي هُوَ قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ، وَفِيهِ يَقُومُ الْكُلُّ (كولوسي ١: ١٦، ١٧)

إنَّ الصراع بين الخير والشر ليس صراعاً مُتكافئاً. ومن المؤكَّد أنَّ الرب يسوع أقوى بما لا يُقاس من إبليس الذي هو كائن مخلوق. لذلك، إن كان أحد الأشخاص يخاف من العالم الروحي، فينبغي عليه أن يعرف أنَّ يسوع المسيح جاء لكي يُطلقه ويُحرِّره من ذلك الخوف. وسوف نرى في فصلٍ لاحقٍ من هذا الكتاب كيف يقوم الرب يسوع بذلك.

٣. نيقوديموس

> كَانَ إِنْسَانٌ مِنَ الْفَرِّيسِيِّينَ اسْمُهُ نِيقُودِيمُوسُ، رَئِيسٌ لِلْيَهُودِ. هذَا جَاءَ إِلَى يَسُوعَ لَيْلاً وَقَالَ لَهُ: يَا مُعَلِّمُ ❖ نَعْلَمُ أَنَّكَ قَدْ أَتَيْتَ مِنَ اللهِ مُعَلِّمًا، لأَنْ لَيْسَ أَحَدٌ يَقْدِرُ أَنْ يَعْمَلَ هذِهِ الآيَاتِ الَّتِي أَنْتَ تَعْمَلُ إِنْ لَمْ يَكُنِ اللهُ مَعَهُ». أَجَابَ يَسُوعُ وَقَالَ لَهُ: «الْحَقَّ الْحَقَّ أَقُولُ لَكَ: إِنْ كَانَ أَحَدٌ لاَ يُولَدُ مِنْ فَوْقُ لاَ يَقْدِرُ أَنْ يَرَى مَلَكُوتَ اللهِ» (يوحنَّا ٣: ١-٣) .

❖ كلمة «مُعلِّم» هي لقب يُطلق على المُعلِّم الديني اليهودي؛ وهو لقب يُظهر الاحترام والتوقير

الولادة الثانية؟

كان نيقوديموس رجلاً له مكانته. فقد كان عضواً في السنهدريم (مجلس اليهود الأعلى) وبما أنه فرِّيسيّ، فقد كان يُطبِّق شريعة موسى بحذافيرها. وحيث أنه يهودي من نسل إبراهيم، فقد كان يعتبر نفسه جزءاً من الشعب المُختار. كذلك، كان أجداد نيقوديموس أتقياء، وكان كل شيء يتعلَّق بأصله يبدو مثاليًّاً ورائعاً. رغم ذلك فقد وجد الرب يسوع في هذا الرجل عيباً وقال له: «يجب أن تولد ثانيةً!» كان يُفترض بيسوع أن يُقدِّم لنيقوديموس خبراً مُفرحاً؛ لكنَّ هذا الخبر لم يكُن بالخبر السار على الإطلاق. كذلك، كيف يمكن للمرء أن يولد من جديد؟

> قَالَ لَهُ نِيقُودِيمُوسُ: «كَيْفَ يُمْكِنُ الإِنْسَانَ أَنْ يُولَدَ وَهُوَ شَيْخٌ؟ أَلَعَلَّهُ يَقْدِرُ أَنْ يَدْخُلَ بَطْنَ أُمِّهِ ثَانِيَةً وَيُولَدَ؟» أَجَابَ يَسُوعُ: «الْحَقَّ الْحَقَّ أَقُولُ لَكَ: إِنْ كَانَ أَحَدٌ لاَ يُولَدُ مِنَ الْمَاءِ وَالرُّوحِ لاَ يَقْدِرُ أَنْ

يَدْخُلَ مَلَكُوتَ اللهِ. اَلْمَوْلُودُ مِنَ الْجَسَدِ جَسَدٌ هُوَ، وَالْمَوْلُودُ مِنَ الرُّوحِ هُوَ رُوحٌ. لاَ تَتَعَجَّبْ أَنِّي قُلْتُ لَكَ: يَنْبَغِي أَنْ تُولَدُوا مِنْ فَوْقُ» (يوحنَّا ٣: ٤-٧)

هذا هو الأمر إذن! فالرب يسوع لم يكُن يتكلَّم عن ولادة نيقوديموس كطفل، بل كان يتحدَّث عن الولادة الثانية ألا وهي الولادة الروحيَّة. لقد كان الأمر واضحاً تماماً؛ فلكي تذهب إلى السماء فإنك لا تحتاج إلى الولادة الجسديَّة فحسب، بل تحتاج أيضاً أن تولد من جديد بالمعنى الروحيّ. لكن كيف يُمكن للمرء أن يُولَد روحيًّا؟ تابع يسوع حديثه قائلاً:

وَكَمَا رَفَعَ مُوسَى الْحَيَّةَ فِي الْبَرِّيَّةِ هكَذَا يَنْبَغِي أَنْ يُرْفَعَ ابْنُ الإِنْسَانِ، لِكَيْ لاَ يَهْلِكَ كُلُّ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ بَلْ تَكُونُ لَهُ الْحَيَاةُ الأَبَدِيَّةُ (يوحنَّا ٣: ١٤، ١٥)

كان يسوع يقول لنيقوديموس إنه لكي يولَد روحيًّا ينبغي عليه أن يكون مثل الشعب في زمن موسى. فينبغي عليه أوَّلاً أن يعترف أنه خاطئ. بعد ذلك، يجب عليه أن يُغيِّر فكره القائم على الاعتقاد بأنَّ أصله ومكانته سيجعلانه مقبولاً لدى الله، وأن يضع ثقته في الرب يسوع الذي جاء من السماء لكي يُقدِّم للناس طريقاً للنجاة أو الخلاص. فإن وضع نيقوديموس ثقته في الرب يسوع، فسوف ينال الحياة الأبديَّة.

الإيمان والثقة

إنَّ كلمة «يؤمن» في الآية أعلاه تعني ضمنيًّاً ما هو أكثر من الموافقة العقليَّة. فقد كان بإمكان أفراد الشعب العبراني القديم أن يُقرُّوا بأنَّ النظر إلى حيَّة موسى النحاسيَّة سيشفيهم؛ لكن إن لم يُظهِروا إيمانهم بالله عن طريق النظر فعليًّاً إلى تلك الحيَّة النحاسيَّة فسوف يموتون. وهكذا، فإنَّ المعنى الفعلي لكلمة «يؤمن» بحسب تعليم الكتاب المقدَّس يشتمل على فعل الإرادة، وهي كلمة مُرادفة للإيمان والثقة.

كذلك، فإنَّ موضوع إيمان المرء هو من الأمور المهمة أيضاً؛ بل إنه أمر بالغ الأهميَّة. قبل بضع سنوات، قام أحد الأشخاص المخبولين بوضع سُم قاتل في كبسولات دواء. ونتيجة لذلك، مات عِدَّة أشخاص بسبب إيمانهم الصادق بأنَّ ذلك الدواء سيُعطي المفعول المذكور في الإعلانات. وهكذا، رغم أنهم وثقوا بصدق، إلاَّ أنهم آمنوا بالشيء المغلوط!

يمكن لكل شخص أن يؤمن بإخلاص أنَّ إلهاً زائفاً سيُخلِّصه من الخطيَّة؛ لكنَّ هذا الإخلاص القائم على مُعتقدات خاطئة قد يكون مُهلكاً. أمَّا إذا كان موضوع الإيمان هو الله الحقيقي الواحد فسوف يكون تأثير هذا الإيمان مُختلفاً تماماً لأنَّ الله يحفظ وعوده.

«لأَنَّهُ هكَذَا أَحَبَّ اللهُ الْعَالَمَ حَتَّى بَذَلَ ابْنَهُ الْوَحِيدَ، لِكَيْ لاَ يَهْلِكَ كُلُّ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ، بَلْ تَكُونُ لَهُ الْحَيَاةُ الأَبَدِيَّةُ» (يوحنَّا ٣: ١٦)

الحياة الأبديَّة

كان الرب يسوع يَعِد الناس بالحياة الأبديَّة. فلم يكُن هذا الوعد موجَّهاً لنيقوديموس فقط، بل لكل مَنْ يؤمن به! وقد قال الملاك جبرائيل لمريم ويوسف أن يُسمِّيا المولود «يسوع» لأنَّ هذا الاسم يعني «المُنقِذ» أو «المُخلِّص». وها هو يسوع يقول الآن إنه سيُخلِّص الإنسان من عقاب الخطيَّة ألا وهو العقاب الأبدي في بُحيرة النار.

«لأَنَّهُ لَمْ يُرْسِلِ اللهُ ابْنَهُ إِلَى الْعَالَمِ لِيَدِينَ الْعَالَمَ، بَلْ لِيَخْلُصَ بِهِ الْعَالَمُ» (يوحنَّا ٣: ١٧)

وهكذا، فإنَّ الرب يسوع لم يأت إلى الأرض لكي يُدين الناس، بل جاء لكي يُخلِّص العالم من المأساة التي تسبَّبت فيها الخطيَّة، وإبليس، والموت.

«اَلَّذِي يُؤْمِنُ بِهِ لاَ يُدَانُ. وَالَّذِي لاَ يُؤْمِنُ قَدْ دِينَ، لأَنَّهُ لَمْ يُؤْمِنْ بِاسْمِ ابْنِ اللهِ الْوَحِيدِ» (يوحنَّا ٣: ١٨)

لا للحلول الوسط

قال يسوع إنَّ كل مَنْ يؤمن به لن يُدان كخاطيء. أمَّا كل من لا يؤمن به فهو تحت الدينونة. وهكذا، لم يكن هناك حَلٌّ وسط، ولم تكُن هناك طريقة أخرى للتعامُل مع هذا الأمر. فلا يُمكن للمرء أن يقول إنه سيُفكِّر في الأمر ثُمَّ يبقى في منطقة مُحايدة. وهكذا، ينبغي عليك أن تختار أن تؤمن؛ فبخلاف ذلك سوف تبقى غير مؤمن. وبالتالي، فإنَّ عدم اتخاذ قرار هو قرار في حَدِّ ذاته.

كذلك، لا تنتظر إلى ما بعد الموت لتعرف ما هو مصيرك الأبدي. فقد تحدَّث الرب يسوع عن هذا الأمر بكل وضوح فقال إنَّ المرء سيكون تحت دينونة الله ومصيره هو بُحيرة النار ما لم يؤمن بيسوعَ ويَقبله مُخلِّصاً لحياته. فإن فعل ذلك فسوف ينال الحياة الأبديَّة. كان هذا هو الوعد الذي قطعه يسوع:

اَلْحَقَّ الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّ مَنْ يَسْمَعُ كَلاَمِي وَيُؤْمِنُ بِالَّذِي أَرْسَلَنِي فَلَهُ حَيَاةٌ أَبَدِيَّةٌ، وَلاَ يَأْتِي إِلَى دَيْنُونَةٍ، بَلْ قَدِ انْتَقَلَ مِنَ الْمَوْتِ إِلَى الْحَيَاةِ (يوحنَّا ٥: ٢٤)

لم يكُن يسوع يتغاضى عن دينونة الخطيَّة. فقد كان يعرف تماماً أنَّ كثيرين سيختارون أن لا يثقوا به:

وَهذِهِ هِيَ الدَّيْنُونَةُ: إِنَّ النُّورَ قَدْ جَاءَ إِلَى الْعَالَمِ، وَأَحَبَّ النَّاسُ الظُّلْمَةَ أَكْثَرَ مِنَ النُّورِ، لأَنَّ أَعْمَالَهُمْ كَانَتْ شِرِّيرَةً. لأَنَّ كُلَّ مَنْ يَعْمَلُ السَّيِّئَاتِ يُبْغِضُ النُّورَ، وَلاَ يَأْتِي إِلَى النُّورِ لِئَلاَّ تُوَبَّخَ أَعْمَالُهُ (يوحنَّا ٣: ١٩، ٢٠)

كان الرب يسوع يتحدَّث عن النور الروحي مُقابل الظلام الروحي. وقد قال بأنَّ الكثيرين يكرهون النور لأنه يكشف الخطيَّة. ومن المعروف أنَّ الناس لا يُحبُّون أن يظهروا بمظهر الخُطاة، بل هُم يُفضِّلون الاختباء، أو إلقاء اللَوم على الخطيَّة، أو على الآخرين – تماماً كما فعل آدم وحوَّاء. والكتاب المقدَّس يقول عن أمثال هؤلاء إنهم يُفضِّلون الظلام. لكن ما هو هذا النور الذي تحدَّث عنه الرب يسوع؟

ثُمَّ كَلَّمَهُمْ يَسُوعُ أَيْضًا قَائِلاً: «**أَنَا هُوَ نُورُ الْعَالَمِ ...**» (يوحنَّا ٨: ١٢أ)

حينما خلق الله العالم جعل فيه نوراً لكي نرى طريقنا عبر الطرق والشوارع. لكنَّه جاء إلى الأرض لكي يكون نوراً لطريقنا الروحي.

«... مَنْ يَتْبَعْنِي فَلاَ يَمْشِي فِي الظُّلْمَةِ بَلْ يَكُونُ لَهُ نُورُ الْحَيَاةِ» (يوحنَّا ٨: ١٢ب)

٤ . الرَّفض

ورجَعَ يَسوعُ بَعدَ أيّامٍ إلى كَفْرَناحومَ، فسَمِعَ النّاسُ أنَّهُ في البَيتِ. فتجَمَّعَ مِنهُم عددٌ كبيرٌ ملأَ المكانَ حتّى عِندَ البابِ، فوَعظَهُم بِكلامِ اللهِ. وجاءَ إليهِ أربعةُ رِجالٍ يَحمِلونَ كسيحًا. (مرقس ٢: ١-٣ – المشتركة)

الكسيح (المشلول)

كان مُسلسل الأحداث هذا يتكرَّر دائماً في كل مكان يذهب إليه يسوع. فحالما كان يظهر في أي مكان، كان المرضى والعُرج يتوافدون من كُلِّ حَدْبٍ وَصَوب! وفي هذه المَرَّة جاء أربعة رجال يحملون صديقاً كسيحاً يضطجع على سريره.

فلمَّا عَجِزوا عَن الوُصولِ بِه إليهِ لِكثرَةِ الزِّحامِ، نقَبُوا السَّقفَ وكشَفوا فوقَ المكانِ الّذي كانَ فيهِ يَسوعُ ودلُّوا الكسيحَ وهوَ على فراشِهِ.

(مرقس ٢: ٤ – المشتركة)

كانت سقوف المنازل في ذلك الزمان مُسطَّحة. وكان هناك درج يؤدي إلى السطح الذي كان أهل البيت يستخدمونه كمكانٍ للاسترخاء في ساعات المساء. وحينما عجز هؤلاء الرجال الأربعة عن الوصول إلى يسوع، صعدوا إلى السطح، ونقبوه، وأنزلوا صديقهم الكسيح أمام يسوع. ولا بُدَّ أنَّ ثقب السطح كان مهمَّة شاقَّة. ويمكنك أن تتخيَّل الغبار والتراب الذي انهمر على من هُم في داخل البيت. وقد أدَّى ذلك بالطبع إلى إيقاف الدرس الذي كان يسوع يُعلِّمه للناس هناك. نظر الجميع إلى السطح وراحوا يتساءلون عَمَّا يجري هناك! وحينما ظهرت وجوه أولئك الرجال الأربعة العاقدي العزم، لا بُدَّ أنَّ الناس صرخوا بصوت مُرتفع: «ألا يوجد لديكم احترام؟ لقد تساقط التراب علينا! لقد أتلفتم السقف!» لكنَّ يسوع كان يرى شيئاً مُختلفاً.

فلمَّا رأى يَسوعُ إيمانَهُم قالَ للكسيحِ: «يا اَبني، مَغفورَةٌ لكَ خَطاياكَ!» (مرقس ٢: ٥ – المشتركة)

القلب

كان الرب يسوع (وما زال) يُركِّز على قلب الإنسان قبل أيِّ شيءٍ آخر. ورغم أنه لم يكن من العسير عليه أن يغفر الخطايا، إلاَّ أنَّ بعض الحاضرين لم يتقبَّلوا ذلك. ومع أنهم لم يتفوَّهوا بأيِّ كلمة، إلاَّ أنَّ أفكارهم كانت عدائيَّة.

وكانَ بَينَ الحُضورِ بعضُ مُعَلِّمي الشَّريعةِ، فقالوا في أنفُسِهم: «كيفَ يتكَلَّمُ هذا الرَّجُلُ كلامًا كهذا؟ فهوَ يُجدِّفُ! مَنْ يَقدِرُ أن يَغفِرَ الخطايا إلاَّ اللهُ وَحدَهُ؟» (مرقس ٢: ٦، ٧ – المشتركة)

كان هؤلاء على حق – فالله هو الوحيد الذي يمكنه أن يغفر الخطايا!

وعرَفَ يَسوعُ في سِرِّه أفكارَهُم، فقالَ لهُم: «ما هذِهِ الأفكارُ في قلوبِكُم؟» (مرقس ٢: ٨ – المشتركة)

عرف يسوع أنهم كانوا يُفكِّرون وأخبرهم بأنه يعرف أفكارهم! ويمكنك أن تتخيَّل شعورهم بالخجل والخزي آنذاك. وهكذا، فقد راحوا يُراجعون أنفسهم ويحاولون أن يتذكَّروا كل ما كانوا يُفكِّرون به خلال الدقائق العشر الأخيرة. ورغم كل شيء، كان هناك أمر واحد مؤكَّد

ألا وهو أنَّ يسوع قادر على قراءة أفكارهم! لكنَّ يسوع لم يكُن يحاول إثارة إعجابهم. بعد ذلك، طرح عليهم يسوع السؤال التالي:

«أيُّما أسهَلُ: أنْ يُقالَ لِهذا الكسيح: مَغفورَةٌ لكَ خَطاياكَ، أمْ أنْ يُقالَ لَه: قُمْ واَحمِلْ فِراشَكَ واَمشِ؟» (مرقس ٢: ٩ – المشتركة)

أسئلة، أسئلة

لم يكُن بوسع أمهر المُحامين أن يصيغ سؤالاً أصعب من هذا السؤال! ويمكننا أن نتخيَّل الكَتَبة وهُم يُجهدون عقولهم في التفكير في ذلك السؤال قائلين في أنفسهم: «من الواضح أنَّ ذلك الرجل كسيح، وأنه من المستحيل إعادة أطرافه المشلولة إلى حالتها الطبيعية. فلا أحد يستطيع شفاء هذا المرض سوى الله. لكن إن كان بإمكان يسوع أن يُعيد الحياة لتلك الأطراف اليابسة فهذا يعني أنه ... لا، هذا غير معقول! فلا يُمكن لله أن يُفكِّر في المجيء إلى الأرض وأن يعيش تلك الحياة البسيطة والمتواضعة التي كان يسوع يعيشها بعيداً عن القصور والفخامة الإمبراطوريَّة. يا لها من وقاحة في أن يطرح مثل هذا السؤال علينا! من يعتقد نفسه؟ الله!؟» وعندها قاطع يسوع حَبل أفكارهم وأجابهم عن تساؤلاتهم دون أن يطلبوا منه ذلك:

«سأُريكُم أنَّ اَبنَ الإنسانِ لَه سُلطانٌ على الأرض ليَغفِرَ الخَطايا». وقالَ لِلكسيح: «أقولُ لكَ: قُمْ واَحمِلْ فِراشَكَ واَذهبْ إلى بَيتِكَ!» فقامَ الرَّجُلُ وحمَلَ فِراشَهُ في الحالِ وخرَجَ بِمَشْهدٍ مِنَ الحاضِرينَ. فتَعجَّبوا كُلُّهُم ومَجَّدوا اللهَ وقالوا: «ما رأينا مِثلَ هذا في حَياتِنا!»

(مرقس ٢: ١٠-١٢ – المشتركة)

لم يكُن هدف المُعجزات التي يُجريها يسوع هو التسلية؛ بل إثبات صِدق أقواله عن نفسه.

خُطاة بائسون

ثُمَّ خَرَجَ أَيْضًا إِلَى الْبَحْرِ. وَأَتَى إِلَيْهِ كُلُّ الْجَمْعِ فَعَلَّمَهُمْ. وَفِيمَا هُوَ مُجْتَازٌ رَأَى لاَوِيَ بْنَ حَلْفَى جَالِسًا عِنْدَ مَكَانِ الْجِبَايَةِ، فَقَالَ لَهُ: «اتْبَعْنِي». فَقَامَ وَتَبِعَهُ (مرقس ٢: ١٣، ١٤)

رُغم أنَّ لاوي كان يهودياً، إلاَّ أنه كان يعمل كجابي ضرائب لدى الرومان. وكان جُباة الضرائب هؤلاء يكسبون أجورهم من خلال فرض ضريبة إضافيَّة على الناس؛ بل إنهم كانوا يُرغمون الناس على دفع المزيد من المال لكي يملأوا جيوبهم بالنقود. لذلك، كان الناس يكرهونهم بسبب سُلطتهم الفاسدة وبسبب استعدادهم للعمل كمصَّاصي دماء لدى الرومان. رغم ذلك، حينما اجتاز الرب يسوع مكان الجباية، دعا لاوي ليتبعه.

وَفِيمَا هُوَ مُتَّكِئٌ فِي بَيْتِهِ كَانَ كَثِيرُونَ مِنَ الْعَشَّارِينَ* وَالْخُطَاةِ يَتَّكِئُونَ مَعَ يَسُوعَ وَتَلاَمِيذِهِ، لأَنَّهُمْ كَانُوا كَثِيرِينَ وَتَبِعُوهُ. وَأَمَّا الْكَتَبَةُ وَالْفَرِّيسِيُّونَ فَلَمَّا رَأَوْهُ يَأْكُلُ مَعَ الْعَشَّارِينَ وَالْخُطَاةِ، قَالُوا لِتَلاَمِيذِهِ: «مَا بَالُهُ يَأْكُلُ وَيَشْرَبُ مَعَ الْعَشَّارِينَ وَالْخُطَاةِ؟» فَلَمَّا سَمِعَ يَسُوعُ قَالَ لَهُمْ: «لاَ يَحْتَاجُ الأَصِحَّاءُ إِلَى طَبِيبٍ بَلِ الْمَرْضَى. لَمْ آتِ لأَدْعُوَ أَبْرَارًا بَلْ خُطَاةً إِلَى التَّوْبَةِ» (مرقس ٢: ١٥-١٧)

* العشار: هو جابي الضرائب، وحيث أنَّ أغلب العشَّارين يجبون أموالاً أكثر من الضريبة المستحقة ظلماً، أصبح لقب العشَّار مُرادفاً للخاطئ.

كان الرب يسوع قادراً فقط على مساعدة الأشخاص الذين يعترفون بخطاياهم. وكانت تلك هي الخطوة الأولى للقبول لدى الله.

العمل يوم السَّبت

من المؤكَّد أنَّ توبيخ يسوع المُستمر للفرِّيسيِّين كان يُغيظهم ويجعلهم يشعرون بالخزي من أنفسهم. وحيث أنهم كانوا يأملون في ضبط يسوع وهو يقوم بعمل خطيئة كبيرة فاضحة، فقد راحوا يُراقبونه عن كثب:

ثُمَّ دَخَلَ أَيْضًا إِلَى الْمَجْمَعِ، وَكَانَ هُنَاكَ رَجُلٌ يَدُهُ يَابِسَةٌ. فَصَارُوا يُرَاقِبُونَهُ: هَلْ يَشْفِيهِ فِي السَّبْتِ؟ لِكَيْ يَشْتَكُوا عَلَيْهِ (مرقس ٣: ١، ٢)

بحسب الناموس، لم يكُن مسموحاً لأيِّ شخص أن يعمل في يوم السَّبت. وكان القيام بذلك مُخالفاً لشريعة الله؛ وبالتالي فهو خطيَّة. لكنَّ الفرِّيسيِّين جعلوا مُمارسة الطبيب لعمله أمراً محظوراً أيضاً رُغم أنَّ الناموس لم يَقُل إنَّ شفاء شخص ما في يوم السَّبت يُعَدُّ خطيَّة! فحقيقة الأمر هي أنَّ الفريسيين أضافوا قائمتهم الخاصَّة إلى الوصايا العشر وفرضوها على الناس بالقوَّة. لذلك، فقد راحوا يُراقبون يسوع لكي يروا ما إذا كان سيشفي ذلك الرجل في يوم السَّبت. لكنَّ يسوع كان مُدركاً تماماً للغاية التي لأجلها أعطى الله الوصايا العشر للبشر. ورغم أنَّ يسوع المسيح كان يعرف أنَّ الفريسيين يُخطِّطون للإيقاع به، ورغم أنه كان بإمكانه أن يتجنَّب المواجهة، إلاَّ أنه لم يتراجع:

فَقَالَ لِلرَّجُلِ الَّذِي لَهُ الْيَدُ الْيَابِسَةُ: «قُمْ فِي الْوَسْطِ!» (مرقس ٣: ٣)

يُمكنك هُنا أن ترى يسوع وهو يستدير ويُحدِّق في أولئك الأشخاص الذين كانوا يُدبِّرون له مُؤامرة للإيقاع به. وعندها ساد صمتٌ رهيب!

ثُمَّ قَالَ لَهُمْ: «هَلْ يَحِلُّ فِي السَّبْتِ فِعْلُ الْخَيْرِ أَوْ فِعْلُ الشَّرِّ؟ تَخْلِيصُ نَفْسٍ أَوْ قَتْلٌ؟» (مرقس ٣: ٤)

عاد يسوع لتوجيه أسئلته المُحرجة! وعندها، شعر الفرِّيسيُّون بالغليان والغضب والكراهية من نحوه. فبما أنهم هُم رجال الدين، فقد كان يتعيَّن عليهم أن يعرفوا الإجابات عن مثل هذه الأسئلة. وهكذا، فقد أصبحت مصداقيَّتهم على المحك!

... فَسَكَتُوا. فَنَظَرَ حَوْلَهُ إِلَيْهِمْ بِغَضَبٍ، حَزِينًا عَلَى غِلاَظَةِ قُلُوبِهِمْ، وَقَالَ لِلرَّجُلِ: «مُدَّ يَدَكَ». فَمَدَّهَا، فَعَادَتْ يَدُهُ صَحِيحَةً كَالأُخْرَى (مرقس ٣: ٤، ٥)

المؤامرة

رغم الحرج الذي أصاب الفرِّيسيين، إلاَّ أنهم شعروا بالفرح أيضاً. فقد فعلها يسوع! لقد عمل يوم السَّبت! وهكذا، فقد ظنُّوا – بحسب فكرهم المُنحرف – أنهم أمسكوا به مُتلبِّساً بانتهاك الشريعة.

فَخَرَجَ الْفَرِّيسِيُّونَ لِلْوَقْتِ مَعَ الْهِيرُودُسِيِّينَ وَتَشَاوَرُوا عَلَيْهِ لِكَيْ يُهْلِكُوهُ (مرقس ٣: ٦)

لم يكُن مثل هذا التحالف شيئاً مألوفاً. فقد كان الهيرودسيُّون حزباً سياسيَّاً يُؤيِّد حُكم هيرودس والرومان، أمَّا الفرِّيسيون فكانوا يحتقرون الرومان؛ لكنهم كانوا يكرهون يسوع أكثر! وإن كانوا سيقتلون يسوع، فسوف يحتاجون لمساعدة الرومان.

وهكذا، رفض الزعماء الدينيُّون يسوع. ففي نظرهم، لم يكن هو المُخلِّص الموعود.

التلاميذ الإثنا عشر

فَانْصَرَفَ مَعَ تلاميذِهِ إلى بحرِ الجليلِ، وتَبِعَهُ جُمهورٌ كبيرٌ ... وهؤُلاءِ سَمِعوا بأعمالِهِ فجاؤُوا إلَيه.

وصَعِدَ إلى الجبَلِ ودَعا الّذينَ أرادَهُم فحَضَروا إلَيه. فأقامَ مِنهُم اَثنَي عشَرَ سَمّاهُم رُسُلاً ... سِمْعانُ وسَمّاهُ يَسوعُ بُطرُسَ، ويَعقوبُ ويوحنّا اَبنا زَبْدي وسَمّاهُما بُوانَرْجِسَ، أيْ اَبنَي الرَّعد، وأَندَراوُسُ وفيلبُّسُ وبَرثولوماوُسُ، ومتّى وتوما، ويَعقوبُ بنُ حَلْفى وتَدّاوُسُ وسِمْعانُ الوطنيُّ الغيورُ، ويَهوذا أسخَرْيوطُ الّذي أسلَمَ يَسوعَ. (مرقس ٣: ٧، ٨، ١٣-١٩ – المشتركة)

اختار يسوع من بين جميع تابعيه اثني عشر تلميذاً ليقضي معهم وقتاً إضافيًّاً. وكان هؤلاء عبارة عن مجموعة مُتنوِّعة تتألَّف من جابي ضرائب لدى الرومان يُمثِّل شريحة اجتماعيَّة مُعيَّنة، وشخص غيور (ينتمي لفئة الغيورين) كان قد تعهَّد بأن يُطيح بالرومان، ومجموعة من صيَّادي السمك. وكان الله وحده هو القادر على المحافظة على السلام والوفاق بين هؤلاء الرجال المُتنوِّعين! لكن على الرغم من خلفيَّاتهم المُتعدِّدة، فقد التزم هؤلاء الإثنا عشر جميعاً باتِّباع الرب يسوع المسيح في السرَّاء والضرَّاء، ما عدا شخصاً واحداً فقط!

٥. خُبز الحياة

بَعْدَ هذا مَضَى يَسُوعُ إِلَى عَبْرِ بَحْرِ الْجَلِيلِ، وَهُوَ بَحْرُ طَبَرِيَّةَ.
وَتَبِعَهُ جَمْعٌ كَثِيرٌ لأَنَّهُمْ أَبْصَرُوا آيَاتِهِ الَّتِي كَانَ يَصْنَعُهَا فِي الْمَرْضَى. فَصَعِدَ يَسُوعُ إِلَى جَبَلٍ وَجَلَسَ هُنَاكَ مَعَ تلاَمِيذِهِ. وَكَانَ الْفِصْحُ، عِيدُ الْيَهُودِ، قَرِيبًا.
فَرَفَعَ يَسُوعُ عَيْنَيْهِ وَنَظَرَ أَنَّ جَمْعًا كَثِيرًا مُقْبِلٌ إِلَيْهِ، فَقَالَ لِفِيلُبُّسَ: «مِنْ أَيْنَ نَبْتَاعُ خُبْزًا لِيَأْكُلَ هؤُلاَءِ؟» (يوحنّا ٦: ١-٥)

عاد الرب يسوع لطرح الأسئلة من جديد:

وَإِنَّمَا قَالَ هذَا لِيَمْتَحِنَهُ، لأَنَّهُ هُوَ عَلِمَ مَا هُوَ مُزْمِعٌ أَنْ يَفْعَلَ.
أَجَابَهُ فِيلُبُّسُ: «لاَ يَكْفِيهِمْ خُبْزٌ بِمِئَتَيْ دِينَارٍ لِيَأْخُذَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ شَيْئًا يَسِيرًا».
قَالَ لَهُ وَاحِدٌ مِنْ تلاَمِيذِهِ، وَهُوَ أَنْدَرَاوُسُ أَخُو سِمْعَانَ بُطْرُسَ: «هُنَا غُلاَمٌ مَعَهُ خَمْسَةُ أَرْغِفَةِ شَعِيرٍ وَسَمَكَتَانِ، وَلكِنْ مَا هذَا لِمِثْلِ هؤُلاَءِ؟» (يوحنّا ٦: ٦-٩)

لا ندري إن كان أندراوس يأمل من يسوع أن يفعل شيئاً ما مثلما يأمل الفتى الصغير من أبيه أن يحل مُشكلةً ما!

فَقَالَ يَسُوعُ: «اجْعَلُوا النَّاسَ يَتَّكِئُونَ». وَكَانَ فِي الْمَكَانِ عُشْبٌ كَثِيرٌ، فَاتَّكَأَ الرِّجَالُ وَعَدَدُهُمْ نَحْوُ خَمْسَةِ آلاَفٍ. وَأَخَذَ يَسُوعُ الأَرْغِفَةَ وَشَكَرَ، وَوَزَّعَ عَلَى التَّلاَمِيذِ، وَالتَّلاَمِيذُ أَعْطَوُا الْمُتَّكِئِينَ. وَكَذلِكَ مِنَ السَّمَكَتَيْنِ بِقَدْرِ مَا شَاءُوا

يَسرد الكتاب هذه القصَّة كأمر واقع بحيث نكاد لا نُدرك ما حدث بالضبط. فقد أطعم الرب يسوع للتوّ جمهوراً هائلاً بذلك الطعام القليل الذي كان مع ذلك الصبي. فقد أخذ الرب يسوع الأرغفة الخمسة والسمكتين، وباركها، ووزَّعها على تلاميذه الاثني عشر الذين

قاموا بدورهم بتوزيعها على خمسة آلاف رجُل – عدا النساء والأطفال. وهكذا، رغم ذلك العدد الهائل من الناس إلاَّ أنَّ يسوع لم يبخَل عليهم؛ بل في الحقيقة أنَّ الطعام الذي قَدَّمه لهم كان أكثر من حاجتهم حيث تمكَّن كل تلميذ من أخذ سَلَّة طعام مليئة إلى بيته بعد أن شبع الجميع.

فَلَمَّا رَأَى النَّاسُ الآيَةَ الَّتِي صَنَعَهَا يَسُوعُ قَالُوا: «إِنَّ هذَا هُوَ بِالْحَقِيقَةِ النَّبِيُّ الآتِي إِلَى الْعَالَمِ!» (يوحنَّا ٦: ١٤)

اجعلوا يسوع ملكاً

كان تأثير تلك المُعجزة على الناس كبيراً جداً لدرجة أنهم قرَّروا أن يُنصِّبوه ملكاً عليهم بالقُوَّة. لكنَّ الرب يسوع لم يكُن يهتم بإنشاء مملكة أرضيَّة رغم أنَّه سيأتي وقت لذلك في المستقبل. أمَّا الآن، فقد كانت رغبته هي أن يسود على قلوب الناس.

وَأَمَّا يَسُوعُ فَإِذْ عَلِمَ أَنَّهُمْ مُزْمِعُونَ أَنْ يَأْتُوا وَيَخْتَطِفُوهُ لِيَجْعَلُوهُ مَلِكًا، انْصَرَفَ أَيْضًا إِلَى الْجَبَلِ وَحْدَهُ.

وَلَمَّا وَجَدُوهُ فِي عَبْرِ الْبَحْرِ، قَالُوا لَهُ: «يَا مُعَلِّمُ، مَتَى صِرْتَ هُنَا؟»

أَجَابَهُمْ يَسُوعُ وَقَالَ: «الْحَقَّ الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: أَنْتُمْ تَطْلُبُونَنِي لَيْسَ لأَنَّكُمْ رَأَيْتُمْ آيَاتٍ، بَلْ لأَنَّكُمْ أَكَلْتُمْ مِنَ الْخُبْزِ فَشَبِعْتُمْ» (يوحنَّا ٦: ١٥، ٢٥، ٢٦)

دوافع خاطئة

حسناً، لقد أدرك الرب يسوع أنَّ الناس يريدونه أن يُصبح ملكاً لكي يتمكنوا من الحصول على الطعام مجَّاناً! وللأسف الشديد أنهم لم يهتَّموا بحقيقة أنَّ تلك المُعجزات كشفت عن أنه هو المُخلِّص الموعود. لذلك، قال الرب يسوع:

«اِعْمَلُوا لاَ لِلطَّعَامِ الْبَائِدِ، بَلْ لِلطَّعَامِ الْبَاقِي لِلْحَيَاةِ الأَبَدِيَّةِ الَّذِي يُعْطِيكُمُ ابْنُ الإِنْسَانِ، لأَنَّ هذَا اللهُ الآبُ قَدْ خَتَمَهُ» (يوحنَّا ٦: ٢٧)

كان الطعام الذي تناولوه قادراً على الحفاظ على حياتهم لفترة قصيرة فقط. لكنهم عاجلاً أم آجلاً سيموتون. لذلك، قال لهم الرب يسوع إنه ينبغي عليهم أن ينشغلوا بذاك الذي يمكنه أن يُعطيهم حياةً أبديَّة.

فَقَالُوا لَهُ: «مَاذَا نَفْعَلُ حَتَّى نَعْمَلَ أَعْمَالَ اللهِ؟»

أَجَابَ يَسُوعُ وَقَالَ لَهُمْ: «هذَا هُوَ عَمَلُ اللهِ: أَنْ تُؤْمِنُوا بِالَّذِي هُوَ أَرْسَلَهُ» (يوحنَّا ٦: ٢٨، ٢٩)

أراد الناس أن يعرفوا ما الذي ينبغي عليهم فعله لكي يحصلوا على الحياة الأبديَّة. فقال لهم يسوع إنَّ كل ما ينبغي عليهم فعله هو أن يؤمنوا به وأن يثقوا بأنه مُخلِّصهم. كان هذا هو كل شيء. وقد بدا الأمر بسيطاً للغاية!

فَقَالُوا لَهُ: «فَأَيَّةَ آيَةٍ تَصْنَعُ لِنَرَى وَنُؤْمِنَ بِكَ؟» (يوحنَّا ٦: ٣٠)

ما هذا؟ لقد كانوا يطلبون من يسوع أن يُقدِّم له علامة تُثبت أنه هو الذي كتب عنه جميع الأنبياء كما لو أنَّ إطعام الخمسة آلاف بطعام صبي واحد لم يكُن كافياً! وهكذا، فقد كان الناس يطلبون منه المزيد من الطعام المجاني!

آبَاؤُنَا أَكَلُوا الْمَنَّ فِي الْبَرِّيَّةِ، كَمَا هُوَ مَكْتُوبٌ: أَنَّهُ أَعْطَاهُمْ خُبْزًا مِنَ السَّمَاءِ لِيَأْكُلُوا (يوحنَّا ٦: ٣١)

بعبارة أخرى، «لمَ لا تفعل الشيء نفسه يا يسوع؟» وهكذا، فقد رفضوا أن يروا أنَّ هذا الذي أطعمهم في ذلكَ المكان النائي هو نفسه الذي أطعم أجدادهم الأوائل في البريَّة. وبالتالي، فقد عجز هؤلاء الناس عن إدراك حقيقة أنَّ الرب يسوع يُريد أن يُعطيهم حياةً أبديةً وذلك بسبب رغبتهم الشديدة في الحصول على وجبات سهلة ومجانيَّة. وللأسف الشديد، لم تكُن لدى هؤلاء الأشخاص أي رغبة في معرفة الحق الروحي.

خُبز الحياة

فَقَالَ لَهُمْ يَسُوعُ: «الْحَقَّ الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: لَيْسَ مُوسَى أَعْطَاكُمُ الْخُبْزَ مِنَ السَّمَاءِ، بَلْ أَبِي يُعْطِيكُمُ الْخُبْزَ الْحَقِيقِيَّ مِنَ السَّمَاءِ، لأَنَّ خُبْزَ اللهِ هُوَ النَّازِلُ مِنَ السَّمَاءِ الْوَاهِبُ حَيَاةً لِلْعَالَمِ».
فَقَالُوا لَهُ: «يَا سَيِّدُ، أَعْطِنَا فِي كُلِّ حِينٍ هذَا الْخُبْزَ».
فَقَالَ لَهُمْ يَسُوعُ: «**أَنَا هُوَ خُبْزُ الْحَيَاةِ**. مَنْ يُقْبِلْ إِلَيَّ فَلاَ يَجُوعُ، وَمَنْ يُؤْمِنْ بِي فَلاَ يَعْطَشُ أَبَدًا» (يوحنَّا ٦: ٣٢-٣٥)

الفصل الثاني عشر

١. كَثوب قَذرٍ!
٢. الطَّريق.
٣. المُخَطَّط السَّماوي.
٤. لعازَر.
٥. الجَحيم.
٦. القَبول والخيانة.

١ . كثوب قَذِرٍ!

كان يسوع بارعاً جداً في سرد القصص، وغالباً ما كان يستخدم الأمثال لتوضيح قصده. والأمثال التي رواها يسوع هي قصص تحتوي على رسالة بسيطة مُحدَّدة. وفي هذه المَرَّة، وَجَّه يسوع المَثَل إلى بعض الأشخاص الذين كانوا يظنُّون أنفسهم صالحين ولديهم ثقة عالية بأنفسهم.

> وَقَالَ لِقَوْمٍ وَاثِقِينَ بِأَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ أَبْرَارٌ، وَيَحْتَقِرُونَ الآخَرِينَ هذَا الْمَثَلَ: إِنْسَانَانِ صَعِدَا إِلَى الْهَيْكَلِ لِيُصَلِّيَا، وَاحِدٌ فَرِّيسِيٌّ وَالآخَرُ عَشَّارٌ
>
> (لوقا ١٨: ٩، ١٠)

بحسب الثقافة اليهوديَّة السائدة في ذلك الوقت، كان الناس ينظرون إلى الفرِّيسيِّين على أنهم يُطبِّقون شريعة موسى بتدقيق. وعلى النقيض من ذلك، كان الناس ينظرون إلى العشَّارين (جُباة الضرائب) باعتبارهم مُحتالين! وفي هذا المثل نرى أنَّ فِريسيَّاً وعَشَّاراً تواجدا في المكان نفسه لكي يُصلِّيا.

الفرِّيسي

> أَمَّا الْفَرِّيسِيُّ فَوَقَفَ يُصَلِّي فِي نَفْسِهِ هكَذَا: اَللّهُمَّ أَنَا أَشْكُرُكَ أَنِّي لَسْتُ مِثْلَ بَاقِي النَّاسِ الْخَاطِفِينَ الظَّالِمِينَ الزُّنَاةِ، وَلاَ مِثْلَ هذَا الْعَشَّارِ. أَصُومُ مَرَّتَيْنِ فِي الأُسْبُوعِ، وَأُعَشِّرُ كُلَّ مَا أَقْتَنِيهِ. ❖
>
> (لوقا ١٨: ١١، ١٢)

❖ يُفترض أنَّ ذلك الفرِّيسي كان يصوم عن الطعام بهدف تخصيص وقت للصلاة. كما أنه كان يُعطي عُشر دَخله للرب.

راح الفرِّيسي يمتدح نفسه أمام الله بأنه يفعل كذا وكذا، وبأنه لا يفعل كذا أو كذا. لكن حتَّى لو كانت القائمة أطول من ذلك فإنَّ هذا لا يَهُم لأنَّ طريقة صلاته كشفت عن حال قلبه. فقد كان هذا الفريسي يتَّكل على حياته المُستقيمة (أو أعمال الخير التي يقوم بها) لكي يجعل نفسه بارَّاً أمام الله. لكن يبدو أنّه نسي أنَّ معايير الله تتطلَّب الكمال.

العَشَّار

> وَأَمَّا الْعَشَّارُ فَوَقَفَ مِنْ بَعِيدٍ، لاَ يَشَاءُ أَنْ يَرْفَعَ عَيْنَيْهِ نَحْوَ السَّمَاءِ، بَلْ قَرَعَ عَلَى صَدْرِهِ قَائِلاً: «اللّهُمَّ ارْحَمْنِي، أَنَا الْخَاطِئَ»
>
> (لوقا ١٨: ١٣)

أدرك ذلك العَشَّار (جابي الضرائب) أنه كان رجُلاً خاطئاً، وأنه يحتاج لمعونة الله. لذلك، فقد راح يصرخ إلى الله طلباً للرحمة والنجاة من العقاب العادل الذي يستحقه بسبب خطاياه. ثُمَّ تابع الرب يسوع حديثه فقال:

> أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّ هذَا نَزَلَ إِلَى بَيْتِهِ مُبَرَّرًا دُونَ ذَاكَ، لأَنَّ كُلَّ مَنْ يَرْفَعُ نَفْسَهُ يَتَّضِعُ، وَمَنْ يَضَعُ نَفْسَهُ يَرْتَفِعُ
>
> (لوقا ١٨: ١٤)

❖الشخص المُبرَّر هو الشخص الذي يتمتَّع بعلاقة سليمة مع الله.

التوبة

من المُدهش هنا أنَّ الرب يسوع ربط التوبة بالتواضع! ويُوضِّح الكتاب المقدَّس إنَّ الكبرياء هي التي جعلت الشيطان يَسقُط. كما أنَّ الكبرياء هي التي تمنع الإنسان من الاعتراف بأنه خاطئ ويحتاج لوضع ثقته في الله. وكما رأينا، فقد ظَنَّ ذلك الفرِّيسي أنه إذا اجتهد في

تطبيق الشريعة وممارسة الأعمال الصالحة فسوف يكون مَرضيًّا أمام الله. لكن في واقع الأمر أنَّ كبرياءه قد منعه من رؤية حاجته الحقيقيَّة. لذلك، قال الرب يسوع:

«حَسَنًا تَنَبَّأَ إِشَعْيَاءُ عَنْكُمْ أَنْتُمُ الْمُرَائِينَ! كَمَا هُوَ مَكْتُوبٌ: 'هذَا الشَّعْبُ يُكْرِمُنِي بِشَفَتَيْهِ، وَأَمَّا قَلْبُهُ فَمُبْتَعِدٌ عَنِّي بَعِيدًا، وَبَاطِلاً يَعْبُدُونَنِي وَهُمْ يُعَلِّمُونَ تَعَالِيمَ هِيَ وَصَايَا النَّاسِ. لأَنَّكُمْ تَرَكْتُمْ وَصِيَّةَ اللهِ وَتَتَمَسَّكُونَ بِتَقْلِيدِ النَّاسِ ...'» (مرقس ٧: ٦-٨)

أعمى

في الظاهر، كان الفرِّيسيون يسعون دوماً للظهور بمظهر الأبرار، لكنهم كانوا خُطاةً من الداخل. كذلك، فقد أساءوا إلى الله لأنهم أضافوا إلى الوصايا العشر قواعد من صُنع البشر. لذلك، قال الرب يسوع عنهم:

«مُبْطِلِينَ كَلاَمَ اللهِ بِتَقْلِيدِكُمُ الَّذِي سَلَّمْتُمُوهُ. وَأُمُورًا كَثِيرَةً مِثْلَ هذِهِ تَفْعَلُونَ» (مرقس ٧: ١٣)

كان الفرِّيسيون يؤمنون أنَّ طقوسهم وممارساتهم الدينية، وأعمالهم الحسنة، وأصلهم اليهودي هي أمور تجعلهم أبراراً في نظر الله. لكنَّ الرب يسوع قال بأنَّ مثل هذه الأشياء لا تجعل المرء مقبولاً لدى الله لأنَّ الشرور:

«... تَخْرُجُ مِنَ الدَّاخِلِ وَتُنَجِّسُ الإِنْسَانَ» (مرقس ٧: ٢٣)

وهكذا، فإنَّ الكتاب المقدَّس واضح بهذا الشأن. فالأعمال الحسنة لا تكفي لكي تتمتَّع بعلاقة سليمة مع الله حيث نقرأ في كلمة الله:

كُلُّنَا أَصْبَحْنَا كَنَجِسٍ، وَأَضْحَتْ جَمِيعُ أَعْمَالِ بِرِّنَا كَثَوْبٍ قَذِرٍ ...

(إشعياء ٦٤: ٦ – التفسيريَّة)

عَبيد

يعتقد البعض أنهم نماذج للكمال؛ لكنَّ الكتاب المقدَّس يقول العكس تماماً حيث أنه يُعلن أنَّ جميع الناس خُطاة ويحتاجون لنعمة الله المُخَلِّصة:

... صِرتُم عبيدًا ... لِلخَطيئَةِ الَّتي تَقودُ إلى الموتِ ... (رومية ٦: ١٦ – المشتركة)

وهكذا، فقد لَفَّت الخطيَّة سلاسلها وقيودها حول حياة كل إنسان. وهذا هو ما قاله الرب يسوع شخصيًّا:

«الْحَقَّ الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّ كُلَّ مَنْ يَعْمَلُ الْخَطِيَّةَ هُوَ عَبْدٌ لِلْخَطِيَّةِ»

(يوحنَّا ٨: ٣٤)

غالباً ما نُصاب بالإحباط لأنَّنا كُلَّما حاولنا بِجِدٍّ أكبر أن نفعل الصواب، تجسَّد الفشل أمامنا بصورة أكبر أيضاً. وحينما نتفوَّق في أحد مجالات الحياة فإنَّنا نُخفق في مجالٍ آخر! وهكذا فإنَّ طبيعتنا الخاطئة تعمل بكل الطُرق المُمكنة ضِدَّ جهودنا للعيش بطريقة صحيحة.

علاوة على ذلك فإنَّ كلمة الله تتحدَّث عن أنَّ الشيطان يجعل الإنسان عبداً له. وهذا لا يعني بالضرورة أن يكون المرء مُنغمساً في أعمال السحر والشعوذة وما إلى ذلك من مُمارسات؛ لكنَّ الشيطان يتحايل على الإنسان ويُغريه عن طريق التجربة والكبرياء للقيام بما يُريده منه. وفي الحقيقة أنَّ الشيطان يعمل جاهداً لإقناع الإنسان بأنه صالح في الأصل. لكنَّ الكتاب المقدَّس يُحذِّرنا بأنه ينبغي على الناس جميعاً أن:

يَسْتَفِيقُوا مِنْ فَخِّ إِبْلِيسَ إِذْ قَدِ اقْتَنَصَهُمْ لإِرَادَتِهِ (٢ تيموثاوس ٢: ٢٦)

إنَّ كَون الإنسان عَبداً للخطيَّة والشيطان لا يُبرِّر نمط حياته الشيطاني. فما زال الله يُحَمِّل كل شخص المسئولية عن خياراته وقراراته. لكنَّ عبوديَّة الإنسان للخطيَّة والشيطان تخلق مُشكلة كبيرة. فالكمال الذي يحتاجه الإنسان للمُثول في محضر الله الكامل القُدُّوس هو أكبر بكثير مِمَّا يستطيع الإنسان تحقيقه.

لهذا، فإنَّ السؤال القديم الذي طَرحه النبي أيُّوب ما زال قائماً حتَّى يومنا هذا:

... فَكَيْفَ يَتَبَرَّرُ الإِنْسَانُ عِنْدَ اللهِ؟ (أيُّوب ٩: ٢)

وهكذا، كيف يُمكننا أن نتخلَّص من خطيئتنا وأن نحصل على بِرٍّ يُساوي بِرَّ الله لكي نتمكَّن من المُثول في مَحضره؟

لقد وُلدت مسيحيَّاً ...

إنَّ كلمة «مسيحي» تعني الانتماء إلى السيِّد المسيح أو إلى عائلة السيِّد المسيح. لكن للأسف الشديد فقد تَمَّ تشويه هذه الكلمة بصورة يعجز العقل عن تصديقها. لكن حتَّى في المعنى الأصلي للكلمة فإنَّ القول بأنَّ شخصاً ما قد وُلد مسيحيَّاً هو قول مغلوط. فكما أنَّ ولادتك في مُستشفى لا تجعُل منك طبيباً، فإنَّ ولادتك في بيت مسيحي لا تجعل منك شخصاً مسيحيَّاً. وباختصار نقول إنَّ الولادة الجسديَّة لا علاقة لها بعلاقتنا مع الله أو بمصيرنا الأبدي.

ورغم أنَّ هذه الكلمة تُستخدم للإشارة إلى شعوب بكاملها، إلاَّ أنَّ معناها الصحيح لا ينطبق إلاَّ على الأفراد. فبعض الشعوب التي تقول عن نفسها بأنها مسيحيَّة قد اقترفت جرائم فظيعة باسم المسيح. هذا عدا عن الشعوب الأخرى التي تَدَّعي أنَّها مسيحيَّة رغم أنها غارقة في مُستنقعٍ من الفساد الأخلاقي!

٢ . الطَّريق

كثيراً ما كان الرب يسوع يستخدم تجارب وخبرات الحياة اليومية المألوفة لتوضيح بعض الحقائق الروحيَّة. وفي هذه القصَّة، بدأ يسوع بتذكير السامعين بنوع الحظيرة التي تُحفظ فيها الخراف. فقد كانت حظيرة الخراف تُبنى من حجارة، وكانت الأشواك تُترك لتنمو فوقها لمنع الحيوانات المفترسة أو اللصوص من تسلُّق الجدار. وكان للحظيرة باب واحد فقط.

أثناء النهار، كان الراعي يرعى قطيعه في المراعي الخضراء. وفي المساء، كانت الخراف تعود إلى حظيرتها في حين ينام الراعي أمام باب الحظيرة. وهكذا، لم يكُن بإمكان أي شخص أن يدخل الحظيرة، ولم يكُن بإمكان الخراف أن تُغادر الحظيرة دون أن يستيقظ الراعي. وبذلك، كان جسد الراعي هو الباب الفعلي للحظيرة.

فَقَالَ لَهُمْ يَسُوعُ أَيْضًا: «اَلْحَقَّ اَلْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنِّي أَنَا بَابُ اَلْخِرَافِ» (يوحنَّا ١٠: ٧)

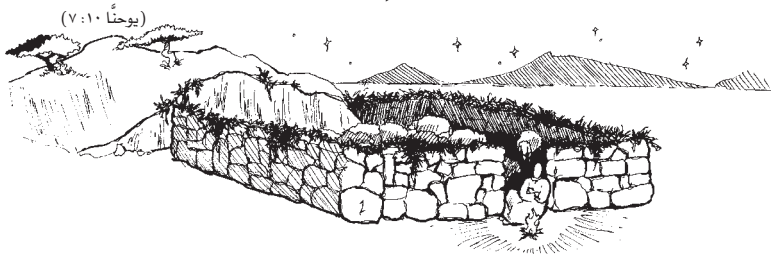

وَصف الرب يسوع الأشخاص الذين يؤمنون به بأنهم يُشبهون الخراف التي تنام آمنةً في حظيرتها.

«أَنَا هُوَ اَلْبَابُ. إِنْ دَخَلَ بِي أَحَدٌ فَيَخْلُصُ ...» (يوحنَّا ١٠: ٩)

قال الرب يسوع إنه هو الباب الوحيد؛ وهذا يعني أنه ليست هناك أبواب أخرى. فمن خلاله فقط يمكن للمرء أن يخلص من العواقب المُخيفة للخطيَّة. ومن خلاله فقط يمكن للمرء أن ينال الحياة الأبديَّة.

«اَلسَّارِقُ لاَ يَأْتِي إِلاَّ لِيَسْرِقَ وَيَذْبَحَ وَيُهْلِكَ، وَأَمَّا أَنَا فَقَدْ أَتَيْتُ لِتَكُونَ لَهُمْ حَيَاةٌ وَلِيَكُونَ لَهُمْ أَفْضَلُ» (يوحنَّا ١٠: ١٠)

من المعروف أنَّ اللصوص لا يهتمُّون بمصلحة الخراف. وكذلك الحال بالنسبة للمُعلِّمين الكذبة الذين يُسيئون استخدام كلمة الله من أجل منافعهم الشخصية. وللأسف الشديد فإنَّ هؤلاء المُعلِّمين الكذبة يبتكرون طرقاً مُختلفةً يَدَّعون بأنها تقود للحياة الأبديَّة. ورغم أنَّ هذه الطرق قد تبدو جيدة وصالحة أحياناً، إلاَّ أنها تؤدي جميعها إلى الموت الروحي.

تُوجَدُ طَرِيقٌ تَظْهَرُ لِلإِنْسَانِ مُسْتَقِيمَةً، وَعَاقِبَتُهَا طُرُقُ الْمَوْتِ (أمثال ١٤: ١٢)

أمَّا الرب يسوع المسيح فقد جاء لكي يُعطي حياةً أفضل لكُلِّ من يؤمن به. أجل، إنه يريد أن يُعطينا حياةً تفيض بالفرح حيث قال:

«أَنَا هُوَ الطَّرِيقُ وَالْحَقُّ وَالْحَيَاةُ. لَيْسَ أَحَدٌ يَأْتِي إِلَى الآبِ إِلاَّ بِي»

(يوحنَّا ١٤: ٦)

وهكذا فقد قال الرب يسوع عن نفسه إنه **الطريق** الوحيد إلى الله.

وإنَّ كلمته هي **الحق** الوحيد.

وإنَّ الحصول على **الحياة** الأبديَّة يتم من خلاله هو فقط.

لقد أكَّد الرب يسوع أنه ما من أحدٍ يستطيع أن يأتي إلى الله الآب بطريقةٍ أخرى. فكما أنَّ الراعي كان هو الباب الوحيد لحظيرة الخراف، فإنَّ الرب يسوع المسيح هو الطريق الوحيد إلى الله الآب.

٣ . المُخطَّط السَّماوي

حينما تدرس حياة الرب يسوع المسيح سوف تكتشف شيئاً فشيئاً أنه كشف لتلاميذه عن خطَّة وهدف مجيئه إلى الأرض.

مِنْ ذلِكَ الْوَقْتِ ابْتَدَأَ يَسُوعُ يُظْهِرُ لِتلاَمِيذِهِ أَنَّهُ يَنْبَغِي أَنْ يَذْهَبَ إِلَى أُورُشَلِيمَ وَيَتَأَلَّمَ كَثِيرًا مِنَ الشُّيُوخِ وَرُؤَسَاءِ الْكَهَنَةِ وَالْكَتَبَةِ، وَيُقْتَلَ، وَفِي الْيَوْمِ الثَّالِثِ يَقُومَ (مَتَّى ١٦: ٢١)

قام الرب يسوع المسيح بشيء مُستحيل على الصعيد البشري. فقد أخبر تلاميذه بصورة مُسبقة عن مكان وزمان وسبب موته. كما أنه وصف بعض الأحداث التي ستؤدي إلى موته. وقد استاء أحد التلاميذ (ألا وهو بطرس) من كلام يسوع هذا عن موته:

فَأَخَذَهُ بُطْرُسُ إِلَيْهِ وَابْتَدَأَ يَنْتَهِرُهُ قَائِلاً: «حَاشَاكَ يَا رَبُّ! لاَ يَكُونُ لَكَ هذَا!» (مَتَّى ١٦: ٢٢)

من نواح عديدة، يُمكن تشبيه بطرس بالكثير من الناس في يومنا هذا. فهُم يُنكرون أنَّ مثل ذلك الأمر يمكن أن يحدث ليسوع – لا سيَّما إذا كان هو الله بالفعل! لكنَّ الرب يسوع قال لبطرس كلاماً قاسياً:

فَالْتَفَتَ وَقَالَ لِبُطْرُسَ: «اذْهَبْ عَنِّي يَا شَيْطَانُ! أَنْتَ مَعْثَرَةٌ لِي، لأَنَّكَ لاَ تَهْتَمُّ بِمَا لِلهِ لكِنْ بِمَا لِلنَّاسِ» (مَتَّى ١٦: ٢٣)

قال الرب يسوع لبطرس إنه يخضع لتأثير الشيطان، وإنه لا يفهم خطَّة الله. فلا بُدَّ ليسوع أن:

... يُقْتَلَ، وَفِي الْيَوْمِ الثَّالِثِ يَقُومَ (مَتَّى ١٦: ٢١)

لكن ما الذي دفع الرب يسوع لقول هذا الكلام؟ هذا هو ما سنفهمه في الصفحات اللاحقة من هذا الكتاب.

حادثة التجلِّي

بعد ستَّة أيام من إخبار يسوع لتلاميذه عن خطَّته، اصطحب ثلاثةً منهم إلى جبلٍ عالٍ لكي يُعطيهم فكرةً بسيطة عن حقيقته.

وَبَعْدَ سِتَّةِ أَيَّامٍ أَخَذَ يَسُوعُ بُطْرُسَ وَيَعْقُوبَ وَيُوحَنَّا أَخَاهُ وَصَعِدَ بِهِمْ إِلَى جَبَلٍ عَالٍ مُنْفَرِدِينَ.
وَتَغَيَّرَتْ هَيْئَتُهُ قُدَّامَهُمْ، وَأَضَاءَ وَجْهُهُ كَالشَّمْسِ، وَصَارَتْ ثِيَابُهُ بَيْضَاءَ كَالنُّورِ (مَتَّى ١٧: ١، ٢)

تغيَّرت هيئة يسوع الخارجيَّة وأصبح وجهه مُضيئاً كالشمس، وثيابه بيضاء كالنور. وهكذا، فقد رأى هؤلاء التلاميذ الثلاثة نفس ضياء الله الرائع الذي كان يملأ قُدس الأقداس في خيمة الاجتماع في زمن موسى. ورغم أنَّ ذلك النور كان يُشِع من يسوع طوال الوقت، إلاَّ أنَّ الناس لم يكونوا يرونه.

وَإِذَا رَجُلاَنِ يَتَكَلَّمَانِ مَعَهُ، وَهُمَا مُوسَى وَإِيلِيَّا، اَللَّذَانِ ظَهَرَا بِمَجْدٍ، وَتَكَلَّمَا عَنْ خُرُوجِهِ الَّذِي كَانَ عَتِيدًا أَنْ يُكَمِّلَهُ فِي أُورُشَلِيمَ

(لوقا ٩: ٣٠، ٣١)

أُصيب بطرس بالذهول والدهشة فبدأ بالتعبير عن الأفكار التي راودته آنذاك:

فَجَعَلَ بُطْرُسُ يَقُولُ لِيَسُوعَ: «يَا رَبُّ، جَيِّدٌ أَنْ نَكُونَ هُهُنَا! فَإِنْ شِئْتَ نَصْنَعْ هُنَا ثَلاَثَ مَظَالَّ: لَكَ

وَاحِدَةٌ، وَلِمُوسَى وَاحِدَةٌ، وَلإِيلِيَّا وَاحِدَةٌ». وَفِيمَا هُوَ يَتَكَلَّمُ إِذَا سَحَابَةٌ نَيِّرَةٌ ظَلَّلَتْهُمْ، وَصَوْتٌ مِنَ السَّحَابَةِ قَائِلاً: «هذَا هُوَ ابْنِي الْحَبِيبُ الَّذِي بِهِ سُرِرْتُ. لَهُ اسْمَعُوا!» (مَتَّى ١٧: ٤، ٥)

وهكذا، فقد تكلَّم الله الآب من السَّماء. ثم نقرأ في كلمة الله عمَّا حدث بعد ذلك:

وَلَمَّا سَمِعَ التَّلاَمِيذُ سَقَطُوا عَلَى وُجُوهِهِمْ وَخَافُوا جِدًّا. فَجَاءَ يَسُوعُ وَلَمَسَهُمْ وَقَالَ: «قُومُوا، وَلاَ تَخَافُوا». فَرَفَعُوا أَعْيُنَهُمْ وَلَمْ يَرَوْا أَحَدًا إِلاَّ يَسُوعَ وَحْدَهُ. وَفِيمَا هُمْ نَازِلُونَ مِنَ الْجَبَلِ أَوْصَاهُمْ يَسُوعُ قَائِلاً: «لاَ تُعْلِمُوا أَحَدًا بِمَا رَأَيْتُمْ حَتَّى يَقُومَ ابْنُ الإِنْسَانِ مِنَ الأَمْوَاتِ» (مَتَّى ١٧: ٦-٩)

يا لها من حادثة عجيبة حقًّا! ورغم أنَّ التلاميذ لم يعرفوا مغزى ذلك كُلِّه في ذلك الوقت، إلاَّ أنَّ الرسول بطرس كتب عن تلك الحادثة في وقت لاحق فقال:

لأَنَّنَا لَمْ نَتْبَعْ خُرَافَاتٍ مُصَنَّعَةً، إِذْ عَرَّفْنَاكُمْ بِقُوَّةِ رَبِّنَا يَسُوعَ الْمَسِيحِ وَمَجِيئِهِ، بَلْ قَدْ كُنَّا مُعَايِنِينَ عَظَمَتَهُ. لأَنَّهُ أَخَذَ مِنَ اللهِ الآبِ كَرَامَةً وَمَجْدًا، إِذْ أَقْبَلَ عَلَيْهِ صَوْتٌ كَهذَا مِنَ الْمَجْدِ الأَسْنَى: «هذَا هُوَ ابْنِي الْحَبِيبُ الَّذِي أَنَا سُرِرْتُ بِهِ». وَنَحْنُ سَمِعْنَا هذَا الصَّوْتَ مُقْبِلاً مِنَ السَّمَاءِ، إِذْ كُنَّا مَعَهُ فِي الْجَبَلِ الْمُقَدَّسِ (٢ بطرس ١: ١٦-١٨)

٤. لعازر

وَكَانَ إِنْسَانٌ مَرِيضًا وَهُوَ لِعَازَرُ، مِنْ بَيْتِ عَنْيَا مِنْ قَرْيَةِ مَرْيَمَ وَمَرْثَا أُخْتِهَا. ... فَأَرْسَلَتِ الأُخْتَانِ إِلَيْهِ قَائِلَتَيْنِ: «يَا سَيِّدُ، هُوَذَا الَّذِي تُحِبُّهُ مَرِيضٌ»

(يوحنَّا ١١: ١، ٣)

كان لعازر ومريم ومرثا من أصدقاء يسوع المُقرَّبين، وكانوا يقطنون على بُعد بضعة أميال من أورشليم. وفي الوقت الذي مرض فيه لعازر، كان الرب يسوع في الجانب الآخر من نهر الأردن على بُعد مَسيرة يوم كامل من بيت عَنيا.

وَكَانَ يَسُوعُ يُحِبُّ مَرْثَا وَأُخْتَهَا وَلِعَازَرَ. فَلَمَّا سَمِعَ أَنَّهُ مَرِيضٌ مَكَثَ حِينَئِذٍ فِي الْمَوْضِعِ الَّذِي كَانَ فِيهِ يَوْمَيْنِ (يوحنَّا ١١: ٥، ٦)

من وُجهة نظر بشريَّة، لم يكن ذلك التأخير منطقيًّاً على الإطلاق! ففي وقتنا الحاضر أصبح الكل يعرف أنَّ الوصول السريع لفرق الإنقاذ يلعب دوراً كبيراً في إنقاذ حياة المرضى أو المُصابين. لكنَّ الكتاب المقدَّس يقول إنَّ يسوع بقي في الموضع الذي كان فيه لمُدَّة يومين إضافيَّين! فما الذي كان يدور في ذهنه؟

ثُمَّ بَعْدَ ذلِكَ قَالَ لِتَلاَمِيذِهِ: «لِنَذْهَبْ إِلَى الْيَهُودِيَّةِ أَيْضًا». قَالَ لَهُ التَّلاَمِيذُ: «يَا مُعَلِّمُ، الآنَ كَانَ الْيَهُودُ يَطْلُبُونَ أَنْ يَرْجُمُوكَ، وَتَذْهَبُ أَيْضًا إِلَى هُنَاكَ».

فَقَالَ لَهُمْ يَسُوعُ حِينَئِذٍ عَلاَنِيَةً: «لِعَازَرُ مَاتَ. وَأَنَا أَفْرَحُ لأَجْلِكُمْ إِنِّي لَمْ أَكُنْ هُنَاكَ، لِتُؤْمِنُوا. وَلكِنْ لِنَذْهَبْ إِلَيْهِ!» (يوحنَّا ١١: ٧، ٨، ١٤، ١٥)

مَيِّت مُنذ أربعة أيَّام

فَلَمَّا أَتَى يَسُوعُ وَجَدَ أَنَّهُ قَدْ صَارَ لَهُ أَرْبَعَةُ أَيَّام فِي الْقَبْرِ. وَكَانَتْ بَيْتُ عَنْيَا قَرِيبَةً مِنْ أُورُشَلِيمَ نَحْوَ خَمْسَ عَشْرَةَ غَلْوَةً حوالي ٣ كيلومترات . وَكَانَ كَثِيرُونَ مِنَ الْيَهُودِ قَدْ جَاءُوا إِلَى مَرْثَا وَمَرْيَمَ لِيُعَزُّوهُمَا عَنْ أَخِيهِمَا. فَلَمَّا سَمِعَتْ مَرْثَا أَنَّ يَسُوعَ آت لاَقَتْهُ، وَأَمَّا مَرْيَمُ فَاسْتَمَرَّتْ جَالِسَةً فِي الْبَيْتِ. فَقَالَتْ مَرْثَا لِيَسُوعَ: «يَا سَيِّدُ، لَوْ كُنْتَ ههُنَا لَمْ يَمُتْ أَخِي! لكِنِّي الآنَ أَيْضًا أَعْلَمُ أَنَّ كُلَّ مَا تَطْلُبُ مِنَ اللهِ يُعْطِيكَ اللهُ إِيَّاهُ» (يوحنَّا ١١: ١٧-٢٢)

لا يُخبرنا الكتاب المقدَّس ما الذي كانت تُفكِّر فيه مرثا آنذاك، أو ما الذي يُمكن ليسوع أن يطلبه من الآب. لكنَّ النقطة الواضحة تماماً هنا هي إيمانها به:

قَالَ لَهَا يَسُوعُ: «سَيَقُومُ أَخُوكِ». قَالَتْ لَهُ مَرْثَا: «أَنَا أَعْلَمُ أَنَّهُ سَيَقُومُ فِي الْقِيَامَةِ، فِي الْيَوْمِ الأَخِيرِ» (يوحنَّا ١١: ٢٣، ٢٤)

لم تندهش مرثا من عبارة الرب يسوع. فقد كانت تعرف أنَّ الأسفار المقدَّسة تقول إنَّ جميع الناس سيرجعون إلى الحياة في نهاية العالم حيث سيُدين الله الجميع. وحتَّى ذلك الحين فإنَّ المرء يموت مَرَّة واحدة فقط.

قَالَ لَهَا يَسُوعُ: «أَنَا هُوَ الْقِيَامَةُ وَالْحَيَاةُ. مَنْ آمَنَ بِي وَلَوْ مَاتَ فَسَيَحْيَا، وَكُلُّ مَنْ كَانَ حَيًّا وَآمَنَ بِي فَلَنْ يَمُوتَ إِلَى الأَبَدِ. أَتُؤْمِنِينَ بِهذَا؟»

(يوحنَّا ١١: ٢٥، ٢٦)

كانت تلك الكلمات قويَّة بالفعل. فقد قال يسوع لمرثا إنَّ أخاها لعازر لن ينتظر حتَّى يوم الدينونة لكي يقوم من الموت! فيسوع هو الذي يهب الحياة؛ وقد كان بإمكانه أن يُعيد الحياة إلى لعازر في أي وقت. فهل آمنت مرثا به؟

قَالَتْ لَهُ: «نَعَمْ يَا سَيِّدُ. أَنَا قَدْ آمَنْتُ أَنَّكَ أَنْتَ الْمَسِيحُ ابْنُ اللهِ، الآتِي إِلَى الْعَالَمِ» (يوحنَّا ١١: ٢٧)

لم تؤمن مرثا بيسوع فحسب؛ بل أكَّدت أنه المسيح (أو المسيَّا) أيضاً.

هناك تفسيرات عديدة لبُكاء يسوع عند قبر لعازر. فلعلَّه بكى لأنه شعر بالحزن الذي يشعر به الناس من حوله. وربما بكى حينما رأى الدمار الذي جلبته الخطيَّة على العالم الكامل الذي خلقه. ويقول البعض إنَّ يسوع حزن لفكرة إرجاع لعازر إلى الحياة – من الفرح والكمال الموجودين في السَّماء إلى الأرض بكل ما فيها من خطيَّة وأحزان. وربما بكى يسوع لجميع هذه الأسباب أو لغيرها. وهكذا، رغم أنَّ الكتاب المقدَّس لا يُخبرنا لماذا بكى يسوع عند قبر لعازر؛ إلاَّ أنَّ بُكاءه ذاك يُبيِّن لنا أنه كان يشعر مع الناس رغم أنه كان بلا خطيَّة.

فَقَالَ الْيَهُودُ: «انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ يُحِبُّهُ!» وَقَالَ بَعْضٌ مِنْهُمْ: «أَلَمْ يَقْدِرْ هذَا الَّذِي فَتَحَ عَيْنَيِ الأَعْمَى أَنْ يَجْعَلَ هذَا أَيْضًا لاَ يَمُوتُ؟» فَانْزَعَجَ يَسُوعُ أَيْضًا فِي نَفْسِهِ وَجَاءَ إِلَى الْقَبْرِ، وَكَانَ مَغَارَةً وَقَدْ وُضِعَ عَلَيْهِ حَجَرٌ

(يوحنَّا ١١: ٣٦-٣٨)

كان الدفن بحسب التقاليد اليهودية في تلك الأيام يتم بوضع الجسد الميِّت في قبر يُصبح مع مرور الأيام المثوى الأخير للأجيال اللاحقة. وعادةً ما كانت الكهوف الطبيعية تُستخدم لهذا الغرض رغم أنَّ الضريح نفسه كان يُحفر في الصخر القاسي في بعض الأحيان. كانت تلك القبور واسعة بحيث يُمكن الوقوف فيها باستقامة ❶ في غُرفة البكاء. وفي الداخل، كانت هناك ❷ رفوف محفورة في الصخر توضع عليها الجُثث. ❸ وكان يتم قطع صخرة على شكل دولاب ❹ يَزِن عِدَّة أطنان لإغلاق المدخل بإحكام. وكان هناك خندق ❺ يتدحرج فيه الباب الصخري إلى الأمام وإلى الخلف. وحينما يتم إغلاق الباب، كان هذا الباب يستند إلى تجويف صغير أمام المدخل لمنعه من التدحرج إلى الوراء وفتح المدخل.

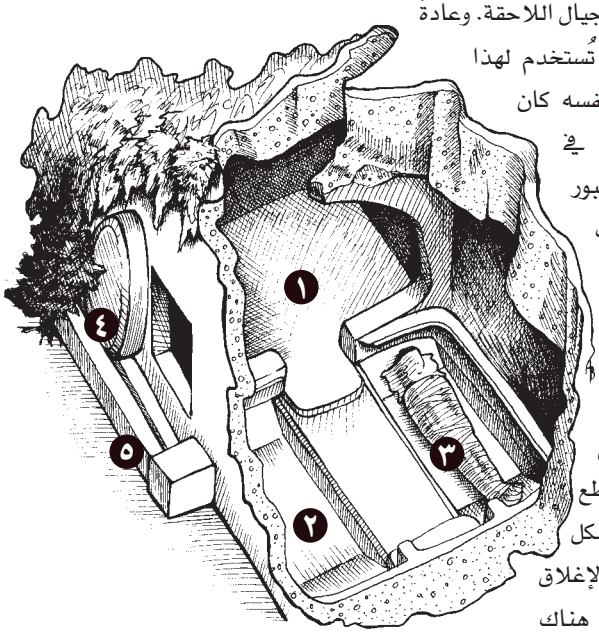

قَالَ يَسُوعُ: «ارْفَعُوا الْحَجَرَ!» قَالَتْ لَهُ مَرْثَا، أُخْتُ الْمَيِّتِ: «يَاسَيِّدُ، قَدْ أَنْتَنَ لأَنَّ لَهُ أَرْبَعَةَ أَيَّام».
قَالَ لَهَا يَسُوعُ: «أَلَمْ أَقُلْ لَكِ: إِنْ آمَنْتِ تَرَيْنَ مَجْدَ اللهِ؟»
فَرَفَعُوا الْحَجَرَ حَيْثُ كَانَ الْمَيِّتُ مَوْضُوعًا، وَرَفَعَ يَسُوعُ عَيْنَيْهِ إِلَى فَوْقُ، وَقَالَ: «أَيُّهَا الآبُ، أَشْكُرُكَ لأَنَّكَ سَمِعْتَ لِي، وَأَنَا عَلِمْتُ أَنَّكَ فِي كُلِّ حِينٍ تَسْمَعُ لِي. وَلكِنْ لأَجْلِ هذَا الْجَمْعِ الْوَاقِفِ قُلْتُ، لِيُؤْمِنُوا أَنَّكَ أَرْسَلْتَنِي».
وَلَمَّا قَالَ هذَا صَرَخَ بِصَوْتٍ عَظِيمٍ: «لِعَازَرُ، هَلُمَّ خَارِجًا!» فَخَرَجَ الْمَيْتُ وَيَدَاهُ وَرِجْلاَهُ مَرْبُوطَاتٌ بِأَقْمِطَةٍ، وَوَجْهُهُ مَلْفُوفٌ بِمِنْدِيلٍ.
فَقَالَ لَهُمْ يَسُوعُ: «حُلُّوهُ وَدَعُوهُ يَذْهَبْ» (يوحنَّا ١١: ٣٩-٤٤)

من الجيِّد أنَّ الرب يسوع نطق باسم لعازر في تلك اللحظة. فلو أنه اكتفى بالقول: «هَلُمَّ خَارِجاً» لكان جميع الأموات في القبر قد قاموا. وهكذا، فقد عاد لعازر إلى الحياة من جديد! وقد تعيَّن على أصدقائه أن يفكُّوا اللفائف الطويلة عنه قبل أن يتمكَّن من المشي. وما من شَكٍّ أنَّ يسوع قام بمُعجزة خارقة هناك!

فَكَثِيرُونَ مِنَ الْيَهُودِ الَّذِينَ جَاءُوا إِلَى مَرْيَمَ، وَنَظَرُوا مَا فَعَلَ يَسُوعُ، آمَنُوا بِهِ. وَأَمَّا قَوْمٌ مِنْهُمْ فَمَضَوْا إِلَى الْفَرِّيسِيِّينَ وَقَالُوا لَهُمْ عَمَّا فَعَلَ يَسُوعُ. فَجَمَعَ رُؤَسَاءُ الْكَهَنَةِ وَالْفَرِّيسِيُّونَ مَجْمَعًا [1] وَقَالُوا: «مَاذَا نَصْنَعُ؟ فَإِنَّ هذَا الإِنْسَانَ يَعْمَلُ آيَاتٍ كَثِيرَةً. إِنْ تَرَكْنَاهُ هكَذَا يُؤْمِنُ الْجَمِيعُ بِهِ، فَيَأْتِي الرُّومَانِيُّونَ وَيَأْخُذُونَ مَوْضِعَنَا وَأُمَّتَنَا». فَمِنْ ذلِكَ الْيَوْمِ تَشَاوَرُوا لِيَقْتُلُوهُ
(يوحنَّا ١١: ٤٥-٤٨؛ ٥٣)

وهكذا، في حين أنَّ البعض آمنوا بالرب يسوع، إلاَّ أنَّ البعض الآخر راحوا يُخطِّطون ويتآمرون

لقتله. فحتَّى مُعجزة إقامة الأموات لم تكُن كافية لإقناع رؤساء الكهنة والفرِّيسيين. فقد كانت هناك العديد من الأمور المُعرَّضة للخطر – ولا سيَّما نفوذهم وكبرياءهم.

أيُّ نوعٍ من الرجال هذا؟

لم يترك الرب يسوع مجالاً للشك في من يكون. ففي إحدى المرَّات، تعرَّض التلاميذ لعاصفة هوجاء في وسط البحر. ورغم أنَّ الرب يسوع كان على ظهر السفينة، إلاَّ أنه كان مُستغرقاً في النوم. وحينما أيقظه التلاميذ وأخبروه عن الخطر المُحْدِق بهم:

... قَامَ وَانْتَهَرَ الرِّيَاحَ وَالْبَحْرَ، فَصَارَ هُدُوءٌ عَظِيمٌ.
فَتَعَجَّبَ النَّاسُ قَائِلِينَ: «أَيُّ إِنْسَانٍ هذَا؟ فَإِنَّ الرِّيَاحَ وَالْبَحْرَ جَمِيعًا تُطِيعُهُ!» (مَتَّى ٨: ٢٦، ٢٧)

فكما أنَّ الله خلق المياه بكلمة منه، فقد أسكت الأمواج بكلمة منه أيضاً. وكما أنَّ الله خلق الحياة بكلمة منه، فقد كان قادراً على استعادة الحياة بأمرٍ منه. وقد قال الرب يسوع:

«أَنَا هُوَ الْقِيَامَةُ وَالْحَيَاةُ» (يوحنَّا ١١: ٢٥)

٥ . الجَحيم

بقي يسوع يُعلِّم لمُدَّة ثلاث سنين كل من يودَّ الاستماع إليه. ويبدو أنَّ تلك السنوات الثلاث كانت قصيرة جداً في ضوء الأحداث الكثيرة التي جرت خلالها. وقد تراوحت تعاليم الرب يسوع بين التعزية والحض، وبين الأمثال والقصص الحقيقيَّة. وفي هذه الحادثة، سَرَد الرب يسوع القصَّة الحقيقيَّة التالية:

«كَانَ إِنْسَانٌ غَنِيٌّ وَكَانَ يَلْبَسُ الأَرْجُوانَ وَالْبَزَّ وَهُوَ يَتَنَعَّمُ كُلَّ يَوْم مُتَرَفِّهًا. وَكَانَ مِسْكِينٌ اسْمُهُ لِعَازَرُ، الَّذِي طُرِحَ عِنْدَ بَابِهِ مَضْرُوبًا بِالْقُرُوحِ، وَيَشْتَهِي أَنْ يَشْبَعَ مِنَ الْفُتَاتِ السَّاقِطِ مِنْ مَائِدَةِ الْغَنِيِّ، بَلْ كَانَتِ الْكِلاَبُ تَأْتِي وَتَلْحَسُ قُرُوحَهُ» (لوقا ١٦: ١٩-٢١)

المسكين يموت

«فَمَاتَ الْمِسْكِينُ وَحَمَلَتْهُ الْمَلاَئِكَةُ إِلَى حِضْنِ إِبْرَاهِيمَ ...» (لوقا ١٦: ٢٢)

حضن إبراهيم في هذه القصَّة يُمثِّل السَّماء التي يُشار إليها في بعض الأحيان بالفردوس. ورغم أنَّ اسم الرجل المسكين في هذه القصة هو «لعازر»، إلاَّ أنه يختلف عن ذاك الذي أقامه الرب يسوع من الموت في القصَّة السابقة. وعلى أيِّ حال فقد ذهب هذا الرجل المسكين إلى الفردوس لا لأنَّه كان مسكيناً، بل لأنه آمن بالرب.

الغني يموت

... وَمَاتَ الْغَنِيُّ أَيْضًا وَدُفِنَ، فَرَفَعَ عَيْنَيْهِ فِي الْجَحِيمِ وَهُوَ فِي الْعَذَابِ، وَرَأَى إِبْرَاهِيمَ مِنْ بَعِيدٍ وَلِعَازَرَ فِي حِضْنِهِ، فَنَادَى وَقَالَ: «يَا أَبِي إِبْرَاهِيمَ، ارْحَمْنِي، وَأَرْسِلْ لِعَازَرَ لِيَبُلَّ طَرَفَ إِصْبَعِهِ بِمَاءٍ وَيُبَرِّدَ لِسَانِي، لأَنِّي مُعَذَّبٌ فِي هذَا اللَّهِيبِ» (لوقا ١٦: ٢٢-٢٤)

ذهب الغني إلى الجحيم لا لأنه غني، بل لأنه تجاهل كلمة الله وعاش لنفسه فقط أثناء حياته على الأرض. والآن، ها هو يتوسَّل إلى إبراهيم طلباً للعون والمساعدة:

فَقَالَ إِبْرَاهِيمُ: «يَا ابْنِي، اذْكُرْ أَنَّكَ اسْتَوْفَيْتَ خَيْرَاتِكَ فِي حَيَاتِكَ، وَكَذلِكَ لِعَازَرُ الْبَلاَيَا. وَالآنَ هُوَ يَتَعَزَّى وَأَنْتَ تَتَعَذَّبُ. وَفَوْقَ هذَا كُلِّهِ، بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ هُوَّةٌ عَظِيمَةٌ قَدْ أُثْبِتَتْ، حَتَّى إِنَّ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْعُبُورَ مِنْ هُهُنَا إِلَيْكُمْ لاَ يَقْدِرُونَ، وَلاَ الَّذِينَ مِنْ هُنَاكَ يَجْتَازُونَ إِلَيْنَا» (لوقا ١٦: ٢٥، ٢٦)

مصير أبدي

تُوضِّح لنا كلمة الله أنَّ المرء يستطيع أن يتوب (أي أن يُغيِّر فكره) طالما أنه حَيٌّ يُرزق على سطح هذه الأرض. أمَّا بعد أن يموت فلن يحظى بفُرصة ثانية للهرب من الجحيم والذهاب إلى الفردوس. لهذا، فإنَّ الأشخاص الذين يموتون وهم لا يتمتَّعون بعلاقة سليمة مع الله يظلُّون مُنفصلين عنه إلى الأبد. وليست هُناك آية واحدة في الكتاب المقدَّس تقول إنه بإمكان المرء أن يهرب من مكان العذاب هذا. فرغم أنَّ الغني صرخ مُلتمساً التخفيف من عذابه ومُعاناته، إلاَّ أنَّ ذلك لم يكُن مُمكناً. فلا يُمكن للمرء أن يحصل على رحمة الله إلاَّ أثناء حياته على الأرض. وعندها، فتابع الغني حديثه:

فَقَالَ: «أَسْأَلُكَ إِذًا، يَا أَبَتِ، أَنْ تُرْسِلَهُ إِلَى بَيْتِ أَبِي، لأَنَّ لِي خَمْسَةَ إِخْوَةٍ، حَتَّى يَشْهَدَ لَهُمْ لِكَيْلاَ يَأْتُوا هُمْ أَيْضًا إِلَى مَوْضِعِ الْعَذَابِ هذَا»

(لوقا ١٦: ٢٧، ٢٨)

رغم أنَّ هذا الرجل كان يُعاني من عذاب شديد، إلاَّ أنه استطاع أن يتذكَّر حياته على الأرض. كما أنه كان يعرف أنَّ إخوانه الخمسة لم يكونوا يتمتَّعون بعلاقة سليمة مع الله ممَّا جعله راغباً في تحذيرهم.

قَالَ لَهُ إِبْرَاهِيمُ: «عِنْدَهُمْ مُوسَى وَالأَنْبِيَاءُ، لِيَسْمَعُوا مِنْهُمْ». فَقَالَ: «لاَ، يَا أَبِي إِبْرَاهِيمَ، بَلْ إِذَا مَضَى إِلَيْهِمْ وَاحِدٌ مِنَ الأَمْوَاتِ يَتُوبُونَ». فَقَالَ لَهُ: «إِنْ كَانُوا لاَ يَسْمَعُونَ مِنْ مُوسَى وَالأَنْبِيَاءِ، وَلاَ إِنْ قَامَ وَاحِدٌ مِنَ الأَمْوَاتِ يُصَدِّقُونَ» (لوقا ١٦: ٢٩-٣١)

قرأنا في الصفحات السابقة أنَّ الرب يسوع أقام شخصاً من القبر. لكن رغم تلك المُعجزة المُدهشة إلاَّ أنَّ كثيرين لم يَقبلوه مُخلِّصاً وملكاً على حياتهم. بل في حقيقة الأمر أنهم راحوا يتآمرون لقتله! ويقول لنا الكتاب المقدَّس إنه إذا رفض الناس أن يؤمنوا برسالة الخلاص التي أعلنها أنبياء الله فسوف يحدث الآتي:

«... وَلاَ إِنْ قَامَ وَاحِدٌ مِنَ الأَمْوَاتِ يُصَدِّقُونَ» (لوقا ١٦: ٣١)

إنَّ وصف الجحيم يُشبه بُحيرة النار.[٢] والكتاب المقدس يقول إنَّ الأشخاص الذين يدخلون الجحيم إنَّما يدخلون مكان العقاب الأبدي.

٦ . القبول والخيانة

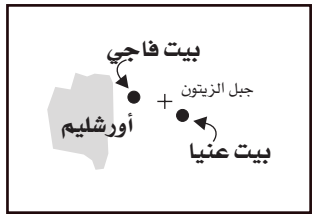

وَلَمَّا قَرُبُوا مِنْ أُورُشَلِيمَ إِلَى بَيْتِ فَاجِي وَبَيْتِ عَنْيَا، عِنْدَ جَبَلِ الزَّيْتُونِ، أَرْسَلَ اثْنَيْنِ مِنْ تَلاَمِيذِهِ، وَقَالَ لَهُمَا: «اذْهَبَا إِلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أَمَامَكُمَا، فَلِلْوَقْتِ وَأَنْتُمَا دَاخِلاَنِ إِلَيْهَا تَجِدَانِ جَحْشًا مَرْبُوطًا لَمْ يَجْلِسْ عَلَيْهِ أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ. فَحُلاَّهُ وَأْتِيَا بِهِ»

(مرقس ١١: ١، ٢)

فَأَتَيَا بِالْجَحْشِ إِلَى يَسُوعَ، وَأَلْقَيَا عَلَيْهِ ثِيَابَهُمَا فَجَلَسَ عَلَيْهِ. وَكَثِيرُونَ فَرَشُوا ثِيَابَهُمْ فِي الطَّرِيقِ. وَآخَرُونَ قَطَعُوا أَغْصَانًا مِنَ الشَّجَرِ وَفَرَشُوهَا فِي الطَّرِيقِ. وَالَّذِينَ تَقَدَّمُوا، وَالَّذِينَ تَبِعُوا كَانُوا يَصْرُخُونَ قَائِلِينَ: «أُوصَنَّا! مُبَارَكٌ الآتِي بِاسْمِ الرَّبِّ! مُبَارَكَةٌ مَمْلَكَةُ أَبِينَا دَاوُدَ الآتِيَةُ بِاسْمِ الرَّبِّ! أُوصَنَّا فِي الأَعَالِي!» (مرقس ١١: ٧-١٠)

إنَّ كلمة «أوصَنَّا» تعني «خَلِّص الآن». كان الجُمهور يُقدِّم ليسوع عرضاً مُرتجلاً شبيهاً بالعروض التي تُقدَّم عادةً للترحيب بالفاتح المُنتصر. فقد كانوا يهتفون ويصرخون على أمل أن يقوم بطرد مُضطهديهم الرومان.

لم يكُن هؤلاء الناس يعرفون أنهم إنَّما يُتمِّمون نبوءة قيلت قبل ٥٠٠ سنة! فقد كتب النبي زكريَّا أنَّ المُخلِّص سيلقى ترحيباً كهذا تماماً:

ابْتَهِجِي جِدًّا يَا ابْنَةَ صِهْيَوْنَ، اهْتِفِي يَا بِنْتَ أُورُشَلِيمَ. هُوَذَا مَلِكُكِ يَأْتِي إِلَيْكِ. هُوَ عَادِلٌ وَمَنْصُورٌ وَدِيعٌ، وَرَاكِبٌ عَلَى حِمَارٍ وَعَلَى جَحْشٍ ابْنِ أَتَانٍ (زكريَّا ٩: ٩)

كانت تلك هي المَرَّة الوحيدة التي سَمَح فيها الرب يسوع بمثل هذا الاستقبال الحافل له! وفي حقيقة الأمر أنه كان لديه سبب يدعوه لذلك. فقد كان يضغط على يد هؤلاء الذين يُخطِّطون لقتله. بعبارة أخرى، فقد كان يريدهم أن يفعلوا ذلك فوراً ودون أيِّ تأخير.

وَكَانَ الْفِصْحُ وَأَيَّامُ الْفَطِيرِ بَعْدَ يَوْمَيْنِ. وَكَانَ رُؤَسَاءُ الْكَهَنَةِ وَالْكَتَبَةُ يَطْلُبُونَ كَيْفَ يُمْسِكُونَهُ بِمَكْرٍ وَيَقْتُلُونَهُ، وَلكِنَّهُمْ قَالُوا: «لَيْسَ فِي الْعِيدِ، لِئَلاَّ يَكُونَ شَغَبٌ فِي الشَّعْبِ» (مرقس ١٤: ١، ٢)

من وُجهة نظر الجماهير المُبتهجة، كان الوقت قد حان لكي يُعلن يسوع أنه الملك الحقيقي على إسرائيل! أمَّا بالنسبة للقادة الدينيِّين الذين كانوا يُخطِّطون لقتله، فقد كان الموقف صعباً ومُحيِّراً. فإن كان ينبغي إبعاد يسوع عن مسرح الأحداث، فهذا هو أنسب الأوقات للقيام بذلك؛ لكنهم كانوا خائفين من ردود فعل الناس. فمن الواضح أنَّ يسوع كان يتمتَّع بشعبيَّة واسعة.

كانت المدينة مُزدحمة بالناس الذين توافدوا من كل مكان للاحتفال بعيد الفصح. وكان الكثير من هؤلاء يراقبون يسوع على أمل أن يقوم بطرد الرومان. لكن حينما بدأ الوقت يمُرُّ دون صُدور إعلان رسمي عن مملكته، بدأت مكانته كبطل تتلاشى بسرعة بين الناس.

وليمة الفصح

أمر يسوع اثنين من تلاميذه أن يذهبا ويُعدَّا غرفةً يتناولون فيها عشاء الفصح.

وَلَمَّا كَانَ الْمَسَاءُ جَاءَ مَعَ الاثْنَيْ عَشَرَ. وَفِيمَا هُمْ مُتَّكِئُونَ يَأْكُلُونَ، قَالَ يَسُوعُ: «الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّ

وَاحِدًا مِنْكُمْ يُسَلِّمُنِي. اَلآكِلُ مَعِي!»
فَابْتَدَأُوا يَحْزَنُونَ، وَيَقُولُونَ لَهُ وَاحِدًا فَوَاحِدًا: «هَلْ أَنَا؟» وَآخَرُ: «هَلْ أَنَا؟»
فَأَجَابَ وَقَالَ لَهُمْ: «هُوَ وَاحِدٌ مِنَ الاثْنَيْ عَشَرَ، الَّذِي يَغْمِسُ مَعِي فِي الصَّحْفَةِ» (مرقس ١٤: ١٧-٢٠)

حينما اختار الرب يسوع تلاميذه الاثني عشر قبل ثلاث سنوات، كان يعرف أنَّ واحداً منهم سيخونه.

وقبل ألف سنة من تلك الحادثة، كتب النبي داود بروح النُبوَّة عن هذه الخيانة من وُجهة نظر المُخلِّص فقال:

«أَيْضًا رَجُلُ سَلاَمَتِي، الَّذِي وَثِقْتُ بِهِ، آكِلُ خُبْزِي، رَفَعَ عَلَيَّ عَقِبَهُ!» (المزمور ٤١: ٩)

الخيانة

كان الخائن هو يهوذا الإسخريوطي. فرغم أنه كان أميناً للصندوق الخاص بالتلاميذ، إلاَّ أنه كان لصَّاً أيضاً. ويبدو أنه كان قد ملأ جيوبه بالمال دون علم التلاميذ. لكنَّ الرب يسوع كان يعرف ذلك يقيناً؛ بل وحتَّى إبليس كان يعرف ذلك! فقد كان إبليس يبحث عن نُقطة ضعف في درع يسوع. كما أنه كان يتحيَّن الزمان والمكان المُلائمين لكي يسحق المُخلِّص الموعود إلى الأبد. وها هو إبليس يجد فرصته. فقد كان يهوذا مستعداً للتعاون معه. وحينما تَمَّ تقديم خُبز الفصح، قام إبليس بمناورته.

فَبَعْدَ اللُّقْمَةِ دَخَلَهُ الشَّيْطَانُ. فَقَالَ لَهُ يَسُوعُ: «مَا أَنْتَ تَعْمَلُهُ فَاعْمَلْهُ بِأَكْثَرِ سُرْعَةٍ». وَأَمَّا هذَا فَلَمْ يَفْهَمْ أَحَدٌ مِنَ الْمُتَّكِئِينَ لِمَاذَا كَلَّمَهُ بِهِ (يوحنَّا ١٣: ٢٧، ٢٨)

فَمَضَى وَتَكَلَّمَ مَعَ رُؤَسَاءِ الْكَهَنَةِ وَقُوَّادِ الْجُنْدِ كَيْفَ يُسَلِّمُهُ إِلَيْهِمْ. فَفَرِحُوا وَعَاهَدُوهُ أَنْ يُعْطُوهُ فِضَّةً (لوقا ٢٢: ٤، ٥)

حِينَئِذٍ ذَهَبَ ... يَهُوذَا الإِسْخَرْيُوطِيُّ، إِلَى رُؤَسَاءِ الْكَهَنَةِ وَقَالَ: «مَاذَا تُرِيدُونَ أَنْ تُعْطُونِي وَأَنَا أُسَلِّمُهُ إِلَيْكُمْ؟» فَجَعَلُوا لَهُ ثَلاَثِينَ مِنَ الْفِضَّةِ (مَتَّى ٢٦: ١٤، ١٥)

والمُدهش في الأمر أنَّ النبي زكريَّا كان قد كتب قبل ٥٠٠ سنة أنَّ المسيح سيُباع بهذا الثمن بالضبط:

«... فَوَزَنُوا أُجْرَتِي ثَلاَثِينَ مِنَ الْفِضَّةِ» (زكريَّا ١١: ١٢؛ انظر أيضاً مَتَّى ٢٧: ٣-١٠)

الخُبز المكسور والكأس

حدث هذا السيناريو مع يهوذا في منتصف الوليمة. وحينما غادر يهوذا الخائن المكان لإكمال مهمَّته الشيطانية، أكمل الرب يسوع عشاءه مع تلاميذه. فقد كان هذا العشاء مهماً جدَّاً:

وَفِيمَا هُمْ يَأْكُلُونَ، أَخَذَ يَسُوعُ خُبْزًا وَبَارَكَ وَكَسَّرَ، وَأَعْطَاهُمْ وَقَالَ: «خُذُوا كُلُوا، هذَا هُوَ جَسَدِي» (مرقس ١٤: ٢٢)

من الواضح أنهم لم يكونوا يأكلون جسد المسيح؛ رغم ذلك فقد قال يسوع إن خُبز الفصح المكسور يرمز إلى جسده. ولا بُدَّ أنَّ التلاميذ تحيَّروا! فهل لهذا علاقة بقوله السابق إنه

خُبز الحياة؟

ثُمَّ أَخَذَ الْكَأْسَ وَشَكَرَ وَأَعْطَاهُمْ، فَشَرِبُوا مِنْهَا كُلُّهُمْ. وَقَالَ لَهُمْ: «هذَا هُوَ دَمِي الَّذِي لِلْعَهْدِ الْجَدِيدِ، الَّذِي يُسْفَكُ مِنْ أَجْلِ كَثِيرِينَ»

(مرقس ١٤: ٢٣، ٢٤)

من الواضح هنا أنَّ هذه الصورة الرمزيَّة تُشبه الصورة الرمزيَّة السابقة. والمقصود هنا هو أنَّ دم يسوع سيُسفك قريباً لأجل كثيرين. وسوف نرى أهميَّة ذلك في الصفحات اللاحقة من هذا الكتاب.

ثُمَّ سَبَّحُوا وَخَرَجُوا إِلَى جَبَلِ الزَّيْتُونِ (مرقس ١٤: ٢٦)

الفصل الثالث عشر

١. بُستان جَثْسَيماني.
٢. مَوضع الجُمجُمة (الجُلْجُثة)
٣. القبر الفارغ.

١. بُستان جَثسيماني

وَجَاءُوا إِلَى ضَيْعَةٍ اسْمُهَا جَثْسَيْمَانِي، فَقَالَ لِتَلاَمِيذِهِ: «اجْلِسُوا ههُنَا حَتَّى أُصَلِّيَ». ثُمَّ أَخَذَ مَعَهُ بُطْرُسَ وَيَعْقُوبَ وَيُوحَنَّا، وَابْتَدَأَ يَدْهَشُ وَيَكْتَئِبُ. فَقَالَ لَهُمْ: «نَفْسِي حَزِينَةٌ جِدًّا حَتَّى الْمَوْتِ! امْكُثُوا هُنَا وَاسْهَرُوا».
ثُمَّ تَقَدَّمَ قَلِيلاً وَخَرَّ عَلَى الأَرْضِ، وَكَانَ يُصَلِّي لِكَيْ تَعْبُرَ عَنْهُ السَّاعَةُ إِنْ أَمْكَنَ. وَقَالَ: «يَا أَبَا الآبُ❖، كُلُّ شَيْءٍ مُسْتَطَاعٌ لَكَ، فَأَجِزْ عَنِّي هذِهِ الْكَأْسَ. وَلكِنْ لِيَكُنْ لاَ مَا أُرِيدُ أَنَا، بَلْ مَا تُرِيدُ أَنْتَ»

(مرقس ١٤: ٣٢-٣٦)

❖عبارة «يا أبا الآب» هي عبارة تَحبُّب تُشبه «بابا».

صَرخ يسوع بلهجة تَحَبُّب لا يستخدمها إلاَّ ابنٌ مُحبٌّ لأبيه فقال: «بابا، أرجوك أن تجد طريقة أخرى!» لكنه أخضع مشيئته لمشيئة أبيه السماوي وصَلَّى قائلاً: «لتكُن مشيئتك».

وَلِلْوَقْتِ فِيمَا هُوَ يَتَكَلَّمُ أَقْبَلَ يَهُوذَا، وَاحِدٌ مِنَ الاثْنَيْ عَشَرَ، وَمَعَهُ جَمْعٌ كَثِيرٌ بِسُيُوفٍ وَعِصِيٍّ مِنْ عِنْدِ رُؤَسَاءِ الْكَهَنَةِ وَالْكَتَبَةِ وَالشُّيُوخِ. وَكَانَ مُسَلِّمُهُ قَدْ أَعْطَاهُمْ عَلاَمَةً قَائِلاً: «الَّذِي أُقَبِّلُهُ هُوَ هُوَ. أَمْسِكُوهُ، وَامْضُوا بِهِ بِحِرْصٍ» (مرقس ١٤: ٤٣، ٤٤)

فَخَرَجَ يَسُوعُ وَهُوَ عَالِمٌ بِكُلِّ مَا يَأْتِي عَلَيْهِ، وَقَالَ لَهُمْ: «مَنْ تَطْلُبُونَ؟» أَجَابُوهُ: «يَسُوعَ النَّاصِرِيَّ» (يوحنَّا ١٨: ٤، ٥)

الرب يسوع تكلَّم

قَالَ لَهُمْ: «**أَنَا هُوَ**». وَكَانَ يَهُوذَا مُسَلِّمُهُ أَيْضًا وَاقِفًا مَعَهُمْ (يوحنَّا ١٨: ٥)

أجاب يسوع عن سؤالهم بـ «أنا» توكيديَّة! وقد رأينا سابقاً أنَّ عبارة «أنا هو» هي نفس كلمة «أَهْيَه» التي أطلقها الله على نفسه حينما تكلَّم مع النبي موسى، والتي تعني «الكائن الموجود بقُدرته الذاتيَّة». ولم يكن الشخص الذي نطق بها شخصاً عادياً، بل كان الله نفسه. لهذا، ليس من العجيب أن نقرأ عن التأثير الذي تركته تلك العبارة على السَّامعين:

فَلَمَّا قَالَ لَهُمْ: «إِنِّي **أَنَا هُوَ**»، رَجَعُوا إِلَى الْوَرَاءِ وَسَقَطُوا عَلَى الأَرْضِ (يوحنَّا ١٨: ٦)

لم يكُن سقوط هؤلاء سهلاً؛ بل في حقيقة الأمر أنهم رجعوا إلى الوراء وسقطوا على الأرض بقوَّة. فقد كانت نَفخة صغيرة من جلاله تكفي لزلزلة أقدامهم وطرحهم أرضاً! وبعد أن نهض هؤلاء الأشخاص المُندهشين ونفضوا الغُبار عن أنفسهم:

فَسَأَلَهُمْ أَيْضًا: «مَنْ تَطْلُبُونَ؟» فَقَالُوا: «يَسُوعَ النَّاصِرِيَّ» (يوحنَّا ١٨: ٧)

يُمكنك هنا أن تلمس خوف هؤلاء واحترامهم للرب يسوع. فقد أثار الرب يسوع مشاعر القلق والاضطراب في نفوسهم. وفي الحقيقة أنَّ ذلك لم يكُن إلقاء قبضٍ عاديٍّ على الإطلاق. بعد ذلك، انهار جدار الثقة بين هؤلاء أكثر فأكثر حينما كشف الرب يسوع أنه يعرف علامة الخيانة المُتَّفق عليها بينهم:

فَقَالَ لَهُ يَسُوعُ: «يَا يَهُوذَا، أَبِقُبْلَةٍ تُسَلِّمُ ابْنَ الإِنْسَانِ؟» (لوقا ٢٢: ٤٨)

فَجَاءَ لِلْوَقْتِ وَتَقَدَّمَ إِلَيْهِ قَائِلاً: «يَا سَيِّدِي، يَاسَيِّدِي!» وَقَبَّلَهُ (مرقس ١٤: ٤٥)

بدأ التلاميذ الأحد عشر الآخرين يستعدُّون، وكان سمعان بُطرس يحمل سلاحاً.

وَإِذَا وَاحِدٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَ يَسُوعَ مَدَّ يَدَهُ وَاسْتَلَّ سَيْفَهُ وَضَرَبَ عَبْدَ رَئِيسِ الْكَهَنَةِ، فَقَطَعَ أُذْنَهُ (مَتَّى ٢٦: ٥١)

فأجابَ يَسوعُ: «كفى. لا تزيدوا!» ولَمَسَ أُذُنَ الرَّجُلِ فشَفاها

(لوقا ٢٢: ٥١ – المشتركة)

ما الذي يُمكننا قوله هنا؟ فحتَّى في وسط كل هذا التوتُّر كان الرب يسوع يُفكِّر في الآخرين وشفى عَبد رئيس الكهنة! كانت المحاولة التي قام بها بطرس عديمة الجدوى ولم تؤدِّ إلى أي نتيجة؛ إنه حماس بلا معرفة! فعلى الصعيد البشري، كان عدد الجنود أكبر بكثير من عدد التلاميذ. ولا يُمكننا هُنا إلاَّ أن نُقدِّر الجهد الذي قام به بطرس؛ فقد حاول على الأقل! لكن من الواضح تماماً أنَّ مهارته في صيد السمك كانت تفوق مهارته في القتال. فحينما تُصَوِّب سيفك نحو رأس أحدهم فتقطع أذنه فقط فهذا يدل على ضعف مهاراتك القتاليَّة.

أسئلة، أسئلة

بعد ذلك، قال يسوع:

كَأَنَّهُ عَلَى لِصٍّ خَرَجْتُمْ بِسُيُوفٍ وَعِصِيٍّ لِتَأْخُذُونِي! كُلَّ يَوْمٍ كُنْتُ أَجْلِسُ مَعَكُمْ أُعَلِّمُ فِي الْهَيْكَلِ وَلَمْ تُمْسِكُونِي. **وَأَمَّا هذَا كُلُّهُ فَقَدْ كَانَ لِكَيْ تُكَمَّلَ كُتُبُ الأَنْبِيَاءِ** (مَتَّى ٢٦: ٥٥، ٥٦)

تكشف أسئلة الله وعباراته دوماً عن أفكار الشخص الحقيقيَّة. ولو فَكَّر هؤلاء الأشخاص للحظة واحدة فقط لأدركوا أنَّ ما يقومون به هو الخطأ بعينه. لكنهم كانوا عاقدي العزم على التخلُّص من يسوع لدرجة أنَّ مواجهةً أخرى مع قوَّته العجيبة لم تردعهم. كذلك، فحتَّى كلمات يسوع عنهم بأنهم إنَّما يُتمِّمون النبوءات القديمة لم تكُن كافية لردعهم عن تتميم مقاصدهم الإجراميَّة.

وعلى أيِّ حال، رأى التلاميذ أنَّ الوضع قد تأزَّم بالفعل فهربوا تحت جُنح الظلام خوفاً على حياتهم:

فَتَرَكَهُ الْجَمِيعُ وَهَرَبُوا. ثُمَّ إِنَّ الْجُنْدَ وَالْقَائِدَ وَخُدَّامَ الْيَهُودِ قَبَضُوا عَلَى يَسُوعَ وَأَوْثَقُوهُ (مرقس ١٤: ٥٠؛ يوحنَّا ١٨: ١٢)

لا يُمكن للمرء أن يقرأ هذه الآيات دون أن يتعجَّب! فقد كان يسوع شخصاً واحداً فقط. أمَّا الفرقة التي جاءت لإلقاء القبض عليه فكان عدد أفرادها يتراوح بين ٣٠٠ و٦٠٠ جندي! علاوة على ذلك، كان هناك عدد كبير من المسئولين اليهود، والكهنة، والخدام. وهكذا، فقد كانوا مُصمِّمين جداً على قتله؛ لكن لا يسع المرء هنا إلاَّ أن يتساءل عَمَّا إذا كان هؤلاء الأشخاص يشعرون بالضعف والهزيمة في قلوبهم!

في المحكمة

فَمَضَوْا بِيَسُوعَ إِلَى رَئِيسِ الْكَهَنَةِ، فَاجْتَمَعَ مَعَهُ جَمِيعُ رُؤَسَاءِ الْكَهَنَةِ وَالشُّيُوخُ وَالْكَتَبَةُ (مرقس ١٤: ٥٣)

لم تكُن جلسات المحكمة في الهيكل تُعقد في الليل. لكن حيث أنَّ أعضاء مجلس اليهود الأعلى (السنهدريم) البالغ عددهم ٧١ عضواً تمكَّنوا من الاجتماع بهذه السرعة، فهذا دليل قوي

على المؤامرة التي حاكوها ضد يسوع. فاستعدادهم للاجتماع ليلاً لم يكن أمراً مشروعاً حتَّى في أعرافهم وقوانينهم وشرائعهم. ونقول للأشخاص الذين لا يعرفون شيئاً عن النظام القضائي في تلك الأيَّام إنَّ المخالفات والانتهاكات التي وقعت أثناء مُحاكمة يسوع كانت صارخة وواضحة بصورة مؤلمة. لكنَّ هذا لم يكُن يهمُّهم لأنهم إنَّما أرادوا أن يتخلَّصوا من يسوع بأي ثمن.

وَكَانَ رُؤَسَاءُ الْكَهَنَةِ وَالْمَجْمَعُ كُلُّهُ يَطْلُبُونَ شَهَادَةً عَلَى يَسُوعَ لِيَقْتُلُوهُ، فَلَمْ يَجِدُوا. لأَنَّ كَثِيرِينَ شَهِدُوا عَلَيْهِ زُورًا، وَلَمْ تَتَّفِقْ شَهَادَاتُهُمْ
فَقَامَ رَئِيسُ الْكَهَنَةِ فِي الْوَسْطِ وَسَأَلَ يَسُوعَ قَائِلاً: «أَمَا تُجِيبُ بِشَيْءٍ؟ مَاذَا يَشْهَدُ بِهِ هؤُلاَءِ عَلَيْكَ؟» أَمَّا هُوَ فَكَانَ سَاكِتًا وَلَمْ يُجِبْ بِشَيْءٍ. فَسَأَلَهُ رَئِيسُ الْكَهَنَةِ أَيْضًا وَقَالَ لَهُ: «أَأَنْتَ الْمَسِيحُ ابْنُ الْمُبَارَكِ؟»

(مرقس ١٤: ٥٥-٥٦؛ ٦٠-٦١)

كان السؤال واضحاً تماماً: «هل أنت المسيَّا الموعود به من السَّماء أم لا؟»

فَقَالَ يَسُوعُ: «أَنَا هُوَ. وَسَوْفَ تُبْصِرُونَ ابْنَ الإِنْسَانِ جَالِسًا عَنْ يَمِينِ الْقُوَّةِ، وَآتِيًا فِي سَحَابِ السَّمَاءِ». فَمَزَّقَ رَئِيسُ الْكَهَنَةِ ثِيَابَهُ وَقَالَ: «مَا حَاجَتُنَا بَعْدُ إِلَى شُهُودٍ؟ قَدْ سَمِعْتُمُ التَّجَادِيفَ! مَا رَأْيُكُمْ؟» فَالْجَمِيعُ حَكَمُوا عَلَيْهِ أَنَّهُ مُسْتَوْجِبُ الْمَوْتِ (مرقس ١٤: ٦٢-٦٤)

كان رئيس الكهنة «قيافا» يعرف تماماً معنى الكلام الذي قاله يسوع. فقد كان يسوع يقول إنه مُعادل للّه العليّ! وحينما يقول شخص عادي عن نفسه إنه ابن اللّه السرمدي فهذا يُعَدُّ تجديفاً. لكنَّ يسوع لم يكن شخصاً عادياً؛ بل كان كلمة اللّه الأزلي، والمُخلِّص الموعود الذي كتب عنه جميع الأنبياء! على الرغم من ذلك لم يؤمن به قيافا ولا زعماء الدين اليهود. وهكذا، فقد حكموا عليه بالموت؛ لكن كانت هناك مُشكلة واحدة فقط ألا وهي أنَّ مجلس اليهود الأعلى (السنهدريم) لم يكُن مُخوَّلاً بإصدار أحكام الإعدام؛ فقد كانت هذه السُّلطة بيد الرومان فقط.

٢ . موضع الجُمجُمة (الجُلجُثة)

حيث أنَّ المحاكم الليليَّة لم تكُن قانونيَّة، فقد اجتمع السنهدريم مرَّة أخرى بعد شروق الشمس مُباشرةً لتنفيذ الإجراءات القانونيَّة اللازمة لمُحاكمة يسوع. ولا بُدَّ أنَّ يسوع كان مُنهكاً آنذاك لأنه لم يَنَم طوال الليل. على الرغم من ذلك فقد جلدوه وضربوه لكي يُثبتوا له سيطرتهم على الوضع.

فَقَامَ كُلُّ جُمْهُورِهِمْ وَجَاءُوا بِهِ إِلَى بِيلاَطُسَ (لوقا ٢٣: ١)

بيلاطس البُنطيّ

كان بيلاطُس البُنطيّ يحكم منطقة اليهوديَّة بدعم من روما. وحيث أنَّ المحاكم اليهوديَّة لم تكُن مُخوَّلة بإصدار عقوبات الإعدام، فقد كان اليهود بحاجة لموافقة روما على إعدام يسوع. وكان بيلاطُس هو الشخص المطلوب لأنَّ رؤساء الهيكل عرفوا أنه ضعيف الشخصيَّة ويمكن إقناعه بسهولة.

وَابْتَدَأُوا يَشْتَكُونَ عَلَيْهِ قَائِلِينَ: «إِنَّنَا وَجَدْنَا هذَا يُفْسِدُ الأُمَّةَ، وَيَمْنَعُ أَنْ تُعْطَى جِزْيَةٌ لِقَيْصَرَ، قَائِلاً: إِنَّهُ هُوَ مَسِيحٌ مَلِكٌ» (لوقا ٢٣: ٢)

في حقيقة الأمر أنَّ يسوع لم يمنع أتباعه مُطلقاً من دفع الضرائب؛ بل إنه قال لهم العكس تماماً. لهذا، فقد كان كذبهم ذاك مقصوداً. لكن لم يَعُد ذلك بالأمر المهم لا سيَّما أنهم تجاهلوا العديد من الإجراءات القانونيَّة. من ناحية أخرى، كان قولهم صحيحاً بأنَّ يسوع قال عن نفسه بأنه المسيح!

فَسَأَلَهُ بِيلاَطُسُ قَائِلاً: «أَنْتَ مَلِكُ الْيَهُودِ؟» (لوقا ٢٣: ٣)
أَجَابَ يَسُوعُ: «مَمْلَكَتِي لَيْسَتْ مِنْ هذَا الْعَالَمِ. لَوْ كَانَتْ مَمْلَكَتِي مِنْ هذَا الْعَالَمِ، لَكَانَ خُدَّامِي يُجَاهِدُونَ لِكَيْ لاَ أُسَلَّمَ إِلَى الْيَهُودِ. وَلكِنِ الآنَ لَيْسَتْ مَمْلَكَتِي مِنْ هُنَا» (يوحنَّا ١٨: ٣٦)

بدأ مُلْك يسوع في قلوب البشر دون أن تكون لديه أي طموحات سياسيَّة.

فَقَالَ لَهُ بِيلاَطُسُ: «أَفَأَنْتَ إِذًا مَلِكٌ؟»
أَجَابَ يَسُوعُ: «أَنْتَ تَقُولُ: إِنِّي مَلِكٌ. لِهذَا قَدْ وُلِدْتُ أَنَا، وَلِهذَا قَدْ أَتَيْتُ إِلَى الْعَالَمِ لأَشْهَدَ لِلْحَقِّ. كُلُّ مَنْ هُوَ مِنَ الْحَقِّ يَسْمَعُ صَوْتِي».
قَالَ لَهُ بِيلاَطُسُ: «مَا هُوَ الْحَقُّ؟» (يوحنَّا ١٨: ٣٧، ٣٨)

ما زال الناس يطرحون السؤال نفسه لغاية يومنا هذا. لكنَّ بيلاطُس لم يكُن راغباً في سماع الإجابة؛ بل إنه لم ينتظر سماع الجواب.

وَلَمَّا قَالَ هذَا خَرَجَ أَيْضًا إِلَى الْيَهُودِ وَقَالَ لَهُمْ: «أَنَا لَسْتُ أَجِدُ فِيهِ عِلَّةً وَاحِدَةً» (يوحنَّا ١٨: ٣٨)

لم يكُن بيلاطُس يثق بالكهنة. وحيث أنه كان حاكماً رومانيَّاً، فقد كان يعرف أنَّ اليهود يكرهونه. كذلك، كان لديه سبب جيد يدعوه للاعتقاد بأنَّ هؤلاء الكهنة لم يكونوا يهتمُّون بمصلحة قيصر على الإطلاق. وهكذا، عرف بيلاطُس أنَّه توجد لدى أعضاء السنهدريم أسباب ودوافع أخرى تجعلهم راغبين في التخلُّص من يسوع.

فَقَالَ بِيلاَطُسُ لِرُؤَسَاءِ الْكَهَنَةِ وَالْجُمُوعِ: «إِنِّي لاَ أَجِدُ عِلَّةً فِي هذَا الإِنْسَانِ». فَكَانُوا يُشَدِّدُونَ قَائِلِينَ: «إِنَّهُ يُهَيِّجُ الشَّعْبَ وَهُوَ يُعَلِّمُ فِي كُلِّ الْيَهُودِيَّةِ مُبْتَدِئًا مِنَ الْجَلِيلِ إِلَى هُنَا». فَلَمَّا سَمِعَ بِيلاَطُسُ ذِكْرَ الْجَلِيلِ، سَأَلَ: «هَلِ الرَّجُلُ جَلِيلِيٌّ؟» وَحِينَ عَلِمَ أَنَّهُ مِنْ سُلْطَنَةِ هِيرُودُسَ، أَرْسَلَهُ إِلَى هِيرُودُسَ، إِذْ كَانَ هُوَ أَيْضًا تِلْكَ الأَيَّامَ فِي أُورُشَلِيمَ (لوقا ٢٣: ٤-٧)

كان منصب بيلاطُس يُخوِّله للاستماع إلى قضيَّة يسوع؛ لكنَّ الوضع كان قد بدأ يسوء أكثر فأكثر. فقد كان يسوع مُتَّهماً بتحريض الناس على الثورة. وبالتالي، إذا قام يسوع بثورة حقيقيَّة فسوف يواجه بيلاطُس موقفاً مُحرجاً للغاية مع رؤسائه في روما. لذلك، فَكَّر بيلاطُس أنَّ أنسب وأسلم شيء بالنسبة له هو أن يُحيل القضيَّة برُمَّتها إلى هيرودس. وهكذا، حيث أنَّ هيرودس لم يكُن صديقاً لبيلاطُس، فقد تخلَّص بيلاطُس من المسئوليَّة وألقاها على هيرودس.

هيرودس أنتيباس

كان هيرودس أنتيباس هو ابن هيرودس الكبير. وحيث أنه كان دُمية في يد روما، فقد كانت صلاحيَّاته تمتد إلى الجليل موطن يسوع. وكان بيلاطس قد جاء إلى أورشليم لحضور احتفالات عيد الفصح.

وَأَمَّا هِيرُودُسُ فَلَمَّا رَأَى يَسُوعَ فَرِحَ جِدًّا، لأَنَّهُ كَانَ يُرِيدُ مِنْ زَمَانٍ طَوِيلٍ أَنْ يَرَاهُ، لِسَمَاعِهِ عَنْهُ أَشْيَاءَ كَثِيرَةً، وَتَرَجَّى أَنْ يَرَى آيَةً تُصْنَعُ مِنْهُ. وَسَأَلَهُ بِكَلاَمٍ كَثِيرٍ فَلَمْ يُجِبْهُ بِشَيْءٍ (لوقا ٢٣: ٨، ٩)

صامت

عرف يسوع أنَّ هيرودس لم يكن يسعى لمعرفة الحقيقة؛ بل كان كُلُّ هَمِّه يتمركز حول التسلِّي بمُعجزة ما. لهذا، لم ينزل يسوع إلى مستوى هيرودس، بل لزم الصَّمت.

وَوَقَفَ رُؤَسَاءُ الْكَهَنَةِ وَالْكَتَبَةُ يَشْتَكُونَ عَلَيْهِ بِاشْتِدَادٍ، فَاحْتَقَرَهُ هِيرُودُسُ مَعَ عَسْكَرِهِ وَاسْتَهْزَأَ بِهِ، وَأَلْبَسَهُ لِبَاسًا لاَمِعًا، وَرَدَّهُ إِلَى بِيلاَطُسَ. فَصَارَ بِيلاَطُسُ وَهِيرُودُسُ صَدِيقَيْنِ مَعَ بَعْضِهِمَا فِي ذلِكَ الْيَوْمِ، لأَنَّهُمَا كَانَا مِنْ قَبْلُ فِي عَدَاوَةٍ بَيْنَهُمَا. (لوقا ٢٣: ١٠-١٢)

اصْلُبْهُ!

خضع يسوع منذ إلقاء القبض عليه لخمس مُحاكمات: ثلاث منها أمام اليهود، واثنتان أمام الرومان. وسوف تكون هذه المُحاكمة السادسة هي الأخيرة. في ذلك الوقت، انتشر خبر

إلقاء القبض على يسوع في جميع أنحاء المدينة. ولم يَعُدْ رئيس الكهنة وأعضاء السنهدريم هم الوحيدون الذين يوجِّهون اتهاماتهم ليسوع، بل انضمَّ إليهم جمهور مُتقلِّب كان قبل بضعة أيام يصرخ بأعلى صوته: «أوصَنَّا في الأعالي»! أمَّا الآن فهُم يصرخون بحماس أمام بيلاطُس: «اصْلُبه»! وقع بيلاطُس في حيرة؛ فكلَّما تعامل مع يسوع، زدات قناعته بوجود شيءٍ غير عادي في هذا الرجُل!

فَدَعَا بِيلاَطُسُ رُؤَسَاءَ الْكَهَنَةِ وَالْعُظَمَاءَ وَالشَّعْبَ، وَقَالَ لَهُمْ: «قَدْ قَدَّمْتُمْ إِلَيَّ هذَا الإِنْسَانَ كَمَنْ يُفْسِدُ الشَّعْبَ. وَهَا أَنَا قَدْ فَحَصْتُ قُدَّامَكُمْ وَلَمْ أَجِدْ فِي هذَا الإِنْسَانِ عِلَّةً مِمَّا تَشْتَكُونَ بِهِ عَلَيْهِ. وَلاَ هِيرُودُسُ أَيْضًا، لأَنِّي أَرْسَلْتُكُمْ إِلَيْهِ. وَهَا لاَ شَيْءَ يَسْتَحِقُّ الْمَوْتَ صُنِعَ مِنْهُ. **فَأَنَا أُؤَدِّبُهُ وَأُطْلِقُهُ**»

(لوقا ٢٣: ١٣-١٦)

لم يتمكَّن هيرودس أو بيلاطس من إثبات أي تُهمة على يسوع تستوجب الإعدام. بل في حقيقة الأمر أنهما لم يجدا أحداً يتَّهمه بأي جريمة فعليَّة. لذلك، عرض بيلاطُس حَلاً وسطاً يشتمل على خطوتين:

١) أن يَجلد يسوع:

لم يكُن الجَلْد الذي تعرَّض له يسوع عادياً. فقد كان السُّوط يتألف من عصا ينتهي أحد طرفيها بسيور جلديَّة وُضِعَت في أطرافها قطع من العظام أو المعدن على شكل فراشة. كان يتم ربط ذراعيّ المحكوم فوق رأسه إلى عمود بعد تعرية ظهره. وكُلَّما هوى السُّوط على ظهره، كانت قطع العظم أو المعدن تنغرز عميقاً في اللحم. وحينما كان الجَلاَّد يسحب السُّوط، كان ينزع معه لحم الظهر. كان هذا النوع من الجَلد قاسياً جداً لدرجة أنَّ غالبيَّة المحكوم عليهم كانوا يموتون بسببه.

وفقاً للقانون، لم يكُن الجَلد يُمارس إلاَّ على السجين الذي ثبتت إدانته. لكنَّ بيلاطس قال قبل قليل إنَّه يرى بأنَّ يسوع بريء! وهكذا، حيث أنَّ الجَلد الروماني كان قاسياً جداً فربما ظَنَّ بيلاطس أنَّ جَلد يسوع سيُخفِّف من غضب خصومه ممَّا يجعلهم يَقبلون عَرضه التالي.

٢- أن يُطلق سَراح يسوع:

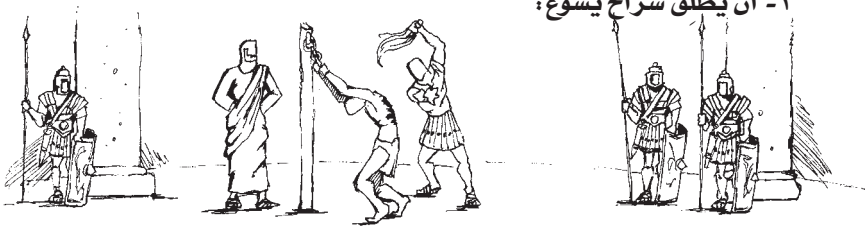

كانت هناك عادة رومانيَّة قديمة تقضي بإطلاق سَراح مُجرم مُدان واحد في عيد الفصح تعبيراً عن حُسن نوايا الرومان! وقد اقترح بيلاطُس أن يتم إطلاق سَراح يسوع بعد أن يتم جَلدُه. لكنَّ الجماهير صَوَّتوا بالإجماع:

وَلَكِنَّهُمْ صَرَخُوا بِجُمْلَتِهِمْ: «اقْتُلْ هذَا» ... فَخَاطَبَهُمْ بِيلاَطُسُ ثَانِيَةً وَهُوَ رَاغِبٌ فِي إِطْلاَقِ يَسُوعَ. فَرَدُّوا صَارِخِينَ: «اصْلِبْهُ! اصْلِبْهُ!»

فَسَأَلَهُمْ ثَالِثَةً: «فَأَيَّ شَرٍّ فَعَلَ هذَا؟ لَمْ أَجِدْ فِيهِ ذَنْباً عُقُوبَتُهُ الْمَوْتُ. فَسَأَجْلِدُهُ إِذَنْ وَأُطْلِقُهُ!»

(لوقا ٢٣: ١٨، ٢٠-٢٢ – المشتركة)

فَحِينَئِذٍ أَخَذَ بِيلاَطُسُ يَسُوعَ وَجَلَدَهُ (يوحنَّا ١٩: ١)

قبل ٧٠٠ سنة من ذلك الوقت، كتب النبي إشعياء عن مُعاناة المسيح فقال:

بَذَلْتُ ظَهْرِي لِلضَّارِبِينَ، وَخَدَّيَّ لِلنَّاتِفِينَ. وَجْهِي لَمْ أَسْتُرْ عَنِ الْعَارِ وَالْبَصْقِ (إشعياء ٥٠: ٦)

لم يَكْتَف الجنود بضرب يسوع ضرباً مُبرحاً، فقرَّروا أن يُضيفوا إليه بعض السُّخرية.

وَضَفَرَ الْعَسْكَرُ إِكْلِيلاً مِنْ شَوْكٍ وَوَضَعُوهُ عَلَى رَأْسِهِ، وَأَلْبَسُوهُ ثَوْبَ أُرْجُوَانٍ، وَكَانُوا يَقُولُونَ: «السَّلاَمُ يَا مَلِكَ الْيَهُودِ!». وَكَانُوا يَلْطِمُونَهُ

(يوحنَّا ١٩: ٢، ٣)

وَكَانُوا يَضْرِبُونَهُ عَلَى رَأْسِهِ بِقَصَبَةٍ، وَيَبْصُقُونَ عَلَيْهِ ... (مرقس ١٥: ١٩)

لم يكُن الإذلال جُزءاً من حُكم بيلاطُس. كان الملوك هُم الذين يرتدون الثوب الأرجواني عادةً. وكان إكليل الشوك مُحاكاة ساخرة للتاج الإمبراطوري. وهكذا، فقد كانت هذه سُخرية في أبشع صورها وأشكالها. ومَرَّة أخرى، كان النبي إشعياء قد كتب قبل ٧٠٠ سنة:

مُحْتَقَرٌ وَمَخْذُولٌ مِنَ النَّاسِ، رَجُلُ أَوْجَاعٍ وَمُخْتَبِرُ الْحَزَنِ، وَكَمُسَتَّرٍ عَنْهُ وُجُوهُنَا، مُحْتَقَرٌ فَلَمْ نَعْتَدَّ بِهِ (إشعياء ٥٣: ٣)

فَخَرَجَ بِيلاَطُسُ أَيْضًا خَارِجًا وَقَالَ لَهُمْ: «هَا أَنَا أُخْرِجُهُ إِلَيْكُمْ لِتَعْلَمُوا أَنِّي لَسْتُ أَجِدُ فِيهِ عِلَّةً وَاحِدَةً». فَخَرَجَ يَسُوعُ خَارِجًا وَهُوَ حَامِلٌ إِكْلِيلَ الشَّوْكِ وَثَوْبَ الأُرْجُوانِ. فَقَالَ لَهُمْ بِيلاَطُسُ: «هُوَذَا الإِنْسَانُ!» (يوحنَّا ١٩: ٤، ٥)

لا بُدَّ أنَّ بيلاطُس شعر في أعماق قلبه أنه تغاضى عن العدالة. ولعلَّه كان يأمل أن يؤدي منظر هذا الرجل المُمزَّق، والمُتوَّج بالشوك، والنازف إلى إثارة شفقة الناس.

فَلَمَّا رَآهُ رُؤَسَاءُ الْكَهَنَةِ وَالْخُدَّامُ صَرَخُوا قَائِلِينَ: «اصْلِبْهُ! اصْلِبْهُ!» قَالَ لَهُمْ بِيلاَطُسُ: «خُذُوهُ أَنْتُمْ وَاصْلِبُوهُ، لأَنِّي لَسْتُ أَجِدُ فِيهِ عِلَّةً» (يوحنَّا ١٩: ٦)

كان بيلاطُس يعرف تماماً أنهم لا يستطيعون ذلك لأنَّ المحاكم اليهوديَّة لم تكُن تمتلك صلاحية فَرض عقوبة الإعدام.

ابن الله

أَجَابَهُ الْيَهُودُ: «لَنَا نَامُوسٌ، وَحَسَبَ نَامُوسِنَا يَجِبُ أَنْ يَمُوتَ، لأَنَّهُ جَعَلَ نَفْسَهُ ابْنَ اللهِ». فَلَمَّا سَمِعَ بِيلاَطُسُ هذَا الْقَوْلَ ازْدَادَ خَوْفًا. فَدَخَلَ أَيْضًا إِلَى دَارِ الْوِلاَيَةِ وَقَالَ لِيَسُوعَ: «مِنْ أَيْنَ أَنْتَ؟» (يوحنَّا ١٩: ٧-٩)

سمع بيلاطُس من قَبل أنَّ يسوع من الجليل؛ وكان هذا هو السبب الذي دفعه لإرساله إلى هيرودس. وها هو الآن يسأل يسوع ثانيةً: «من أين أنت؟» وهكذا، من المؤكَّد أنه أحَسَّ ببعض القلق بشأن هذا الشخص الذي يقول إنه ابن الله النازل من السماء! فقد كان اليونانيُّون القدماء يؤمنون أنَّ الآلهة نزلت من جبل أولمبس لكي تتآخى مع البشر. وربما تساءل بيلاطُس ما إذا كان ذلك ينطبق على يسوع. فمن المؤكَّد أن هذا لم يكُن مُجرماً عادياً. فالطريقة التي تصرَّف بها

أثناء مُحاكمته أظهرتا سلاماً وثقةً يبعثان على القلق. لهذا، فقد سأله ثانيةً: «من أين أنت؟»

وَأَمَّا يَسُوعُ فَلَمْ يُعْطِهِ جَوَابًا. فَقَالَ لَهُ بِيلاَطُسُ: «أَمَا تُكَلِّمُنِي؟ أَلَسْتَ تَعْلَمُ أَنَّ لِي سُلْطَانًا أَنْ أَصْلِبَكَ وَسُلْطَانًا أَنْ أُطْلِقَكَ؟»
أَجَابَ يَسُوعُ: «لَمْ يَكُنْ لَكَ عَلَيَّ سُلْطَانٌ الْبَتَّةَ، لَوْ لَمْ تَكُنْ قَدْ أُعْطِيتَ مِنْ فَوْقُ...»
مِنْ هذَا الْوَقْتِ كَانَ بِيلاَطُسُ يَطْلُبُ أَنْ يُطْلِقَهُ، وَلكِنَّ الْيَهُودَ كَانُوا يَصْرُخُونَ قَائِلِينَ: «إِنْ أَطْلَقْتَ هذَا فَلَسْتَ مُحِبًّا لِقَيْصَرَ. كُلُّ مَنْ يَجْعَلُ نَفْسَهُ مَلِكًا يُقَاوِمُ قَيْصَرَ!»
فَلَمَّا سَمِعَ بِيلاَطُسُ هذَا الْقَوْلَ أَخْرَجَ يَسُوعَ، وَجَلَسَ عَلَى كُرْسِيِّ الْوِلاَيَةِ فِي مَوْضِعٍ يُقَالُ لَهُ «الْبَلاَطُ» وَبِالْعِبْرَانِيَّةِ «جَبَّاثَا». وَكَانَ اسْتِعْدَادُ الْفِصْحِ، ... (يوحنَّا ١٩: ٩-١٤)

كان يوم الاستعداد للفصح هو اليوم الذي تُذبح فيه حملان الفصح:

فَقَالَ بِيلاَطُس لِلْيَهُودِ: «هُوَذَا مَلِكُكُمْ!». فَصَرَخُوا: «خُذْهُ! خُذْهُ! اصْلِبْهُ!» قَالَ لَهُمْ بِيلاَطُسُ: «أَأَصْلِبُ مَلِكَكُمْ؟» أَجَابَ رُؤَسَاءُ الْكَهَنَةِ: «لَيْسَ لَنَا مَلِكٌ إِلاَّ قَيْصَرَ!» (يوحنَّا ١٩: ١٤، ١٥)

كان هذا هو رفض الشعب الأخير ليسوع كملك لهم. فقد اختاروا قيصر الملك الروماني على يسوع الذي جاء من السماء.

فَسَلَّمَهُ بِيلاَطُسُ إِلَيْهِمْ لِيُصْلَبَ. فَخَرَجَ وَهُوَ حَامِلٌ صَلِيبَهُ إِلَى الْمَكَانِ الْمَعْرُوفِ بِمَكَانِ الْجُمْجُمَةِ، وَبِالْعِبْرِيَّةِ: «جُلْجُثَةَ»[1]، وَهُنَاكَ صَلَبُوهُ وَصَلَبُوا مَعَهُ رَجُلَيْنِ، وَاحِداً مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، وَيَسُوعُ فِي الْوَسْطِ.

(يوحنَّا ١٩: ١٦-١٨ – التفسيرية)

الصَّلب

كان الصَّلب هو طريقة الإعدام الرومانيَّة المستُخدمة لإعدام العبيد وأخطر المُجرمين فقط. ويُدوِّن لنا التاريخ المدني بعض الحالات التي تمت فيها حالات صلب جماعيَّة لمئات الأشخاص. وتُبيِّن الدراسات والاكتشافات الأثريَّة أنَّ الصَّلب أخذ عِدَّة أشكال:

الشجرة المُنتصبة: كان يتم ربط المحكوم بحيث يكون ظهره مُلتصقاً بالشجرة وذلك وفقاً لوضعيَّة أغصان الشجرة. ويقول المؤرِّخ اليهودي «يوسيفوس» (الذي عاش في القرن الأوَّل للميلاد) إنَّ الجنود الرومان كانوا يُمتِّعون أنفسهم بصلب الأشخاص المُدانين في وضعيات غريبة.[2]

الصليب على شكل حرف (I): وهو عمود يُغرس في الأرض ويُربط الشخص المحكوم إليه بحيث تُسمَّر يداه (بالمسامير) أعلى رأسه.

الصليب على شكل حرف (X): يتم تثبيت جذعا شجرة بشكل مُتصالب ثُمَّ يُمدَّد الجسم فوقهما وتُثبَّت يداه ورجلاه في الزوايا الأربع.

الصليب على شكل حرف (T): كان هذا الصليب يتألَّف من جذع ينتصب بشكل عمودي وجذع آخر يوضع فوقه بشكل أفقي. وربما كان هذا هو الشكل الأكثر شيوعاً وانتشاراً بعد الشجرة. كانت اليدان تُثبَّتان بإحكام على طول الجذع الأفقي.

الصليب على شكل حرف (t): كان هذا الصليب يُخصَّص عادةً لأعتى المُجرمين. وكانت هناك لوحة يُكتب عليها جريمة الشخص المُدان وتُثبَّت في الجزء

الأعلى من الصليب. وربما كان هذا هو نوع الصليب الذي صُلب عليه يسوع.

كان يتم تمديد الشخص المُدان فوق الصليب عارياً، ثُمَّ يتم تثبيت يديه ورجليه بواسطة مسامير تخترق عظام الرسغ والكاحل.

قبل ألف سنة من صلب يسوع، أوحى الله إلى النبي داود أن يكتب مزموراً كاملاً عن الطريقة التي سيموت بها يسوع:

... لأَنَّهُ قَدْ أَحَاطَتْ بِي كِلاَبٌ. جَمَاعَةٌ مِنَ الأَشْرَارِ اكْتَنَفَتْنِي. ثَقَبُوا يَدَيَّ وَرِجْلَيَّ. أُحْصِي كُلَّ عِظَامِي، وَهُمْ يَنْظُرُونَ وَيَتَفَرَّسُونَ فِيَّ

(المزمور ٢٢: ١٦، ١٧)

كُتبت هذه الكلمات قبل حُكم الرومان للعالم بوقت طويل، وقبل نحو ٨٠٠ سنة من استخدامهم للصلب كطريقة رسمية للإعدام.

يُعتبر الصَّلب حتى يومنا هذا أكثر أشكال الإعدام وحشيَّةً. فقد كان الشخص المحكوم يموت موتاً بطيئاً، وكان ذلك يستغرق عدَّة أيام في بعض الأحيان. وفي نهاية الأمر، كان المرء يموت اختناقاً. فحينما يكون المرء مُعلَّقاً من ذراعيه المدودتين، يصبح الضغط على الحجاب الحاجز كبيراً فيُصبح التنفس مُستحيلاً. ولم يكُن بإمكان المصلوب أن يتنفَّس إلَّا برفع نفسه

إلى أعلى عن طريق سحب الذراعين ودفع القدمين من أجل إفساح المجال للحجاب الحاجز كي

يعمل. وما من شكٍّ أنَّ سحب الذراعين ودفع القدمين بهذه الطريقة كان مؤلماً جداً بسبب المسامير المغروسة في الرسغين والكاحلين. وأخيراً، كان المصلوب يموت حين يعجز عن رفع جسمه لأعلى بسبب الإنهاك والصدمة.

لم تكُن المسامير وصعوبة التنفُّس هما مصدرا الكرب الوحيدين للشخص المصلوب. فقد كان المصلوب يُعاني أيضاً من العطش والعري أمام الناس. فقد كان الناس يأتون للتحديق في المصلوبين. وفي حالة يسوع، جاءوا للسخرية منه أيضاً.

وَكَتَبَ بِيلاَطُسُ عُنْوَانًا وَوَضَعَهُ عَلَى الصَّلِيبِ. وَكَانَ مَكْتُوبًا: «يَسُوعُ النَّاصِرِيُّ مَلِكُ الْيَهُودِ». فَقَرَأَ هذَا الْعُنْوَانَ كَثِيرُونَ مِنَ الْيَهُودِ، لأَنَّ الْمَكَانَ الَّذِي صُلِبَ فِيهِ يَسُوعُ كَانَ قَرِيبًا مِنَ الْمَدِينَةِ. وَكَانَ مَكْتُوبًا بِالْعِبْرَانِيَّةِ وَالْيُونَانِيَّةِ وَاللاَّتِينِيَّةِ (يوحنَّا ١٩: ١٩، ٢٠)

ثُمَّ إِنَّ الْعَسْكَرَ لَمَّا كَانُوا قَدْ صَلَبُوا يَسُوعَ، أَخَذُوا ثِيَابَهُ وَجَعَلُوهَا أَرْبَعَةَ أَقْسَامٍ، لِكُلِّ عَسْكَرِيٍّ قِسْمًا. وَأَخَذُوا الْقَمِيصَ أَيْضًا. وَكَانَ الْقَمِيصُ بِغَيْرِ خِيَاطَةٍ، مَنْسُوجًا كُلُّهُ مِنْ فَوْقُ.

فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: «لاَ نَشُقُّهُ، بَلْ نَقْتَرِعُ عَلَيْهِ لِمَنْ يَكُونُ»

(يوحنَّا ١٩: ٢٣-٢٤)

كانت المُقامرة تسلية يمارسها الجنود لإلهاء أنفسهم عن مهنتهم القاسية المُلطَّخة بالدماء. وهكذا، فقد جلس الجنود أسفل صليب يسوع وألقوا حجر النرد دون أن يعرفوا أنهم كانوا يُتمِّمون نُبوءةً قديمة:

... لِيَتِمَّ الْكِتَابُ الْقَائِلُ: «اقْتَسَمُوا ثِيَابِي بَيْنَهُمْ، وَعَلَى لِبَاسِي أَلْقَوْا قُرْعَةً». هذَا فَعَلَهُ الْعَسْكَرُ

(يوحنَّا ١٩: ٢٤؛ قارن المزمور ٢٢: ١٨)

وَكَانَ الشَّعْبُ وَاقِفِينَ يَنْظُرُونَ، وَالرُّؤَسَاءُ أَيْضًا مَعَهُمْ يَسْخَرُونَ بِهِ قَائِلِينَ: «خَلَّصَ آخَرِينَ، فَلْيُخَلِّصْ نَفْسَهُ إِنْ كَانَ هُوَ الْمَسِيحَ مُخْتَارَ اللهِ!»

(لوقا ٢٣: ٣٥)

قبل عِدَّة قرون، قال الله من خلال نبيِّه داود إنَّ المُخلِّص الموعود سيكون موضع سُخرية من الناس:

أَمَّا أَنَا فَدُودَةٌ لاَ إِنْسَانٌ. عَارٌ فِي نَظَرِ الْبَشَرِ، وَمَنْبُوذٌ فِي عَيْنَيْ شَعْبِي. جَمِيعُ الَّذِينَ يَرَوْنَنِي يَسْتَهْزِئُونَ بِي، يَفْتَحُونَ شِفَاهَهُمْ عَلَيَّ بِالْبَاطِلِ، وَيَهُزُّونَ رُؤُوسَهُمْ (المزمور ٢٢: ٦، ٧ – التفسيرية)

وحتَّى أنَّ النبي داود تنبَّأ بكلمات السخرية التي ستُقال عن يسوع:

«اتَّكَلَ عَلَى الرَّبِّ فَلْيُنَجِّهِ، لِيُنْقِذْهُ لأَنَّهُ سُرَّ بِهِ» (المزمور ٢٢: ٨)

وَالْجُنْدُ أَيْضًا اسْتَهْزَأُوا بِهِ وَهُمْ يَأْتُونَ وَيُقَدِّمُونَ لَهُ خَلاًّ، قَائِلِينَ: «إِنْ كُنْتَ أَنْتَ مَلِكَ الْيَهُودِ فَخَلِّصْ نَفْسَكَ!».

وَكَانَ وَاحِدٌ مِنَ الْمُذْنَبِيْنِ الْمُعَلَّقِيْنِ يُجَدِّفُ عَلَيْهِ قَائِلاً: «إِنْ كُنْتَ أَنْتَ الْمَسِيحَ، فَخَلِّصْ نَفْسَكَ وَإِيَّانَا!»

فَأَجَابَ الآخَرُ وَانْتَهَرَهُ قَائِلاً: «أَوَلاَ أَنْتَ تَخَافُ اللهَ، إِذْ أَنْتَ تَحْتَ هذَا الْحُكْمِ بِعَيْنِهِ؟ أَمَّا نَحْنُ فَبِعَدْلٍ، لأَنَّنَا نَنَالُ اسْتِحْقَاقَ مَا فَعَلْنَا، وَأَمَّا هذَا فَلَمْ يَفْعَلْ شَيْئًا لَيْسَ فِي مَحَلِّهِ».

ثُمَّ قَالَ لِيَسُوعَ: اذْكُرْنِي يَارَبُّ مَتَى جِئْتَ فِي مَلَكُوتِكَ». فَقَالَ لَهُ يَسُوعُ: «الْحَقَّ أَقُولُ لَكَ: إِنَّكَ الْيَوْمَ تَكُونُ مَعِي فِي الْفِرْدَوْسِ»

(لوقا ٢٣: ٣٦، ٣٧، ٣٩-٤٣)

أكَّد يسوع لذلك اللِّص أنهما سيلتقيان في الفردوس حال موتهما. وقد أمكن ليسوع أن يقول هذا لأنه كان يعلم أنَّ ذلك الرجل آمن به وبأنه سيُخلِّصه من عقاب الخطيَّة – أي من العقاب الأبدي.

وَكَانَ نَحْوُ السَّاعَةِ السَّادِسَةِ، فَكَانَتْ ظُلْمَةٌ عَلَى الأَرْضِ كُلِّهَا إِلَى السَّاعَةِ التَّاسِعَةِ (لوقا ٢٣: ٤٤)
وَفِي السَّاعَةِ التَّاسِعَةِ صَرَخَ يَسُوعُ بِصَوْتٍ عَظِيمٍ قَائِلاً: «إِلُوِي، إِلُوِي، لِمَا شَبَقْتَنِي؟» الَّذِي تَفْسِيرُهُ:
«إِلهِي، إِلهِي، لِمَاذَا تَرَكْتَنِي؟» (مرقس ١٥: ٣٤)

ومَرَّة أخرى، كان الله قد تنبَّأ على فم نبيِّه داود قبل ألف سنة بأنَّ المسيَّا سيتفوَّه بنفس هذه الكلمات:

«إِلهِي، إِلهِي، لِمَاذَا تَرَكْتَنِي؟ ...» (المزمور ٢٢: ١)

لم يصرخ يسوع بصوتٍ عظيمٍ بلا سبب. وسوف نرى معنى هذه الصرخة العظيمة في الفصل اللاحق.

مهما تحدَّثنا عن أهميَّة تلك اللحظات الأخيرة التي قضاها يسوع على الصليب فلن نُعطيها حقَّها الكامل. يقول الكتاب المقدَّس:

وَنَادَى يَسُوعُ بِصَوْتٍ عَظِيمٍ وَقَالَ: ... «قَدْ أُكْمِلَ» ... يَا أَبَتَاهُ، فِي يَدَيْكَ أَسْتَوْدِعُ رُوحِي». وَلَمَّا قَالَ هذَا ... نَكَّسَ رَأْسَهُ وَأَسْلَمَ الرُّوحَ (لوقا ٢٣: ٤٦ ويوحنَّا ١٩: ٣٠)
وَانْشَقَّ حِجَابُ الْهَيْكَلِ إِلَى اثْنَيْنِ، مِنْ فَوْقُ إِلَى أَسْفَلُ (مرقس ١٥: ٣٨)

لقد مات يسوع. لكن هل انتصر الشيطان وأعوانه على الله؟ كانت هناك بعض الأسئلة التي تحتاج إلى إجابات! فلماذا انشقَّ حجاب الهيكل – من أعلى إلى أسفل؟ ولماذا صرخ يسوع بذلك الصوت العظيم: «قد أُكمِل»؟

الحجاب المشقوق

يجب علينا أن نتذكَّر أنَّ الهيكل كان نموذجاً دائماً لخيمة الاجتماع الأصليَّة. وكان ذلك

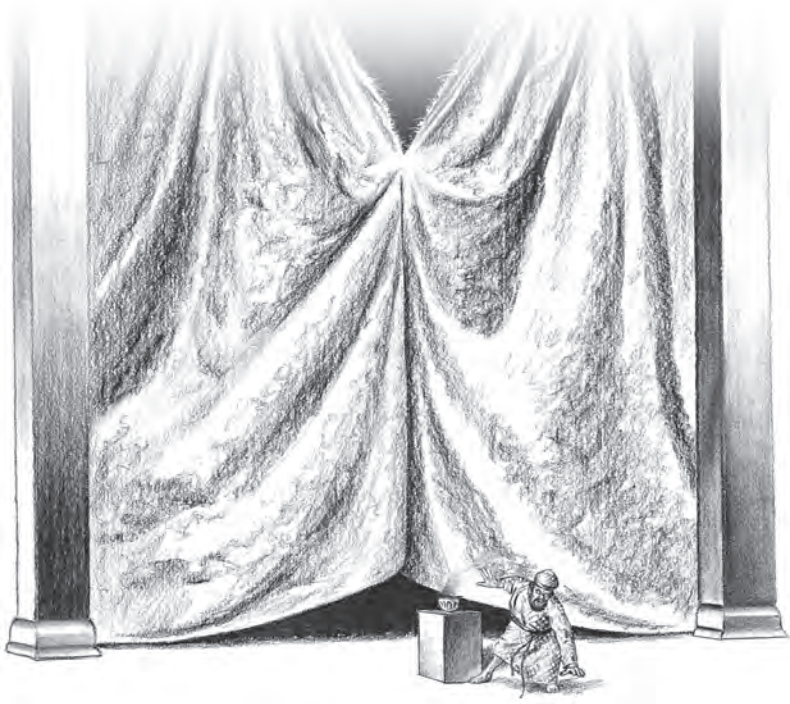

الحجاب يَفصل القُدس عن قُدس الأقداس داخل الهيكل. ولم يكُن شَقُّ الحجاب بالأمر الهيِّن وذلك للأسباب التالية:

أوَّلاً، يقول الكتاب المقدَّس إنَّ الحجاب كان يحجب قُدس الأقداس عن أعين الناس. وكان مصير أي شخصٍ ينظر إلى ما وراء ذلك الحجاب هو الموت. فقد قال الله لموسى قَبل عِدَة قرون:

«كَلِّمْ هَارُونَ أَخَاكَ أَنْ لاَ يَدْخُلَ كُلَّ وَقْتٍ إِلَى الْقُدْسِ دَاخِلَ الْحِجَابِ أَمَامَ الْغِطَاءِ الَّذِي عَلَى التَّابُوتِ لِئَلاَّ يَمُوتَ، لأَنِّي فِي السَّحَابِ أَتَرَاءَى عَلَى الْغِطَاءِ» (لاويِّين ١٦: ٢)

ثانياً: يُعتبر شَقُّ الحجاب عملاً هائلاً وضخماً بصرف النظر عن الطريقة التي حدث بها. فقد كان الحجاب يرتفع ١٨ متراً، وعرضه ٩ أمتار، وسُمكه نحو ١٠ سنتمترات.[٣]

ثالثاً، كان شَقُّ الحجاب من أعلى إلى أسفل يعني شيئاً واحداً ألا وهو أنَّ الله هو الذي مَزَّق الحجاب؛ وليس الإنسان.

وفق الحسابات اليهوديَّة، مات يسوع في الساعة التاسعة؛ أي في الساعة الثالثة بعد الظهر. ولا بُدَّ أنَّ الهيكل كان مليئاً بالكهنة الذين يقومون بواجباتهم المُقدَّسة. كان ذلك وقت ذبيحة المساء حيث يتم ذبح الحَمَل. كما أنه كان وقت عيد الفصح أيضاً. وهكذا، لم يكن بالإمكان إخفاء أمر انشقاق حجاب الهيكل أو تجاهُله لأنَّ الكثيرين كانوا حاضرين ورأوا ما حدث. وسوف نشرح في الصفحات اللاحقة أهميَّة هذا الحدث بأكمله.

صَرخة النَّصر!

إنَّ عبارة «قَدْ أُكْمِل» مُترجمة عن كلمة يونانيَّة واحدة ألا وهي «تيتيليستاي» (tetelestai) وهناك العديد من الاستخدامات لهذه الكلمة؛ لكنَّ الاستخدامات الثلاثة التالية هي التي تعنينا في هذه القصَّة:[٤]

١- كان العبد أو الخادم يستخدم هذه الكلمة لإبلاغ سيِّده بأنه قد أنهى المهمَّة الموكلة إليه: «لقد أنجزت العمل الذي كلَّفتني به».

٢- كانت هذه الكلمة شائعة الاستعمال في المُعاملات التجاريَّة اليونانيَّة أيضاً. فقد كانت تُشير إلى إتمام الصفقة بعد سداد الدَّين بالكامل. فحينما كان الشخص يُسدِّد جميع ديونه، كان يقول «تيتيليستاي»؛ أي أنَّ الدين قد سُدِّد. وقد تم العثور على إيصالات ضرائبيَّة قديمة مكتوب عليها «تيتيليستاي»؛ أي أنها قد دُفعت بالكامل.

٣- كان اختيار حَمَل لتقديمه ذبيحة في الهيكل هو حدث له أهميَّته الخاصَّة دائماً. فقد كان المرء يبحث في القطيع كُلِّه عن حمل بلا عيب. وحينما يعثُر على حَمَل مُناسب كان يقول «تيتيليستاي» بمعنى أنَّ المُهمَّة قد أُنجزت.

وهكذا، إن أخذنا صَرخة يسوع العظيمة بمعناها الحرفي فإنها تعني: «العمل الذي أوكلتني به قد أُكْمِل، والدَّين قد سُدِّد، وحَمَل الذبيحة قد وُجِد». لهذا تقول كلمة الله إنَّ يسوع صرخ بصوت عظيم: «قَدْ أُكْمِل».

فَلَمَّا رَأَى قَائِدُ الْمِئَةِ مَا كَانَ، مَجَّدَ اللهَ قَائِلاً: «بِالْحَقِيقَةِ كَانَ هذَا الإِنْسَانُ بَارًّا!» (لوقا ٢٣: ٤٧)

تجدُر المُلاحظة هنا إلى أنَّ قائد المئة الذي عَلَّق على صرخة يسوع على الفور هو ضابط مسئول عن ١٠٠ جندي. وبما أنه رجل عسكري فمن المؤكَّد أنه يعرف الفرق بين لهاث الهزيمة وصرخة النصر.

ثُمَّ إِذْ كَانَ اسْتِعْدَادٌ، فَلِكَيْ لاَ تَبْقَى الأَجْسَادُ عَلَى الصَّلِيبِ فِي السَّبْتِ، لأَنَّ يَوْمَ ذلِكَ السَّبْتِ كَانَ عَظِيمًا، سَأَلَ الْيَهُودُ بِيلاَطُسَ أَنْ تُكْسَرَ سِيقَانُهُمْ وَيُرْفَعُوا (يوحنَّا ١٩: ٣١)

كسر الساقين

كان الوقت آنذاك هو أسبوع الفصح، وكان ذلك اليوم هو يوم ذروة العيد حيث يتم ذبح الحمل. لهذا، أراد رؤساء الكهنة أن ينتهوا من عمليَّة الصلب تلك كي لا يتنجَّس العيد. لذلك، فقد طلبوا من الجنود أن يكسروا ساقيِّ يسوع. وكان كسر ساقيِّ الشخص المصلوب يعني أنه لن يتمكَّن من رفع جسده لأعلى كي يتنفس ممَّا يؤدي إلى اختناقه وموته بسرعة. وأحياناً، كانت الصدمة الناجمة عن كسر العظام هي التي تؤدي إلى الوفاة.

فَأَتَى الْعَسْكَرُ وَكَسَرُوا سَاقَيِ الأَوَّلِ وَالآخَرِ الْمَصْلُوبِ مَعَهُ. وَأَمَّا يَسُوعُ فَلَمَّا جَاءُوا إِلَيْهِ **لَمْ يَكْسِرُوا سَاقَيْهِ**، لأَنَّهُمْ رَأَوْهُ قَدْ مَاتَ. لكِنَّ وَاحِدًا مِنَ الْعَسْكَرِ طَعَنَ جَنْبَهُ بِحَرْبَةٍ، وَلِلْوَقْتِ خَرَجَ دَمٌ وَمَاءٌ (يوحنَّا ١٩: ٣٢-٣٤)

قام أحد الجنود الرومانيِّين المُدرَّبين على فَنِّ القتل بغرس حَرْبَة في قلب يسوع. وما من شكٍّ أنَّ هؤلاء الجنود كانوا ماهرين جداً في القتل. وهكذا، فقد عرف ذلك الجُندي كيف يَطعن طعنة قاتلة. ويقول الكتاب المقدَّس إنَّ دماً وماءً قد خرجا من جنب يسوع المطعون. ويقول الأطباء إنَّ خروج الماء والدم يُعتبر علامة أكيدة على الموت. وبالتالي، فقد مات يسوع بكل تأكيد.

وَالَّذِي رَأَى هَذَا هُوَ يَشْهَدُ، وَشَهَادَتُهُ حَقٌّ وَهُوَ يَعْلَمُ تَمَاماً أَنَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ، لِكَيْ تُؤْمِنُوا أَنْتُمْ أَيْضاً. **وَقَدْ حَدَثَ هَذَا لِيَتِمَّ مَا جَاءَ فِي الْكِتَابِ:** «لَنْ يُكْسَرَ مِنْهُ عَظْمٌ!» وَقَدْ جَاءَ أَيْضاً فِي مَوْضِعٍ آخَرَ مِنَ الْكِتَابِ: «سَيَنْظُرُونَ إِلَى ذَاكَ الَّذِي طَعَنُوهُ». (يوحنَّا ١٩: ٣٥-٣٧ – التفسيرية)

٣. القبر الفارغ

الجُمعة: بعد الظهر

ثُمَّ إِنَّ يُوسُفَ الَّذِي مِنَ الرَّامَةِ، وَهُوَ تِلْمِيذٌ يَسُوعَ، وَلكِنْ خُفْيَةً لِسَبَبِ الْخَوْفِ مِنَ الْيَهُودِ، سَأَلَ بِيلاَطُسَ أَنْ يَأْخُذَ جَسَدَ يَسُوعَ، فَأَذِنَ بِيلاَطُسُ. فَجَاءَ وَأَخَذَ جَسَدَ يَسُوعَ. وَجَاءَ أَيْضًا نِيقُودِيمُوسُ، الَّذِي أَتَى أَوَّلاً إِلَى يَسُوعَ لَيْلاً، وَهُوَ حَامِلٌ مَزِيجَ مُرٍّ وَعُودٍ نَحْوَ مِئَةِ مَنًّا. فَأَخَذَا جَسَدَ يَسُوعَ، وَلَفَّاهُ بِأَكْفَانٍ مَعَ الأَطْيَابِ، كَمَا لِلْيَهُودِ عَادَةٌ أَنْ يُكَفِّنُوا. وَكَانَ فِي الْمَوْضِعِ الَّذِي صُلِبَ فِيهِ بُسْتَانٌ، وَفِي الْبُسْتَانِ قَبْرٌ جَدِيدٌ لَمْ يُوضَعْ فِيهِ أَحَدٌ قَطُّ. فَهُنَاكَ وَضَعَا يَسُوعَ لِسَبَبِ اسْتِعْدَادِ الْيَهُودِ، لأَنَّ الْقَبْرَ كَانَ قَرِيبًا (يوحنَّا ١٩: ٣٨-٤٢)

وَتَبِعَتْهُ نِسَاءٌ كُنَّ قَدْ أَتَيْنَ مَعَهُ مِنَ الْجَلِيلِ، وَنَظَرْنَ الْقَبْرَ وَكَيْفَ وُضِعَ جَسَدُهُ. فَرَجَعْنَ وَأَعْدَدْنَ حَنُوطًا وَأَطْيَابًا. وَفِي السَّبْتِ اسْتَرَحْنَ حَسَبَ الْوَصِيَّةِ (لوقا ٢٣: ٥٥، ٥٦)

رغم أنَّ يوسف ونيقوديموس كانا عضوين في المجلس الأعلى لليهود (السنهدريم)، إلاَّ أنهما كانا من أتباع يسوع في الخفاء. وبحسب

العادات والتقاليد آنذاك، قام يوسف ونيقوديموس بلف جسد يسوع بقطعة طويلة من قماش الدفن الممزوج بنحو ٣٤ كغم من الحَنوط الطيِّب الرائحة ووضعاه في قَبر. بعد ذلك، تمَّ إغلاق مدخل القبر بحجر دائري كبير يزن حوالي ١٨٠٠ كغم. راقبت النساء ما حدث ثم رجعن إلى بيوتهن لإعداد المزيد من الحنوط والأطياب لاستكمال عمليَّة الدفن النهائيَّة. وكان الوقت آنذاك مساء يوم الجمعة.

السبت

وَفِي الْغَدِ الَّذِي بَعْدَ الاسْتِعْدَادِ اجْتَمَعَ رُؤَسَاءُ الْكَهَنَةِ وَالْفَرِّيسِيُّونَ إِلَى بِيلاَطُسَ قَائِلِينَ: «يَا سَيِّدُ، قَدْ تَذَكَّرْنَا أَنَّ ذلِكَ الْمُضِلَّ قَالَ وَهُوَ حَيٌّ: إِنِّي بَعْدَ ثَلاَثَةِ أَيَّامٍ أَقُومُ. فَمُرْ بِضَبْطِ الْقَبْرِ إِلَى الْيَوْمِ الثَّالِثِ، لِئَلاَّ يَأْتِيَ تَلاَمِيذُهُ لَيْلاً وَيَسْرِقُوهُ، وَيَقُولُوا لِلشَّعْبِ: إِنَّهُ قَامَ مِنَ الأَمْوَاتِ، فَتَكُونَ الضَّلاَلَةُ الأَخِيرَةُ أَشَرَّ مِنَ الأُولَى!» فَقَالَ لَهُمْ بِيلاَطُسُ: «عِنْدَكُمْ حُرَّاسٌ. اذْهَبُوا وَاضْبُطُوهُ كَمَا تَعْلَمُونَ». فَمَضَوْا وَضَبَطُوا الْقَبْرَ بِالْحُرَّاسِ وَخَتَمُوا الْحَجَرَ

(مَتَّى ٢٧: ٦٢-٦٦)

لم تكُن مجموعة الجنود التي أُرسلت لحراسة القبر تتألف من جنود أغرار أو غير مُدرَّبين؛ فقد كانت كل مجموعة من الحرس الروماني تتألَّف من ٤-١٦ جندي. وكان كل جندي من هؤلاء مُدرَّباً لحراسة ستَّة أقدام من الأرض. وكانوا قادرين معاً على الدفاع عن أنفسهم ضد كتيبة بأكملها.[٥]

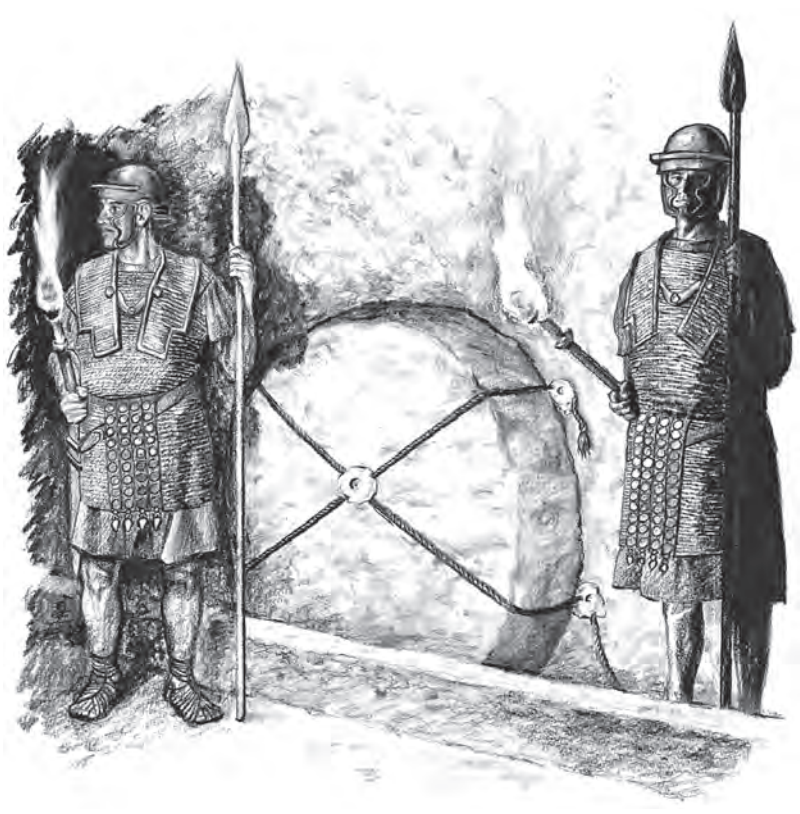

أعطى بيلاطس تعليماته لرؤساء الكهنة والفرِّيسيين أن يختموا القبر. وكانت عمليَّة الخَتم هذه تتم عن طريق مَدّ حبل على عرض الباب الحجري الكبير وتثبيته بالطين الرَّطب. بعد ذلك، كان الطين يُختم بخاتم التوقيع. وهكذا، كان من السهل كشف أي محاولة لفتح القبر.

الأحد

وقف الحرس في أماكنهم يوم السبت الذي كان يوم راحةٍ لدى اليهود. وفي يوم الأحد، وبينما كان الظلام مُخيِّماً ...

وَإِذَا زَلْزَلَةٌ عَظِيمَةٌ حَدَثَتْ، لأَنَّ مَلاَكَ الرَّبِّ نَزَلَ مِنَ السَّمَاءِ وَجَاءَ وَدَحْرَجَ الْحَجَرَ عَنِ الْبَابِ، وَجَلَسَ عَلَيْهِ. وَكَانَ مَنْظَرُهُ كَالْبَرْقِ، وَلِبَاسُهُ أَبْيَضَ كَالثَّلْجِ. فَمِنْ خَوْفِهِ ارْتَعَدَ الْحُرَّاسُ وَصَارُوا كَأَمْوَاتٍ (مَتَّى ٢٨: ٢-٤)

عرف أولئك الجنود المُدرَّبون على الفور أنهم لا يستطيعون الوقوف في وجه ذلك الملاك. وكانت عبارة «صاروا كأموات» في الآية أعلاه هي العبارة المُستخدمة في القرن الأوَّل للميلاد للتعبير عن فقدان الوعي نتيجة الخوف. فيا لها من صَدمة! فَمَن كان يتخيَّل أن يُصبح القبر فارغاً! كانت كل الدلائل تُشير إلى حقيقة واحدة: أنَّ يسوع عاد إلى الحياة!

في تلك الأثناء ...

... اشْتَرَتْ مَرْيَمُ الْمَجْدَلِيَّةُ وَمَرْيَمُ أُمُّ يَعْقُوبَ وَسَالُومَةُ، حَنُوطًا لِيَأْتِينَ وَيَدْهَنَّهُ. وَبَاكِرًا جِدًّا فِي أَوَّلِ الأُسْبُوعِ أَتَيْنَ إِلَى الْقَبْرِ إِذْ طَلَعَتِ الشَّمْسُ. وَكُنَّ يَقُلْنَ فِيمَا بَيْنَهُنَّ: «مَنْ يُدَحْرِجُ لَنَا الْحَجَرَ عَنْ بَابِ الْقَبْرِ؟» فَتَطَّلَعْنَ وَرَأَيْنَ أَنَّ الْحَجَرَ قَدْ دُحْرِجَ! لأَنَّهُ كَانَ عَظِيمًا جِدًّا (مرقس ١٦: ١-٤)

يبدو أنَّ مريم المجدليَّة أُصيبت بالصدمة والرعب حينما رأت القبر مفتوحاً. فقد ظَنَّت في بادئ الأمر أنَّ شخصاً ما جاء وعبث بالقبر. بكت مريم المجدليَّة وركضت لإخبار التلاميذ بما حدث. أمَّا مريم (أم يعقوب) وسالومة فدخلتا القبر.

وَلَمَّا دَخَلْنَ الْقَبْرَ رَأَيْنَ شَابًّا جَالِسًا عَنِ الْيَمِينِ لاَبِسًا حُلَّةً بَيْضَاءَ، فَانْدَهَشْنَ. فَقَالَ لَهُنَّ: «لاَ تَنْدَهِشْنَ! أَنْتُنَّ تَطْلُبْنَ يَسُوعَ النَّاصِرِيَّ الْمَصْلُوبَ. قَدْ قَامَ! لَيْسَ هُوَ ههُنَا. هُوَذَا الْمَوْضِعُ الَّذِي وَضَعُوهُ فِيهِ. لكِنِ اذْهَبْنَ وَقُلْنَ لِتَلاَمِيذِهِ وَلِبُطْرُسَ: إِنَّهُ يَسْبِقُكُمْ إِلَى الْجَلِيلِ. هُنَاكَ تَرَوْنَهُ كَمَا قَالَ لَكُمْ» (مرقس ١٦: ٥-٧)

فَخَرَجْتَا سَرِيعًا مِنَ الْقَبْرِ بِخَوْفٍ وَفَرَحٍ عَظِيمٍ، رَاكِضَتَيْنِ لِتُخْبِرَا تَلاَمِيذَهُ. وَفِيمَا هُمَا مُنْطَلِقَتَانِ لِتُخْبِرَا تَلاَمِيذَهُ إِذَا يَسُوعُ لاَقَاهُمَا وَقَالَ: «سَلاَمٌ لَكُمَا». فَتَقَدَّمَتَا وَأَمْسَكَتَا بِقَدَمَيْهِ وَسَجَدَتَا لَهُ. فَقَالَ لَهُمَا يَسُوعُ: «لاَ تَخَافَا. اذْهَبَا قُولاَ لإِخْوَتِي أَنْ يَذْهَبُوا إِلَى الْجَلِيلِ، وَهُنَاكَ يَرَوْنَنِي» (مَتَّى ٢٨: ٨-١٠)

المسيح قام

حينما تقرأ هذه القصَّة[١] فإنك تشعر بما سبَّبته تلك الأخبار من ارتباك ودهشة. فبالنسبة للأشخاص الذين شاهدوا يسوع وهو يموت، قوبلت الأخبار التي جاءت بها النسوة الفرحات بقدر كبير من الشك:

... فَتَرَاءَى كَلاَمُهُنَّ لَهُمْ كَالْهَذَيَانِ وَلَمْ يُصَدِّقُوهُنَّ (لوقا ٢٤: ١١)

ركض بطرس لينظر إلى القبر. وركض يوحنَّا أيضاً فسبق بطرس في الطريق، لكنه انتظره أمام مدخل القبر.

ثُمَّ جَاءَ سِمْعَانُ بُطْرُسُ يَتْبَعُهُ، وَدَخَلَ الْقَبْرَ وَنَظَرَ الأَكْفَانَ مَوْضُوعَةً، وَالْمِنْدِيلَ الَّذِي كَانَ عَلَى

رَأْسِهِ لَيْسَ مَوْضُوعًا مَعَ الأَكْفَانِ، بَلْ مَلْفُوفًا فِي مَوْضِعٍ وَحْدَهُ (يوحنَّا ٢٠: ٦، ٧)

لم يكُن المشهد يدل على أنَّ القبر قد تعرَّض للتخريب. فقد كانت الأكفان ملفوفة كما لو أنَّها تُحيط بجسد يسوع؛ لكنها كانت فارغة! فقد خرج جسد يسوع منها. وكان منديل الرأس ملفوفاً وحده كما لو أنَّ شخصاً ما قد رَتَّبه قبل مغادرته. ويقول الكتاب المقدَّس إنَّ بطرس رأى ما حدث، لكنَّ يوحنَّا رأى وآمن. فبالنسبة ليوحنَّا، لم يكُن هناك ظِلُّ شَكٍّ في أنَّ يسوع حيّ! أمَّا بطرس فكان مُشوَّشاً وبحاجة لبعض الوقت للتفكير.

ولا بُدَّ أنَّ الوقت كان مُبكِّراً حين عادت مريم المجدليَّة:

أَمَّا مَرْيَمُ فَكَانَتْ وَاقِفَةً عِنْدَ الْقَبْرِ خَارِجًا تَبْكِي. وَفِيمَا هِيَ تَبْكِي انْحَنَتْ إِلَى الْقَبْرِ، فَنَظَرَتْ مَلاَكَيْنِ بِثِيَابٍ بِيضٍ جَالِسَيْنِ وَاحِدًا عِنْدَ الرَّأْسِ وَالآخَرَ عِنْدَ الرِّجْلَيْنِ، حَيْثُ كَانَ جَسَدُ يَسُوعَ مَوْضُوعًا. فَقَالاَ لَهَا: «يَا امْرَأَةُ، لِمَاذَا تَبْكِينَ؟» قَالَتْ لَهُمَا: «إِنَّهُمْ أَخَذُوا سَيِّدِي، وَلَسْتُ أَعْلَمُ أَيْنَ وَضَعُوهُ!»

(يوحنَّا ٢٠: ١١-١٣)

كان القبر موجوداً داخل بستان. لهذا، ربما اعتقدت مريم المجدليَّة في بادئ الأمر أنَّ هذين الملاكين كانا يعملان في البُستان. فقد كانت حزينة جداً لدرجة أنها لم تنظُر إليهما بإمعان. ويجب علينا أن نتذكَّر أنَّ مريم المجدليَّة كانت حزينة جداً وأنَّ الحديث كله جرى وهي تبكي.

وَلَمَّا قَالَتْ هذَا الْتَفَتَتْ إِلَى الْوَرَاءِ، فَنَظَرَتْ يَسُوعَ وَاقِفًا، وَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّهُ يَسُوعُ. قَالَ لَهَا يَسُوعُ: «يَا امْرَأَةُ، لِمَاذَا تَبْكِينَ؟ مَنْ تَطْلُبِينَ؟» فَظَنَّتْ تِلْكَ أَنَّهُ الْبُسْتَانِيُّ، فَقَالَتْ لَهُ: «يَا سَيِّدُ، إِنْ كُنْتَ أَنْتَ قَدْ حَمَلْتَهُ فَقُلْ لِي أَيْنَ وَضَعْتَهُ، وَأَنَا آخُذُهُ». قَالَ لَهَا يَسُوعُ: «يَا مَرْيَمُ» (يوحنَّا ٢٠: ١٤-١٦)

نطق يسوع باسم مريم بطريقة أعادت إليها جميع الذكريات الجميلة التي قضتها معه قبل

صلبه. وهكذا، فقد تعرَّفت مريم على الرب يسوع بمُجرَّد أن نطق باسمها:

... فَالْتَفَتَتْ تِلْكَ وَقَالَتْ لَهُ: «رَبُّونِي!» الَّذِي تَفْسِيرُهُ: يَا مُعَلِّمُ» (يوحنَّا ٢٠: ١٦)

والآن أصبح لديها سبب مُختلف للبُكاء. ولا بُدَّ أنَّها ألقت بذراعيها حوله، أو ربَّما ارتمت عند قدميه بحسب عادات وتقاليد تلك الأيَّام. وعندها، قال يسوع لمريم المجدليَّة أن تذهب وتُخبر التلاميذ أنه حَيّ.

فَجَاءَتْ مَرْيَمُ الْمَجْدَلِيَّةُ وَأَخْبَرَتِ التَّلاَمِيذَ أَنَّهَا رَأَتِ الرَّبَّ (يوحنَّا ٢٠: ١٨)

الحَرَس

في غَمرة تلك الأحداث، كان الحُرَّاس يبحثون عن رؤساء الكهنة. فمن المؤكَّد أنهم لن يُخبروا بيلاطُس بما حدث!

وَفِيمَا هُمَا ذَاهِبَتَانِ إِذَا قَوْمٌ مِنَ الْحُرَّاسِ جَاءُوا إِلَى الْمَدِينَةِ وَأَخْبَرُوا رُؤَسَاءَ الْكَهَنَةِ بِكُلِّ مَا كَانَ (مَتَّى ٢٨: ١١)

كان القبر فارغاً. وحتَّى أنَّ أعداء يسوع أقرُّوا بهذه الحقيقة!

فَاجْتَمَعُوا مَعَ الشُّيُوخِ، وَتَشَاوَرُوا، وَأَعْطَوُا الْعَسْكَرَ فِضَّةً كَثِيرَةً قَائِلِينَ: «قُولُوا إِنَّ تَلاَمِيذَهُ أَتَوْا لَيْلاً وَسَرَقُوهُ وَنَحْنُ نِيَامٌ. وَإِذَا سُمِعَ ذلِكَ عِنْدَ الْوَالِي فَنَحْنُ نَسْتَعْطِفُهُ، وَنَجْعَلُكُمْ مُطْمَئِنِّينَ». فَأَخَذُوا الْفِضَّةَ وَفَعَلُوا كَمَا عَلَّمُوهُمْ. فَشَاعَ هذَا الْقَوْلُ عِنْدَ الْيَهُودِ إِلَى هذَا الْيَوْمِ (مَتَّى ٢٨: ١٢-١٥)

دفع رؤساء الكهنة مبلغاً كبيراً من المال لأولئك الجنود لكي يقولوا إنهم كانوا نياماً. لكنَّ هذا لم يكُن صحيحاً. ويُمكننا مَرَّة أخرى أن نرى يد الشيطان خلف ذلك كُلِّه حيث أنه سعى بسرعة للسيطرة على الأضرار التي لحقت به. فهو أبو الأكاذيب. وهكذا، سعى إبليس لحفظ ماء وجهه لأنه أدرك بكل تأكيد أنه هُزِم. فقد قام يسوع المسيح المخلِّص الموعود بسحق رأس إبليس بحسب وعد الله في جَنَّة عَدْن.

يَسوع حَيٌّ

عاد يسوع المسيح إلى الحياة ثانيةً! فقد كان حيَّاً بالفعل – بالجسد! لقد بقي جسده ثلاثة أيَّام في القبر بلا حياة، مُنفصلاً عن روحه. لكنَّ يسوع أظهر قوَّته الخارقة للطبيعة بأن قام منَ الموت بجسد جديد.

وقد تنبَّأ الرب يسوع عن موته أثناء خدمته:

«لِهذَا يُحِبُّنِي الآبُ، لأَنِّي أَضَعُ نَفْسِي لآخُذَهَا أَيْضًا. لَيْسَ أَحَدٌ يَأْخُذُهَا مِنِّي، بَلْ أَضَعُهَا أَنَا مِنْ ذَاتِي. لِي سُلْطَانٌ أَنْ أَضَعَهَا وَلِي سُلْطَانٌ أَنْ آخُذَهَا أَيْضًا...» (يوحنَّا ١٠: ١٧، ١٨)

لماذا كان ينبغي على يسوع المسيح أن يموت؟

لم يكُن موت يسوع موتاً عاديَّاً. فبالنسبة للبشر، يُعتبر الموت عقاباً للخطيَّة والتعدِّي على ناموس الله. لكنَّ يسوع طَبَّق الوصايا العشر تماماً وكان بلا خطيَّة؛ لذلك، لم يكن ينبغي عليه أن يموت. فبحسب قانون الخطيَّة والموت، كان بإمكان يسوع أن يحيا إلى الأبد. إذاً، لماذا مات؟ لم يقم الشيطان، أو اليهود، أو الرومان بقتل يسوع رُغماً عنه؛ بل في حقيقة الأمر أنَّ يسوع هو الذي اختار أن يموت بإرادته. لكن لماذا؟ سوف نُجيب عن هذا السؤال في الفصل اللاحق.

٧٢ ساعة غيَّرت التاريخ

	الخميس	التلاميذ يُعِدُّون الفصح.
		عشاء الفصح.
الجمعة اليهودية❖		السَّير إلى بستان جَثسيماني.
		القبض على يسوع في البستان؛ التلاميذ يهربون.
	الجمعة	المُحاكمة الأولى – أمام حنَّان (حمو رئيس الكهنة قيافا)
		المُحاكمة الثانية – أمام رئيس الكهنة والسنهدريم.
		المُحاكمة الثالثة – أمام السنهدريم (لجعل المحاكمة قانونيَّة)
	٦:٣٠ صباحا	المُحاكمة الرابعة – أمام بيلاطُس.
		المُحاكمة الخامسة – أمام هيرودُس (السخرية من يسوع)
		المُحاكمة السادسة – أمام بيلاطُس (جَلْد يسوع)
	٩:٠٠ صباحا	الصَّلب
	ظهراً	
	٣:٠٠ عصرا	يسوع صرخ: «قَدْ أُكْمِلَ»؛ حجاب الهيكل انشق.
		كسر سيقان اللِّصين؛ وطعن يسوع في جنبه.
		يوسف الراميّ يطلب جسد يسوع كي يدفنه.
		دفن يسوع في القبر.
السبت اليهودي	**السبت**	المُطالبة بوجود حرس على باب القبر وتنفيذ ذلك.
		خَتم القبر.
الأحد اليهودي	**الأحد**	هَزَّة أرضيَّة – الملاكان دحرجا الحجر؛ الحُرَّاس هربوا.
		النساء يذهبن إلى القبر.
		يسوع يظهر لمريم وسالومي.
		يسوع يظهر لمريم المجدليَّة.
		يسوع يظهر لبطرس

❖ يبدأ اليوم اليهودي من مغيب الشمس ويستمر حتَّى مغيب شمس اليوم التالي.

لم تكُن أحداث ذلك الصباح سوى البداية فقط. فقد استمرَّ يسوع المسيح في الظهور لتلاميذه ومن يعرفونه حَقَّ المعرفة على مدى الأيَّام الأربعين اللاحقة. لكن قبل أن نترك يوم قيامة المسيح، هناك قصَّة أخرى ينبغي علينا معرفتها.

الفصل الرابع عشر

١. الغَريب.

٢. الناموس والأنبياء

– من آدم إلى نوح –

٣. الناموس والأنبياء

– من إبراهيم إلى الوصايا العشر –

٤. الناموس والأنبياء

– من خيمة الاجتماع إلى الحيَّة النُحاسيَّة –

٥. الناموس والأنبياء

– من يوحنَّا المعمدان إلى القيامة –

١. الغَريب

وَإِذَا اثْنَانِ مِنْهُمْ كَانَا مُنْطَلِقَيْنِ فِي ذلكَ الْيَوْمِ إِلَى قَرْيَةٍ بَعِيدَةٍ عَنْ أُورُشَلِيمَ سِتِّينَ غَلْوَةً، اسْمُهَا «عَمْوَاسُ». وَكَانَا يَتَكَلَّمَانِ بَعْضُهُمَا مَعَ بَعْضٍ عَنْ جَمِيعِ هذِهِ الْحَوَادِثِ. وَفِيمَا هُمَا يَتَكَلَّمَانِ وَيَتَحَاوَرَانِ، اقْتَرَبَ إِلَيْهِمَا يَسُوعُ نَفْسُهُ وَكَانَ يُمْشِي مَعَهُمَا. وَلكِنَّ أَعْيُنَهُمَا أُمْسِكَتْ عَنْ مَعْرِفَتِهِ. فَقَالَ لَهُمَا: «مَا هذَا الْكَلاَمُ الَّذِي تَتَطَارَحَانِ بِهِ وَأَنْتُمَا مَاشِيَانِ عَابِسَيْنِ؟» (لوقا ٢٤: ١٣-١٧)

لم يكُن هذان الشخصان من التلاميذ المُقرَّبين ليسوع رغم أنهما كانا من أتباعه.

فَأَجَابَ أَحَدُهُمَا، الَّذِي اسْمُهُ كَلِيُوبَاسُ وَقَالَ لَهُ: «هَلْ أَنْتَ مُتَغَرِّبٌ وَحْدَكَ فِي أُورُشَلِيمَ وَلَمْ تَعْلَمِ الأُمُورَ الَّتِي حَدَثَتْ فِيهَا فِي هذِهِ الأَيَّامِ؟»

فَقَالَ لَهُمَا: «وَمَا هِيَ؟»

فَقَالاَ: «الْمُخْتَصَّةُ بِيَسُوعَ النَّاصِرِيِّ، الَّذِي كَانَ إِنْسَانًا نَبِيًّا مُقْتَدِرًا فِي الْفِعْلِ وَالْقَوْلِ أَمَامَ اللهِ وَجَمِيعِ الشَّعْبِ. كَيْفَ أَسْلَمَهُ رُؤَسَاءُ الْكَهَنَةِ وَحُكَّامُنَا لِقَضَاءِ الْمَوْتِ وَصَلَبُوهُ. وَنَحْنُ كُنَّا نَرْجُو أَنَّهُ هُوَ الْمُزْمِعُ أَنْ يَفْدِيَ إِسْرَائِيلَ. وَلكِنْ، مَعَ هذَا كُلِّهِ، الْيَوْمَ لَهُ ثَلاَثَةُ أَيَّامٍ مُنْذُ حَدَثَ ذلكَ. بَلْ بَعْضُ النِّسَاءِ مِنَّا حَيَّرْنَنَا إِذْ كُنَّ بَاكِرًا عِنْدَ الْقَبْرِ، وَلَمَّا لَمْ يَجِدْنَ جَسَدَهُ أَتَيْنَ قَائِلاَتٍ: إِنَّهُنَّ رَأَيْنَ مَنْظَرَ مَلاَئِكَةٍ قَالُوا إِنَّهُ حَيٌّ. وَمَضَى قَوْمٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَنَا إِلَى الْقَبْرِ، فَوَجَدُوا هكَذَا كَمَا قَالَتْ أَيْضًا النِّسَاءُ، وَأَمَّا هُوَ فَلَمْ يَرَوْهُ»

(لوقا ٢٤: ١٨-٢٤)

قَدَّم

هذان التلميذان ليسوع مُلخَّصاً سريعاً لأحداث اليوم. وبالطبع، لم يكُن هناك أي شيءٍ جديد بالنسبة ليسوع، لكنه انتظر بكل صبر وهدوء إلى أن انتهيا من الحديث. وقد كانت لديه هو الآخر بعض الأنباء ليُخبرهما بها:

فَقَالَ لَهُمَا: «**أَيُّهَا الْغَبِيَّانِ وَالْبَطِيئَا الْقُلُوبِ فِي الإِيمَانِ بِجَمِيعِ مَا تَكَلَّمَ بِهِ الأَنْبِيَاءُ!** أَمَا كَانَ يَنْبَغِي أَنَّ الْمَسِيحَ يَتَأَلَّمُ بِهذَا وَيَدْخُلُ إِلَى مَجْدِهِ؟» ثُمَّ ابْتَدَأَ مِنْ مُوسَى وَمِنْ جَمِيعِ الأَنْبِيَاءِ يُفَسِّرُ لَهُمَا الأُمُورَ الْمُخْتَصَّةَ بِهِ فِي جَمِيعِ الْكُتُبِ (لوقا ٢٤: ٢٥-٢٧)

قال يسوع لهما إنَّه كان ينبغي على المسيح أن يتألَّم، ويموت، ثم يعود إلى الحياة ثانيةً. لكنَّ يسوع لم يتوقَّف عند هذا الحدِّ، بل رجع إلى الأسفار المُقدَّسة وراح يُعلِّمهما عن نفسه منذ البداية. ثم راح يتدرَّج خطوة تلو الأخرى، ومن قصَّة إلى التي تليها مروراً بكل العهد القديم. ومن المؤكَّد أنَّ ذلك الدرس كان عميقاً جداً ورائعاً للغاية!

ثُمَّ اقْتَرَبُوا إِلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَا مُنْطَلِقَيْنِ إِلَيْهَا، وَهُوَ تَظَاهَرَ كَأَنَّهُ مُنْطَلِقٌ إِلَى مَكَانٍ أَبْعَدَ. فَأَلْزَمَاهُ قَائِلَيْنِ: «امْكُثْ مَعَنَا، لأَنَّهُ نَحْوُ الْمَسَاءِ وَقَدْ مَالَ النَّهَارُ». فَدَخَلَ لِيَمْكُثَ مَعَهُمَا. فَلَمَّا اتَّكَأَ مَعَهُمَا، أَخَذَ خُبْزًا وَبَارَكَ وَكَسَّرَ وَنَاوَلَهُمَا. فَانْفَتَحَتْ أَعْيُنُهُمَا وَعَرَفَاهُ ثُمَّ اخْتَفَى عَنْهُمَا، فَقَالَ بَعْضُهُمَا لِبَعْضٍ: «أَلَمْ يَكُنْ قَلْبُنَا مُلْتَهِبًا فِينَا إِذْ كَانَ يُكَلِّمُنَا فِي الطَّرِيقِ وَيُوضِحُ لَنَا الْكُتُبَ؟» (لوقا ٢٤: ٢٨-٣٢)

ألهب الله شُعلة الفهم والاستيعاب في عقليهما فجأةً فشعرا بحماسة شديدة:

فَقَامَا فِي تِلْكَ السَّاعَةِ وَرَجَعَا إِلَى أُورُشَلِيمَ ... (لوقا ٢٤: ٣٣)

يُمكننا أن نتخيَّل كيف كانت رحلة العودة إلى أورشليم بالنسبة لهذين الرجُلين المُتحمِّسين وهما يُفكِّران فيما سيقولانه للأحد عشر تلميذاً. ورغم أنَّ طريق العودة كانت جبليَّة إلاَّ

أنَّ حماسهما كان يدفعهما للسير دون الإحساس بالتعب لأنهما كانا يحملان خبراً سَّاراً أو بشارةً حُلوةً!

فَقَامَا فِي تِلْكَ السَّاعَةِ وَرَجَعَا إِلَى أُورُشَلِيمَ، وَوَجَدَا الأَحَدَ عَشَرَ مُجْتَمِعِينَ، ❖هُمْ وَالَّذِينَ مَعَهُمْ وَهُمْ يَقُولُونَ: «إِنَّ الرَّبَّ قَامَ بِالْحَقِيقَةِ وَظَهَرَ لِسِمْعَانَ!» وَأَمَّا هُمَا فَكَانَا يُخْبِرَانِ بِمَا حَدَثَ فِي الطَّرِيقِ، وَكَيْفَ عَرَفَاهُ عِنْدَ كَسْرِ الْخُبْزِ.

❖ في هذا الوقت، كان يهوذا الإسخريوطي الذي خان يسوع قد انتحر.

وَفِيمَا هُمْ يَتَكَلَّمُونَ بِهذَا وَقَفَ يَسُوعُ نَفْسُهُ فِي وَسْطِهِمْ، وَقَالَ لَهُمْ: «سَلاَمٌ لَكُمْ!»

فَجَزِعُوا وَخَافُوا، وَظَنُّوا أَنَّهُمْ نَظَرُوا رُوحًا. فَقَالَ لَهُمْ: «مَا بَالُكُمْ مُضْطَرِبِينَ، وَلِمَاذَا تَخْطُرُ أَفْكَارٌ فِي قُلُوبِكُمْ؟ انْظُرُوا يَدَيَّ وَرِجْلَيَّ: إِنِّي أَنَا هُوَ! جُسُّونِي وَانْظُرُوا، فَإِنَّ الرُّوحَ لَيْسَ لَهُ لَحْمٌ وَعِظَامٌ كَمَا تَرَوْنَ لِي».

وَحِينَ قَالَ هذَا أَرَاهُمْ يَدَيْهِ وَرِجْلَيْهِ. وَبَيْنَمَا هُمْ غَيْرُ مُصَدِّقِينَ مِنَ الْفَرَحِ، وَمُتَعَجِّبُونَ، قَالَ لَهُمْ: «أَعِنْدَكُمْ ههُنَا طَعَامٌ؟» فَنَاوَلُوهُ جُزْءًا مِنْ سَمَكٍ مَشْوِيٍّ، وَشَيْئًا مِنْ شَهْدِ عَسَلٍ. فَأَخَذَ وَأَكَلَ قُدَّامَهُمْ.

وَقَالَ لَهُمْ: «هذَا هُوَ الْكَلاَمُ الَّذِي كَلَّمْتُكُمْ بِهِ وَأَنَا بَعْدُ مَعَكُمْ: **أَنَّهُ لاَ بُدَّ أَنْ يَتِمَّ جَمِيعُ مَا هُوَ مَكْتُوبٌ عَنِّي فِي نَامُوسِ مُوسَى وَالأَنْبِيَاءِ وَالْمَزَامِيرِ**»

(لوقا ٢٤: ٣٣-٤٤)

وهكذا، فعل الرب يسوع مع تلاميذه الأحد عشر نفس ما فعله سابقاً مع تلميذيّ عمواس حيث استخدم الكُتب والأنبياء لشرح وتفسير كل الأحداث التي أحاطت بموته ودفنه وقيامته. فقد أخذ الرب يسوع كل مقطع يتعلَّق به في العهد القديم – الناموس، والأنبياء، والمزامير (الزّبور) – وبيَّن للتلاميذ كيف أنَّ ذلك كُلّه كان ينطبق عليه هو.

حِينَئِذٍ فَتَحَ ذِهْنَهُمْ لِيَفْهَمُوا الْكُتُبَ. وَقَالَ لَهُمْ: «هكَذَا هُوَ مَكْتُوبٌ، وَهكَذَا كَانَ يَنْبَغِي أَنَّ الْمَسِيحَ يَتَأَلَّمُ وَيَقُومُ مِنَ الأَمْوَاتِ فِي الْيَوْمِ الثَّالِثِ، وَأَنْ يُكْرَزَ بِاسْمِهِ بِالتَّوْبَةِ وَمَغْفِرَةِ الْخَطَايَا لِجَمِيعِ الأُمَمِ، مُبْتَدَأً مِنْ أُورُشَلِيمَ. وَأَنْتُمْ شُهُودٌ لِذلِكَ» (لوقا ٢٤: ٤٥-٤٨)

قال الرب يسوع إنَّ موته، ودفنه، وقيامته كانت لازمة لإتمام جميع نبوَّات الأسفار المقدَّسة. كما أنه قال لهم إنَّ هذه بشارة ينبغي أن تُنشر في كل مكان بدءاً بأورشليم.

وقبل أن نُتابع قصَّتنا، يجب علينا أن نتوقَّف قليلاً ونرجع إلى البدايات – تماماً كما فعل الرب يسوع مع تلاميذه. فيجب علينا أن نتأمَّل في ما قاله الرب يسوع عن نفسه في الناموس، والأنبياء، والمزامير.

لماذا جاء يسوع إلى الأرض، ولماذا كان ينبغي عليه أن يتألَّم ويموت في حين أنه كان قد خَطَّط مُسبقاً للعودة إلى الحياة من جديد؟

ولماذا لم يكتفِ بأن يقول للناس أن يؤمنوا به دونما حاجة لأن يُصلب؟

وما هو المغزى من وراء كل تلك الأحداث – موته، ودفنه، وقيامته؟ وما الذي يقوله الناموس والأنبياء عن ذلك؟

لقد أوشكنا على وضع القطعة الأخيرة من الأُحجية في مكانها. وحينما تفهم هذا الجزء، سوف تكتمل الصورة لديك.

٢ . الناموس والأنبياء

- من آدم إلى نوح -

لماذا كان ينبغي على يسوع أن يموت؟ للإجابة عن هذا السؤال، سوف نرجع في الزمن إلى الوراء؛ بل ربَّما إلى البدايات.

آدم وحوَّاء

أتذكُر الصداقة الفريدة التي كانت قائمة بين الله والإنسان في بداية الخليقة؟ فالله لم يخلق الإنسان ليكون رجُلاً آليًّا، بل أعطاه إرادةً حُرَّةً يستطيع من خلالها أن يُكرم الله عن طريق إطاعته له كما يُكرِم الابن المُطيع أباه.

ولعلَّك تذكُر أيضاً أنَّ الإنسان كان يتمتَّع بالكثير من المزايا بسبب طاعته لله لأنَّ الرب خالق هذا الكون كان مُلتزماً بتسديد كل حاجات آدم وحوَّاء دون استثناء؛ فقد كانت هناك علاقة وطيدة بين الله والإنسان.

لكنَّ آدم وحوَّاء عصيا أوامر الله وتعليماته عن قصد حينما حاولا أن يُجرِّبا شجرة معرفة الخير والشر التي نهاهما الله عنها. وحيث أنَّ الأحداث المُحيطة بهذه الحادثة تشتمل على عناصر مُهمَّة جداً لأُحجيتنا، فإنَّ الكتاب المقدَّس يستخدم بعض التشبيهات القويَّة لمساعدتنا على فهم ما حدث.

تقول كلمة الله إنَّ الإنسان شعر بأنه يعرف خيره أكثر من الرب نفسه. وقد اختار الإنسان طريقه وأراد أن يفعل ما يشاء؛ لكنَّ خياره ذاك قاده إلى بَريَّة روحيَّة قاحلة. وهكذا، أصبح الإنسان **ضالاً**.

فعوضاً عن أن يُصغي الإنسان إلى الله، أصغى إلى إبليس ووثق به. وبهذا، انضم الإنسان إلى صفوف الشيطان المُتمرِّدة وأصبح **عدوَّاً** .

وبسبب هذا الخَيار ظهرت العديد من الآثار السلبيَّة؛ فالكتاب المقدَّس يقول إنَّ عواقب الخطيَّة باهظة جداً.

وبما أنه لم تَعُد هناك ثقة بين الله والإنسان، لم تعُد هناك علاقة أو شَركة بينهما. فقد انتهت الصداقة الفريدة بين الله والإنسان على الفور. وهكذا، أصبح الإنسان الخاطئ **مُنفصلاً** عن خالقه القُدُّوس الكامل. وبهذا، لم يعُد الله قريباً، بل أصبح يبدو بعيداً ونائياً جداً عن الإنسان.

وبالطبع، لم يكُن الشيطان صديقاً وفيًّاً للإنسان كما كان الله. فقد راح الشيطان يتلاعب بالإنسان عن طريق أكاذيبه لكي يفعل إرادته الشيطانيَّة. وبهذا، أصبح الإنسان **عبداً** للشيطان وعبداً للخطيَّة.

حينما اختار الإنسان طريقه الخاص به كان بذلك يعصي وصيَّة الله. وكما هو الحال دائماً

فإنَّ العصيان له عواقبه الوخيمة، ومن يُخالف القانون (أو شريعة الله) لا بُدَّ أن ينال العقاب.

خلع الله رداء الصداقة وارتدى عباءة القاضي المهيب. وعندها، وجد الله أنَّ الإنسان **مُذنب** بانتهاك شريعته واقتراف الخطيَّة ضِدَّه.

أصدر الله حُكمه بأن حَرَّر «صَكَّ دَيْن» بحق الإنسان. وبهذا، أصبح الإنسان **مَديناً** ويجب عليه أن يدفع الثمن. وكان عقاب الخطيَّة هو الموت.

وهكذا، حكم الله على جميع البشر **بالموت** الجسدي حيث تنفصل الروح عن الجسد، وتنفصل الحياة عن العائلة والأصدقاء.

وحيث أنَّ الخطيَّة أفسدت كيان الإنسان بأكمله، فقد عزل الله نفسه عن البشر. وبهذا، انتهت علاقة الإنسان مع الله وأصبحت **ميِّتة**.

بعد الموت الجسدي، كان هناك **مَوتٌ ثَانٍ**. فقد حَكَم الله على الإنسان بالانفصال عنه إلى الأبد. كما أنَّ مصيره سيكون بُحيرة النار التي أعدَّها الله في الأصل لإبليس وأعوانه.

وهكذا، هيمن الموت بأبعاده الثلاثة على حياة الإنسان ولم يَعُد بإمكانه أن يفعل أيَّ شيءٍ حيال ذلك. كما أنَّ الإنسان لم يكُن مُخيَّراً فيما إذا كان يُريد أن يموت أم لا. وبهذا، واجه جميع البشر واقعاً مؤلماً ومُرعباً لا مفرَّ منه. فقد قال الكتاب المقدَّس بكل وضوح وحزم:

... كُلُّ وَاحِدٍ يَمُوتُ لأَجْلِ خَطِيَّتِهِ (٢ أخبار ٢٥: ٤)

إنَّ هذه التشبيهات تُساعدنا على فهم كيف أصبح البشر جميعاً مُنفصلين عن الله نتيجة خطيَّة آدم وحوَّاء. وهكذا، أصبح الإنسان يواجه ذلك السؤال القديم: **كيف يمكننا أن نتخلَّص من الخطيَّة بكل عواقبها، وأن نكتسب بِرَّاً مُعادلاً لبرِّ الله لكي نُصبح مقبولين ثانيةً في مَحضره؟**

مُحاولة يائسة

هل تذكُر كيف حاول آدم وحوَّاء أن يُخفيا خطيئتهما باستخدام أوراق التين؟ وقد رأينا أنه رغم أنَّ الله رفض جهودهما، إلاَّ أنه لم يتخلَّ عنهما:

... بَلْ يُفَكِّرُ بِشَتَّى الطُّرُقِ حَتَّى لاَ يَقْطَعَ عَنْهُ مَنْفِيُّهُ.

(٢ صموئيل ١٤: ١٤ – التفسيرية)

وقد استخدم الرب هذه الأحداث لتعليم آدم وحوَّاء (وتعليمنا نحن أيضاً) مبادئ كونيَّة تنطبق على جميع البشر.

القبول

كما أنَّ آدم وحوَّاء لم يتمكَّنا من جعل نفسيهما مقبولين لدى الله عن طريق إصلاح مظهرهما الخارجي، فلا يُمكننا نحن أيضاً أن نُصبح مقبولين لدى الله بناءً على مظاهرنا وتصرفاتنا الخارجيَّة. فرغم أنَّنا قد نؤثِّر على الآخرين بمظاهرنا الخارجيَّة، إلاَّ أنَّ الله يَعرفنا على حقيقتنا.

لقد رأينا أنَّ الله قَدَّم لآدم وحوَّاء طريقةً يُمكنهما من خلالها أن يُصبحا مَقبولين لديه. يقول الكتاب المقدَّس:

وَصَنَعَ الرَّبُّ الإِلهُ لآدَمَ وَامْرَأَتِهِ أَقْمِصَةً مِنْ جِلْدٍ وَأَلْبَسَهُمَا (تكوين ٣: ٢١)

كانت أهميَّة هذه الآية القصيرة ستضيع لولاً وجود آيات أخرى في الكتاب المقدَّس تشرح معناها. لكن ما هو معنى هذه الآية؟ وما الذي قاله يسوع لتلاميذه؟ لقد قال لهم ببساطة: كما أنَّ حيواناً بريئاً كان لابُدَّ أن يموت لكي يرتدي آدم وحوَّاء ملابس مقبولة، يجب على يسوع أيضاً أن يموت لكي يجعلنا مَقبولين في مَحضر الله. وقد كانت هذه هي فكرة الله وطريقته لقبولنا.

وبينما حاول التلاميذ جاهدين أن يفهموا ما يقوله يسوع لهم، كانت هناك عشرات الأسئلة الأخرى التي تدور في أذهانهم. فلماذا طالب الله بموت ذلك الحيوان عن آدم وحوَّاء؟ ولماذا لم يَكْتَفِ بإلباسهما من أوراق شجرة يختارها هو بنفسه؟ ولماذا كان ينبغي على يسوع أن يموت لأجلنا؟ ألم تكُن هناك طريقة أخرى؟ ومن المُرجَّح أنَّ يسوع تابع حديثه بسرد قصَّة قايين وهابيل.

قايين وهابيل

أتذكُر كيف كان أبناء آدم وحوَّاء يُقدِّمون الذبائح لله؟ لماذا كانوا يفعلون ذلك؟ لقد رأينا أنَّ طريق الخلاص الذي ابتكره الله للخُطاة كان له بُعدان:

الأوَّل هو **البُعد الداخلي:** فقد كان يتعيَّن على قايين وهابيل أن يتَّخذا قراراً شخصياً في قلبيهما فيما يتعلَّق بثقتهما أو عدم ثقتهما بالله.

و الثاني هو **البُعد الخارجي:** وهو عبارة عن وسيلة إيضاح بصريَّة لمساعدتهما على فهم الأمر اللازم لإزالة الخطيَّة.

أتذكُر ما الذي رأيناه حينما أحضر قايين وهابيل تقدمتهما للرب؟ لقد أحضر قايين بعض الخضروات والفاكهة من بُستانه؛ أمَّا هابيل فأحضر من أبكار غَنمه. وقد رفض الله تقدمة قايين وقَبل تقدمة هابيل! لماذا؟

قايين

داخليًّا: لم يُصدِّق قايين الله. فرغم أنه كان يؤمن بوجوده، إلاَّ أنه لم يُصدِّق ما قاله الله. لهذا، فقد كانت لديه أفكاره الخاصَّة بشأن كيفيَّة التخلُّص من الخطيَّة والتصالح مع الله.

ما أكثر الأشخاص الذين لديهم أفكارهم الخاصة بشأن الله وكيفيَّة إرضائه. وقد أصبح من الشائع أن نرى أناساً يتجاهلون كلمة الله ويتبنُّون نظرياتهم الخاصة عن الله. وهكذا، أصبحت الموضة الدارجة هي أن يكون لكل شخص إلهه الشخصي! لهذا، لو كان قايين يعيش في وقتنا الحاضر لوجد الكثير من الرفاق!

خارجيًّا: تصرَّف قايين كما شاء بناءً على تفكيره المغلوط. فقد أحضر تَقْدِمَةً لا تُمثِّل طريقة الله في التعامل مع مُشكلة الخطيَّة. فلا يُمكن سفك دم الخضروات. وهكذا، فقد

تجاهل قايين قول الله بأنه:

... بِدُونِ سَفْكِ دَمٍ لاَ تَحْصُلُ مَغْفِرَةٌ! (عبرانيين ٩: ٢٢)

لهذا كانت تَقدمة قايين عاجزة عن التكفير عن الخطيَّة وسترها. والكتاب المقدَّس يقول لنا:

لا أنْ نكونَ مِثلَ قايينَ الّذي كانَ مِنَ الشِّرِّيرِ فقَتَلَ أخاهُ. ولماذا قتَلَهُ؟ لأنَّ أعمالَهُ كانَت شِرِّيرَةً وأعمالَ أخيهِ كانَت صالِحَةً بارَّةً.

(١ يوحنَّا ٣: ١٢ – المشتركة)

هابيل

من ناحية أخرى، قَبِلَ الله تقدمة هابيل.

داخليًّا: كان هابيل يثق أنَّ الرب هو مُخلِّصه. وهذا هو ما أراده الله. وما زال الله يريد من الناس أن يؤمنوا به. فالكتاب المُقدَّس يقول لنا مراراً وتكراراً إنه ينبغي علينا أن نثق بيسوع المسيح وأن نَقبله مُخلِّصاً لحياتنا.

خارجيًّا: قَبِلَ الله ذبيحة هابيل لأنها كانت تُمثِّل ما سيُتمِّمه الرب يسوع على الصليب.

- كانت ذبيحة هابيل صورة عن **البَدَل:** فكما أنَّ حيواناً بريئاً مات بدلاً من هابيل، فقد مات يسوع – البريء من كل خطيَّة – بدلاً عنَّا جميعاً ودفع أُجرة الموت نيابةً عنَّا.
- كانت ذبيحة هابيل صورة عن **الكفَّارة:** فقد عرف الناس منذ القديم أنهم بحاجة لتقديم ذبائح حيوانيَّة. وكما أنَّ سفك دم الحيوان الذي قَدَّمه هابيل كان يُكفِّر عن خطيئته، فقد قَدَّم يسوع المسيح نفسه ذبيحةً نهائيَّةً لكي ننال غُفران الخطايا. والكتاب المقدَّس يُعلِّمنا أنَّ العلاقة المبتورة بيننا وبين الله بسبب عصياننا قد عادت من جديد من خلال موت يسوع على الصليب.

وفيما مَضى كُنتُم غُرَباءَ عَنِ اللهِ **وأعْداءً لَه** ... وأمَّا الآنَ **فصالَحَكُم** في جَسَدِ المَسيحِ البَشَرِيِّ، حينَ أسلَمَهُ إلى الموتِ ... (كولوسي ١: ٢١، ٢٢ –المشتركة)

فبما أنَّنا من نَسل آدم وحوَّاء في الأصل، فقد وُلدنا وجئنا إلى هذا العالم ونحن في حالة عَداوة مع الله؛ لكن بسبب موت يسوع على الصليب فقد تصالحنا مع الله وأصبح بإمكاننا أن نستعيد صداقتنا من جديد لأنَّ العلاقة المقطوعة عادت إلى سابق عَهدها.

قد يقول البعض: «حسناً، يمكنني أن أرى كيف أنَّ موت يسوع على الصليب قد حَلَّ مُشكلة الخطيَّة. لكن كيف يمكننا أن نكتسب بِرَّاً مُعادلاً لبِرّ الله لكي نُصبح مَقبولين ثانيةً في مَحضره؟»

كما قُلنا في الفصول السابقة، هناك وجهان لهذا السؤال، ولا يمكننا أن نفصل أحدهما عن الآخر. فعندما حَلَّ الله مُشكلة الخطيَّة، عالج في الوقت نفسه افتقارنا للبِرّ. وهذا هو ما سنراه بصورة أكثر تفصيلاً في الصفحات القادمة.

نوح

تجاهل الناس كلمة الله في أيام نوح. وربما ظَنُّوا أنَّ ذاك الرجل المُسنّ (نوح) أُصيب بالجنونٍ! وهكذا، فقد أقنعوا أنفسهم بأنَّه ليست هناك حياة آخرة وليس هناك عقاب أبدي. رغم ذلك، فإنَّ الله لم يرفع دينونته عنهم بسبب خطأ فلسفتهم عن الحياة؛ بل إنهم هلكوا جميعاً نتيجة حماقتهم.

وهكذا فإنَّ كلمة الله تُعلِّمنا أنه كما أنَّ الله عاقب الناس في زمن نوح بسبب خطاياهم، فسوف يُدين جميع البشر بصرف النظر عن طريقة تفكيرهم.

قَالَ الْجَاهِلُ فِي قَلْبِهِ: «لَيْسَ إِلهٌ» (المزمور ٥٣: ١)
اَلْمُتَّكِلُ عَلَى قَلْبِهِ هُوَ جَاهِلٌ ... (أمثال ٢٨: ٢٦)

قد يسمح الله لنا لبعض الوقت بتجاهُله أو حتَّى برفض طريق النجاة الذي قَدَّمه لنا؛ لكن لا بُدَّ لنا في نهاية المطاف من مواجهة النتيجة الحتميَّة ألا وهي أننا سنُسَدِّد دَيْن الخطيَّة بأنفسنا. وبالطبع فإنَّ الثمن هو موتنا الأبدي.

أتذكُر كيف حفظ الله نوحاً وأبناءه سالمين في الفُلك؟ كانت هناك سفينة واحدة فقط، وباب واحد فقط للدخول والاحتماء من الطوفان. فلم يكن هناك أي خيارٍ آخر.

وبالطريقة نفسها، فإنَّ الرب يسوع المسيح هو الطريق الوحيد للحياة الأبديَّة.

قَالَ لَهُ يَسُوعُ: «أَنَا هُوَ الطَّرِيقُ وَالْحَقُّ وَالْحَيَاةُ. لَيْسَ أَحَدٌ يَأْتِي إِلَى الآبِ إِلاَّ بِي» (يوحنَّا ١٤: ٦)

وكما أنه لم يكُن هناك مكان آمن إلاَّ داخل الفُلك، فلا يُمكننا نحن أيضاً أن نجد الأمان من العقاب الأبدي إلاَّ في يسوع المسيح.

إِذًا لاَ شَيْءَ مِنَ الدَّيْنُونَةِ الآنَ عَلَى الَّذِينَ هُمْ فِي الْمَسِيحِ يَسُوعَ، السَّالِكِينَ لَيْسَ حَسَبَ الْجَسَدِ بَلْ حَسَبَ الرُّوحِ (رومية ٨: ١)

و الكتاب المقدَّس واضح تماماً في أنه لا يوجد سوى طريق واحد يؤدي إلى الله. لذلك، فإنَّ الأشخاص الذين يتجاهلون أو يرفضون «الطريق» سيُواجهون نفس المصير الذي واجهه أولئك الأشخاص الذين رفضوا تحذيرات نوح عن الطوفان القادم: الموت الروحي، والجسدي، والأبدي. فالكتاب المقدَّس واضح تماماً في أنَّ الرب يسوع المسيح هو الطريق الوحيد إلى الله.

بابل

أتذكُر كيف أنَّ بابل كانت أوَّل مثال على الديانة المُنظَّمة في الكتاب المقدَّس؟ فقد حاول الناس أن يبنوا بُرجاً عالياً للوصول إلى السماء. وقد قُلنا سابقاً إنَّ أفضل تعريف للدين (أو التديُّن) هو أنه سعي الإنسان للوصول إلى الله. وهكذا، فقد عمل الناس في بابل كالعبيد من أجل بناء ذلك البرج من الطوب والزِّفت. وبالطريقة نفسها، فإنَّ التديُّن هو عِبءٌ ثقيل ونضال مستمر. فهو يتطلَّب جهداً مُضنياً في سبيل إرضاء الله، أو الآلهة، أو الأرواح، أو الأصنام.

وعلى النقيض من التديُّن، يقول الكتاب المقدَّس إنَّ الطريق الصحيح الوحيد إلى الله قد

وَفَّره الله نفسه حينما تجسَّد ونزل إلى الأرض وسار بين الناس في هيئة يسوع المسيح. وقد قام الرب يسوع المسيح بعمل كل ما يلزم لاستعادة العلاقة المقطوعة بين الإنسان والله من خلال موته على الصليب.

ويمكنك أن ترى بريق الإثارة في أعين التلاميذ وهُم يستمعون إلى كيف أنَّ خِطَّة الله عبر آلاف السنين من التاريخ قد تَمَّت وتحقَّقت في شخص يسوع. فقد بقي الإنسان لعِدَّة قرون يتطلَّع إلى اليوم الذي سيتخلَّص فيه نهائيًّا من دينونة الخطيَّة. وها هو ذلك اليوم قد جاء. لكنَّ الرب يسوع لم يَكْتَفِ بهذا الشرح فحسب، بل تابع حديثه وراح يروي لهم قصَّة النبي إبراهيم.

٣ . الناموس والأنبياء

- من إبراهيم إلى الوصايا العشر -

من المؤكَّد أنَّ التلاميذ كانوا يُصغون باهتمام شديد فيما راح يسوع يشرح لهم قصَّة إبراهيم.

أتذكُر حينما طلب الله من إبراهيم أن يذبح ابنه إسحاق على جبل المُريَّا؟ كان إسحاق تحت أمر الله، وكان ينبغي عليه أن يموت. وفي الأصل، كان إسحاق يستحق الموت لأنه كان إنساناً خاطئاً مثل باقي البشر. وبناءً على أمر الله، قام إبراهيم بربط ابنه إسحاق ووضعه على المذبح فكان بلا حَول ولا قُوَّة!

خاطئ بلا حَول ولا قُوَّة

الشيء الذي أراد الله أن يقوله من خلال هذه الحادثة هو أنه كما أنَّ ابن إبراهيم كان بلا حَول ولا قُوَّة، وأنه كان عاجزاً عن تخليص نفسه، فإننا جميعنا مُقيَّدين بالخطيَّة ولا يُمكننا أن نُخلِّص أنفسنا من عواقبها الوخيمة.

و هل تَذكُر كيف أخذ إبراهيم السِّكِّين واستعد لذبح ابنه؟ كان إبراهيم يثق في صلاح الله وبأنَّ الله سيُقدِّم الحَلَّ لمُشكلة موت ابنه. وفي اللحظة الأخيرة، ناداه الله من السماء وأوقفه عن ذبح ابنه إسحاق. وبسبب ثقة إبراهيم في الله، وَفَّر الله ذبيحة بديلة عن ابنه.

بديلٌ كافٍ

يقول الكتاب المقدَّس إنَّ إبراهيم دَعا ذلك المكان «يَهْوَهْ يِرْأَهْ» (أي: «الربُّ يُدَبِّر») وربما يتساءل المرء لماذا لم يُطلق إبراهيم على ذلك المكان اسم «الربُّ دَبَّر» بدلاً من «الربُّ يُدَبِّر»؟ والإجابة عن هذا السؤال هي أنَّ إبراهيم كان يتطلَّع إلى اليوم الذي سيُقدِّم فيه الله ذبيحةً أخرى لتخليص العالم. وبعد ألفي سنة من تلك الحادثة، وفي الموقع نفسه، أكمل الرب يسوع المسيح نُبوءة إبراهيم بأن بذل نفسه عن الناس جميعاً بأن أصبح هو الذبيحة الكاملة.

فكما أنَّ الكبش مات بدلاً من إسحاق، فقد مات يسوع بدلاً عَنَّا. فقد كان ينبغي علينا نحن

أن نموت وأن نُعاقب عن خطايانا؛ لكنَّ يسوع مات وأخذ العقاب عنَّا على الصَّليب. لذلك فهو البَديل عَنَّا.

لو أنَّ الكبش لم يمُت لمات إسحاق. ولو أنَّ يسوع لم يَمُت لتوجَّب علينا أن ندفع أُجرة خطايانا بأنفسنا.

إنَّ جميع البشر عبر التاريخ يحملون «صَكَّ دَيْن». ويجب أن نعلم أنَّ دَيْن خطايانا كبير جداً، وأنه ينبغي علينا أن نُسدِّده بالكامل. وقد كانت الطريقة الوحيدة المُمكنة لتسديد هذا الدَّين هي أن يموت كُلُّ واحدٍ مِنَّا عن خطيئته.

لكنَّ يسوع المسيح جاء وسَدَّد بالكامل دَيْن خطايا جميع الناس دون استثناء؛ وهذا يشمل الماضي، والحاضر، والمستقبل. لهذا صرخ الرب يسوع على الصليب: «قَدْ أُكْمِلَ». فقد تَمَّ تسديد أجْرة الخطيَّة بالكامل!

لكنَّ السَّداد الذي قام به الرب يسوع لا يُصبح فاعلاً إلاَّ إذا آمن المرء كما آمن إبراهيم.

❖ «لأَنَّ أُجْرَةَ الْخَطِيَّةِ هِيَ مَوْتٌ، وَأَمَّا هِبَةُ اللهِ فَهِيَ حَيَاةٌ أَبَدِيَّةٌ بِالْمَسِيحِ يَسُوعَ رَبِّنَا»

❖ رومية ٦: ٢٣

الإيمان الشخصي

يقول الكتاب المقدَّس إنَّ الله أكرم إيمان إبراهيم:

«فَآمَنَ إِبْرَاهِيمُ بِاللهِ فَحُسِبَ لَهُ بِرًّا» (رومية ٤: ٣)

لقد فعل الله ذلك مع إبراهيم لأنَّ الرب كان ينظر إلى ما سيفعله على الصليب. فالكتاب المقدس يقول:

وَلكِنْ لَمْ يُكْتَبْ مِنْ أَجْلِه إبراهيم وَحْدَهُ أَنَّهُ حُسِبَ لَهُ، بَلْ مِنْ أَجْلِنَا نَحْنُ أَيْضًا، الَّذِينَ سَيُحْسَبُ لَنَا، الَّذِينَ نُؤْمِنُ بِمَنْ أَقَامَ يَسُوعَ رَبَّنَا مِنَ الأَمْوَاتِ (رومية ٤: ٢٣، ٢٤)

يجب علينا أن نتذكَّر أنَّ كلمة «يؤمن» - بحسب استخدامها في الكتاب المقدَّس – تحمل معنىً أكبر وأشمل من المعنى الذي نستخدمه عادةً.

- الكلمات: «إيمان»، و«ثقة»، و«يقين» تحمل نفس المعنى تقريباً.

- الإيمان الحقيقي يُبنى على حقيقة (ألا وهي أنَّ يسوع المسيح مات بدلاً عنَّا بسبب خطايانا) وليس على الشعور بالمغفرة.
- الإيمان الكتابي السَّليم لا يتوقَّف عند حَدِّ التصديق العقلي بهذا الحق؛ بل هو يشمل التصديق القلبي، والثقة بالحقائق التي يُعبَّر عنها من خلال الإرادة الحُرَّة. بعبارة أخرى فإنَّنا نختار أن نؤمن (أنا أؤمن أنَّ يسوع المسيح دَفع أُجرة خطيَّتي).

ما من شَكٍّ أنَّ ما قاله يسوع كان خبراً ساراً للتلاميذ. ويجب أن يكون خبراً ساراً لنا نحن أيضاً. فكلمة الرب تقول:

وَكُلُّ ما جاءَ قَبلاً في الكُتُبِ المُقَدَّسَةِ إنَّما جاءَ لِيُعَلِّمَنا كيفَ نَحصلُ على الرَّجاءِ بِما في هذِهِ الكُتُبِ مِنَ الصَّبرِ والعَزاءِ (رومية ١٥: ٤ – المشتركة)

كان التلاميذ يعرفون قصص إيمان إبراهيم والذبيحة بصورة جيدة. وعلى الرغم من سماعهم لتلك القصص منذ طفولتهم، إلاَّ أنَّهم يرون الآن الصورة الكاملة للمرَّة الأولى في حياتهم. وفيما كان يسوع يُكلِّمهم بكل ذلك، كان الهدوء يُخيِّم على المكان لدرجة أنه بإمكان المرء أن يسمع رنين الإبرة إذا سقطت على الأرض. فقد كانت عيون التلاميذ مشدودةً إلى المُخلِّص الموعود الذي يقف في وسطهم. ثم تابع يسوع حديثه.

الفصح

هل تذكُر كيف كان حال بني إسرائيل وهم تحت العبوديَّة في مصر، وكيف أنَّ الله خلَّصهم من يد فرعون عن طريق تلك الضربات العشر العظيمة؟

كانت الضربة الأخيرة هي موت الأبكار. وقد قال الله لبني إسرائيل إنهم إذا تقيَّدوا بتعليماته وأوامره فسوف ينجون من تلك المأساة.

هل تذكُر كيف قال الله لبني إسرائيل أنه يتعيَّن عليهم أن يذبحوا حِملاناً؟ وبحسب ما يقوله الكتاب المقدَّس فإنَّ الرب يسوع المسيح هو الحَمَل المذبوح لأجلنا.

يبدو أنه لم يكُن من قَبيل المُصادفة أن يَتعرَّف يسوع على تلك المخلوقات الأليفة منذ ولادته؛ فقد وُلد في إسطبل تأوي فيها تلك الحملان الصغيرة. وكان أوَّل من زاره عند ولادته هُم الرُّعاة (أشخاص يعتنون بالخراف ويحمونها من كل أذى) كذلك، كانت بيت لحم التي وُلد فيها المسيح تُعنى بتربية الخراف التي يتم تقديمها ذبائح في الهيكل. وقد قال يوحنَّا المعمدان عن يسوع:

«هُوَذَا حَمَلُ اللهِ الَّذِي يَرْفَعُ خَطِيَّةَ الْعَالَمِ!» (يوحنَّا ١: ٢٩)

وهكذا، يجب أن لا نندهش حينما نقرأ أو نسمع أنَّ يسوع يُعرَف بحَمَل الفصح. لاحظ بعض أوجه الشبه التالية بين حَمَل الفصح وبين الرب يسوع المسيح:

كان ينبغي أن يكون حَمَل الفصح صحيحاً لا عيب فيه

كذلك كان يسوع بلا خطيَّة.

كان يجب أن يكون حَمَل الفصح ذكراً

كذلك كان يسوع رجُلاً.

مات حَمَل الفصح بدل الأبكار

كذلك مات يسوع لأجلنا.

تم وضع دم الحَمَل على عَتبة الباب العُليا والقائمتين. وكما أنَّ البقاء داخل البيت وَفَّر الحماية للأشخاص الذين آمنوا بما قاله الله،

فإنَّنا لن نجد الأمان من الموت الأبدي إلاَّ من خلال ثقتنا بما عمله الرب يسوع على الصليب.

حينما جاء ملاك الموت، كان يَعبُر عن كل بيت يرى على بابه دماً لأنَّ الحَمَل مات عوضاً عن البِكر في ذلك البيت

كذلك، فقد دَبَّر الله طريقةً لتخليصنا من الدينونة وذلك لأنَّ كل الدينونة التي نستحقُّها قد وُضعت على يسوع المسيح.

أمر الله بني إسرائيل أن لا يكسروا أيَّ عظمة من عظام الحَمَل عند أكله. وكان السبب في ذلك هو أنَّ الحَمَل كان صورة ورمزاً ليسوع

كذلك، لم تُكسر عظام المسيح أيضاً.

فالكتاب المقدَّس يقول: وَأَمَّا يَسُوعُ فَلَمَّا جَاءُوا إِلَيْهِ لَمْ يَكْسِرُوا سَاقَيْهِ، لأَنَّهُمْ رَأَوْهُ قَدْ مَاتَ (يوحنا ١٩: ٣٣)

بينما جلس التلاميذ هُناك يُصغون إلى كُلِّ كلمة يقولها الرب يسوع وهو يشرح لهم الأهميَّة الخاصَّة للفصح، لم يَسَعْهُم إلاَّ أن يُفكِّروا في الوقت الذي حدث فيه ذلك. فقد صُلب الرب يسوع المسيح في ذات اليوم الذي ذُبح فيه حَمَل الفصح! ورغم أنَّ التلاميذ لم يكونوا يعرفون أنَّ الكهنة كانوا يأملون في قتل يسوع بعد العيد، إلاَّ أنهم عرفوا أنَّ خطَّة الله هي التي انتصرت. وبذلك، فالمسيح لم يمُت في اليوم المُحدَّد فحسب، بل مات في الساعة التاسعة (أي: الثالثة بعد الظهر)؛ وهي نفس الساعة التي تم فيها تقديم حمل الفصح في الهيكل – ساعة تقديم الذبائح المسائيَّة. وبهذا، مات يسوع في الوقت المُعيَّن وذلك وفقاً للنبوءات التي قالها الأنبياء عنه.[1]

ويقول الكتاب المقدَّس:

... لأَنَّ فِصْحَنَا أَيْضًا الْمَسِيحَ قَدْ ذُبِحَ لأَجْلِنَا (١ كورنثوس ٥: ٧)

الناموس (الشريعة)

أتذكُر الوصايا العشر؟ لقد ظَنَّ بنو إسرائيل أنه سيكون من السهل عليهم تطبيق تلك الوصايا. ويعتقد الكثير من الناس في وقتنا الحاضر أنه بإمكانهم أن يُرضوا الله عن طريق تطبيق الوصايا العشر أو تطبيق ما يُشبهها. لكنَّنا رأينا من خلال دراستنا هذه أنَّ الله لا يَقبل بما هو أقل من الطاعة الكاملة.

لأَنَّ مَنْ حَفِظَ كُلَّ النَّامُوسِ، وَإِنَّمَا عَثَرَ فِي وَاحِدَةٍ، فَقَدْ صَارَ مُجْرِمًا فِي الْكُلِّ (يعقوب ٢: ١٠)

فَإِنِّي أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّكُمْ إِنْ لَمْ يَزِدْ بِرُّكُمْ عَلَى الْكَتَبَةِ وَالْفَرِّيسِيِّينَ لَنْ تَدْخُلُوا مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ (مَتَّى ٥: ٢٠)

إنَّ محاولة تطبيق الوصايا العشر لا تُعيد علاقة الإنسان المقطوعة مع الله.

لأَنَّهُ بِأَعْمَالِ النَّامُوسِ كُلُّ ذِي جَسَدٍ لاَ يَتَبَرَّرُ أَمَامَهُ. لأَنَّ بِالنَّامُوسِ مَعْرِفَةَ الْخَطِيَّةِ (رومية ٣: ٢٠)

الناموس يُذكِّرُنا بمُشكلتنا القديمة المُزدوجة. فهناك شيء ينبغي علينا التخلُّص منه ألا وهو **الخطيَّة**؛ وهناك شيء ينبغي علينا الحصول عليه ألا وهو **البِرّ**. ولا يُمكن للوصايا العشر أن تُعطينا برَّاً مُعادلاً لبرَّ الله. لكنَّ يسوع لم يتجاهل الناموس، بل قال:

«لاَ تَظُنُّوا أَنِّي جِئْتُ لأَنْقُضَ النَّامُوسَ أَوِ الأَنْبِيَاءَ. مَا جِئْتُ لأَنْقُضَ بَلْ لأُكَمِّلَ» (مَتَّى ٥: ١٧)

لقد فعل الرب يسوع شيئاً لم يكُن بمقدورنا نحن أن نفعله. فقد تَمَّم الناموس بالكامل، ثُمَّ كشف للإنسان أنَّه يوجد نوع من البرّ بعيد كُلَّ البُعد عن الناموس ولا يُمكن الحصول عليه إلاَّ من الله نفسه:

وَأَمَّا الآنَ فَقَدْ ظَهَرَ بِرُّ اللهِ بِدُونِ النَّامُوسِ، مَشْهُودًا لَهُ مِنَ النَّامُوسِ وَالأَنْبِيَاءِ، بِرُّ اللهِ بِالإِيمَانِ بِيَسُوعَ الْمَسِيحِ، إِلَى كُلِّ وَعَلَى كُلِّ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ

(رومية ٣: ٢١، ٢٢)

يقول الكتاب المقدَّس إنَّ كُلَّ ما ينبغي علينا فعلُه للحصول على هذا النوع من البرّ هو أن نؤمن. إنَّ الأمر بهذه البساطة! ورغم أنَّ الأمر بسيط بالنسبة لنا إلاَّ أنه تطلَّب الكثير من الله.

لم تكُن عدالة الله تسمح بالتغاضى عن الخطيَّة كما لو أنها لم تحدُث. لذلك، كان لا بُدَّ من وجود عقاب للخطيَّة. وكما عرفنا فإنَّ أُجرة الخطيَّة هي موت. ولغاية ذلك الوقت، كان

الإنسان يُقدِّم ذبائح حيوانيَّة للتكفير عن خطيَّته. لكنَّ تلك الذبائح الحيوانية لم تكُن سوى غطاءً مؤقَّتاً أو كفَّارة مؤقَّتة لأنه:

لاَ يُمْكِنُ أَنَّ دَمَ ثِيرَانٍ وَتُيُوسٍ يَرْفَعُ خَطَايَا (عبرانيِّين ١٠: ٤)

لكن هل كان هناك حَلٌّ لمشكلة الخطيَّة؟ أجل، فقد كان هُناك عمل عظيم ورائع وفريد من نوعه قام به اللّه لأجلنا ألا وهو أنه جاء هو بنفسه ليُنقذنا من عقاب الخطيَّة في شخص الرب يسوع المسيح:

الَّذِي قَدَّمَهُ اللهُ كَفَّارَةً بِالإِيمَانِ بِدَمِهِ، لإِظْهَارِ بِرِّهِ، مِنْ أَجْلِ الصَّفْحِ عَنِ الْخَطَايَا السَّالِفَةِ ... (رومية ٣: ٢٥)

لقد تم إرضاء عدالة اللّه بموت يسوع المسيح عن خطايا جميع البشر. وكان اللّه قد ترك الخطايا السالفة دون عقاب لأنه كان يعرف أنَّ يسوع سيموت في يوم ما عن جميع هذه الخطايا، وأنه سيدفع أُجرة الموت بالكامل. وهكذا، فقد كان قصد اللّه من موت يسوع المسيح أن:

يَظْهَرَ أَيْضاً بِرُّهُ فِي الزَّمَنِ الْحَاضِرِ: فَيَتَبَيَّنَ أَنَّهُ بَارٌّ وَأَنَّهُ يُبَرِّرُ مَنْ لَهُ الإِيمَانُ بِيَسُوعَ. (رومية ٣: ٢٦ – التفسيرية)

التبرير

كانت كلمة «مُبَرَّر» مُصطلحاً قانونيَّاً يُستخدم في قاعات المحاكم في زمن يسوع. هل تذكُر الأحداث التي جَرَت حينما أخطأ آدم وحوَّاء في جَنَّة عَدْن؟ في ذلك الوقت، خلع اللّه رداء الصداقة وارتدى ثوب القاضي. وبصفته ديَّاناً بارَّاً وعادلاً فقد وجد اللّه أنَّ الإنسان مُذنب بتُهمة مُخالفة شريعته والتعدِّي على قداسته. وهكذا، فقد وقف الإنسان أمام اللّه الديَّان وهو مُدان بتُهمة التعدِّي الصارخ على شريعة اللّه. أمَّا الحُكم فكان يقضي بالموت – الموت

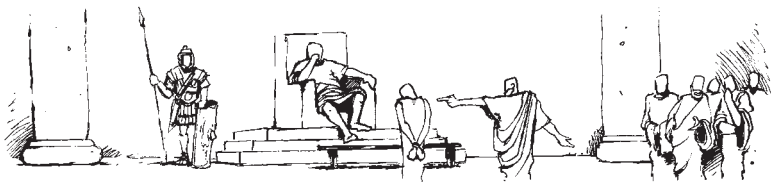

الأبدي.

لكنَّ اللّه نهض من كُرسي الدينونة، وخلع ثوب القاضي (أو الديَّان)، وارتدى ثانيةً رداء الصداقة. فقد ترك اللّه الابن – الكلمة الأزلي – السماء في الأعالي ونزل إلى الأرض في هيئة اللّه-الإنسان «يسوع المسيح» لكي يقف معنا أمام كُرسيّ القضاء.

كان قصد الرب يسوع الوحيد هو أن يأخذ عقوبة الموت على عاتقه وأن يدفع الثمن عَنَّا. وحيث أنه لم يقترف أيَّ خطيَّة يموت عليها، فقد كان قادراً على الموت عن خطايا الآخرين.[٢] لذلك، مات المسيح لأجلنا وتمكَّن من دفع أُجرة الخطيَّة عن البشر جميعاً لمرَّة واحدة إلى الأبد.

لكن رُغم أنَّ عقاب الخطيَّة قد رُفعَ عنَّا، إلاَّ أنّنا ما زلنا بحاجة للبِرّ. وقد رأينا سابقاً أنه

كما أنَّ الله حسب إيمان إبراهيم بِرَّاً، فإنه يحسب إيماننا بِرَّاً نحن أيضاً. لكن لكي نحصل على تلك الطهارة وذلك النقاء، كان لا بُدَّ من حدوث شيءٍ ما في قاعة محكمة الله. فيسوع لم ينزع عنَّا ثياب الخطيَّة المُتَّسخة فحسب، بل قام بأمرٍ رائعٍ للغاية ألا وهو أنه كَسانا بثوب بِرِّه النقي الطاهر، ومنحنا بِرَّاً مُعادلاً تماماً لكماله وقداسته.

وهكذا، حينما يجلس الله الديَّان وينظر إلى الناس ويرى شخصاً مُكتسياً ببِرّ المسيح فإنه يقول بكل نزاهة وعدالة: «إنَّ هذا الشخص الذي يقف أمامي في هذه المحكمة السماويَّة هو شخص بار». لهذا، فهو يرفع مطرقته ويُعلن بضربة واحدة أنَّنا «أبرار!»

هذا هو معنى كلمة «مُبَرَّر» – أي أن يتم الإعلان عن صلاح المرء في نظر الله. لكن تذكَّر أنَّ هذا الأمر لا يسري إلاَّ على الأشخاص الذين يؤمنون بأنَّ الرب يسوع المسيح مات لأجلهم على الصليب. فالكتاب المقدَّس يقول:

... الإِنْسَانَ يَتَبَرَّرُ بِالإِيمَانِ ... (رومية ٣: ٢٨)

فَإِذْ قَدْ تَبَرَّرْنَا بِالإِيمَانِ لَنَا سَلاَمٌ مَعَ اللهِ بِرَبِّنَا يَسُوعَ الْمَسِيحِ (رومية ٥: ١)

وقد رأينا أنَّ الوصايا العشر لا يُمكنها أن تجعل أيَّ شخصٍ بار.

... ما مِنْ أَحَدٍ يَتَبَرَّرُ عِنْدَ اللهِ بِالشَّرِيعَةِ ... (غلاطية ٣: ١١ – المشتركة)

... إِذِ الْجَمِيعُ أَخْطَأُوا وَأَعْوَزَهُمْ مَجْدُ اللهِ (رومية ٣: ٢٣)

رغم ذلك فإنَّ للوصايا العشر غاية واضحة. فالكتاب المقدس يقول إنَّ الوصايا العشر هي أشبه بمُعلِّم يُمسك بيدنا ويقودنا إلى الصليب ويُشير إلى حاجتنا إلى المُخلِّص.

فالشَّرِيعَةُ كَانَت مُؤَدِّبًا لنا إلى أَنْ يَجِيءَ المَسِيحُ حتّى نَتَبَرَّرَ بالإيمان

(غلاطية ٣: ٢٤ – المشتركة)

إنَّ كُلَّ شخص بحاجة لمُخلِّص. ولا يُمكننا أن نتيقَّن من قبول الله لنا إلاَّ إذا لبسنا بِرَّ المسيح.

٤ . الناموس والأنبياء

- من خيمة الاجتماع إلى الحيَّة النُحاسيَّة –

رُبَّما تَذكُر أنَّ الله أمر نبيَّه موسى أن يبني خيمة بمواصفات مُعيَّنة ومُحدَّدة ألا وهي «خَيمة الاجتماع». وقد كانت خيمة الاجتماع هذه وسيلة بصريَّة واضحة تُساعدنا على فهم ما كان الله يفعله لإصلاح علاقتنا المقطوعة به. هل تذكر كيف أنَّ الله كان يُعلن عن حضوره لشعب إسرائيل بعمود سحاب نهاراً وبعمود نار ليلاً؟ كان ذلك العمود يظهر فوق تابوت العهد الموجود في قدس الأقداس، وكان مَجْد الله يملأ المكان بأكمله.

ويقول لنا الكتاب المقدَّس إنَّ الرب يسوع المسيح هو المعنى الحقيقي والتفسير الكامل لذلك الرمز الخفي المُتمثِّل في خيمة الاجتماع وسحابة مجد الله. فكما رأينا سابقاً، فإنَّ أحد ألقاب يسوع هو «عمَّانوئيل»:

«... وَيَدْعُونَ اسْمَهُ عِمَّانُوئِيلَ الَّذِي تَفْسِيرُهُ: اَللهُ مَعَنَا»

(مَتَّى ١: ٢٣؛ إشعياء ٧: ١٤)

وكما أنَّ مَجْد الله ملأ قُدس الأقداس، فإنَّ مَجده ساكن في يسوع القُدُّوس. هل تذكُر كيف أنَّ يسوع اصطحب معه ثلاثةً من تلاميذه إلى الجبل وأراهُم مَجده؟ وقد كتب أحد التلاميذ الذين شاهدوا مجد الرب يسوع المسيح فقال:

وَالْكَلِمَةُ صَارَ جَسَدًا وَحَلَّ بَيْنَنَا حرفيًّا: نَصَبَ خَيْمَتَهُ بَيْنَنا ، وَرَأَيْنَا مَجْدَهُ، مَجْدًا كَمَا لِوَحِيدٍ مِنَ الآبِ، مَمْلُوءًا نِعْمَةً وَحَقًّا (يوحنَّا ١: ١٤)

باب واحد فقط

حينما كان المرء يقترب من الله الساكن في خيمة الاجتماع، كان أوَّل شيءٍ يراه هو السور الذي يُحيط بالساحة الخارجية لخيمة الاجتماع. وكان لهذا السور باب واحد فقط ممَّا يُذكِّرنا بأنَّ هناك طريق واحد فقط إلى الله. فقد قال الرب يسوع المسيح:

«أَنَا هُوَ الطَّرِيقُ وَالْحَقُّ وَالْحَيَاةُ. لَيْسَ أَحَدٌ يَأْتِي إِلَى الآبِ إِلاَّ بِي»

(يوحنَّا ١٤: ٦)

المذبح النحاسي

بعد أن يدخل المرء ذلك الباب الذي تحدَّثنا عنه قبل قليل، كان أوَّل شيءٍ يراه هو المَذبح النحاسي. وهذا يُذكِّرُنا أنَّ الخطوة الأولى لإقامة علاقة سليمة مع الله هي من خلال ذبيحة الدم. وكذلك الحال بالنسبة لنا نحن أيضاً. فالخطوة الأولى والوحيدة لإقامة علاقة سليمة مع الله هي من خلال الرب يسوع المسيح الذي بذل نفسه لأجلنا ومات بدلاً عنَّا.

إنَّ مُقارنةً سريعةً لهذين المكانين – المذبح النحاسي والصليب – تُبيِّن كيف أنَّ الرب يسوع كان هو التحقيق الكامل لذلك الرمز المُتمثِّل في الذبائح الحيوانيَّة التي كانت تُقدَّم على المذبح النحاسي في ساحة خيمة الاجتماع.

المذبح النحاسي	الصليب
قرباناً للرب: ...	يسوع: ...
... من البقر والضأن الغنم .	... هو حَمَل الله.
... ذَكَراً.	... ذَكَر.
... صحيحاً بلا عيب .	... بلا خطيَّة.
... يكون مقبولاً أمام الرب.	... مات بدلاً عنَّا.
... تكفيراً عنه الإنسان .	... هو طريقنا للحصول على غفران الخطايا.
... ذبيحة دم. (لاويين ١: ٢-٥ – المشتركة)	... هو ذبيحة الدم عَنَّا ولأجلنا.

المنارة (الشمعدان)

أتذكُر كيف أمر الله نبيَّه موسى أن يصنع منارةً (أو شمعداناً) من الذهب الخالص لكي يُنير القُدس؟ إنَّ هذه المنارة ترمز إلى الرب يسوع المسيح الذي قال عن نفسه:

«أَنَا هُوَ نُورُ الْعَالَمِ. مَنْ يَتْبَعْنِي فَلاَ يَمْشِي فِي الظُّلْمَةِ بَلْ يَكُونُ لَهُ نُورُ الْحَيَاةِ» (يوحنَّا ٨: ١٢)

وهكذا، فإنَّ الرب يسوع المسيح يُريد أن يقود الناس من ظُلمة الخطيَّة إلى نور الحياة الأبديَّة.

مائدة الخُبز

أتذكُر كيف قال الله لنبيِّه موسى أن يصنع مائدةً وأن يضع عليها اثني عشر رغيفاً من الخُبز بحيث يُمثِّل كُلٌّ رغيف أحد أسباط بني إسرائيل؟ ومَرَّةً أخرى نقول إنَّ هذا الخُبز هو رمز للرب يسوع المسيح الذي قال عن نفسه:

«أَنَا هُوَ خُبْزُ الْحَيَاةِ. مَنْ يُقْبِلْ إِلَيَّ فَلاَ يَجُوعُ، وَمَنْ يُؤْمِنْ بِي فَلاَ يَعْطَشُ أَبَدًا» (يوحنَّا ٦: ٣٥)

وكما أنَّ تلك الأرغفة كانت صورة للخُبز الذي يكفي كل واحدٍ من بني إسرائيل، فقد مات

المحبَّة والعدالة

في الطريق إلى عِمواس، قال يسوع للتلميذين إنه كان ينبغي عليه أن يموت. قد نشعر بالانزعاج حينما نسمع أنه كان ينبغي على الرب يسوع أن يموت لأجلنا؛ فنحن نعرف أننا لا نستحق مثل هذه المحبَّة. لكن لماذا قال يسوع ذلك؟ لأنَّ موته كان ضروريًّاً بالمعنى التالي:

لو أنَّ الله سمح لعدالته فقط أن تأخُذ مجراها لكان ينبغي علينا أن نموت بسبب خطايانا. ورغم أنَّ حُكم الله عادل دون أدنى شك، إلاَّ أنَّ محبَّته لا تسمح بذلك.

من جهة أخرى، لو أنَّ محبَّته هي التي سادت فسوف يتجاهل الله الخطيَّة إلى الأبد. لكن حيث أنَّ الله قُدُّوس وبار فلا يُمكنه أن يتغاضى عن الخطيَّة. وهكذا، لا يُمكن لعدالته أن تسمح بذلك أيضاً لأنه لا بُدَّ من مُواجهة الخطيَّة.

لهذا، نجد في موت يسوع على الصليب التعبير الكامل والمتوازن عن كلتا هاتين الصفتين. فقد كان موته تعبيراً عن محبَّة الله الفائقة لنا، كما أنه كان تسديداً لمطالب عدل الله. وهكذا، وفي ضوء محبَّة الله وعدالته، كان الصليب أمراً حتميًّاً.

لَيْسَ لأَحَدٍ حُبٌّ أَعْظَمُ مِنْ هذَا: أَنْ يَضَعَ أَحَدٌ نَفْسَهُ لأَجْلِ أَحِبَّائِهِ
(يوحنَّا ١٥: ١٣)

وَلكِنَّ اللهَ بَيَّنَ مَحَبَّتَهُ لَنَا، لأَنَّهُ وَنَحْنُ بَعْدُ خُطَاةٌ مَاتَ الْمَسِيحُ لأَجْلِنَا (رومية ٥: ٨)

ما من شكٍّ أنَّ هذا الأمر الذي قام به الله يبقى خارج نطاق عقولنا وفهمنا المحدود. فمن الصعب علينا أن نستوعب كيف أنَّ الخالق استمر في كونه إلهاً رغم أنه جاء إلى هذه الأرض وصار بشراً مثلنا! إنه أمر يصعب تصديقه! لكن يجب علينا أن نتذكَّر دوماً أنَّ طُرق الله ليست كطُرقنا نحن البشر. وكل ما يمكننا فعله هو أن نؤمن بما يقوله الله في كلمته المُقدَّسة، وأن نقول مع العذراء مريم: «كَيْفَ يَكُونُ هذَا؟» وأن نقول مع ملاك الرب: «لَيْسَ شَيْءٌ غَيْرَ مُمْكِنٍ لَدَى اللهِ». لذلك فإنَّنا نخضع لكلمة الله ومشيئته.

الرب يسوع المسيح عن خطايا جميع الناس. وحيث أنه هو خُبز الحياة، فهو يُقدِّم لنا الحياة الأبديَّة.

«اَلْحَقَّ الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: مَنْ يُؤْمِنُ بِي فَلَهُ حَيَاةٌ أَبَدِيَّةٌ. أَنَا هُوَ خُبْزُ الْحَيَاةِ» (يوحنَّا ٦: ٤٧، ٤٨)

حجاب الهيكل

فَكِّر ثانيةً في كيف أنَّ الله أمر نبيَّه موسى بأن يُعلِّق حجاباً سميكاً بين القُدس وقُدس

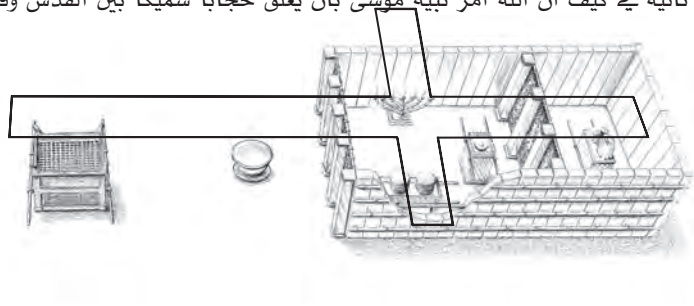

الأقداس. ولم يكُن مسموحاً لأي شخص بالدخول إلى مَحضر الله القُدُّوس.

يقول الكتاب المقدَّس إنَّنا مُنفصلين عن الله ولا يُمكننا الدخول إلى مَحضره بسبب خطايانا. لذلك، فنحن غُرباء عن الله وعن محبَّته.

لكنَّ الرب يسوع المسيح جاء إلى هذه الأرض. ويُخبرنا الكتاب المقدَّس أنَّ حجاب الهيكل كان رمزاً لجسد الرب يسوع المسيح. لذلك، حينما مات يسوع المسيح على الصليب، انشقَّ الهيكل من أعلى إلى أسفل. لم يكُن بمقدور أي شخص أن يشق الحجاب؛ لكنَّ الله شَقَّه لكي يُبيِّن لنا أنَّ جسد يسوع قد مات عنِّي وعنك. وهكذا، يقول لنا الكتاب المقدَّس إنه إن وضعنا ثقتنا في المسيح فسوف يغفر الله لنا خطايانا ويُطهِّرنا من كُلِّ إثم. وبالتالي، يُصبح بمقدورنا أن ندخُل إلى مَحضره لأنَّ العلاقة بيننا وبين الله قد عادت من جديد.

ونَحنُ واثقونَ، أيُّها الإخوَةُ، بأنَّ لنا طريقًا إلى قُدْسِ الأقداسِ بِدَمِ يَسوعَ، طريقًا جديدًا حيًّا فتَحَهُ لنا في الحِجابِ، أي في جَسَدِهِ، ... فلْنَقتَرِبْ بِقَلبٍ صادِقٍ وإيمانٍ كامِلٍ، ... (عبرانيين ١٠: ١٩-٢٠، ٢٢ – المشتركة)

وَلكِنِ الآنَ في المَسيحِ يَسُوعَ، أَنْتُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ قَبْلاً بَعِيدِينَ، صِرْتُمْ قَرِيبِينَ بِدَمِ المَسِيحِ (أفسُس ٢: ١٣)

وهكذا، لم يعُد الإنسان صديقاً لله فحسب، بل يقول لنا الكتاب المقدَّس إنَّ الإنسان أصبح عضواً كامل الأهليَّة في عائلة الله حيث أنه أصبح ابناً لله العليّ.

في العالم الروماني في زمن المسيح، كان التبنِّي يتم من خلال بعض الإجراءات القانونيَّة التي يتم فيها إسباغ البُنوَّة على الطفل المُراد تبنِّيه. فنحن نرى في مجتمعاتنا المعاصرة أنَّ الطفل المولود حديثاً يتمتَّع بصورة تلقائيَّة بجميع الامتيازات والحقوق التي تتمتَّع بها عائلته. أمَّا في ذلك العالم الروماني القديم فقد كان للرجال جواري (عبيد من النساء)، ولم يكن أبناء هؤلاء الجواري يتمتعون بنفس امتيازات البنوة (كحمل اسم الأب أو الميراث) التي يتمتع بها أبناء الزوجة الحرة الشرعية. لذلك، لم يكُن طفل هذه الجارية وريثاً شرعيَّاً

لأبيه إلاَّ إذا تَمَّ إسباغ البُنوَّة عليه بموجب إجراءات قانونيَّة خاصَّة. وحالما تنتهي إجراءات التبنِّي، يُصبح ذلك الطفل أو الشخص عضواً كامل الأهليَّة والحقوق في تلك العائلة.

مثال على ذلك من تاريخ العرب قصة عنترة بن شَدَّاد الذي كان ابن جارية عمرو بن شَدَّاد. فقد كان عنترة عبداً عند أبيه ولم يحمل اسمه إلاَّ بعد أن كبر واعترف به أبوه كابن له. وفي المجتمع الروماني كان الأب يُعلن وريثه الرسمي في احتفال كبير، وكان هذا الوريث الرسمي يرث معظم أملاك أبيه مثلما يرث وليُّ العهد عرش مملكة أبيه.

وكذلك الأمر بالنسبة لنا نحن أيضاً. فنحن الذين كُنَّا غُرباء عن محبَّة الله قد أصبحنا الآن أعضاءً في عائلته – أي أننا أصبحنا أولاداً لله.

ثُمَّ بِمَا أَنَّكُمْ أَبْنَاءٌ، أَرْسَلَ اللهُ رُوحَ ابْنِهِ إِلَى قُلُوبِكُمْ صَارِخًا: «يَا أَبَا الآبُ». **إِذًا لَسْتَ بَعْدُ عَبْدًا** للخطيَّة وإبليس **بَلِ ابْنًا**، وَإِنْ كُنْتَ ابْنًا فَوَارِثٌ لِلهِ بِالْمَسِيحِ (غلاطية ٤: ٦، ٧)

غطاء التابوت

غطاء التابوت (أو كُرسي الرحمة) هو الغطاء الخاص الموضوع فوق تابوت العهد الموجود في قُدس الأقداس. وكان رئيس الكهنة يدخل إلى قُدس الأقداس مَرَّة واحدة في السنة في يوم الكفَّارة ليرُش الدم على غطاء التابوت للتكفير عن خطايا الأمَّة كُلِّها. وهكذا، فقد دَبَّر الله لبني إسرائيل طريقةً للنجاة من دينونة خطاياهم عن طريق سفك دم حَمَل بريء. وبالطريقة نفسها، فإنَّ يسوع المسيح هو كفَّارة لنا حيث أننا نجد طريقةً للنجاة من الموت الأبدي عن طريق دمه المسفوك لأجلنا. لهذا، لم تَعُد هناك حاجة لتقديم الذبائح لأنَّ الرب يسوع المسيح كان هو الذبيحة الأخيرة. تقول كلمة الله:

وَلَنْ أَذْكُرَ خَطَايَاهُمْ وَتَعَدِّيَاتِهِمْ فِي مَا بَعْدُ. وَإِنَّمَا حَيْثُ تَكُونُ مَغْفِرَةٌ لِهذِهِ لاَ يَكُونُ بَعْدُ قُرْبَانٌ عَنِ الْخَطِيَّةِ (عبرانيين ١٠: ١٧، ١٨)

بموت الرب يسوع المسيح على الصليب، مات آخر حَمَل. وكانت خطَّة الله تقضي مُنذ بداية التاريخ أن يُدبِّر لنا طريقاً للنجاة من خلال الرب يسوع المسيح. وهكذا، فقد كانت الذبائح مُجرَّد رمز أو صورة لما سيأتي. فلم يكُن هناك أي شيء مُميَّز في تلك الذبائح لأنها لم تكُن قادرة على إزالة الخطيَّة. أمَّا الآن، فلا حاجة لتقديم أي نوع من الذبائح لأنَّ الرب يسوع المسيح دفع بدمع أُجرة الخطيَّة مَرَّةً واحدةً وإلى الأبد.

... تَقَدَّسْنَا بِجَسَدِ يَسُوعَ الْمَسِيحِ الَّذِي قَدَّمَهُ قُرْبَانًا **مَرَّةً وَاحِدَةً**. وَيَقِفُ الْكَاهِنُ الْيَهُودِيُّ كُلَّ يوم فَيَقُومُ بِالْخِدْمَةِ وَيُقَدِّمُ الذَّبَائِحَ نَفْسَهَا مِرَّاتٍ كَثِيرَةً، وَهِيَ لاَ تَقْدِرُ أَنْ تَمْحُوَ الْخَطَايَا. وَأَمَّا الْمَسِيحُ، فَقَدَّمَ إِلَى الأَبَدِ **ذَبِيحَةً وَاحِدَةً** كَفَّارَةً لِلْخَطَايَا، ثُمَّ جَلَسَ عَنْ يَمِينِ اللهِ. (عبرانيين ١٠: ١٠-١٢ – المشتركة)

في سنة ٧٠ للميلاد، قامت الجيوش الرومانيَّة (بقيادة تيطس) بتدمير الهيكل اليهودي مُنهيةً بذلك الذبائح التي كانت تُقدَّم على المذبح النحاسي. وبهذا، فكأنَّ الله أرسل رسالةً إلى جميع شعوب العالم يقول فيها: لم تَعُد الذبائح الحيوانيَّة مَقبولة بعد الآن.

كان الله يَقبل الذبائح الحيوانيَّة لأنه كان يترقَّب ذلك اليوم الذي سيموت فيه يسوع المسيح باعتباره الذبيحة الأخيرة. وبموت الرب يسوع المسيح على الصليب، قام بالتكفير عن الخطيَّة لا لسنة واحدة فحسب، بل قام بمسحها وإزالتها من أمام عينيِّ الله إلى الأبد. وقد صرخ الرب يسوع وهو على الصليب: «قَدْ أُكْمِلَ!» – فالحَمَل الأخير قد وُجِد

وَذُبِحَ!

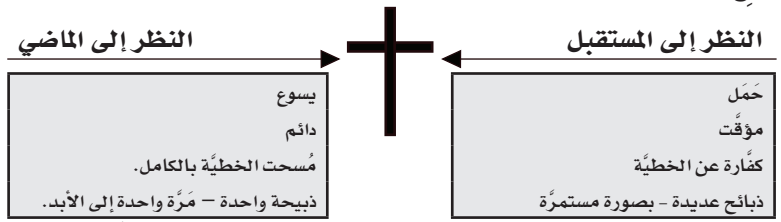

وربَّما أخبر يسوع تلاميذه بالكثير من الأمور الأخرى عن نفسه والتي تمثَّلت في خيمة الاجتماع حيث أنها وسيلة بصريَّة تحتوي على تفاصيل كثيرة جداً وغنيَّة بالمقارنات. ويمكننا أن نثق أنَّ ما قاله يسوع لتلاميذه في هذه الحادثة قد حُفِرَ في ذاكرتهم إلى الأبد.

موسى والحيَّة النُحاسيَّة

هل تذكُر كيف أخطأ بنو إسرائيل فأطلق الله عليهم الحيَّات السامَّة؟ وعندها، راحوا يصرخون طلباً للنجاة. لهذا، أمر الله عَبده موسى أن يصنع حيَّةً نُحاسيَّةً وأن يرفعها عالياً في وسط المُخيَّم. فإن أراد أحد أن يشفى من لدغة الأفعى فما عليه سوى أن ينظُر إلى تلك الحيَّة النحاسيَّة وأن يُصدِّق أنَّ الله سيشفيه. كان هذا هو كل ما ينبغي عليهم فعله!

«وَكَمَا رَفَعَ مُوسَى الْحَيَّةَ فِي الْبَرِّيَّةِ هكَذَا يَنْبَغِي أَنْ يُرْفَعَ ابْنُ الإِنْسَانِ، لِكَيْ لاَ يَهْلِكَ كُلُّ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ بَلْ تَكُونُ لَهُ الْحَيَاةُ الأَبَدِيَّةُ.
لأَنَّهُ هكَذَا أَحَبَّ اللهُ الْعَالَمَ حَتَّى بَذَلَ ابْنَهُ الْوَحِيدَ، لِكَيْ لاَ يَهْلِكَ كُلُّ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ، بَلْ تَكُونُ لَهُ الْحَيَاةُ الأَبَدِيَّةُ. لأَنَّهُ لَمْ يُرْسِلِ اللهُ ابْنَهُ إِلَى الْعَالَمِ لِيَدِينَ الْعَالَمَ، بَلْ لِيَخْلُصَ بِهِ الْعَالَمُ.
اَلَّذِي يُؤْمِنُ بِهِ لاَ يُدَانُ، وَالَّذِي لاَ يُؤْمِنُ قَدْ دِينَ، لأَنَّهُ لَمْ يُؤْمِنْ بِاسْمِ ابْنِ اللهِ الْوَحِيدِ» (يوحنَّا ٣: ١٤-١٨)

يُولد الإنسان في هذا العالم وهو مُدان ومحكوم عليه بالموت. وبذلك فنحن نُشبه الشعب العبراني القديم الذي لدغته الحيَّات. وبعبارة أخرى، فنحن أموات بالذنوب والخطايا، ولا نتمتَّع بعلاقة سليمة مع الله. لذلك، سوف تموت أجسادنا في نهاية المطاف. وبعد الموت سنواجه موتاً آخر ألا وهو الموت الأبدي في بُحيرة النار.

وهنا دخل يسوع المشهد ودفع أُجرة الخطيَّة بموته عَنَّا. لكنّه لم يبق ميِّتاً؛ بل قام من الموت وعاد إلى الحياة من جديد. فإن نظرنا إليه بإيمان – كما فعل الشعب العبراني القديم بالحيَّة النُحاسيَّة – فسوف يُعطينا حياةً روحيَّةً. وكما أنه قام من الموت وأصبح حيَّاً، فسوف نُصبح نحن أيضاً أحياءً روحيَّاً في حياتنا هذه وإلى الأبد. ويُشَبِّه الكتاب المقدَّس هذه الحياة الروحيَّة الجديدة بالولادة من جديد (الولادة الثانية)

وَإِذْ كُنْتُمْ **أَمْوَاتًا** فِي الْخَطَايَا ... أَحْيَاكُمْ مَعَهُ، مُسَامِحًا لَكُمْ بِجَمِيعِ الْخَطَايَا (كولوسي ٢: ١٣)
اَللهُ الَّذِي هُوَ غَنِيٌّ فِي الرَّحْمَةِ، مِنْ أَجْلِ مَحَبَّتِهِ الْكَثِيرَةِ الَّتِي أَحَبَّنَا بِهَا، وَنَحْنُ أَمْوَاتٌ بِالْخَطَايَا أَحْيَانَا مَعَ الْمَسِيحِ (أفسس ٢: ٤، ٥)

وهكذا، فقد كُنَّا مِنْ قَبْل أمواتاً روحيَّاً؛ لكنَّنا الآن أحياء في المسيح وسوف نسكن في السماء إلى الأبد مع خالقنا.

٥ . الناموس والأنبياء

- من يوحنَّا المعمدان إلى القيامة -

بينما كان الرب يسوع المسيح يشرح لتلاميذه بصورة مُنظَّمة ومُتسلسلة أهميَّة الأحداث المُدوَّنة في الأسفار المُقدَّسة، من المُرجَّح أنه قَدَّم لهم شرحاً مُفصَّلاً أكثر من شرحنا في هذا الكتاب. ومن المؤكَّد أنَّ التلاميذ كانوا مُهتمِّين جداً بالموضوعات التي اختبروها من قَبل.

الراعي الصالح

يقول الكتاب المقدَّس:

كُلُّنَا كَغَنَمٍ ضَلَلْنَا. مِلْنَا كُلُّ وَاحِدٍ إِلَى طَرِيقِهِ ... (إشعياء ٥٣: ٦)

اختار الإنسان أن يسير في طريقه الذي اختاره لنفسه، وسلك في طريق قادته إلى بَريَّة روحيَّة قاحلة. لهذا فإنَّ الكتاب المقدَّس يقول عن الإنسان بأنه «**ضَالّ**».

لكنَّ يسوع جاء يبحث عنَّا. فحينما كان الرب يسوع على الأرض، قال مَثَلاً يُبيِّن من خلاله اهتمامه بنا:

أَيُّ إِنْسَانٍ مِنْكُمْ لَهُ مِئَةُ خَرُوفٍ، وَأَضَاعَ وَاحِدًا مِنْهَا، أَلاَ يَتْرُكُ التِّسْعَةَ وَالتِّسْعِينَ فِي الْبَرِّيَّةِ، وَيَذْهَبَ لأَجْلِ الضَّالِّ حَتَّى يَجِدَهُ؟ وَإِذَا وَجَدَهُ يَضَعُهُ عَلَى مَنْكِبَيْهِ فَرِحًا، وَيَأْتِي إِلَى بَيْتِهِ وَيَدْعُو الأَصْدِقَاءَ وَالْجِيرَانَ قَائِلاً لَهُمْ: افْرَحُوا مَعِي، لأَنِّي وَجَدْتُ خَرُوفِيَ الضَّالَّ! أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّهُ هَكَذَا يَكُونُ فَرَحٌ فِي السَّمَاءِ بِخَاطِئٍ وَاحِدٍ يَتُوبُ أَكْثَرَ مِنْ تِسْعَةٍ وَتِسْعِينَ بَارًّا لاَ يَحْتَاجُونَ إِلَى تَوْبَةٍ (لوقا ١٥: ٤-٧)

كان بإمكان الله أن يبقى في السماء وأن يُدير ظهره للبشر إلى الأبد؛ لكنَّه لم يفعل ذلك. بل إنَّ الكتاب المقدَّس يقول بكل وضوح إنَّ الرب يسوع أخذ المبادرة بنفسه في البحث عنَّا. وبما أنه «الراعي الصالح»، فقد فعل ما هو أكثر من ذلك.

«أَنَا هُوَ الرَّاعِي الصَّالِحُ، وَالرَّاعِي الصَّالِحُ يَبْذِلُ نَفْسَهُ عَنِ الْخِرَافِ»

(يوحنَّا ١٠: ١١)

وكان هذا هو ما فعله الرب يسوع تماماً. فقد مات لأجلنا ودفع عنَّا أُجرة خطايانا. وهذه هي المحبَّة بأروع صورها وأكمل معانيها. أجل، فالله محبَّة؛ لكن ليس بدون ثمن باهظ! فقد صرخ يسوع وهو على الصليب قائلاً:

«إِلهِي، إِلهِي، لِمَاذَا تَرَكْتَنِي» (مرقس ١٥: ٣٤)

لم يَمُتْ يسوع موتاً جسديَّاً فحسب، بل كان هناك بُعد روحي أيضاً. فالخطيَّة تعني الانفصال عن الله. وفي تلك الساعات العصيبة على الصليب، عانى الرب يسوع من مرارة الانفصال

عن الله الآب حينما حَمَل بنفسه خطايا العالم.

يقول الكتاب المقدَّس إنَّ السماء أظلمت في ذلك الوقت رُغم أنَّ الوقت كان ما زال في منتصف النهار. لكن يبدو أنَّ الله الآب لم يشأ أن يُشاهد العالم ذلك الكرب الشديد الذي عانى منه الابن يسوع حينما اختار أن يحمل خطايانا ويموت بدلاً عنَّا. لقد سمح الله بذلك؛ بل إنه هو الذي خَطَّط لهذا كُلِّه. لكن كما رفع النبي إبراهيم السكين عالياً والألم يعتصر قلبه لكي يقتل ابنه الحبيب، كذلك فإنَّ الله وضع عقوبة خطايانا جميعاً على ابنه الحبيب يسوع. ورغم أنَّ الله أنقذ إسحاق من الموت، إلاَّ أنه لم يُنقذ ابنه يسوع! فقد كان يسوع هو الذبيحة الكاملة والأخيرة.

عمليَّة المُبادلة العظيمة

يقول الكتاب المقدَّس:

لأَنَّهُ جَعَلَ الَّذِي لَمْ يَعْرِفْ خَطِيَّةً، خَطِيَّةً لأَجْلِنَا ❖... (٢ كورنثوس ٥: ٢١أ)

❖لا تعني هذه الآية أنَّ الرب يسوع أصبح خاطئاً؛ بل إنَّ كلمة «خطيَّة» الثانية في هذه الآية تعني «**ذبيحة خطيَّة**». وبالتالي، يمكن قراءة هذه الآية على النحو التالي: «لأَنَّهُ جَعَلَ الَّذِي لَمْ يَعْرِفْ خَطِيَّةً، ذَبيحة خَطِيَّةً لأَجْلِنَا ...». فحينما حَمَل الرب يسوع خطايانا، وضع الله عليه كل غضبه البار ضدَّ الخطيَّة. وعندها، أمكن ليسوع أن يفعل شيئاً لا يُمكننا نحن فعله. فقد قال: «قَدْ أُكْمِلَ!» فلو أننا دفعنا أُجرة خطايانا بأنفُسنا لكان ينبغي علينا أن نستمرَّ في ذلك إلى أبد الآبدين، ولما أمكننا أن نقول «قد أُكمِل». أمَّا الرب يسوع فقد دفع أُجرة خطايا كُل العالم بالكامل. أمَّا النصف الثاني من الآية أعلاه فيقول:

... لِنَصِيرَ نَحْنُ بِرَّ اللهِ فِيهِ (٢ كورنثوس ٥: ٢١ب)

نحن نجد بِرَّ الله في الرب يسوع المسيح! فهو ليس برّنا نحن، بل إنَّ الله يُعطينا بِرَّ المسيح، أو يكسونا ببِرّ المسيح. وتُعتبر هذه أعظم وأهم عمليَّة مُبادلة جرت في الكون. فعلى الصليب، حمل المسيح خطايانا القذرة والبغيضة. وحينما نؤمن به ونضع ثقتنا فيه فإنه يُعطينا برَّه الطاهر النقي. لذلك، لم يعُد الإنسان بحاجة لدم الحملان للتكفير عن خطاياه وذلك لأَنَّ الرب يسوع المسيح كسانا بشيء أفضل بما لا يُقاس – فقد كسانا ببِرِّه. أتذكُر ذلك السؤال القديم الذي طرحه أيُّوب؟

«... كَيْفَ يَتَبَرَّرُ الإِنْسَانُ عِنْدَ اللهِ؟» (أيُّوب ٩: ٢)

كيف يُمكن للإنسان أن يتخلَّص من خطيَّته وأن يكتسب برَّاً مُعادلاً لبرّ الله لكي يصير مقبولاً في مَحضَره؟ إنَّ الإجابة الكاملة عن هذا السؤال موجودة في آية واحدة في الكتاب المقدَّس ألا وهي الآية التي أشرنا إليها قبل قليل:

لأَنَّهُ جَعَلَ الَّذِي لَمْ يَعْرِفْ خَطِيَّةً، ذبيحة خَطِيَّةً لأَجْلِنَا، لِنَصِيرَ نَحْنُ بِرَّ اللهِ فِيهِ

(٢ كورنثوس ٥: ٢١)

القيامة

صحيحٌ أنَّ الرب يسوع المسيح مات؛ لكنه لم يبق في القبر مثل باقي الأنبياء والناس. فقد عاد الرب يسوع إلى الحياة ثانيةً لكي يُثبت أنَّ الموت ليس له أيُّ سُلطانٍ عليه. فقد قال

السيِّد المسيح:

لِهذَا يُحِبُّنِي الآبُ، لأَنِّي أَضَعُ نَفْسِي لآخُذَهَا أَيْضًا. لَيْسَ أَحَدٌ يَأْخُذُهَا مِنِّي، بَلْ أَضَعُهَا أَنَا مِنْ ذَاتِي. لِي سُلْطَانٌ أَنْ أَضَعَهَا وَلِي سُلْطَانٌ أَنْ آخُذَهَا أَيْضًا (يوحنَّا ١٠: ١٧، ١٨)

لقد ألقى البعض اللَّوم على الرومان لأنهم صلبوا السيِّد المسيح. كما ألقى البعض اللَّوم على القادة الدينيِّين اليهود الذين ضغطوا عليهم لكي يصلبوه. لكنَّ الأمر ليس كذلك. فالكتاب المقدَّس يقول بوضوح إنَّ الرب يسوع اختار طوعاً أن يبذل حياته لأجلنا. فما من أحد أجبره على الموت رُغماً عنه، بل إنَّ الأمر بأكمله كان باختياره هو وذلك بدافع محبَّته لنا. وفي حقيقة الأمر أنَّ خطايا العالم كُلِّه كانت هي المسئولة عن صلب السيِّد المسيح على الصليب.

كانت قيامة الرب يسوع من الموت شهادة قويَّة على أنَّ عدالة الله قد سكنت وهدأت بموت يسوع نيابةً عنَّا. فقد تَمَّ دفع أُجرة الخطيَّة بالكامل وكان ذلك مقبولاً لدى الله الآب! وهكذا، فقد عجز القبر عن احتجاز الرب يسوع بين براثنه لأنَّ الرب يسوع قام مُنتصراً على الموت! وبهذا، فقد حَطَّم الرب يسوع قبضة الخطيَّة، وهزم قُوَّة إبليس، ومحا النهاية المُريعة للموت:

ولمَّا كانَ الأبناءُ شُركاءَ في اللَّحم والدَّم، شاركَهُم يَسوعُ كذلكَ في طَبيعتهِم هذه ليَقضيَ بمَوته على الّذي في يدِهِ سُلطانُ المَوتِ، أي إبليسَ، ويُحَرِّرَ الّذينَ كانوا طَوالَ حَياتِهِم في العُبوديَّةِ خَوفًا مِنَ المَوتِ.

(عبرانيين ٢: ١٤، ١٥ – المشتركة)

الفداء

بقي الإنسان عَبداً لمشيئة الشيطان لقرون طويلة. وقد لجأ الشيطان إلى الكذب، وتزوير الحقائق، وإنكار وجوده، وغير ذلك من أساليب الخداع والتضليل بهدف السيطرة على البشر وتحقيق أهدافه ومقاصده. لكن حتَّى لو لم يكُن الشيطان موجوداً، لم يكُن بمقدور الإنسان أن يعيش حياةً كاملةً وذلك لأنه عَبد للخطيَّة.

لكنَّ الرب يسوع جاء وفدانا. وقد يكون من الصعب علينا أن نُدرك الأهميَّة البالغة لهذه الكلمة ما لم نفهم علاقتها بالعبوديَّة القديمة.

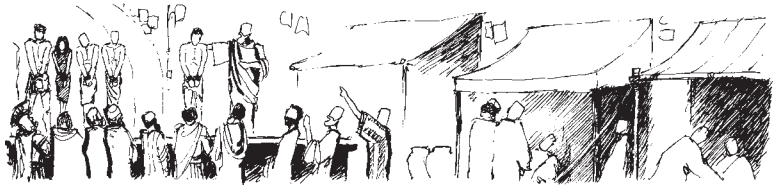

كان الرجل الغني يذهب إلى سوق العبيد لشراء عَبد. وهناك، كان هذا الشخص يرى العبيد مُقيَّدين بالسلاسل، ومذلولين، وبلا كرامة حيث أنه كان يتم بيع كل واحدٍ منهم مُقابل مبلغ مُحدَّد من المال. وحينما يدفع الرجل السعر المطلوب، يُصبح ذلك العبدُ الذي اختاره مُلكاً له. قد لا يبدو الأمر غريباً حتَّى هذه اللحظة. لكنَّ الأمر الغريب الذي كان يحدث أحياناً هو أن يأتي شخص غني ويشتري عبداً، ويُخرجه خارج سوق العبيد، ويكسر قيوده، ويُطلقه ليُصبح حُرَّاً. وحينما يحدث مثل هذا الأمر كان يُقال إنه قد تَمَّ **فداء (تخليص)** العبد.

وهذا هو ما فعله الرب يسوع لأجلنا. فقد كُنَّا مُقيَّدين بسلاسل الخطيَّة وقيود إبليس في سوق عبوديَّة الحياة، ولم يكُن بمقدورنا أن نَفدي أنفُسنا. لكنَّ المسيح جاء واشترانا، ودفع الثمن بدمه، ثُمَّ أخرجنا من السوق، وحطَّم القيود، وأطلقنا أحراراً.

عَالِمِينَ أَنَّكُمُ **افْتُدِيتُمْ** لاَ بِأَشْيَاءَ تَفْنَى، بِفِضَّةٍ أَوْ ذَهَبٍ، مِنْ سِيرَتِكُمُ الْبَاطِلَةِ ... بَلْ بِدَمٍ كَرِيمٍ، كَمَا مِنْ حَمَلٍ بِلاَ عَيْبٍ وَلاَ دَنَسٍ، دَمِ الْمَسِيحِ

(١ بطرس ١: ١٨، ١٩)

الَّذِي فِيهِ لَنَا **الْفِدَاءُ** بِدَمِهِ، غُفْرَانُ الْخَطَايَا، حَسَبَ غِنَى نِعْمَتِهِ

(أفسُس ١: ٧)

حَظيرة الخراف

لنُتابع حديثنا باستخدام ذلك التشبيه الذي استخدمه الرب يسوع نفسه حينما وصفنا بالخراف. أتذكُر كيف أنَّ الراعي الصالح كان ينام أمام باب حظيرة الخراف كي يحمي القطيع؟ كذلك، قال الرب يسوع:

«أَنَا هُوَ الْبَابُ. إِنْ دَخَلَ بِي أَحَدٌ فَيَخْلُصُ وَيَدْخُلُ وَيَخْرُجُ وَيَجِدُ مَرْعًى»

(يوحنَّا ١٠: ٩)

كما أنه كان للحظيرة باب واحد فقط، فإنَّ الرب يسوع المسيح هو الباب الوحيد للحياة الأبديَّة. فليست هناك طريقة أخرى للنجاة من عقاب الخطيَّة.

... فكما أنه كانت هناك طريقة واحدة فقط أمام قايين وهابيل للاقتراب من الله؛

... وكما أنه كان هناك باب واحد للنجاة في فُلك نوح؛

... وكما أنه كان هناك باب واحد يؤدي إلى خيمة الاجتماع؛

... وكما أنه كان هناك باب واحد لحظيرة الخراف؛

فإنَّ الرب يسوع المسيح هو الطريق الوحيد إلى الله.

وَلَيْسَ بِأَحَدٍ غَيْرِهِ الْخَلاَصُ. لأَنْ لَيْسَ اسْمٌ آخَرُ تَحْتَ السَّمَاءِ، قَدْ أُعْطِيَ بَيْنَ النَّاسِ، بِهِ يَنْبَغِي أَنْ نَخْلُصَ (أعمال ٤: ١٢)

بينما كان التلاميذ يُصغون إلى السيِّد المسيح وهو يُعلِّمهم من الناموس والأنبياء، لا بُدَّ أنهم أدركوا الصعوبات التي تُواجه رسالته. فقد كانوا يعيشون في الإمبراطورية الرومانية. ورغم أنَّ الرومان كانوا مُتساهلين مع الديانات الأخرى إلى حَدٍّ ما، إلاَّ أنهم كانوا يؤمنون أيضاً أنَّ قيصر هو إله. وهكذا، لم يكُن الرومان ليعترضوا على أن يكون يسوع هو أحد الطُرق الأخرى المؤدية إلى الله. أمَّا ما علَّمهم إيَّاه يسوع – بأنه هو الطريق الوحيد إلى الله – فإنه يتعارض مع مُعتقدات الرومان ولا بُدَّ أنه سيُعرِّض حياة التلاميذ للخطر. وبحسب المصادر التاريخيَّة فإنَّ جميع التلاميذ الأحد عشر (عدا واحداً) قد أُعدِموا بسبب تبشيرهم بهذه الرسالة. والتلميذ الوحيد الذي لم يعدم نفي خارج بلده.

الفرِّيسيُّون

كان الفرِّيسيُّون مُتديِّنين أكثر من باقي الناس. وقد كانت لديهم قائمة طويلة جداً من

الأوامر والنواهي.

ومن بين أكثر المفاهيم الخاطئة شيوعاً بشأن الحياة في وقتنا الحاضر هي الاعتقاد بأننا نستطيع أن نضمن الوصول إلى السماء أو الفردوس عن طريق القيام بأعمال صالحة تفوق أعمالنا السيئة!

كان الفرِّيسيُّون مُتديِّنين جداً؛ لكنَّ الرب يسوع المسيح أدان حياتهم وتعليمهم وقال بأنهم يُضِلُّون الناس. كما أنه قال بأنَّ الطريق الوحيد الصحيح إلى الله هو طريق الإيمان به.

نحن نُمارس الإيمان بصورة عمليَّة في كل يوم. وربما تكون تُطبِّق أحد مبادئ الإيمان في هذه اللحظة دون أن تدري! فإن كُنت تجلس على كُرسي في هذه اللحظة فلا بُدَّ أنك «تؤمن» بأنَّ هذا الكرسي قادر على أن يحملك دون أن ينكسر. ولا أعتقد أنك حينما جلست على هذا الكُرسي كُنت تُفكِّر وتقول في نفسك: «سوف أثق بأنَّ هذا الكرسي متين!» رغم ذلك فقد مارست الإيمان بالكرسي. وبعبارة أخرى فإنَّ الإيمان في حَدِّ ذاته حيادي. لكنَّ النقطة المهمة هي ما يلي: فيمَنْ تضع إيمانك وثقتك؟ فقد يتحطَّم الكرسي؛ لكنه مجرد كُرسي في نهاية المطاف. أمَّا إذا كُنت تضع إيمانك في الرب يسوع المسيح وتثق بأنه دفع أُجرة خطاياك، فيمكنك أن تثق كل الثقة أنه قام بذلك بالفعل. فكلمة الله تَعِدُنا بهذا الوعد الرائع:

لأَنَّكُمْ بِالنِّعْمَةِ مُخَلَّصُونَ، بِالإِيمَانِ، وَذلِكَ لَيْسَ مِنْكُمْ. هُوَ عَطِيَّةُ اللهِ. لَيْسَ مِنْ أَعْمَال كَيْلاَ يَفْتَخِرَ أَحَدٌ (أفسس ٢: ٨، ٩)

يقول الكتاب المقدَّس إنَّنا نجونا من عقاب الخطيَّة من خلال إيماننا بالرب يسوع المسيح. وهذا الخلاص هو عطيَّة أو هِبَة مجانيَّة من الله. فنحن لم نحصل على خلاصنا من خلال الطقوس الدينيَّة أو الأعمال الصالحة؛ بل حصلنا عليه من خلال إيماننا بما فعله الرب يسوع المسيح لأجلنا على الصليب.

نحن نعرف أنَّ العطيَّة أو الهديَّة هي شيء مجاني. فإن اضطررت للعمل من أجل الحصول على هذه الهديَّة فمن المؤكَّد أنها ليست هديَّة. وفي حقيقة الأمر أنَّ الهدايا هي أشياء لا نستحقُّها.

فإن شعرنا أننا نستحقُّ الهدايا فهي لن تعود هدايا؛ بل تُصبح مُكافآت. وفي واقع الأمر أنَّ الحياة الأبديَّة التي وهبنا الله إياها هي هِبَة مجانيَّة لأننا لا نستحقها على الإطلاق.

كان الفريسيُّون مُقتنعين بأنَّ أعمالهم الصالحة سوف تُرضي الله. لكنَّ الله يقول إنه إذا قَبِلَ الناس بناءً على ما فعلوه، فسوف يفتخر الناس بصلاحهم. لذلك فهو يُخلِّصنا من الدينونة لا على أساس صلاحنا، بل على أساس إيماننا.

لأَنَّ أُجْرَةَ الْخَطِيَّةِ هِيَ مَوْتٌ، وَأَمَّا هِبَةُ اللهِ فَهِيَ حَيَاةٌ أَبَدِيَّةٌ بِالْمَسِيحِ يَسُوعَ رَبِّنَا (رومية ٦: ٢٣)

الإيمان وحده

- بالإيمان نؤمن أنَّ يسوع المسيح مات لأجلنا وعن خطايانا.
- بالإيمان نؤمن أنَّ يسوع المسيح دفع أُجرة خطايانا.

- بالإيمان نؤمن أنَّه قد تَمَّ تسديد مطالب عدل الله بموت المسيح. فنحن نؤمن أنه حينما ينظر الله إلينا فإنه لا يرى خطايانا، بل يرانا مُكتسين بِبِرِّ المسيح.
- بالإيمان نؤمن أنَّ الله يُعطينا هِبَة الحياة الأبديَّة.

إنَّ كُلَّ هذا بالإيمان؛ لكنه ليس إيماناً أعمى، بل هو إيمان مبني على الحقائق التي تُعلِّمُنا إيَّاها كلمة الله.

يُضيف بعض الناس هالَة روحيَّة على الإيمان. فهُم يقيسونه بالكَمّ ويرون أنَّ فُلاناً لديه إيمان كثير أو إيمان قليل! لكن مثل هذا التفكير قد يؤدي إلى التشويش والإرباك! فإيماننا بما فعله الرب يسوع لأجلنا على الصليب يُشبه رجُلاً غريقاً يهز رأسه بقوَّة ردَّاً على المُنقذ الذي يقول له: «هل تثق بأني قادر على إنقاذك؟» ففي حقيقة الأمر أنَّ قُوَّة هَزَّة الرأس ليست هي النقطة الهامَّة، بل المهم في الأمر هو أنَّ الرجل الغريق قد وثق بأنَّ المُنقذ قادر على إنقاذه وتخليصه من الغرق. وفي حال أنَّ الرجل الذي أوشك على الغرق ادَّعى لاحقاً بأنَّ هَزَّة رأسه الشديدة هي التي أنقذت حياته فسوف يكون ذلك شيئاً سخيفاً. وكذلك هو حالنا نحن أيضاً. فيجب علينا أن نثق أنَّ يسوع قادر على تخليصنا من خطايانا. وهذا لا يعني أنَّ حجم ثقتنا هو الذي خَلَّصنا؛ بل إن الشيء الذي خلَّصنا في حقيقة الأمر هو موت الرب يسوع لأجلنا على الصليب.

فَفِيهِ قَدْ أُعْلِنَ الْبِرُّ الَّذِي يَمْنَحُهُ اللهُ عَلَى أَسَاسِ الإِيمَانِ وَالَّذِي يُؤَدِّي إِلَى الإِيمَانِ، عَلَى حَدِّ مَا قَدْ كُتِبَ: «أَمَّا مَنْ تَبَرَّرَ بِالإِيمَانِ، فَبِالإِيمَانِ يَحْيَا» (رومية ١: ١٧ – التفسيرية)

واستكمالاً للتشبيه الذي استخدمناه قبل قليل عن الرجل الغريق، من المُهمِّ أن تعرف أيضاً أنك تغرق. فإذا كُنت تعتقد أنك تطفو على سطح الماء وأنَّ كل شيءٍ على ما يُرام، فسوف ترفض أي مُساعدة. وحتَّى لو كُنت تعرف أنك تغرق لكنك رفضت طلب المساعدة بسبب كبريائك، فسوف تغرق أيضاً بالطريقة نفسها. فقد يراك الآخرون وأنت تتخبَّط في الماء، لكنهم لن يتمكَّنوا من مساعدتك إلاَّ حينما تسمح لهُم بذلك. والأمر نفسه ينطبق على الصعيد الروحي. فينبغي عليك أن ترى نفسك كخاطئ ضعيف لكي يكون بالإمكان تخليصك من دَيْن خطاياك. فهذه هي نُقطة البداية.

يحتوي الكتاب المقدَّس على الكثير من التشبيهات والأمثلة التوضيحيَّة عن حقيقة الرب يسوع المسيح وما فعله. ورغم أننا قد لا نعرف يقيناً ما هي التشبيهات والأمثلة التي استخدمها الرب يسوع حينما عَلَّم تلاميذه، إلاَّ أنه من المؤكد أنه استخدم جميع أو بعض التشبيهات والأمثلة التي ذكرناها هُنا. وربما استخدم المزيد منها! وحينما انتهى الرب يسوع من تعليم تلاميذه، لا بُدَّ أنَّ الغرفة كانت هادئة تماماً. والسؤال الذي كان ينبغي على تلاميذ يسوع أن يُجيبوا عنه هو نفس السؤال الذي ينبغي على كُلٍّ واحدٍ مِنَّا أن يُجيب عنه أيضاً: فيمَنْ تضع إيمانك وثقتك؟ في ديانتك، أم في أفكارك، أم في حقيقة أنَّ الرب يسوع مات بدلاً عنك ودفع أُجرة خطاياك؟ وفيمن تجد بِرَّك؟ في نفسك وأعمالك الصالحة، أم في شخص الرب يسوع المسيح؟

الفصل الخامس عشر

١. جميع ما تكلَّم به الأنبياء.
٢. يسوع يعود إلى السَّماء.
٣. هل تؤمن بجميع ما تكلم به الأنبياء؟

١. جَميع ما تكلَّم به الأنبياء

قبل ٧٠٠ سنة من ولادة يسوع، أوحى الله لنبيِّه إشعياء أن يكتُب هذه الكلمات. أرجو أن تقرأها بعناية وتركيز شديدين وأن ترى ما إذا كُنت تستطيع أن تُفسِّر هذه الآيات النبويَّة.

مَنْ صَدَّقَ ما سَمِعْنا به؟ ولِمَنْ تَجلَّت ذراعُ الرَّبِّ؟ نَما كنَبتَة أمامَهُ، وكعِرْق في أرض قاحلَة. لا شَكلَ لَه فنَنظُرَ إليه، ولا بَهاءَ ولا جمالَ فنَشتَهيَهُ. مُحتَقَرٌ مَنبوذٌ مِنَ النَّاس، ومُوجِعٌ مُتَمرِّسٌ بالحزن. ومِثلُ مَنْ تُحجبُ عَنهُ الوُجوهُ نَبَذْناهُ وما اعتَبَرناهُ. حمَلَ عاهاتِنا وتحَمَّلَ أوجاعَنا، حَسِبناهُ مُصابًا مَضروبًا مِنَ اللهِ ومَنكوبًا وهوَ مَجروحٌ لأجلِ مَعاصينا، مَسحوقٌ لأجلِ خطايانا. سلامُنا أعَدَّهُ لنا، وبجراحِه شُفينا. كُلُّنا كالغنَم ضَلَلْنا، مالَ كُلُّ واحد إلى طريقه، فألقَى عليه الرَّبُّ إثمَنا جميعًا. ظُلِمَ وهوَ خاضعٌ وما فتَحَ فمَهُ. كانَ كنَعجة تُساقُ إلى الذَّبح، وكخروف صامت أمامَ الذينَ يَجزُّونَهُ لم يفتَحْ فمَهُ. بالظُّلم أخذَ وحُكمَ عليه، ولا أحدَ في جيلِه اعتَرَفَ به. إنقَطَعَ مِنْ أرضِ الأحياء وضُربَ لأجلِ معصيةِ شعبِه. وُضِعَ معَ الأشرارِ قبرُهُ ومعَ الأغنياءِ لَحدُهُ، معَ أنَّهُ لم يُمارِس العُنفَ ولا كانَ في فمِه غُشٌّ. لكنَّ الرَّبَّ رضيَ أنْ يَسحَقَهُ بالأوجاعِ ويُصعِدَهُ ذبيحةَ إثْم، فيَرى نَسلاً وتَطولُ أيّامُهُ، وتَنجَحُ مشيئةُ الرَّبِّ على يَدِه. يرى ثمرَةَ تَعبِه ويكونُ راضيًا، وبِوَداعَتِه يُبرِّرُ عبدي الصِّدِّيقُ كثيرينَ مِنَ النَّاسِ ويحملُ خطاياهُم. لذلكَ أُعطيه نَصيبًا معَ العُظَماءِ وغنيمةً معَ الجبابرة. بذَلَ للموتِ نفْسَهُ وأُحصيَ معَ العُصاة، وهوَ الذي شفَعَ فيهم وحمَلَ خطايا كثيرينَ. (إشعياء ٥٣ – المشتركة)

تُعتبر هذه الآيات الكتابيَّة من بين آيات كثيرة تُعطي معلومات مُحدَّدة عن المسيح الآتي. لذلك، لا عَجَب أنَّ الرب يسوع المسيح قال أثناء حديثه مع التلميذين في الطريق إلى عمواس:

«**أَيُّهَا الْغَبِيَّانِ وَالْبَطِيئَا الْقُلُوبِ فِي الإِيمَانِ بِجَمِيعِ مَا تَكَلَّمَ بِهِ الأَنْبِيَاءُ!** أَمَا كَانَ يَنْبَغِي أَنَّ الْمَسِيحَ يَتَأَلَّمُ بِهذَا وَيَدْخُلُ إِلَى مَجْدِهِ؟» (لوقا ٢٤: ٢٥، ٢٦)

فهل سيقول الشيء نفسه لنا نحن أيضاً؟

٢. يسوع يعود إلى السَّماء

أمضى الرب يسوع وقتاً مع تلاميذه في الأيام التي أعقبت قيامته مُباشرةً، و...

... أَرَاهُمْ أَيْضًا نَفْسَهُ حَيًّا بِبَرَاهِينَ كَثِيرَةٍ، بَعْدَ مَا تَأَلَّمَ، وَهُوَ يَظْهَرُ لَهُمْ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، وَيَتَكَلَّمُ عَنِ الأُمُورِ الْمُخْتَصَّةِ بِمَلَكُوتِ اللهِ (أعمال الرسل ١: ٣)

وبعد أربعين يوماً من قيامته، اصطحب الرب يسوع تلاميذه إلى أرض مألوفة تبعُد مسافة ثلاثة كيلومترات تقريباً من أورشليم:

وَأَخْرَجَهُمْ خَارِجًا إِلَى بَيْتِ عَنْيَا، وَرَفَعَ يَدَيْهِ وَبَارَكَهُمْ. وَفِيمَا هُوَ يُبَارِكُهُمُ، انْفَرَدَ عَنْهُمْ وَأُصْعِدَ إِلَى السَّمَاءِ (لوقا ٢٤: ٥٠، ٥١)

وَفِيمَا كَانُوا يَشْخَصُونَ إِلَى السَّمَاءِ وَهُوَ مُنْطَلِقٌ، إِذَا رَجُلاَنِ قَدْ وَقَفَا بِهِمْ بِلِبَاسٍ أَبْيَضَ، وَقَالاَ: «أَيُّهَا الرِّجَالُ الْجَلِيلِيُّونَ، مَا بَالُكُمْ وَاقِفِينَ تَنْظُرُونَ إِلَى السَّمَاءِ؟ إِنَّ يَسُوعَ هذَا الَّذِي ارْتَفَعَ عَنْكُمْ

إِلَى السَّمَاءِ سَيَأْتِي هكَذَا كَمَا رَأَيْتُمُوهُ مُنْطَلِقًا إِلَى السَّمَاءِ» (أعمال الرسل ١: ١٠، ١١)

قال الملاكان إنَّ يسوع سيأتي ثانيةً. وعند دراستنا العميقة للكتاب المقدَّس نرى أنَّه يقول الكثير عن ذلك الحَدَث المُستقبلي. فكما أنَّ الله حفظ وعده فيما يتعلَّق بالنبوءات الخاصَّة بمجيئه الأوَّل، فيمكننا أن نكون واثقين تماماً بأنه سيحفظ وعده بشأن مجيئه الثاني. فالله يحفظ وعوده دائماً.

يُدوِّن القسم المُتبقِّي من الكتاب المقدَّس الأحداث التي أحاطت بحياة التلاميذ الذين أصبحوا يُعرفوا بالرُّسُل. فقد راح أتباع يسوع هؤلاء يُخبرون جميع الناس عن الرب يسوع المسيح.

وَكَانَتْ كَلِمَةُ اللهِ تَنْمُو. وَعَدَدُ التَّلاَمِيذِ يَتَكَاثَرُ جِدًّا فِي أُورُشَلِيمَ، وَجُمْهُورٌ كَثِيرٌ مِنَ الْكَهَنَةِ يُطِيعُونَ الإِيمَانَ (أعمال الرسل ٦: ٧)

نرى هُنا أنَّ بعض الكهنة الذين اشتركوا في مؤامرة قتل المسيح آمنوا به. وكما توقَّع التلاميذ، فقد كانت هناك بعض المقاومة. ومن بين الأشخاص الذين كانوا يكرهون المسيح شاب فرِّيسي يُدعى «شاوُل». كان شاول هذا غيوراً جداً في اتِّباع الشريعة والتقاليد الدينيَّة اليهوديَّة. ورغم أنَّ شاول كان يظن نفسه مؤمناً برسالة الأنبياء، إلاَّ أنه في حقيقة الأمر لم يكُن يفهم رسالتهم على الإطلاق. وعلى أيِّ حال، قَرَّر شاول هذا أن يقضي على جميع أتباع يسوع:

أَمَّا شَاوُلُ فَكَانَ لَمْ يَزَلْ يَنْفُثُ تَهَدُّدًا وَقَتْلاً عَلَى تَلاَمِيذِ الرَّبِّ، فَتَقَدَّمَ إِلَى رَئِيسِ الْكَهَنَةِ وَطَلَبَ مِنْهُ رَسَائِلَ إِلَى دِمَشْقَ، إِلَى الْجَمَاعَاتِ، حَتَّى إِذَا وَجَدَ أُنَاسًا مِنَ الطَّرِيقِ، رِجَالاً أَوْ نِسَاءً، يَسُوقُهُمْ مُوثَقِينَ إِلَى أُورُشَلِيمَ. وَفِي ذَهَابِهِ حَدَثَ أَنَّهُ اقْتَرَبَ إِلَى دِمَشْقَ فَبَغْتَةً أَبْرَقَ حَوْلَهُ نُورٌ مِنَ السَّمَاءِ، فَسَقَطَ عَلَى الأَرْضِ وَسَمِعَ صَوْتًا قَائِلاً لَهُ: «شَاوُلُ، شَاوُلُ! لِمَاذَا تَضْطَهِدُنِي؟»
فَقَالَ: «مَنْ أَنْتَ يَا سَيِّدُ؟»
فَقَالَ الرَّبُّ: «أَنَا يَسُوعُ الَّذِي أَنْتَ تَضْطَهِدُهُ ...» (أعمال الرسل ٩: ١-٥)

كانت هذه هي نُقطة البداية لشخصيَّة بارزة جداً في حياة الكنيسة. تغيَّر شاوُل بصورة جذريَّة، وتراجع عن قتل المؤمنين بالرب يسوع المسيح لأنه أصبح هو نفسه يؤمن به. وهكذا، فقد انقلبت الأمور رأساً على عقب وأصبح المُضْطَهِدُ مُضْطَهَداً. وفي إحدى المرَّات، تعرَّض شاوُل هذا للرجم إلى أن أوشك على الموت. كما أنه ضُرب بالعصي ثلاث مَرَّات، وجُلِدَ خمس مَرَّات، وانكسرت به السفينة ثلاث مرَّات. وذات مَرَّة، بقي شاول عائماً فوق سطح البحر لمُدَّة أربع وعشرين ساعة. وقد تعرَّض شاول لكل هذه الآلام والأوجاع بسبب محاولته إخبار الآخرين عن إيمانه بأنَّ يسوع المسيح هُو المُخلِّص الموعود الذي كَتب عنه جميع الأنبياء.

٣. هل تؤمن بجميع ما تكلم به الأنبياء؟

هناك أناس يقرأون الكتاب المقدَّس ويفهمون ما جاء فيه ثُمَّ يُقرِّرون القيام بمُغامرة خطرة ألا وهي أن لا يؤمنوا به. فهُم يختارون أن:

يتجاهلوا رسالته ...

يرفضوه جُملةً وتفصيلاً ...

ينشغلوا بالحياة وينسوه ...

يُقلِّلوا من قيمة رسالته ...

... وهُم يأملون أن يكون الكتاب المقدَّس على خطأ.

قام هيرودس أغريباس بمُجازفة مُشابهة! فبما أنه كان حفيداً لهيرودس الكبير، وابن العم الأوَّل لهيرودس أنتيباس، فلا بُدَّ أنه سمع أخبار المسيح في البلاط الملكي. فمن المؤكَّد أنَّ الجواسيس كانوا ينقلون كل كلمة يقولها ذلك النبي الذي من الناصرة. لكنَّ هيرودس كان رجُلاً له مكانته ومركزه. لذلك، بدلاً من أن يتواضع أمام ملك الملوك، استمرَّ في العيش على هَواه. كما أنه اكتسب بعض الشعبيَّة بقطعه رأس أحد تلاميذ المسيح. لكن حينئذ ...

فَفِي يَوْمٍ مُعَيَّنٍ لَبِسَ هِيرُودُسُ الْحُلَّةَ الْمُلُوكِيَّةَ، وَجَلَسَ عَلَى كُرْسِيِّ الْمُلْكِ وَجَعَلَ يُخَاطِبُهُمْ. فَصَرَخَ الشَّعْبُ: «هذَا صَوْتُ إِلهٍ لاَ صَوْتُ إِنْسَانٍ!» فَفِي الْحَالِ ضَرَبَهُ مَلاَكُ الرَّبِّ لأَنَّهُ لَمْ يُعْطِ الْمَجْدَ للهِ، فَصَارَ يَأْكُلُهُ الدُّودُ وَمَاتَ (أعمال الرسل ١٢: ٢١-٢٣)

بما أنَّ الله رحيم ورؤوف فهو يتسامح مع الخطيَّة لفترة ما؛ لكن لا بُدَّ وأن يأتي وقت يُدينها فيه لأنه عادل. وقد تأتي الدينونة في هذه الحياة أو بعد الموت؛ لكنها ستأتي لا مَحالة! وقد مات هيرودس أغريباس وواجه الدينونة الأبديَّة في بُحيرة النار. والآن، انتبه جيداً إلى ما تقوله الآية التالية:

وَأَمَّا كَلِمَةُ اللهِ فَكَانَتْ تَنْمُو وَتَزِيدُ (أعمال الرسل ١٢: ٢٤)

ومن الأشخاص الآخرين الذين عاصروا يسوع المسيح هيرودس أغريباس الثاني. وبما أنه كان حفيد هيرودس الكبير وابن هيرودس أغريباس، فمن المؤكد أنه كان يعرف عن السيِّد المسيح. بل إنَّ الكتاب المقدَّس يقول إنه كان مُلمَّاً بكل شيء يتعلَّق بيسوع. وفي ذلك الزمان، تَمَّ اعتقال شاوُل (الذي صار يُعرف بالرَّسول بولُس) وكان ينبغي عليه أن يَمْثُل أمامه. وقد تحدَّث الرسول بولس عن الرب يسوع المسيح أثناء دفاعه عن نفسه أمام أغريباس فقال:

«وَلَكِنَّ اللهَ حَفِظَنِي حَتَّى هَذَا الْيَوْمِ، وَبِمَعُونَتِهِ أَقِفُ أَمَامَ الْبُسَطَاءِ وَالْعُظَمَاءِ شَاهِداً لَهُ وَلَسْتُ أَحِيدُ عَمَّا تَنَبَّأَ بِهِ مُوسَى وَالأَنْبِيَاءُ، مَنْ أَنَّ الْمَسِيحَ سَيَتَأَلَّمُ فَيَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يَقُومُ مِنْ بَيْنِ الأَمْوَاتِ، وَيُبَشِّرُ بِالنُّورِ شَعْبَنَا وَالشُّعُوبَ الأُخْرَى ... وَالْمَلِكُ الَّذِي أُخَاطِبُهُ الآنَ صَرَاحَةً يَعْرِفُ هَذِهِ الأُمُورَ الَّتِي أَتَحَدَّثُ عَنْهَا، وَأَنَا مُتَأَكِّدٌ أَنَّهُ لاَ يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْهَا، لأَنَّهَا لَمْ تَحْدُثْ فِي زَاوِيَةٍ مُظْلِمَةٍ! **أَيُّهَا الْمَلِكُ أَغْرِيبَاسُ، «أَتُصَدِّقُ أَقْوَالَ الأَنْبِيَاءِ؟»** ...

فَأَجَابَ أَغْرِيبَاسُ: «قَلِيلاً بَعْدُ، وَتُقْنِعُنِي بِأَنْ أَصِيرَ مَسِيحِيّاً!»

(أعمال الرسل ٢٦: ٢٢، ٢٣، ٢٦-٢٨ – التفسيرية)

يبدو أنَّ الملك أغريباس كان يفهم بولس تماماً لدرجة أنه أقَرَّ بأنَّه أوشك أن يُقنعه بأن يؤمن. لكنَّ أغريباس قَبِلَ المُجازفة ولم يؤمن. فقد تجنَّب رسالة الأنبياء في محاولة منه لتجنُّب اتخاذ قرار. وبحسب علمنا ومعرفتنا فإنَّ أغريباس لم يؤمن أبداً. وهكذا، فقد مضى إلى قبره فاهماً لكن ليس مؤمناً وذلك بحسب اختياره هو.

كذلك، فقد دافع الرسول بولس عن نفسه أمام الحاكم الروماني «فيلكس». وكان الرسول

بولس ينتهز مثل هذه الفرص دائماً لكي يُقدِّم شرحاً مُفصَّلاً عن شخصيَّة يسوع وما فعله يسوع على الصَّليب.

ثُمَّ بَعْدَ أَيَّام جَاءَ فِيلِكْسُ مَعَ دُرُوسِّلاَ امْرَأَتِه، وَهِيَ يَهُودِيَّةٌ. فَاسْتَحْضَرَ بُولُسَ وَسَمِعَ مِنْهُ عَنِ الإِيمَانِ بِالْمَسِيحِ. وَبَيْنَمَا كَانَ يَتَكَلَّمُ عَنِ الْبِرِّ وَالتَّعَفُّفِ وَالدَّيْنُونَةِ الْعَتِيدَةِ أَنْ تَكُونَ، ارْتَعَبَ فِيلِكْسُ، وَأَجَابَ: «أَمَّا الآنَ فَاذْهَبْ، وَمَتَى حَصَلْتُ عَلَى وَقْتٍ أَسْتَدْعِيكَ» (أعمال الرسل ٢٤: ٢٤، ٢٥)

قام فيلكس بتأجيل قراره؛ فقد كان ينتظر وقتاً أنسب. وما أسهل أن نفعل الشيء نفسه نحن أيضاً. لكنَّ الكتاب المقدَّس يُذكِّرُنا بأنَّ أنسب وقت لاتخاذ هذا القرار هو الآن:

... هُوَذَا الآنَ وَقْتٌ مَقْبُولٌ. هُوَذَا الآنَ يَوْمُ خَلاَصٍ (٢ كورنثوس ٦: ٢)

لا نجد في الكتاب المقدَّس ولا في التاريخ ماذا حدث لفيلكس بعد ذلك. لكن من المُرجَّح أنه لم يجد الوقت المناسب لكي يؤمن.

قام كُلٌّ من شاول، وهيرودس أغريباس، وهيرودس أغريباس الثاني، وفيلكس باتخاذ قرار وخَيار شخصي أثناء حياتهم؛ وهو نفس القرار والخَيار الذي نواجهه اليوم:

فهل تؤمن بجميع ما تكلم به الأنبياء؟ (أعمال الرسل ٢٦: ٢٧)

مُلحق

مُعجم المُفردات.
الترجمات العربيَّة للكتاب المقدَّس.
سؤال هام!
مَصادر مُفيدة.
الحَواشي.

مُعجم المُفردات

آبا: كلمة آراميَّة تعني «أبي» أو «بابا».

تبنِّي: إجراءات مَنح البُنوَّة القانونيَّة بكل ما تشتمل عليه من التزامات وامتيازات.

مذبح: مائدة تُرابيَّة أو حجريَّة كانت تُقدَّم عليها الذبائح لله أو للآلهة.

آمين: كلمة عبريَّة/يونانيَّة تُفيد التوكيد أو تأييد ما قيل. كما أنها تُستخدم في نهاية الصلاة بمعنى «استَجِب» يا رَبّ، أو «ليكُنْ هكذا».

ملاك: رسول. والملائكة هي كائنات روحيَّة سماويَّة مخلوقة.

يَمْسَح: يَسكُب الزيت على رأس شخص ما أو على شيء ما بُغية فرزه وتكريسه لله. وقد أصبحت هذه الكلمة تُشير إلى أيِّ شيءٍ يتم اختياره لخدمة الرب.

رسول: شخص مُرْسَل. وغالباً ما تُستخدم هذه الكلمة للإشارة إلى تلاميذ المسيح الاثني عشر بالإضافة إلى بولس.

فُلْك: السفينة التي بناها نوح امتثالاً لأمر الله.

بَرَكَة: تُشير كلمة «بارَك» إلى توجيه الثناء والحمد لله. كما أنها تُشير إلى إسباغ نعمة الله على الناس.

قائد مئة: ترجمة لكلمة يونانيَّة/لاتينيَّة تُشير إلى ضابط روماني كان مسئولاً عن ١٠٠ جُندي.

المسيح: تعني «المَمْسوح» وأصلها العبري هو «المَسيَّا» وقد وردت في العهد القديم.

يعترف: يَتَّفق مع أو يُقِرّ بـ.

عَهْد: وَعْد أو اتفاق.

يَلعن: يقول مُعجم المُنجد: لَعَن فُلاناً أي: أخزاهُ وَسَبَّهُ وأبْعَدَهُ مِنَ الخَير.

إبليس: كلمة مُرادفة في كثيرٍ من الأحيان لكلمة «شيطان» وتعني «المُشتكي زوراً». أو «المُفتري».

الشيطان: كلمة تعني «المُقاوم» أو «الخَصم»؛ وهو أقوى الكائنات الروحيَّة الشرِّيرة وأكبر عدوٍّ لله.

تلميذ: تابع.

إيمان: قبول أو ثقة.

تكوين: سفر التكوين يعني سفر البدايات أو الأصول.

مَجْد: المعنى الحرفيّ لهذه الكلمة هو أن يكون للشيء وزن أو قيمة.

إنجيل: كلمة من أصل يوناني تعني: الخبر السار أو البشارة.

نعمة: مَحبَّة الله ولُطفه من نحو الخُطاة.

الرُّوح القُدُس: الرُّوح القُدُس ليس مَلاكاً أو رَجُلاً؛ بل هو روح الله نفسه.

أهيَه: أحد أسماء الله وهو يعني «الموجود بذاته» أو «أنا هُوَ الكائن».

عمَّانوئيل: اسْم عَلَم عبري معناه: «الله مَعَنا» أطلق على يسوع المسيح.

مُبَرَّر: إجراء قضائي يُعلن الله بمُقتضاه أنَّ الشخص بَريء في نَظره.

رَحمة: محبَّة الله وشفقته من نَحو الخُطاة.

المسيَّا: المَسيح؛ أي: المَمسوح.

أمثال السيِّد المسيح: قصص قصيرة مأخوذة من الحياة اليوميَّة استخدمها السيِّد المسيح لتوضيح بعض المعاني والحقائق الروحيَّة.

فرِّيسيّون: جماعة يهوديَّة كانت تتبع شريعة الله بصورة حرفيَّة في زمن السيِّد المسيح. وَقد أوصلهم تطرُّفهم إلى حَدِّ وضع شرائع إضافيَّة للحيلولة دون خرق الناس لشرائع الله.

كاهن: رجُل دين يهودي يؤدِّي بعض الواجبات الموكلة إليه في خيمة الاجتماع أو في الهيكل.

نبي: شخص يتكلَّم باسم الله ويُطلِع النَّاس على إرادته.

مزمور: قصيدة أو أنشودة دينيَّة. والمزامير هي ما يُعرف عند البعض بالزَّبور.

يَفدي: يشتري – كما هو الحال عند شراء عَبد من سوق العبيد وإطلاقه ليُصبح حُرَّاً.

يَندم: يُغيِّر رأيه أو فكره.

بارٌّ: أن يكون المرء مُستقيماً أمام الله (لكنَّ هذا لا يعني أن يكون المرء بلا خطيَّة). كما أنَّها تُشير إلى حياة الاستقامة.

السَّبت: اليوم السَّابع من الأسبوع عند اليهود.

السنهدريم: المحكمة العُليا اليهوديَّة وكانت تتألف من ٧١ رجُلاً.

مُخلِّص: الشخص الذي يُنقذ غَيره.

كَتَبة: جماعة دينيَّة كانت مسئولة عن نسخ الأسفار المُقدَّسة في الأزمنة القديمة.

خطيئة: الكلمة الأصليَّة تعني إطلاق السَّهم وعدم إصابة الهدف. والخطيئة بالمعنى الروحي هي الإخفاق في الوصول إلى معايير الله، وتوجيه الإهانة لله، واحتقاره، ورفض العيش بحسب مشيئته.

الطبيعة الخاطئة: يُشار إليها أحياناً بالطبيعة البشريَّة أو بطبيعة آدم. والطبيعة الخاطئة هي حالتنا التي وُلدنا عليها والتي اكتسبناها بالوراثة من أبينا آدم.

ابن الله: تعبير اصطلاحي يُطلق على السيِّد المسيح (الإنسان) لإظهار مساواته بالآب السماوي (الله).

ابن الإنسان: لقب استخدمه السيِّد المسيح نفسه للإشارة إلى نفسه لتأكيد ناسوته (أو بشريَّته). وقد فهم الدارسون القدماء هذا اللقب على أنه يُشير إلى المسيَّا.

المَجْمَع: مَكان كان اليهود يجتمعون فيه، وكان بمثابة دار تثقيف ومدرسة تعليم ديني.

تعدِّي: التعدِّي على وصايا الله يعني عدم التقيُّد بها وذلك عن طريق اقتراف الخطايا.

عبادة: العبادة هي الإعلان بأنَّ الله يستحق السجود والحمد والشكر والتسبيح.

الترجمات العربيَّة للكتاب المقدَّس

كُتب الكتاب المقدَّس في الأصل باللغات التي كانت شائعةً في عصره ألا وهي: العبريَّة والآراميَّة واليونانيَّة. وحيث أنَّ مشيئة الله هي أن يعرف جميع الناس كلمته المُقدَّسة بصرف النظر عن خلفيَّاتهم الثقافيَّة أو مكانتهم الاجتماعيَّة، فقد تمَّت ترجمة الكتاب المقدَّس إلى آلاف اللغات واللهجات المحكيَّة حول العالم.

وإنَّنا نشكر الله على وجود ترجمات عربيَّة دقيقة جدَّاً للكتاب المُقدَّس بين أيدي القُرَّاء

الناطقين باللغة العربيَّة مثل ترجمة فانديك، والترجمة التفسيريَّة (كتاب الحياة)، والترجمة العربيَّة المُشتركة، وغيرها.

ومن أجل مساعدة القارئ على فهم كلمة الله بوضوح، قام علماء اللاهوت والمُفسِّرون بوضع بعض الحواشي والتعليقات والخرائط والجداول في الكتاب المقدَّس. لهذا، يجب على القارئ أن يُدرك أنَّ هذه التعليقات والخرائط والحواشي والجداول هي مُجرَّد أدوات مُساعِدة من وضع البشر وليست جُزءاً من كلمة الله.

سؤال هامّ!

يتساءل الكثيرون: «إذا وضع المرء ثقته في يسوع المسيح وقَبِلَه رَبَّاً ومُخلِّصاً شخصيَّاً لحياته، فهل هذا يعني أنه يُمكنه أن يعيش كيفما يشاء وأن يفعل الشرور والخطايا التي يُريدها ثُمَّ يذهب إلى الفردوس بعد موته؟»

إنَّ الكتاب المقدَّس يُجيب عن هذا السؤال فيقول:

«أَنَبْقَى فِي الْخَطِيَّةِ لِكَيْ تَكْثُرَ النِّعْمَةُ؟ حَاشَا! نَحْنُ الَّذِينَ مُتْنَا عَنِ الْخَطِيَّةِ، كَيْفَ نَعِيشُ بَعْدُ فِيهَا؟» (رومية ٦: ١، ٢)

لقد كان موت السيِّد المسيح وقيامته هو خِطَّة الله الكاملة لإنقاذنا جميعاً نحن البشر. لهذا، إن وضعت ثقتك في الرب يسوع المسيح وقبلته مُخلِّصاً شخصيَّاً لحياتك من كُلِّ قلبك، فسوف يَحدُث شيئين اثنين في تلك اللحظة وذلك بحسب ما تُعلِّمنا إيَّاه كلمة الله:

١. سوف تَخْلُص من عقاب الخطيَّة: فسوف يغفر لك الله جميع خطاياك لأنَّ الربَّ يسوع المسيح دفع أُجْرة خطاياك بالكامل.

٢. سوف تَخْلُص من سُلطان الخطيَّة: فسوف يأتي روح الله ويسكُن في داخلك. وعندها، سوف يقوم الرُّوح القُدُس بتجديد قلبك فتبدأ بالنظر إلى الحياة نظرة جديدة تكره من خلالها الخطيَّة وتُحب من خلالها البرّ.

«إِذًا إِنْ كَانَ أَحَدٌ فِي الْمَسِيحِ فَهُوَ خَلِيقَةٌ جَدِيدَةٌ: الأَشْيَاءُ الْعَتِيقَةُ قَدْ مَضَتْ، هُوَذَا الْكُلُّ قَدْ صَارَ جَدِيدًا» (٢ كورنثوس ٥: ١٧)

«وَأَمَّا ثَمَرُ الرُّوحِ فَهُوَ: مَحَبَّةٌ فَرَحٌ سَلاَمٌ، طُولُ أَنَاةٍ لُطْفٌ صَلاَحٌ، إِيمَانٌ، وَدَاعَةٌ، تَعَفُّفٌ» (غلاطيَّة ٥: ٢٢، ٢٣)

« المسيح بَذَلَ نَفْسَهُ لأَجْلِنَا، لِكَيْ يَفْدِيَنَا مِنْ كُلِّ إِثْمٍ، وَيُطَهِّرَ لِنَفْسِهِ شَعْبًا خَاصًّا غَيُورًا فِي أَعْمَالٍ حَسَنَةٍ» (تيطُس ٢: ١٤)

مصادر مُفيدة

الكتاب المقدس:

ترجمة فان دايك

www.arabicbible.com/bible/doc bible.htm

الترجمة العربية المشتركة

www.elkalima.com

الترجمة التفسيرية (كتاب الحياة)

www.ibs.org/bibles/arabic

للحصول على نسخة الكترونية من هذا الكتاب

www.thegrace.com

الحواشي

الفصل الأوَّل

1. Josh McDowell, compiled by Bill Wilson, A READY DEFENSE, Thomas Nelson Publishers, © 1993 pp. 27, 28.

تم استخدام هذا الكتاب بإذن من Thomas Nelson، Inc.

٢. . بعض الترجمات الإنجليزيَّة تُترجم هذه الآية «كُلُّ الكتاب هو من نَسَمات الله».

٣. . كلمة «مَسوقين» الواردة هنا هي نفس كلمة «يَحْمله» الواردة في مرقس ٢: ٣ «وَجَاءُوا إِلَيْهِ مُقَدِّمِينَ مَفْلُوجًا يَحْمِلُهُ أَرْبَعَةٌ».

4. ILLUSTRATED BIBLE DICTIONARY, Pt 3, IVP ©The Universities and Colleges Christian Fellowship 1980, p. 1538.

5. Philip W. Comfort, THE ORIGIN OF THE BIBLE, Mark R. Norton, Texts & Mscripts of the Old Testament, p. 151ff, ©1992 by Tyndale House Pub., Inc.

6. Translated by William Whiston, THE WORKS OF JOSEPHUS, ©1987 by Hendrickson Publishers, Inc., p. 776

الفصل الثاني

١. . المَجرَّة المُصوَّرة هُنا ليست دَرْب التبَّانة حيث أنَّ تصويرها مُستحيل. لذلك فقد تَمَّ الاستعاضة عنها بصورة بديلة لمجرَّة آندروميدا والتي تُعرف أيضاً باسم «المرأة المُسَلْسَلَة».

٢. . المعلومات الإحصائيَّة مأخوذة عن الموسوعة التالية:

THE WORLD BOOK ENCYCLOPEDIA; NIGHTWATCH, A Practical Guide to Viewing the Universe by Terence Dickinson, pub. Firefly Books, April 1999.

ويجدر التنويه إلى أنَّ العدد التقريبي للمجرَّات آخذٌ في النُمو والازدياد.

٣. . يهوذا ٦.

٤. . لوقا ٢٠: ٣٦ – الموت بالمعنى الجسدي. فالملائكة لا تتوقَّف عن الوجود.

٥. . مرقس ١٢: ٢٥.

٦. . كلمة «لوسيفر» هي كلمة لاتينيَّة تعني «كوكب مُنير» وتُشير في الأصل إلى كوكب الزُّهرة الذي غالباً ما يُسمَّى «كوكب الصَّبح المُنير» أو «نَجمة الصَّباح».

الفصل الثالث

١. . رُبما تكون الأنواع التي خُلقت في الأصل قد أدَّت إلى نشوء مجموعات أو فصائل تَمَّ تصنيفها لاحقاً كأجناس مُستقلة (فعلى سبيل المثال، ربما يكون كلب الدَّنغ الأسترالي، والقَيُّوط، والذئب قد انحدرت جميعها من جنس واحد ألا وهو الكلب). ولا يُعَدُّ هذا شكلاً من أشكال النشوء لأنه لم تظهر أيّ جينات جديدة لم تكُن موجودة في السُلالة الأصليَّة.

٢. . «الأشخاص الكاملين» بمعنى الكمال الأدبي أو الأخلاقي.

الفصل الرابع

١. . سفر الرؤيا ١٢: ٣–٩؛ عادةً ما يُقال بأنَّ الآيتين ٣ و٤ تُشيران إلى سقوط الشيطان. ويرى العديد من المُفسِّرين أنَّ الآيات ٧–٩ تتعلَّق بحدث مُستقبلي. لهذا، فقد اقتبست هنا المقطع بأكمله لأنَّ الآيات اللاحقة تشرح وتُوضِّح الجزء الذي يعنينا (الآيتان ٣ و٤).

٢. . تُبيِّن لنا هاتان الآيتان الخيارات التي قام بها آدم وحوَّاء.

٣. . للمزيد من التفاصيل، انظر رومية ٥: ١٢–١٤. كذلك، انظر الحاشية رقم ١ في الفصل العاشر. آدم هو أبو (رأس) الجنس البشري. وقد كُنَّا نحن فيه حينما أخطأ.

4. NEWSWEEK, January 11, 1988, pp. 46–52

5. TIME, December 4, 1995, USA Edition, p. 29

الفصل الخامس

١. . يقول البعض إنَّ سبب رفض الله لذبيحة قايين يرجع إلى موقفه. وما من شكٍّ أنَّ قايين كان يتصرَّف بصورة مُستقلَّة عن الله، لكنَّ الكتاب المقدَّس يقول بوضوح: «بِالإِيمَانِ قَدَّمَ هَابِيلُ لِلَّهِ ذَبِيحَةً أَفْضَلَ مِنْ قَايِينَ ...». وهكذا، فالكتاب المقدَّس لا يقول «موقفاً أفضل»؛ بل يقول «ذبيحةً أفضل». وبالتالي، فقد عصى قايين الله لأنه أحضر تقدمةً خاطئةً. انظر عبرانيِّين ١١: ٤.

٢. . لوقا ١٧: ٢٧؛ مَتَّى ٢٤: ٣٨.

٣. . رومية ١: ٢١–٣٢؛ رغم أنَّ هذه الآيات لا تُشير بصورة مُباشرة إلى الناس في زمن نوح، إلاَّ أنها تُشير إلى الخيارات التي قاموا بها في ذلك الوقت والعواقب الخطيرة التي ترتَّبت عليها.

٤. . من المُرجَّح أنَّ المادَّة التي استُخدمت آنذاك كانت مصنوعة من صمغ شجر الصنوبر المَغلي مع الفحم. ومن المُرجَّح أنَّ القار البِتيومينيّ عُرف بعد الطوفان.

٥. . تكوين ٦: ٣.

٦. . ٢ بطرس ٢: ٥.

٧. . قام بعض العلماء بحساب «مساحة الفُلك». ويُعتبر الكتاب التالي من المراجع المفيدة حول هذا الموضوع:

NOAH'S ARK: A FEASIBILITY STUDY—by John Woodmorappe, ICR, El Cajon, CA 306 pp.

٨. . «فَنَزَلَ الربُّ ...» إذا كان الله حاضراً في كُلِّ مكان في الوقت نفسه، فلماذا كان ينبغي عليه أن ينزل؟ غالباً ما يستخدم الكتاب المقدَّس مُصطلحات تتعلَّق بالله لكي يساعدنا على فهم النَصّ. فعلى سبيل المثال، يقول الكتاب المقدَّس عن الله إنه «يَرى» رُغم أنَّه ليس له عيون فعليَّة لأنَّه روح.

الفصل السادس

١. . لاحظ كيف أنَّ مُتوسِّط عُمر الإنسان قد تراجع بصورة كبيرة للغاية بعد الطوفان. فقد كان إبراهيم يُعتبر عجوزاً رغم أنه كان يبلغ من العُمر ٧٥ عاماً فقط.

٢. . أصبح أبرام أمَّةً عظيمة: أباً للأمَّة اليهوديَّة والأمَّة العربيَّة.

٣. . أصبح اسم أبرام عظيماً؛ فاليهود والعرب يُوقِّرونه ويحترمونه على حَدٍّ سواء. ويقتضي التنويه هنا إلى أنَّ الله هو الذي جعل اسم أبرام عظيماً في حين أنَّ أهل بابل كانوا عازمين على تعظيم أنفسهم بأنفسهم.

٤. . يوحنَّا ٨: ٥٦.

٥. . مَتَّى ١٧: ٢٠.

٦. . «لأَنَّ أُجْرَةَ الْخَطِيَّةِ هِيَ مَوْتٌ ...» (رومية ٦: ٢٣). انظر العُنوان الفرعي «الموت» في الفصل الرابع من هذا الكتاب.

الفصل السابع

١. . أسباط إسرائيل الاثنا عشر هُم أبناء يعقوب الاثنا عشر. استثناءات: لم يكُن هناك سبط للاوي حيث أنهم أصبحوا القادة الدينيِّين لأمَّة إسرائيل. كذلك، لم يكُن هناك سبط ليوسف؛ لكنَّ ابنيه «أفرايم» و«منسَّى» عَوَّضا عن ذلك النقص.

٢. . يُمكن ترجمة هذه الكلمة بـ «قَمْل» أيضاً.

الفصل الثامن

١. . خروج ١٤: ١ إلى ١٥: ٢١.

٢. . هذه الآيات هي إعادة صياغة لما جاء في خروج ١٩: ٥.

الفصل التاسع

١. . أنا لا أدافع عن هذه الطريقة ولا أقول إنها الطريقة الصحيحة لإنقاذ شخصٍ من الغرق؛ لكنَّ هذا مثال توضيحي فقط.

٢. . (١) المذبح النحاسي: خروج ٢٧: ١، ٢.

..... (٢) المِرْحَضَة (حوض الاغتسال): خروج ٣٠: ١٨.

..... (٣) المنارة (الشمعدان): خروج ٢٥: ٣١.

..... (٤) مائدة الخُبز: خروج ٢٥: ٢٣، ٣٠.

..... (٥) مذبح البخور: خروج ٣٠: ١، ٣.

..... (٦) تابوت العهد: خروج ٢٥: ١٠، ١١.

..... (٧) غطاء التابوت (كُرسي الرحمة): خروج ٢٥: ١٧–٢١.

٣. . لم يكُن يُسمح للكهنة بالدخول حينما يكون عمود السحاب موجوداً فوق قُدس الأقداس. فقد كان ذلك يُشير إلى حضور الله. وحينما يتحرَّك عمود السحاب لكي تقودهم في رحلتهم، كان بإمكانهم طَيّ خيمة الاجتماع واللحاق بعمود السحاب.

٤. . ٢ صموئيل ٧: ١٢–١٧.

٥. . يختلف الباحثون حول التواريخ الدقيقة للخلق، والطوفان الذي حدث في زمن نوح، وقصَّة بُرج بابل. وحيث أنه من المُرجَّح أنَّ الكتاب المقدَّس لا يتحدَّث عن فترة تمتد لملايين أو بلايين السنين، فلا بُدَّ أنَّ تلك الأحداث الثلاثة قد وقعت في فترة زمنيَّة لا تتجاوز بضعة آلاف من السنين.

الفصل العاشر

١. . يجب أن لا نُفكِّر في هذا على أنه صِفَة وارثيَّة – أي أنَّ الطبيعة الخاطئة يُمكن أن توجد في الجينات الوراثيَّة بالفعل؛ بل إنَّ الفكرة هنا هي فكرة روحيَّة. فالله جعل الإنسان مسئولاً عن تمرُّده وعصيانه في جنَّة عَدْن. وبسبب ذلك: «... كَأَنَّمَا بِإِنْسَانٍ وَاحِدٍ دَخَلَتِ الْخَطِيَّةُ إِلَى الْعَالَمِ، وَبِالْخَطِيَّةِ الْمَوْتُ، وَهكَذَا اجْتَازَ الْمَوْتُ إِلَى جَمِيعِ النَّاسِ، إِذْ أَخْطَأَ الْجَمِيعُ» (رومية ٥: ١٢). فنحن جميعاً لنا أب بشري؛ وبالتالي فنحن جميعُنا خُطاة. أمَّا أب يسوع فهو الله، الروح القدس؛ وبالتالي فهو يتمتَّع بذات طبيعة الله.

٢. . كلمة «رَبّ» هي لقب للمسيح في العهد القديم (المزمور ١١٠: ١). وهو لقب يُؤكِّد سُلطانه وحقَّه في الحُكم. انظر الكتاب التالي:

J. Dwight Pentecost, THE WORDS AND WORKS OF JESUS CHRIST, ©1981 by The Zondervan Corporation, p. 61

٣. . المُرّ هو صَمْغ طَيِّب الرائحة.

٤. . ربما يكون هذا هو وقت الاحتفال بوصول يسوع سن البلوغ حيث كان هناك احتفال يهودي يُسمَّى «بار ميتزفاه» يُقام في هذه المُناسبة. ويقول التلمود «في سِنِّ البلوغ». ويقول البعض إنَّ ذلك حدث بعد سنة واحدة من تلك المُناسبة.

الفصل الحادي عشر

١. . كان هيرودس أنتيباس (ابن هيرودس الكبير) هو الذي زَجَّ بيوحنَّا المعمدان في السجن لأنَّه انتقد خطيئته بأنه يعيش مع زوجة أخيه غير الشقيق.

الفصل الثاني عشر

١. . السنهدريم هو مجلس اليهود الأعلى أو المحكمة اليهوديَّة العُليا.

٢. . نقرأ في رؤيا ٢٠: ١٤: «وَطُرِحَ الْمَوْتُ وَالْهَاوِيَةُ فِي بُحَيْرَةِ النَّارِ. هذَا هُوَ الْمَوْتُ الثَّاني».

الفصل الثالث عشر

١. . لم أذكُر هنا جميع التفاصيل المُتعلِّقة بمُحاكمة يسوع وصلبه. لكن من بين الأحداث الهامَّة التي جَرَت ما يلي: «وَلَمَّا مَضَوْا بِهِ أَمْسَكُوا سِمْعَانَ، رَجُلاً قَيْرَوَانِيًّا كَانَ آتِيًا مِنَ الْحَقْلِ، وَوَضَعُوا عَلَيْهِ الصَّلِيبَ لِيَحْمِلَهُ خَلْفَ يَسُوعَ» (لوقا ٢٣: ٢٦).

2. Whiston, THE WORKS OF JOSEPHUS p. 720.

3. J. W. Shepard, THE CHRIST OF THE GOSPELS, (Eerdmans, Grand

Rapids © 1964) p. 604 as quoted by Pentecost, THE WORDS AND WORKS OF JESUS CHRIST, p. 487.

4. John F. Walvoord, Roy B. Zuck, THE BIBLE KNOWLEDGE COMMENTARY ©1983, SP Publications, Inc. p. 340. Pentecost, THE WORDS AND WORKS OF JESUS CHRIST, p. 487. Warren W. Wiersbe, THE BIBLE EXPOSITION COMMENTARY, Vol. 1, ©1989, SP Publications, Inc. p. 384.

٥. . الكتيبة هي وحدة من الجيش تتألَّف من ٣٠٠ – ١٠٠٠ جُندي.

٦. . لم يتم تدوين التسلسل الدقيق للأحداث التي جرت صباح القيامة. لذلك، فقد أوردتُ هنا التسلسُل المُرجَّح للأحداث.

الفصل الرابع عشر

١. . لقد سُمِّر يسوع على الصليب في الساعة التاسعة صباحاً؛ وهو الوقت الذي يتم فيه تقديم الذبيحة الصباحيَّة. وقد مات في الساعة الثالثة بعد الظهر؛ وهو وقت تقديم الذبيحة المسائيَّة.

٢. . إنَّ حياة يسوع الكاملة هي التي جعلته مُؤهَّلاً لأن يكون ذبيحة مُلائمة؛ لكنَّ موته هو الذي دفع أُجرة خطايانا. ومن خلال موته فقط أمكن القول بأنَّ يسوع أكمل مطالب الناموس (مَتَّى ٥: ١٧، ١٨)

الأنبياء قد تكَّلموا

من الحكمة أن نعرف بماذا تكَّلموا

التاريخ مليء بالحروب والنزاعات الدينية. بحلول الثورة المعلوماتية التي حولت العالم الى قرية كونية، إحتك أتباع الديانات والعقائد المختلفة ببعضهم البعض، ربما لأول مرة، مما قد يؤدي الى صراع هائل.

وصار من الحري بنا أن نتعرف ونعرف ما يؤمن به جيراننا في هذه القرية الكونية ولماذا يؤمنون هكذا. بالرغم من أننا قد لا نتفق معهم، الا أن تعرفنا على ما يؤمنون به يجعل عدم أتفاقنا معهم مبني على معرفة وليس عن جهل.

كل ما تكَّلم به الأنبياء هو كتاب يتكلم عن أوسع الكتب أنتشاراً في العالم وأكثرها أثارة للجدل، الا وهو: الكتاب المقدس. أن كنت من الذين يريدون أن يفهموا رسالة الأنبياء بجدية، فهذا الكتاب هو لك.

"هذه القصة، قصة رائعة،
قصة يجب أن تعرفها بنفسك"

يكتب المؤلف جون كروس (كندي الأصل) من خبرة حياتية في دراسة الكتاب المقدس، مستمدة من عقود عديدة من الدرس والبحث والخدمة والتنقل والمعيشة في بلدان شتى.

goodseed
see·hear·understand
www.goodseed.com

ISBN 978-1-890082-55-0
9 781890 082550
200809-086-5000